دراسات في



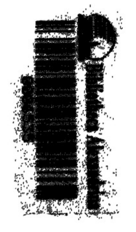
دكتور

محمد عاطف غيث

أستاذ ورئيس قسم الاجتماع

بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٨٦



دار المعرفة الجامعية

٤٠ شارع سوتير - الاسكندرية

دراسات فى



دكتور
محمد عاطف غيث
أستاذ ورئيس قسم الاجتماع
بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٨٦ م

دار المعرفة الجامعية
٤٠ شارع سوتير - الإسكندرية

مقدمة

يتقدم الإنسان منذ مطلع القرن العشرين فى محاولته العلمية لفهم مجتمع الإنسان . ولا زالت أمامه جهود كثيرة لا بد أن يبذلها ليبلغ بالنسبة للمجتمع ما بلغه بالنسبة للعالم الطبيعى . ويتوقف قدر كبير من هذه الجهود على نجاح علم الاجتماع فى فهم الحقيقة الاجتماعية وتحديد ابعادها ، وتطويع هذا الفهم لابتكار تكنولوجيا اجتماعية تعبر وتيسر طريق الإنسان فى عالم الإنسان . كما أن تعقد حياة المجتمع الحديث وثقافة علاقاتها واتساع مداها ، ألقى على علم الإجتماع مسؤولية التقريب بين المتباعدين والتوفيق بين المتصارعين بازالة الجفوة التى صنعها التخصص ومواجهة الانعزالية التى تنمو مع نمو الحياة الحضرية .

إن خبرة الفرد فى المجتمع الحديث المترامى الأطراف ، تقتصر على عدد قليل من الناس ، بل إن عددا كبيرا من الأفراد قد ينغلقون داخل جماعة واحدة وينعزلون بذلك عن كل أعضاء المجتمع . والمجتمع المعاصر ينقسم بطبيعته إلى أقسام سكانية ومهنية متعددة ، قد يتاح للفرد أن يخبر بعضها عن قرب ، ولكنه لن يستطيع مدى حياته أن يخبر كل هذه الأقسام . ولذلك يظل الفرد بعيدا عن أغلب مواطنيه ، لا يعرف دوافعهم أو نظرتهم أو طريقتهم فى الحياة ، ولا القيم التى تسيطر على سلوكهم الإجتماعى . ومهما كانت ايديولوجية المجتمع واحدة ، إلا أنها تتعدل فى اقسام المجتمع الواحد ، وتلبس رداء كل جماعة بحسب اتجاهاتها وطابعها المميز فى الحياة . وفى اجل هذا كان علم الإجتماع ضرورة ثقافية واجتماعية ملحة ، فهو وحده الذى يقدم

صورة متكاملة لحياة المجتمع ، ويعطى اهمية للمسائل المتعلقة بالاختلافات والمتشابهات، ويحاول أن يتعمق اتجاهات الفعل الاجتماعى والصور المختلفة للعلاقات الاجتماعية التى تترتب على ذلك .

إن علم الاجتماع يحاول أن يمد بصره بعيدا ليدرك ابعادالسلوك الاجتماعى وأهدافه ووسائله . فعن طريقه يستطيع الفرد فى المجتمع أن يكون على علم بما يجرى فى نطاق الحياة الإجتماعية لأفراد آخرين او فى جماعات اخرى قد لا يتيسر له طوال حياته ان ينتمى إليها او أن تكونله بها صلات . وإذن فعلم الاجتماع ينمى التكامل الاجتماعى ، وهو لذلك عنوان وحدة المجتمع .

هذا إلى ان علم الاجتماع يستطيع ان يقدم معاونة جوهرية فى تحديد الأهداف التى يمكن الاتفاق عليها ، ويمكنه ان يرسم الوسائل الناجحة لبلوغها، ويظهر ذلك واضحا من ان السياسات الاجتماعية فى مجتمع يتغير باستمرار لا يمكن ان تقوم على اساس من العادة او العاطفة ، ولن يتسنى لمشتغل بالسياسة الاجتماعية العامة ان ينجح فى مهمته ، إلا إذا كان لديه قدر كاف من المعرفة عن المجتمع الذى يرسم له خطوط نموه الاقتصادى والاجتماعى ، وخاصة فى مثل هذا المجتمع ، ومن الضرورى للمخطط ان يعلم على وجه الدقة معوقات التغير وعوامل التأخير التى قد تلبس ثيابا تضلل ، فتساير فى الظاهر وتخرب فى واقع الأمر .

وبعد ... لقد حاولت فى هذا الكتاب ان اتقدم خطوة اخرى بعد «مقدمة فى علم الاجتماع»فى طريق استكمال مقومات علم الاجتماع الاساسية ليكون مرجعا للطالب وعونا للقارىء فى فهم المجتمع الذى نعيش فيه وقد

عرضت من أجل ذلك ما تصورته ضروريا فى ضوء تقدم علم الاجتماع فى مجتمعنا .

ولقد استبقيت بعض فصول « المقدمة » وضمنتها صلب الكتاب وأدخلت عليها تعديلات جوهرية ، اللهم إلا الفصل الأول والثانى عشر والخامس عشر والخاتمة . وحرصت أن تكون بقية الفصول شاملة للتاريخ والنظرية والمنهج والموضوعات الهامة التى صارت محل اتفاق بين عدد كبير من علماء الاجتماع . ولكننى لم أتعرض لموضوعين هامين ، هما النظام السياسى والنظام الدينى ، واكتفيت بالإشارات المتعددة لهما ، التى وردت فى أكثر من موضع عند مناقشة الموضوعات الأخرى المرتبطة بها .

إن من يكتب فى العلم ، لا يكتب آخر كلمة فيه ، لأن العلم يتقدم دائما عن طريق الإضافات التى يضيفها الباحثون الذين يتجددون ويتعاقبون باستمرار . وبدون هذا التجديد والتعاقب يتجمد التراث الثقافى وتتوقف خصوبة العلم . ومن أجل هذا سأرحب بكل نقد بناء ، لأننى اعتبر هذا النوع من النقد جزءاً متمما لرسالة العلم .

إن المرء لا يستطيع أن يعلم على وجه الدقة ، ما الذى شكل تفكيره وحدده ، لأنه من الصعب تتبع كل الخيوط التى تشابكت وتفاعلت خلال سنوات طويلة بطرق متعددة ، حتى بلورت هذا الإتجاه أو ذاك . ولكن مهما كانت الرؤية عسيرة ، فانى أرى مصباحا على الطريق : رائدى وأستاذى الدكتور محمد ثابت الفندى ، بدونه ، تعثر طريقى إلى ذاتى وإلى علم «المجتمع»، وبصحبته عرفت الفضل والصفاء . لقد إشترك هو والأستاذ الدكتور محمد عبد المعز نصر ، إيجابيا فى رعاية أول تقدم على أحرزته ، إشرافا وتوجيها، وسوف

أظل ذاكرا لهما مواقف لا تنسى . أما الأستاذ الدكتور علي سامي النشار فهو
لي المعلم الصديق .

الفصل الأول

ميدان علم الاجتماع

أول من استخدم كلمة علم الإجتماع Sociology هو أوجيست كومت في عام ١٨٣٩ . وكان يريد أن يسمي العلم الجديد « الفيزياء الاجتماعية » ، ولكنه عدل عن هذه التسميه بعد أن شرع العالم البلجيكي أدولف كتليه Adolphe Quêtelet ، في إجراء دراسات إحصائية عن المجتمع ، وسمى محاولته هذه « الفيزياء الإجتماعية » . وجدير بالذكر أن كومت أدرك منذ عام ١٨٢٢ ، مع « سان سيمون » ضرورة هـــذا العلم الجديد ، فكتب في « السياسة الوضعية » يقول « لدينا الآن فيزياء فلكية ، وفيزياء أرضية » آليــة أو كيمائية ، ولدينا فيزياء نباتية وفيزياء حيوانيــة ، ولكننا لا نزال في حاجة إلى فيزياء أخرى وأخيرة ، « الفيزياء الإجتماعية » لنستكمل نسق معرفتنا بالطبيعة . وأنني أعني بالفيزياء الإجتماعية ، العلم الذي تكون دراسة الظواهر الإجتماعية فيهموضوعية ،على أن ينظر إلى هذه الظواهر بنفس الروح التي ينظر بها إلى الظواهر الفلكية أو الطبيعية أو الكيميائية أو الفسيولوجية. وبمعنى آخر تخضع الظواهر الإجتماعية لقوانين لا تتغير ، يكون إكتشافها هو الموضوع الأساسي للاستقصاء ...(١) »

---

1 — Reprinted in Positive Politics, Vol ıv, Appendix, PP. 149 - 150 (Timasheff, P. 19)

أما كلمة علم الإجتماع باللغة الإنجليزية فهى خليط من أصل لاتينى ويونانى . كما أن جزئيها المكونين لها يصفان ما يحاول العلم الجديد أن يشرحه . فكلمة Logy تشير إلى أو تتضمن دراسة على مستوى عال ، بينما تشير كلمة Socio إلى المجتمع . وهكذا يعنى علم الإجتماع من الناحية الإشتقاقية ، دراسة المجتمع على مستوى عال من التجريد والتعميم .

تعريف علم الاجتماع :

التعريف السابق لعلم الإجتماع ، يفترض أن الباحث أو القارىء يعلم ما هو المجتمع ، الذى هو الآخر فى حاجة إلى تعريف . ومن أجل هذا ظهرت مشكلة تعريف علم الإجتماع منذ اليوم الأول لنشأته . ولم يكن التعريف سهلا أو أمرا يمكن الإتفاق عليه دون جدل ، ذلك لأن تعريف علم الإجتماع مرتبط ارتباطا تاما بموضوعه ومنهجه ، بل وبعلاقاته بغيره من العلوم الإجتماعية وغير الإجتماعية . وقد ترتب على ذلك أن تعددت تعاريف علم الإجتماع بتعدد العلماء ، وبتعدد النظريات والمذاهب التى اتجهت وجهات متعارضة فى تحديد الحقيقة الإجتماعية وتفسيرها . وخير تعريف إذن لعلم الإجتماع إنما نستنبطه من مجرى التاريخ ، لأن علم الإجتماع جزء من التطور الفكرى الكبير الذى مر من الدين خلال الفلسفة إلى العلم . وهذا يبدو بوضوح من أن هناك خصائص معينة فى علم الإجتماع الحديث ، لا يمكن فهمها ، إلا بردها إلى ظروف نشأته الأولى . والقول المأثور ، بأن العلم يبنى نفسه مبتعدا عن الفلسفة ، يأخذ العلوم الطبيعية مثلا على ذلك . وهى العلوم التى كانت طليعة التفكير العلمى المنفصل عن التفكير الفلسفى . وقد أصبح هذا القول حقيقة تركت آثارها على كل العلوم الإجتماعية ، فى ذلك علم الإجتماع. فاذا اكتشفنا العلاقات الأولية لعلم الإجتماع بالعلوم الإجتماعية الأخرى ،

وإذا اكتشفنا ارتباطه بالحركات العقلية والإيديولوجية التى انبثق منها تاريخيا، أمكننا أن نقترب من رسم الحدود للمنطقة التى يطالب علم الإجتماع أن يختص بها . وبالتالى يمكن أن نصل إلى تعريف دقيق له .

ومن المفيد هنا أن نستعرض عددا من تعريفات علم الإجتماع التى تنبع من إطارات مختلفة من المفاهيم العامة فى النظرية السيوسيولوجية ، والتى تصور فى نفس الوقت مدى التقارب الذى يتجه إليه علماء الإجتماع فى بعض المسائل الأولية كتعريف العلم :

١ - مال كثير من علماء الإجتماع منذ ظهور علم الإجتماع حتى اليوم ، إلى تعريف مختصر وهو أن علم الإجتماع « علم المجتمع » باعتبار أن المجتمع عبارة عن سلوك أى جماعة مكونة من أعضاء (كائنات) يحيون حياة متساندة ووسيلتهم إلى ذلك التفاعل والعلاقات المتبادلة . وعلى ذلك يكون موضوع علم الإجتماع دراسة السلوك الإجتماعى الإنسانى مع التأكيد على أهمية التفاعل الإنسانى الذى يعبر عن سلوك الإنسان فى علاقته بانسان آخر ، ولهذا يميل من يؤيد هذا التفسير إلى تعريف علم الإجتماع بصورة أكثر تحديدا على أنه « مجموعة من التعميمات المترابطة تدور حول السلوك الإجتماعى الإنسانى الذى نصل إليه عن طريق استخدام المناهج العلمية »

وحجة المؤيدين لهذا التعريف تقوم على أن العلوم جميعا تدرس السلوك وما يترتب عليه من نتائج أو تسجيلات (الثقافة) . وكل علم يأخذ اسمه الذى يعرف به من نمط السلوك الذى يهتم بدراسته . وغير صحيح تلك التفرقة التى يحاول البعض أن يقيمها بين العلوم التى تدرس السلوك (العلوم السلوكية) أو العلوم التى تدرس المادة ، وكل ما فى الأمر أن العلماء الإجتماعيين يدرسون السلوك الماضى (القديم) الذى ينعكس فى الثقافة ، والسلوك المعاصر [illegible]

النوعان من السلوك الموضوعات الأساسية فى الدراسة السوسيولوجية (١).

وربما كان جورج لندبرج من أبرز من يأخذ بهذا التعريف . ويتضح من مناقشته ، أنه يزعم أن العلوم الإجتماعية ، وعلم الإجتماع بصفة خاصة لا تفترق عن العلم الطبيعى ، ومن أجل هذا كانت مناهج هـــذا العلم الأخير صالحة للتطبيق فى ميدان علم الإجتماع. كما أنه من الممكن استعارة المصطلحات والمفاهيم العامة والإتجاه النظرى للعلوم الطبيعية واستخدامها، مع جعلها ملائمة (لنمط السلوك) الذى يعالجه علم الإجتماع ، وإذن فعلم الإجتماع فى نظر لندبرج والمؤيدين للاتجاه الوضعى عامة ، علم طبيعى مثل الطبيعة أو الكيمياء ومع ذلك يبرز تعريف لندبرج عدة عناصر هامة يهتم لهـــا علم الاجتماع – بغض النظر عن المنهج أو طريقة المعالجة – وهى الجماعة كوحدة أساسية فى التحليل ، والسلوك الذى يعبر عن تساند علاقات أعضاء الجماعة ، والتفاعل الذى هو شرط التعرف على السلوك المكون للظاهرة الاجتماعية .

٢ – ويعرف أجبرن Ogburn ونيمكوف Nimkoff علم الإجتماع من خـــلال مناقشتهما للتعريف الموجز له ، « بأنه الدراسة العلمية للحيـــاة الإجتماعية » فيقولان ، إن الحياة الإجتماعية تقوم على التفاعل ، والتفاعل يؤدى إلى التنظيم الإجتماعى، الذى يؤدى بدوره إلى خلق أشياء كثيرة كالمبانى والموسيقى والأخلاق والآلات – أى إلى خلق الثقافة . وما دام علم الإجتماع يدرس هذا كله فانه صالح لأن يكون علما عاما يعالج الخصائص المشتركة بين الجماعات والمجتمعات المختلفة .(٢)

---

1 — Lundberg; Schrag; Larsen; Sociology, New York., 1958, PP. 6 - 7

2 — O[illegible]urn; Nimkoff, A Handbook of Sociolgy, london, 1960, PP. 13 - 15

وواضح أن اجبرن ونيمكوف يتفقان مع لندبرج فى أهمية الجماعة والتفاعل ، ولكنهما يضيفان التنظيم الإجتماعى ، كما أنهما يتفقان معه أيضاً فى اعتبار الثقافة (نتيجة التفاعل المنتظم) جزءا لا يتجزأ من الحياة الإجتماعية، موضوع علم الإجتماع . ولذلك يمكن القول أن الفرق بين التعريفين السابقين فرق لا يكاد أن يذكر .

٣ ـ أما التعريف الذى يرتضيه « سوروكن Sorokin والذى عرضنا له فى الفصل الثالث فيبدو منه أن سوروكن يرى أن علم الإجتماع علم عام وخاص فى نفس الوقت . فهو عام لأنه يدرس الخصائص العامة للعالم الإجتماعى الثقافى ككل،وهو خاص لأن دراسة هذه الخصائص تقتضي تخصصا لا يقل عن تخصص علم الطبيعة أو علم الإقتصاد ، ومن أجل طبيعة علم الاجتماع التعميمية فانه ينقسم إلى علوم اجتماع خاصة ، يتناول كل منها نوعا معينا من الظواهر يركز على دراستها وفى الذهن دائما ترابط الظواهر وتساندها . ويرى سوروكن أن تعريف علم الاجتماع بالصورة التى ارتضاها هو التعريف المنطقى الواقعى ، ولذلك فانه يعتقد أن التعريفات الأخرى كالقول بأن علم الإجتماع علم الثقافة أو المجتمع أو العلاقات الإنسانية أو التفاعل الإجتماعى أو صور العلاقات الإجتماعية، تعريفات غير دقيقة ، لأنها لا تبرز الخصائص المميزة لعلم الاجتماع، كما أنها لا تحدد مكانه بالدقة من العلوم الاجتماعية الأخرى(١) وفى موضع آخر يرى سوروكن أن الحقيقة الاجتماعية البنائية ذات أبعاد أو أجزاء متداخلة هى الشخصية والثقافة والمجتمع ، ومن ثم بنى تحليله لعلم الاجتماع على دراسة بناء هذه الأجزاء وتغيرها وعلاقتها كل بالآخر ومدى التأثيرات المتبادلة بينها .

1 — Sorokin, P.; Society, Cnlture and Persona ·, N.Y., 1947., P. 17

من هذا نتبين أن سوروكن يرى أن العالم الإجتماعى الثقافى موضوع علم الاجتماع يتكون من هذه الحقيقة الثلاثية الأطراف،وأن دراستها من الناحية البنائية والوظيفية والدينامية،هى التى تميز علم الاجتماع كعلم عام وخاص فى نفس الوقت . وإذن فسوروكن يرى أن تكون دراسة الثقافة جزءا لا يتجزأ من علم الاجتماع .

٤ — ويعتبر موقف سوروكن من الثقافة مخالفاً إلى حد كبير لموقف روبرت ماكيفر R MacIver الذى يرى أن علم الاجتماع دراسة للعلاقات الاجتماعية التى يتكون من نسيجها المجتمع . كما أنه يعتقد أن علم الاجتماع بدراسته للمجتمع على هذ النحو ، يحدد علاقته من العلوم الأخرى،لأنه لا يوجد علم آخر يجعل « المجتمع » موضوعه الأساسى فى الدراسة [١] . ومعنى هذا أن ماكيفر يرى أنه طالما كان موضوع علم الاجتماع دراسة المجتمع ، فانه لا يدرس الثقافة ، ولا يتعرض لها إلا فى أضيق الحدود عندما تكون الإشارة إلى المؤثرات الثقافية ضرورية فى فهم العلاقة الاجتماعية أو المجتمع ككل . ويحاول ماكيفر أن يبرر وجهة نظره فيقول ، إننا فى علم الاجتماع لا ندرس الدين كدين ولا الفن كفن ولا الاختراع كاختراع ، وإلا فسوف نواجه كل نشاط الإنسان وكلما تعلمه خلال تاريخه الطويل. وربما كان ماكيفر يعتقد أن دراسة الثقافة تفصيلا وبيان آثارها على الحياة الاجتماعية موضوع علم آخر هو الأنثروبولوجيا الثقافية(٢) . ولكن القدر الذى يعطيه علماء الإجتماع اليوم للثقافة واهتمامهم بابرازها فى التحليل

---

1 — MacIver, Page, Society, London 1953, PP. V - VI.

2 — Ibid., P. 55

السوسيولوجى ، يدل على أن علم الاجتماع وهو يحاول أن يتعمق الحقيقة الاجتماعية ، يجتهدفى أن يبرز المؤثرات الهامة فى بنائها وتغيرها. وربما كانت دراسات التغير الاجتماعى هى النقطة الحاسمة فى الرد على ماكيفر ، لأن أحدا فى ميدان علم الاجتماع لا يستطيع أن يدرس التغير دون أن يركز على أهم عوامله « الثقافة ».

٥ — وعلى الرغم من كثرة التعريفات التى قدمها علماء الإجتماع ، إلا أن جونسون وهو يمثل أحد المؤيدون لإتجاه الفعل الإجتماعى يميل إلى التعريف الذى يتجه مباشرة إلى الموضـوع الرئيسى الذى يعالجه علم الاجتماع والذى يميزه عن غيره من العلوم الإجتماعية ويبرز أهمية التفاعل الاجتماعى .

« فعلم الاجتماع هو العلم الذى يتناول بالدراسة الجماعات الاجتماعية ، من حيث صور أو نماذج تنظيمها الداخلى . والعمليات التى تميل إلى استمرار أو تغيير هذه الصورة التنظيمية والعلاقات بين الجماعات (١) وموضوع الجماعات الإجتماعية معقد للغاية بحيث يتطلب لمعالجته معالجة علمية ، مفاهيما محدودة ، واصطلاحات فنية معرفة تعريفاً جامعاً . كما أن كلمة « الجماعات » وهى ذات استعمال شائع فى اللغة العادية ، تحتاج هى الأخرى — وفيما بعد — إلى مراجعة تعريفها وتحديدها بدقة لتؤدى الغرض الذى تنشده من الدراسة العلمية لها .

ويقول ، لسنا فى حاجة إلى تأكيد أهمية « علم الجماعات الاجتماعية » ذلك أن كلا منا ولد فى جماعة أسرية ، كما أن معظم أفعالنا من يوم الولادة حتى الآن تمارس فى حدود طاقتنا كأعضاء فى جماعة أو أخرى . كذلك

---

1 Johnson, H., Sociology, London, 1991, p.2

فان كل المشاكل الإجتماعية مثل انحراف الأحداث او التمييز العنصري او الإسكان غير الملائم أو التربية أو الحرب لها علاقة وثيقة بوظائف الجماعات أو بالعلاقات التي تربط أحدها بالآخر . كما أن السياسة الاجتماعيه تستنير إلى حد ما بالمعرفة الوثيقة بجماعات معينة . والمعرفة المحققة للعمليات التي تحافظ على تنظيم الجماعة أو تغييرها تكون أكبر عون في حل المشاكل الاجتماعية ، كما أن أكثر مثلنا إلتصاقا بنا وأهدافنا ومعتقداتنا تأخذ صورتها متأثرة بالجماعة التي نشارك فيها أو شاركنا فيها أو نود المشاركة فيها . وعلى ذلك يجب أن يسهم علم الاجتماع بشيء ما في معرفة الانسان بذاته . وفضلا عن هذه القيم العملية لعلم الإجتماع ، فان البحث فيه يمكن أن يكون شيقاً في حد ذاته مثل أي محاولة أخرى جادة لاكتشاف الحقائق وشرحها في ضوء نظرية مكتملة متسقة .

وتظهر أهمية الجماعة عندما يتفاعل شخصان ، فان كلا منهما يدخل في اعتباره الآخر ، ليس كموضوع أو شيء فيزيائي ، ولكن كفرد له إتجاهات وتوقعات ، وقدرة على الحكم ، ولذلك فان تصرف - فعل - كل منهما يقوم إلى حد ما على إتجاهاته نحو الآخر وعلى توقعاته لاستجابات الآخر المحتملة [1] .

ويرى جونسون أن تحديد فكرة الجماعة كنسق اجتماعي أو كنسق للتفاعل الاجتماعي تبدأ بالتمييز بين الجماعات وبين والعلاقات الاجتماعية بصفة عامة . فيقول إن العلاقة الاجتماعية تقوم إلى المدى الذي يتفاعل فيه فردان أو اكثر أو جماعتان أو اكثر أو أفراد وجماعات مع أي عدد منها.

---

1 - Ibid., P. 4

والعلاقات الاجتماعية تختلف عن التفاعلات المؤقته مثل تبادل التحيات الى الأنساق الدائمة للتفاعل مثل الأسرة أوالصداقة الوطيدة . وقد يكون بين طرفى العلاقةالاجتماعية وئام أو عداوة ، فقد يتعاونان كل مع الآخر أو قد يحاولان تدمير أحدهما الآخر . ولذلك تكون العلاقة بين جيشين متعارضين ، من هذه الزاوية ، علاقة اجتماعية .

وكل الجماعات عبارة عن علاقات اجتماعية ، ولكن ليست كل العلاقات الاجتماعية جماعات ، فالجماعة من حيث الإصطلاح تتضمن درجة من التعاون بين أعضائها للوصول إلى أهداف مشتركة . ودرجة التعاون قد تكون سطحية وقد تكون إجبارية ، ولكن بدون درجة معينة من التعاون لاتكون هناك جماعة . ومع وجود التعاون بين أعضاء الجماعة ، فان هذا لايمنع وجود نوع من العدوان أو التضامن بينهم . ومثال ذلك تلك الأسرة التى يكون هناك اختلاف فى الإتجاهات بين أعضائها ، ومع ذلك لابد أن تتعاون ككل للحفاظ على البيت وتحضير الطعام والدفاع عن هؤلاء الأعضاء ضد أى خطر يتهددهم من العالم الخارجى . ونظراً لما لأعضاء الجماعة من حقوق وواجبات فانها (أى الحقوق والواجبات) تعتبر قواعد سلوكية ونمطاً معيارياً يتجه إليه الأعضاء فى علاقاتهم أحدهم بالآخر ، ومن ثم يفصل هذا النمط المعيارى الأعضاء من غير الأعضاء . (١)

ويتضح من ذلك أن جونسون يعرف علم الإجتماع فى ضوء « الفعل الاجتماعى » الهادف الذى يتحرك لبلوغ غايته داخل جماعة ، وما يترتب على الوجود الجماعى من تفاعل وعلاقات وصور متعددة للنشاط تشمل كل مطالب الإنسان . ونظراً لأن « الثقافة » تهيىء وتعدل وتغير عدداً كبيرا من

1— Ibid , pp. 5-6

- مطالب الإنسان هذه ، فان جونسون يهتم بدراستها وخاصة لما لها من تأثيرات جوهرية فى عمليات هامة فى المجتمع كالتنشئة الاجتماعية . ويعبر كنجسلى ديفز Kingsley Davis عن أهمية الثقافة فى علم الإجتماع بقوله ، إذا كان هناك عامل يفسر الوضع الفريد للانسان فى هذا العالم . فهو « الثقافة » التى جعلت من مجتمع الإنسان نوعاً مختلفاً أشد الاختلاف عن أى مجتمع آخر لكائنات حية أخرى . ولهذا تتضمن دراسة المجتمع الإنسانى دراسة الثقافة بالضرورة ، كما أن تحليل هذا المجتمع يجب أن يتم على مستوى ثقافى ، ولعل أهم ما يميز علم الإجتماع فى نظرة ، دراسته للثقافة من حيث طبيعتها وأهميتها .(١)

مما سبق نتبين أن الاختلاف فى تعريف علم الاجتماع ، هو فى الواقع اختلاف يمكن حصره فى نقطتين .

الأولى : خلاف على طبيعة العلم وخصائصه للتطبيق على دراسة « المجتمع » . وينحصر الخلاف هنا على نوع الحقائق التى تصلح للمعالجة العلمية وخصائص المنهج الصالح للتطبيق ، ومثال ذلك ما ذهب اليه لندبرج من أن علم الاجتماع يمكن أن يستخدم مناهج وأفكار العلوم الطبيعية ، لأنه هو الآخر علم طبيعى ، وما ذهب إليه آخرون من أن الحقيقة الاجتماعية من طبيعة مختلفة عن الحقيقة الطبيعية ، ولذلك تتطلب معالجة مختلفة .

والثانية . خلاف على الوحدة الاجتماعية فى التحليل السوسيولوجى وأبعادها ، أو بمعنى آخر ، كان الخلاف ولا يزال يدور حول الأساس الذى يقوم عليه المجتمع ، هل هو الفعل أو العلاقة أو الجماعة ، وأى منهم يمكن اعتباره أصغر وحدة (خلية أو ذرة) تصلح كنقطة بدء فى الدراسة . ونحن لو تفحصنا

1.-Davis. Kingsley: Human Society , N Y, 1955, pp. 3-6

مؤقتا عن هذه الإختلافات نستطيع أن ندرك أن الاختلاف على النقطــة الثانية أدى الى ظهور نظريات علمية تحاول أن تعمق إتجاها أو آخر وتخلق منه مذهبا قائما بذاته ، ولكن الذى يبدو واضحا أن التفاعل الذى يخــلق العلاقة ويتم فى جماعة أو أصغر، ويتخذ أنماطا متعددة تعينها الثقافه ،ويدوم فيحدد صور البناء الاجتماعى ويتبلور فى بوتقة الثقافة فيحدد طابع الشخصية هو الذى يرسم بحدوده وشروطه ونتائجه المتعددة الصورة الـكاملة لتعريف علم الاجتماع .

موضوعات علم الاجتماع :

أولا : لازال تقسيم أوجيست كومت لعلم الاجتماع الى موضوعين أساسيين الاستقرار الاجتماعى Social Statics والتطور الاجتماعى Social Dynamics محل موافقة كثيرين من علماء الاجتماع فى مختلف أنحاء العالم من حيث الشكل على الأقل ، وإن كانت تسمية كل موضوع قد تعدلت الى تسمية الاول « البناء الاجتماعى Social Structure » والثانى التغير الاجتماعى Social Change كما أن مضامين كل منها تختلف اختلافا كبيرا فى كل اتجــاه من اتجاهات علم الاجتماع المعاصر . ومن المألوف فى كتب علم الاجتماع المدرسية أن نجد المؤلف يقسم كتابه إلى قسمين أساسيين . البناء والتغير ، ويحاول أن يضمن كل قسم عناصره ومقوماته المختلفة ، الأمر الذى أدى خصوصا فيما يتعلق بفكرة البناء الإجتماعى الى قيــام مناقشات كثيرة حول مفهومهــا ، وما يجب أن يدرس الباحث من عناصرها وما لا يجب . وتزداد مناقشة هذه الفكرة عند المدارس المختلفة فى علم الإجتماع ، التى تتخذ اتجاها محددا إزاء العــلاقة الاجتماعية أو الفعل الاجتماعى أو العملية الاجتماعية .

وقد اتسع نطاق مناقشة فكرة البناء الاجتماعى فى علم الاجتماع بظهــور

الإتجاه البنائي الوظيفي،الذى يقوم في جوهره على تصور المجتمع كبناء مكون من أجزاء متعددة تقوم كل منها بوظيفة محددة،وتترابط الأجزاء والوظائف لتكون كلا متكاملا: وفكرة البناء والوظيفة قديمة فى التفكير السوسيولوجى. والجديد فيها يدور حول المضامين التى تلحق بها ، والتى تمثل فى أساسها اختلافات تحليلية أومنهجية. وقد كان إميل دوركايم من أوائل من أدركوا أهمية النظر الى المجتمع من زاوية البناء والوظيفة حين قسم دراسته الى المورفولوجيا الاجتماعية Social Morphology والفسيولوجيا الاجتماعية Social Physiology ، فالأولى دراسة للبناء الاجتماعى بالمفهوم الشائع الآن فى علم الاجتماع بصورة ما ، والثانية دراسة للوظائف التى يؤديها هذا البناء فى أجزائه وكلياته .

ولكن المهم هنا ، أن دوركايم حين كان يضع أساسا علميا لتبرير قيام علم الاجتماع كعلم مستقل ، ويعطيه مكانا بين العلوم الأخرى ، حاول أن يحدد ميدانه ويبرز أهم موضوعاته . فجعل الظواهر الاجتماعية الموضوع الرئيسى لعلم الاجتماع ، ومن ثم اجتهد فى تحديد خواصها التى تميزها عن غيرها من ظواهر الطبيعة أو الحياة غير الإنسانية .

ولما كانت الظواهر الاجتماعية لا تشكل موضوع علم الاجتماع وحده ، بل انها محور بحث العلوم الاجتماعية الأخرى ، فقد حاول دوركايم أن يحدد الفرق بين معالجة علم الاجتماع للظاهرة الاجتماعية ومعالجة أى علم إجتماعى آخر لها. فعلى الرغم من النظرة التساندية الذى ينظر بها عالم الإجتماع للظواهر الإجتماعية ، والتى لاتظهر عند العلماء فى العلوم الاجتماعية الأخرى إلا أن علم الاجتماع يدرس من الظاهرة الإجتماعية الجوانب التى تتصل بنشاط الإنسان ككائن اجتماعى ينتمى الى المجتمع ككل لا إلى ناحية واحدة فيه كالناحية

الاقتصادية وحـدها أو السياسية أو الدينية ... الخ . وعلى ذلك ينقسم علم الإجتماع الى فروع بعدد الظـواهر الاجتماعية . الأمر الذى أدى الى ظهـور علوم الاجتماع الخاصة كعلم الاجتماع الإقتصادى والسياسى والدينى والقضائى. وتكون مهمة علم الاجتماع العـام حينئذ ربط النتائج العـامة التى تصل اليها هـذه الفروع وسن القـوانين أو التعميمات التى تفسر الحياة الاجتماعية تفسيرا شاملا .

ولا زالت هذه النظرة إلى أقسام علم الاجتماع حية حتى اليوم. ومن المألوف أن نعثر على مؤلفات تعالج ظاهرة من ظواهر المجتمع على أن معالجتها فـرع من فروع الدراسة . ومن أبرز الذين يسايرون هذا الاتجاه « سوروكن » فى تقسيمه علم الاجتماع ، إلى علم الاجتماع العام . وعلوم الاجتماع الخاصة . بل إن تعريفه لعلم الاجتماع يبرز أهمية الخصائص العامة لمجموعات الظواهر الإجتماعية التى تكون أساس الحياة العامة فى المجتمع .[1]

ومع الاعتراف بأن الظواهر الاجتماعية تشكل ميدان علم الاجتماع ، إلا أن ابراز كل ظاهرة ودراستها كفرع مستقل ، إتجاه انصرف عنه كثير من العلماء اليوم . ذلك أن كل موقف اجتماعى ينطوى على تداخل عدد من الظروف لا يمكن ردها إلى سيادة ظاهرة واحـدة ، وهـذا إلى جانب الصعوبات التى تواجه الباحثين فى التفسير الترابطى للحقيقة الاجتماعية ، وقد ترتب على ذلك أن إزداد الاتجاه إلى النظر إلى المواقف الاجتماعيـة أو الفعل الاجتماعى أو النسق الاجتماعى أو الجماعة كوحـدات أساسيه متكاملة فى البحث السوسيولوجى . ولعل اتجاهات بارسـونز Parsons ولندبرج

1- Sorokin., Society, Culture and Personality, New York, 1947, pp. 3-10

Lundberg وماكيفر MacIver وأجبرن Ogburn والسوسيومترين تعبرعن ذلك أدق تعبير .

وهناك إتجاه آخر له أنصار كثيرون فى علم الإجتماع ، يتناول أقسام المجتمع أو أنماطه المختلفة بالدراسة كوحدات متميزة بنوع خاص من الحياة الإجتماعية نظرا للعوامل والظروف المتمايزة التى تؤثر على كل منها . ولذلك يدور اهتمام علم الاجتماع حول موضوعات مثل : دراسة المجتمعات المحلية Communities التى تتميز بطابع جغرافى معين وبخصائص فارقة للسكان ، تفرقهم عن غيرهم من سكان المجتمعات المحليـة الأخرى . ودراسة المجتمـــع القروى ، وتتخذ القروية مقياساً فى تحديد الفرق بين هذا المجتمع وغيره من أنواع المجتمعات الأخرى داخل المجتمع الكبير ، ولما كان المجتمـع القروى يتكون من وحـــدات كثيرة متشابهة بطريقة معينة ، وكانت القروية خاصة على مستوى معين من التجريد ، فان القرية كمجتمع صغير تعتبر وحدة الدراسة ، أو التجمعات الأخرى التى تقوم حياتهـا فى المحـل الأول على الزراعة ويشكل العمل الزراعى والمعيشة فى القرية نظرة السكان للحياة. وقد نما هذا الاتجاه فى أمريكا بظهور علم الاجتماع « الريفى » واتخـاذه الحياة الريفية الأمريكية أساساً فى تحديد موضوعات الدراسة ، كما أنه اتخـذ طريقا آخر عندما شرع روبرت ردفيلد R. Redfield فى تطبيق منـــاهج وطرق الانثروبولوجيا الاجتماعية وخبرتها فى دراسة المجتمعات البدائية على المجتمعات القروية فى أنحاء العالم . وقام بنفسه وتلاميذه بدراسة عدة قرى فى المكسيك والهند والصين ومنطقة جنوبى شرقى آسيا . وكان الخط الأساسى فى أبحاثهم محاولة اكتشاف عناصر البنـــاء الاجتماعى القروى ، وبيان العوامل التى تؤدى إلى تغييرها ، كل ذلك فى ضوء نظرية ردفيلد ، أن

المجتمعات الصغيرة تتغير من مرحلة الفولك « Folk » إلى مرحلة المدنيـــة، أى أن التغير فى القرية يؤدى إلى اكتسابها الخصائص الحضرية للمدينـة بالتدريج (١) .

وقد استحدث علماء الإجتماع فى أمريكا دراسة علم الاجتماع الحضرى الذى يهتم فى المحل الأول بدراسة المدينة باعتبارها مجتمعا متميزا ، وقد تطورت الدراسة فيه وتشعبت فروعها . ويزداد الإهتمام به بزيادة المدن عددا وحجما. ولكن البحث فى هذا العلم يواجه صعوبات متعددة أهمها عدم تحديد موضوعه تحديدا دقيقا ، إلى جانب تعدد أنماط المدن تعددا استعصى معه تعريف المدينة تعريفا علميا محددا ، وهـذا بالإضافة إلى أن المدينـــة نفسها لا تمثل مجتمعا واحدا ، بل عدة مجتمعات لتنوع أنماط الحياة الاجتماعية فيهـا خصوصا فى المدن الكبرى ؛ ولعل هذا هو الذى أدى الى قيـــام فروع أخرى فى علم الاجتماع لدراسة التطور الذى حدث فى الحياة الحضرية، وخاصة عندما تطورت الصناعة واتسع نطاقها وأصبح التصنيع وتوطين الصناعة من أهم الموضوعات التى تواجه سياسات الدول المختلفة وأهم فرع فى هذا الميدان هو علم الاجتماع الصناعى Industrial Sociology الذى يعتبر المصنـــع مجتمعا يمكن دراسة العلاقات والعمليات الاجتماعية فيه دراسة تؤدى إلى مزيد من الفهم للعلاقات الإنسانية المترتبة على تطور علاقات العمل والعمال فى الصناعة الحديثة .

ولقد لخص سبروت Sprott من وجهة نظره ــ الموقف « الموضوعى » فى علم الاجتماع فى أن مصادر إهتمام الباحثين دارت حول نقطتين هامتين :

---

(١) راجع فى هذا الموضوع

Redfield, R., Peasant Society and Culture, Chicago, 1950

وكذلك Redfield, R., The Little Community, Chicago, 1956

الأولى ـ دراسة السلوك الإجتماعى الإنسانى من حيث موضوعات السلوك واتجاهاته ونتائجه وارتباطاته المختلفة ، وتبلور هـذا السلوك فى أنماط أو أنساق محددة يمكن كشفها ودراستها . ومن هـــذه الزاوية يصبح الفعل الاجتماعى Social Action نقطة الإرتكاز التى ينبعث منها الباحث لتحديد ميدان عـلم الاجتماع .

والثانية ـ دراسة المجتمعات الإنسانية ، مثل الجماعات والروابط وأنواع التجمعات الأخرى ، باعتبارها الأنساق الإجتماعية التى تمثل قوالب محـددة لأنواع متعددة من العـــلاقات الإجتماعية (١) وعن طريق هاتين النقطتين إذن يمـــكن فهم المجتمع الإنسانى الذى يعتبره سبروت الموضوع الواسع لعلم الاجتماع .

وخلاصة القول ، إن علم الاجتماع فى أطـواره الأولى ، حاول رواده أن يحددوا ما ينبغى أن يكون عليه ، من حيث مناهجه وموضوعاته واتصاله بالعلوم الأخرى وعلى الأخص العلوم الاجتماعية ، ولكن النظرة إلى العـلم قد تغيرت اليوم ، ويدور البحث عن حقيقة علم الاجتماع فى واقع الأمر ، بعـــد أن جاوز مشاكل النشأة الأولى . وقد تعينت للظواهر الاجتماعيـة خصائصها النوعية ، وأصبحت قابلة للدراسة الكمية بفضل تقـدم طرائق البحث الاجتماعى ، واتساع نطاق النظرية السوسيولوجية . ويمـكن القول إن الظاهرة الاجتماعية أصبحت من حيث الدراسة منفصلة تماما عن الظواهر غير الاجتماعية ، كالظواهر الطبيعية والسيكولوجية .

---

1 Sprott, W J Q. Sociology, London 1950, pp. 7-29

وقد سبق دور كايم بتحديد خصائص الظاهرة الإجتماعية ، كما أشرنا إلى ذلك فى الفصل الثانى ، واهتم بخاصتى الخارجية والعمومية ، ومعنى هذا أنه حاول أن يفصل ميدان الدراسة فى علم الاجتماع عن ميـــدان علم النفس باعتبار أن الظاهرة الاجتماعية خارجة عن نطاق الفرد ، لا تستمد كيانها من دوافعه أو نزعاته، كما أنها عامة تتردد فى الزمان والمـــكان ، بمعنى أن علم الإجتماع لا يهتم بالظواهر غير المتكررة أو ذات الصفة العرضية أو الطابـع الإقليمى البحت . ولكن الجدير بالذكر هنا ، أن علماء الاجتماع يتجهون فى ثبات الآن ، إلى اعتبار التفـــاعل الاجتماعى Social Interaction أو العلاقة ذات المعنى والهادفة ، المقيـــاس الأول « للوجود الاجتماعى » فلا يكون الموقف أو الحقيقة « إجتماعية » إلا إذا انطوت على تفـــاعل . والتفاعل الاجتماعى يتطلب وجود إثنين أو أكثر من الأفراد أو الجماعات، ذات الصلة المباشرة أو غير المبـاشرة ، كما يتطلب فى نفس الوقت الاعتماد الواعى للفعل الإنسانى بعضه على البعض الآخر (١) ، وإذن فالظاهرة الاجتماعية التى يبحثها علم الاجتماع ، هى الظـاهرة التى تستمد بناءهـــا ووظيفتها من عمليات ونتائج التفاعل الاجتماعى بالمعنى المشار إليه .

ولما كان التفاعل يتم فى وسط اجتماعى معين ، وينطوى على عمليات معينة تجمع وتفرق بين الأفراد ، ويهدف إلى أغراض شعورية واضحة ، ويؤدى إلى أنماط سلوكية محددة ، ويخضع لقيم وضوابط مسلم بها ، وتتمخض عنه

---

1 — Timasheff, N. S , Sociological Theory, Garden City,N Y. 1955, pp. 293-298

نتائج ملموسة ، ويتغير متأثرا بعوامل متعددة ، فاننا نستطيع أن نحدد طبقا لذلك الموضوعات الأساسية فى علم الاجتماع على النحو الآتي :

١ ـ الجماعات « الاجتماعية » Social Croups ، وهى التى ينتمى إليها « الناس » بطرق مختلفة ، وتعتبر الجماعة « نسقا System » له بناء معين يتكون من أجزاء كل جزء يؤدى وظيفة معينة فى ضوء الوظيفة الكلية له . وتعتبر دراسة الجماعة أحد المداخل المهمة الآن علم لدراسة الإجتماع (١).

٤ ـ العمليات الاجتماعية الإطرادية Social Processes ، وهى الصور الأساسية للانفعال الاجتماعية من حيث الأغراض التى تتجه إليها ، والموجهات التى تعين مسارها ، ويعتبر التعاون والتنافس والصراع أهم العمليات التى يعالجها علم الإجتماع . ومن الملاحظ أن « الناس » فى المجتمع يتجمعون ويتفرقون فى آن واحد . ولذلك كان بحث أسباب التجمع والتفرق نقطة أساسية فى دراسة علم الاجتماع ، ذلك لأن التأكد من هذه النقطة سيكشف فى وضوح عن عناصر البناء الاجتماعى وطريقة ترابطها ووظائف كل منهما فى ضوء وظائف الكل .

٣ ـ الثقافة Culture ، وهى مجموعة الطرق الثابتة نسبيا ، وذات الصفة العامة للتفكير ، التى تكون فعالة فى مجتمع معين (٢) ، أو هى نتاج العقل الانسانى من تفكير وعلم وفن وأدب وتكنولوجيا . ولذلك تكون الثقافة

1— Johnson, H. M., Sociology, London, 1961, p 2

2— Timasheff; op. Cit. ; pp 293-298

مدخلا هاما فى دراسات علم الاجتماع ، لاننا إذا قلنا ، ان المكونات الاساسية للحياة الاجتماعية واحدة غير متغيرة فى المجتمع الإنسانى من حيث الوظائف الأساسية والضرورية التى تؤديها ، وأن التغير إنما يلحق شكلها أو وظائفها غير المصاحبة ، تكون الثقافة هى العنصر الفعال فى هذا التغيير ، فهى التى تؤدى فى واقع الأمر إلى الاختلافات الواسعة النطاق بين « النظم الاجتماعية » التى نشاهدها فى المجتمعات المختلفة . ومن أجل هذا كانت دراسة الثقافة ، دراسة العوامل الدينامية فى حياة المجتمع الإنسانى .

٤ ـ الشخصية ، وهى التى تكون موضوع التفاعل . والتفاعل فى حد ذاته لا معنى له إلا إذا درس فى ضوء المؤثرات الثقافية . ويهتم علم الإجتماع بدراسة الشخصية لأن المجتمع ليس إلا مجموعة من الشخصيات .

٥ ـ التغير Change ، وهو القانون الدائم فى حياة المجتمعات ، فالتغير بالنسبة لها كالتنفس بالنسبة للكائن الحى . وتعتبر دراسات التغير أهم موضوعات علم الاجتماع اليوم . ذلك أننا حين ندرس موقفا أو نسقاً إجتماعيا ، فاننا ندرسه باعتبار أنه ثابت نسبيا ، ولكن الواقع أننا نفعل ذلك على مستوى معين من التجريد ، بينما نعلم أن تمام الدراسة لا يكون إلا بادخال عامل التغير دائما فى حسابنا . ودراسة التغير فى الثقافة والمجتمع ، تفترض الاهتمام بعوامله وعملياته واتجاهاته ونتائجه ، كما تفترض أن نخرج من هذه الدراسة بقدرة معينة على التنبؤ ، التى بدونها لا يمكن أن نخطط ، ولا أن نقيم السياسة الاجتماعية على أساس سليم . وقد أنضجت دراسات التغير محاولات الباحثين لفهم عوامل التفكك والإنحراف فى

المجتمع،وزودت المهتمين بذلك بمعدات التحليل والتقييم، والتشخيص والعلاج.

ثانيا ـ أهمية التفاعل المنظم Organised Interaction

سبقت الإشارة إلى أن التفاعل الهادف هو الذى يخلق الظاهرة الاجتماعية، ومن ثم كان محل اهتمام الباحثين فى علم الاجتماع ، لأن معرفة طبيعته وعملياته واتجاهاته ، ضرورى لفهم أسس العلاقات الاجتماعية ، وتحديد الفعل الإجتماعى .

وعلى ذلك يمكن أن نعدد خصائص التفاعل من وجهات نظر متعددة على النحو الآتى .

١ ـ التفاعل لا يتم فى الفراغ ، وإنما يتم بين أفراد وجماعات فى المجتمع، ولهذا فان مكونات موضوعات التفاعل تقسم طبقا لعدد العناصر الداخلة فيه ، فقد يكون التفاعل بين إثنين أو ثلاثة أو كثير،أو بين واحد وكثير، او بين كثير وكثير،أو بمعنى آخر يمكن أن ندخل فى باب التفاعل العلاقة بين صديقين ، والعلاقات بين أعضاء الأسرة الواحدة ، والعلاقات الواسعة المدى فى المجتمع الكبير ، بشرط أن تكون هذه العلاقات جميعا ذات معنى بالنسبة للأطراف الممثلة لها.

٢ ـ أساس التفاعل « العلية » أى أنه لا يقوم على مقدمات لا تعقبها نتائج ضرورية،ولا تنقطع سلسلة الأسباب والنتائج دون هدف مفهوم.ولهذا تنقسم عمليات التفاعل بالإضافة إلى المكونات « ذات المعنى » التى تنظمها،إلى مكونات دينية أو عائلية أو قانونيـة أو اقتصادية أو سياسية وهكذا . ومعنى ذلك أننا نستطيع أن نصنف مكونات التفاعل إلى صور بالاضافة إلى

الغرض أو الهدف المحدد الذى يظهر فى كل منها .

٣ ـ التفاعل يستخدم وسائل توصله إلى غايته ، ولذلك يتم عن طريق موصلات كالتلون أو الضوء او الكهرباء أو وسائل الاتصال الأخرى التى تصطلح عليها الجماعة . وهنا تبرز أهمية هذه الوسائل فى توضيح الأهداف والإعانة على بلوغها .

ولذلك إذا أخذنا جملة خصائص متشابكة ، تبينا أن التفاعل يأخذ نماذج كثيرة . فقد يكون وجها لوجه ، أو غير مباشر ، أو طويل الأمد ، أو قصير الأمد ، أو شديد التركيز ، أو ضعيف التركيز ، أو ممتداً ، أو ضيقاً . والتفاعل من ناحية أخرى قد يكون من جانب واحد إذا أثرت جماعة فى مظاهر سلوك جماعة أخرى دون أن تتأثر ، وقد يكون التأثير متبادلا إذا أثرت الجماعتان كل منهما فى الأخرى . وإذن فتحديد طبيعة التفاعل على النحو السابق يحدد أنواع العلاقات الاجتماعية التى تربط الأفراد والجماعات ، ويحدد فى نفس الوقت أيضا موضوع هذه العلاقات . ومن ثم يمكن أن نصنف النشاط الاجتماعى فى المجتمع إلى أقسام متمايزة . وهذا هو هذا يعين الباحث على تحديد موضوع دراسته فى الجانب الاقتصادى أو الاسرى أو الدينى ... الخ ، لأن كل نوع من هذا النشاط ينطوى على تفاعل يمكن أن نلاحظه ونحدد نوعه ومضمونه .

ويتركز الاهتمام فى علم الاجتماع على العمليات التفاعلية التى تتميز بالدوام وبالتكرار والتأثير العميق والنضوج . لأن الاهتمام بالأمور العرضية أو الوقتية أو غير ذات الجذور العميقة فى توجيه السلوك الاجتماعى لا يتفق مع طبيعة البحث العلمى . كما أن العملية التفاعلية التى لها الصفات

السابقة تؤدى إلى خلق « بنية إجتماعية أو ثقافية ، كالجماعات والأنساق الثقافية ، وإلى خلق « شخصيات » إجتماعيــة . تتميز تمــاما عن الكائنات البيولوجية . ولهذا يهتم عالم الإجتماع عند دراسة النظم الإجتماعية بالعمليات التفاعلية التى لها صفات التحديد والتضامن والتــكامل ويسقط من حسابه العمليات العدوانية أو غير المنظمة أو المفككة ، وخاصة عندما لا يكون لها دور فى النظام الاجتماعى أو لا تدخل كعنصر أساسى فى بنائه ، أو لا ترتبط بالوظائف التى يؤديها .

والمثل الآتى يوضح ماذا نقصد بالعمليات التفاعلية التى تخلق الجماعات: « فرقة موسيقية مكونة من مائة عازف فى قاعة كبيرة ، وكل منهم يعزف على آلته الموسيقية دون أن يتسق مع الآخرين ، ونتيجــة هــــذا ضوضاء غير مفهومة ، ولا نصل مطلقا إلى اللحن السيفوني . ولكن إذا خضعت هذه الفرقة لقائد ، وعرف كل عضو فيها دوره ووظيفته على وجـــه التحديد، وعمل فى تآزر مع الآخرين العارفين لأدوارهم ووظائفهم ، تكون نتيجة عملهم المشترك «السيمفونية »وإذا حدث بعد ذلك أن عزف كل على حدة ،فان النتيجة تتلخص فى أن كل عازف إنما يصدر إزعاجا من نوع معين . ولذلك يقال إن الأوركسترا (الفرقة الموسيقية) فى الحالة الأولى كانت غير منظمة ، وفى الحالة الثالثة مفككة» ومثل هــــذا يمكن ان يطبق على الجماعات . فهناك الجماعات المنظمة وغير المنظمة والمفككة،ولكن الجماعة لا تكون لها خاصية التفكك إلا إذا كانت منظمة قبلا . ويلقى هذا المثال الضوء من ناحية أخرى على الفرق بين التنظيم والتفاعل ، فالتفاعل لا يعنى التنظيم كما هو واضح فى الحالة الأولى من المثال . لأن جلوس الفرقة الموسيقية فى قاعـة واحـدة كان على مستوى معين من التفاعل ، ومع ذلك لم يكن هنــاك تنظيم، ومعنى

ذلك أن التفاعل فى حد ذاته لا يؤدى إلى التنظيم. ومن اجل هذا لا نستطيع القول بأن الجماعة المتفاعلة جماعة منظمة . وإذن فيلزم الآن أن نتحدث عن خصائص التفاعل المنظم أو الجماعة ، ونبرز المستوى الذى يختلف فيه عن التفاعل غير المنظم والمفكك (١) .

الجماعة « الاجتماعية » باعتبارها مجموعة من الأفراد المتفاعلين ككل ، تكون منظمة عندما تصبح سلسلة المعانى والقيم التى تعتبر قاعدة التفاعل فيها ، متفقة ومتناسقة من الداخل . وتكون موجهة فى نفس الوقت على أساس مجموعة من القواعد القانونية التى تنظم أفعال الأعضاء واستجاباتهم داخل الجماعة وخارجها عند الدخول فى علاقات مع أعضاء آخرين من جماعة أخرى . ومعنى هذا :

١ ـ أن القواعد القانونية تحدد بالتفصيل واجبات كل عضو وحقوقه ، ومع من ، وكيف ، ، ومتى ، وإلى أى حد، وتحت أى ظروف يكون مرغما على عمل شىء أو إغفاله ، أو أن يتسامح أو يتشدد ، كما أنها تعين الوظائف والأدوار المرسومة التى يجب على كل عضو أن ينهض بها ، وأخيرا تحدد مركزه فى نسق التفاعل (الجماعة) كما هو واقع على أساس مجموع حقوقه وواجباته ووظائفه وأدواره

٢ ـ أن القواعد القانونية تبرز القانون وسلطة الجماعة بما لها من وظائف تشريعية وتنفيذية وقضائية.

---

(١) استخدم هذا المثل كل من سوروكن ولندبرج ، ولكن بطريقة مختلفة لبيان الأنماط المتعددة التى تكون عليها الجماعات فى الواقع .

٣ ـ أن القواعد القانونية عن طريق تعريفها للحقوق والواجبات ، تعين بوضوح العلاقات او صور التفاعل التى يمكن أن تقبل بين الجماعات. ولهذا نتبين من الدراسة أن هناك أنواعا مختلفه من العلاقات ، كتلك التى يغلب عليها طابع القهر أو الإلزام ، وغير المصرح بها أو الممنوعة ، أو التى يسمح بالدخول فيها .

٤ ـ أن القواعد القانونية تعمل فى ضوء ما سبق ، على إقامة جماعة متمايزة ، « كل وظيفى » يقوم كل عضو فيها بعمل معين يؤدى به وظيفة من وظائف الجماعة الكلية ، ويشغل مرتبة معينة فى سلم السلطات والمسئوليات .

ولا يجب أن يغيب عن بالنا دائما أن الجماعة لاتستطيع أن تقوم بوظائفها أو أن تنهض بالتزاماتها ، إلا اذا اعتمدت على مصادر اقتصادية واضحة ومحددة ، فبغير هذه المصادر لا يمكن لجماعة أن تستمر فى الوجود فى حالة منمظة ، وأخيرا نلاحظ أن كل جماعة تصطلح على إسم أو رمز تعرف به ويصبح علامة مميزة لها ، ويستمد غاليا من إيديولوجيتها .

ثالثا ـ اهمية الثقافة :

لا يمكن لباحث فى المجتمع الإنسانى أن يتغافل « الثقافة » وإلا أصبحت دراسته فارغة المضمون . فالثقافة تتخلل كل جزء من أجزاء حياة الإنسان الاجتماعية وتزحف على كل نشاط يقوم به وكل تفكير يخطر له وكل سلوك يقوم به : من أجل هذا يذهب كثير من علماء الاجتماع اليوم إلى القول بأن دراسة المجتمع تتضمن دراسة الثقافة ، مهما كان الجانب الذى ندرسه من المجتمع . ومثال ذلك أننا إذا كنا بصدد دراسة الأسرة ، فان التفسير

البيولوجى الذى يستبعد التفسير الثقافى كعامل جوهرى لا يمكن ان يصلح فى تحليل عناصر الأسرة أو وظائفها أو تغيراتهـا . ومن المسلم به أن أنماط الأسرة هى أنماط ثقافية فى واقع الأمر . وإذا كانت الثقافة مهمة على هذا النحو عند دراسة الأسرة،فانها بالتالى تكون أهم عند دراسة نواحى التنظيم الاقتصادى والسياسى والدينى . ولا يعنى ذلك أن علم الاجتماع يهتم بالثقافة فى مجموعها وتفاصيلها ، لأن مضمون الثقافة مختلف ومتنوع أشد التنوع فوق ما يحتاجه علم الاجتماع فى واقـع الأمر ، وهذا يتضح إذا عرفنا أن الثقافة تشتمل على الفن والموسيقى والعمارة والأدب والعلم والتكنولوجيا والفلسفة والدين واشياء أخرى قد لا يمكن حصرها. ولذلك فان معالجة مثل هـذه الموضوعات بالتفصيل يحتاج إلى دائرة معارف ضخمة جـــداً وجيش من المتخصصين . (١)

إن أغلب علوم الإنسان ـ وعلى الأخص العلوم الانسانية ـ علوم لدراسة الثقافة ، تعالج مختلف الفروع التى ينقسم إليها التراث الثقافى . ولكن اهتمام العـــالم الاجتماعى بالثقافة ينحصر فى الجانب الذى تؤثر به على الحـــياة الاجتماعيـة ، أو بمعنى آخر ينظر عالم الاجتماع إلى الثقافة من وجهة نظر خاصة ، فيختار النواحى التى تلقى الضوء على السلوك والتنظيم الاجتماعى ، وخصوصاً بالطريقة التى تجعل الثقافة عاملا أساسيا فى تعقـد المجتمع الإنسانى واستمراره . ولهذا فان دراسة الاختراع وتتبع إنتشاره وآثاره يعتمـد فى المحل الأول على التعرف على التقدم الثقافى وعلى الظروف الثقافية التى جعلت من هذا الاختراع أو ذاك ممكنا ، كما أن عالم الاجتماع لا يمكن أن يدرس انماط التفاعل الاجتماعى كالقوانين والعادات وغـــيرها ، والنظم التى تهيمن

---

1 — **Kingslev. Davis; Op. Cit.; P. 4,**

على السلوك إلا إذا تعرف على تلك النواحي من الثقافة التي تحدد هذه الأنماط أو النظم . .

ويعتبر سوروكن من أوضح علماء الاجتماع وأكثرهم إقتناعا في إبراز أهمية الجانب الثقافي في الموضوعات التي يعالجها علم الإجتماع، ويعتقد أن الذين يحاولون استبعاد الثقافة كلية من ميدان علم الإجتماع هم في الحقيقة غير موفقين في إدراك أبعاد الحقيقة الإجتماعية ، ويقول ، إن المحاولات التي تبذل لحصر ميدان علم الاجتماع في الجانب الاجتماعي من الظواهر الإجتماعية الثقافية، واستبعاد عامل الثقافة والشخصية ، محاولات تقوم على على أساس خاطيء ، ومن المألوف أن نقرأ عند بعض العلماء ، أن علم الاجتماع يهتم بما هو « اجتماعي » ومعنى هذا أن أنساق المعرفة والدين واللغة والتكنولوجيا وما يماثلها لا يجب أن نهتم بها . ولكن سوروكن يرى أن مثل هذه النظرية لا يمكن الدفاع عنها للأسباب الآتية :[1]

١ - إذا استبعدنا القيم الثقافية ستصبح التفاعلات الإنسانية ظواهر بيولوجية وفيزيائية ولن تكون ظواهر اجتماعية . وإذا سرنا مع هذا الاستبعاد إلى نهايته المنطقية، فان مقولات العالم الاجتماعي ستذوب في الظواهر البيولوجية والفيزيائية ، ومن ثم يفقد علم الاجتماع الأساس الجوهري لوجوده .

٢ - إذا استبعدنا القيم الثقافية عند دراسة التفاعلات الاجتماعية ، فلن يبقى إلا أقل القليل للدراسة . بل إن القليل الذى سيبقى سيكون عبارة عن بناءات فيزيائية وأنواع من الحركة ، هي في الواقع الموضوع الأساسي

---

1 — Sorokin; Op. Cit.; pp. 64-65

للبيولوجيا والفيزياء ، ذلك لأننا لن نستطيع أن نشير إلى خصائص العملية التفاعلية التى نعبر عنها باصطلاحات محددة مثل العدوانية والانعزالية والثورية والدينية والخلقية والعلمية ، كما أن الدراسة على النحو السابق لن تؤدى إلى إنضاج أى معرفة عن طبيعة التفاعلات الإنسانية ذات المعنى أو علاقاتها أو خصائصها .

٣ - إذا استبعدنا العنصر الثقافى - كالمعانى والقيم والمعايير - فاننا لن نستطيع دراسة المعايير التى تنظم تفاعل الأفراد ، الذى يكون - من وجهة نظر المعارضين لدراسة الثقافة - جوهر أى نظام أو تنظيم اجتماعى ، وبالتالى سنجرد علم الاجتماع من أى موضوع هام لدراسته .

٤ - إن النظام الثقافى الإجتماعى لا يمكن قسمته ، ولا يمكن أيضا أن نقيم علما لوجه واحد منه فقط ، كأن نفرد علماً للجانب الإجتماعى ونهمل الجانب الثقافى أو الجانب المتعلق بالشخصية . ومثل هذا التصور لعلم الاجتماع لا يفترق عن تصورنا لعلم النبات، إذا ركز دراسته على الجانب الأيمن لأى نوع من النبات وأهمل الجانب الأيسر . إن علم الإجتماع فى إتجاهه الصحيح يهتم بنفس الدرجة بالنواحى الثلاثة للظواهر الاجتماعية الثقافية - المجتمع والثقافة والشخصية - ولكن من وجهة نظره الخاصة كعلم تعميم ينظر إلى النسق الإجتماعى الثقافى ككل .

وكل الذى يمكن ان ندلى به فى هذا الصدد ، أن التمييز الممكن والوحيد بين المجتمع والثقافة ، هو أن نفهم إصطلاح « إجتماعى » على أنه يشير إلى تركيزنا على مجموعة البشر المتفاعلين وعلاقاتهم المتبادلة ، ونفهم اصطلاح « ثقافى » على أنه يشير او يتضمن التركيز على المعاني والقيم والمعايير، بالإضافة

إلى حواملها المادية (الثقافة المادية). وإذن فنحن فى علم الإجتماع لا ندرس الثقافة كنقطة بدء أو كأساس ، ولكننا ندرس الثقافة من حيث مالها من أثر بالغ على التفاعل الاجتماعى ، وبالتالى على العلاقات الاجتماعية سواء كانت على صورة أدوار أو مراكز ، أو كانت على صورة قواعد ومستويات ومعايير وقيم،أو بمعنى آخر ندرس الثقافة باعتبارها عنصراً أساسيا فى حياة الإنسان .

علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية

الإنسان كائن اجتماعى ، لأنه عادة يقضى معظم حياته مرتبطا مع أقرانه من الكائنات الإنسانية ، وكعضو فى جماعات إجتماعية منظمة . وفى بعض الحالات يكون ارتباطه مع الآخرين — كما هو الأمر فى الأسرة — دائما وشديدا . وفى حالات أخرى — كما هو الأمر بالنسبة لجمهرة المواطنين فى القرية أو المدينة ، يكون ارتباطه عرضيا ولا شخصيا . وهنا نلاحظ أن ارتباطه بالآخرين فى الجماعةالتى ينتمى إليها — خصوصا اذا كانت كبيرة — لا يكون بطريقة مباشرة بالنسبة لمجموع الأعضاء . ومثال ذلك أننا اذا أننا أخذنا المجتمع فى الجمهورية العربية المتحدة ككل ، فليس هناك من يستطيع أن يزعم أن جميع السكان يعرفون بعضهم الآخر . ومع ذلك فهم جميعاً أعضاء فى مجتمع واحد كبير تربطهم روابط من اللغة الواحدة ، والمصالح المتشابهة ، والنظرة المتطابقة تقريبا للحياة إلى جانب ارتباطهم بمصادر ولاء وانتماء واحدة ، واعتمادهم على حكومة قوميةمشتركة فى حمايتهم وفى توفير سبل العيش لهم .

١ — والعلم الاجتماعى الذى يهتم بهذا كله ، انما يدرس فى حقيقة الأمر الحياة الجمعية للانسان،ولذلك يهتم عالم الاجتماع بجميع الأشكال التى تنصب

فى قوالبها العلاقات الانسانية متخذة طابعا جماعيا منظما . فهو إذن يدرس ويحاول أن يشرح الاتجاهات الجماعية ، والمعتقدات والعادات . ويتدرج من ذلك الى دراسة النظم الاجتماعية المعقدة والمتغيرة مثل الدولة والأسرة والنشاط الاقتصادى والدينى . ولا يقف عند هذا الحد بل يحاول أيضا أن يتنبأ بمستقبل السلوك الجماعى ، وأن يقدم ويمهد لمن يحاول أن يسترشد بنتائج العلم الاجتماعى فى الأغراض العملية لرفاهية البشر . وحين نتكلم عن التنبؤ الذى هو الغاية القصوى من جميع العلوم ينبغى ان تشير إلى الصعوبات البالغة التى تكتنف القدرة عن التنبؤ فى العلوم الإجتماعية إذا قورنت بالعلوم الطبيعية ، والتى ترجع فى صميمها إلى تعقد مادة الدراسة وتداخلها وخضوعها دائما لعوامل التغير الاجتماعى . ولهذا ينصح كثير من العلماء أن يكون التنبؤ فى أضيق الحدود ولفترات قصيرة المدى . وألا نجازف بتعيين خطوط المستقبل إلا إذا كانت لدينا الحقائق الكافية .

٢ - الإنسان كائن فريد متميز بين جميع الكائنات الحية . لأن له ثلاث قدرات عظيمة نامية إلى درجة كبيرة . لا توجد فى بعض الحيوانات أو انها موجودة فى بعضها الاخر بطريقة غير كاملة .

أ - فالإنسان يستطيع أن يفكر وأن يتعقل الأشياء . وقد دلت التجارب على أن الحيوان يستطيع أن يفكر إلى درجة محدودة مثل انواع من الشمبانزى التى يمكنها أن تحل نماذج من المشاكل البسيطة لتحصل على الطعام الذى يكون فى غير متناولها . ولكن قدرة الانسان على التفكير وعلى حل المشاكل المعقدة أكبر بكثير من قدرة الشمبانزى ، حتى أنه من الممكن أن نقول بأن التفكير الانسانى من حيث النوع يختلف عن التفكير الحيوانى .

ب - والإنسان يستطيع أن يتصل بالآخرين عن طريق اللغة ، كما أن

قدرته على التفكير تتوقف بطريقة جزئية على قدرته فى استخدام اللغة ، واللغة فى حد ذاتها عبارة عن نسق من الرموز الصوتية ، مركبة بطرق خاصة، لتوصل المعرفة والأفكار - والرموز « الكلمات - وطرق ربطها - القواعد » تختلف من لغة إلى أخرى . ولكن البشر مهما اختلفت لغاتهم يتناقلون الأفكار والمعاني عن طريق استخدم اللغة . حقيقة إن الحيوانات تستخدم الأصوات لتتصل بعضها بالاخر . ولكن ليس لدينا أى دليل على أن الحيوانات تستخدم كما يستخدم الإنسان الكلمات . ليعبر بها عن الأفكار المجردة كالحق والخير والجمال ، وكالمنزل والرجل والشجرة . ولهذا نقول إن أصوات الحيوان غرزية ومحدودة المدى ، ومع هذا تستطيع الحيوانات أن تتناقل التحذيرات ومشاعر الألفة والعداوة والخوف .

ونظراً لأن البشر يستطيعون أن يتصل احدهم بالاخر عن طريق اللغة ، فقد أمكن أن تنقل معرفة الفرد إلى فرد آخر . وبهذه الطريقة أمكن أن تنقل معارف جماعة إلى جماعة، وأن تنقل معرفة جيل إلى جيل، وبهذه الطريقة أيضا امكن زيادة التراث الانسانى وأمكن حفظه وإنمائه وتطويره، وهكذا أمكن أن يكون للانسان ثقافة ومدنية . هذا وقد ازدادت قدرة المجتمعات الإنسانية على تجميع المعرفة بسبب اختراع الكتابة والطباعة ، حتى أصبحت الكلمة المطبوعة أقدر فى توصيل المعرفة وربط الأفكار من الكلمة المنطوقة . ويقول بعض العلماء إن اختراع الكتابة فالطباعة كانا أخطر اختراعين وأبعدهما أثرا فى تاريخ الانسان .

ج- والقدرة الثالثة التى تميز الإنسان عن الحيوان هى إمكان استخدامه للالات والأدوات . فقدرة الإنسان على استخدام هذه الأدوات تتوقف

الى حد كبير على تركيب يديه التى عن طريقهما يمسك بالأشياء فى ثبات وضبط . كما أن هذه القدرة تتوقف أيضا على قدرته على التفكير والاختراع، وعلى قدرته فى نقل معرفته عن الأدوات واستخدامها من جيل الى آخر .

ولهذا أمكن للإنسان أن يسيطر الى حد ما على البيئة الطبيعية وان يخضعها فى كثير من الأحيان لمشيئته ، حتى أنه يزيل جميع الكائنات التى تقف فى طريق تعميره للمكان الذى يقيم فيه .

٣ ـ القدرات الثلاث السابقة ، هى فى واقع الأمر استعدادات مزود بها الانسان بطبيعته . ولكنها تحتاج الى عوامل ملائمة تنمو فيها بحيث لو ترك الإنسان وحده لتراجعت هذه الاستعدادات وانطمست وصارت أقرب الى طبائع الحيوان منها الى طبيعة الانسان . ومن هنا كانت الحياة الاجتماعية ضرورية للفرد ليصبح كائنا اجتماعيا له هذه القدرات النامية . ولهذا يقال دائما إن البشر من خلق البيئة الاجتماعية ، فطابع كل كائن إنسانى وشخصيته انعكاس للمجتمع الذى يعيش فيه . فمن البيئة الاجتماعية يكتسب معرفته ومهاراته وعاداته ومثله ودينه وأخلاقه . فنحن هنا فى الجمهورية العربية المتحدة نحس ونفكر كمصريين أو كعرب . فلو كنا قد نشأنا منذ الولادة فى الاسكيمو لعشنا مثلهم ولشعرنا بمشاعرهم ولكان شعور المصريين وأحاسيسهم غريبة علينا كلية

ومع أن شخصية الفرد تتشكل بحسب المجتمع الذى توجد فيه ، فانه من الواضح أن المجتمع لا يمكن أن يكون له وجود حقيقى منفصلا عن الأفراد الذين يكونونه، فالمجتمع إذن يتكون من « الناس » وتتغير خصائص المجتمع

بالتدريج على مر الأجيال بتأثير « الناس » الذين ينتمون إليه . وقد يكون تأثير فرد واحد صغيراً جداً ، ولكن تأثير مجموع من الأفراد فى المدى الزمنى الطويل قد يكون عظيما جداً .

٤ ـ إن مجموعة من الناس لا تكون بالضرورة مجتمعاً ، لأنهم قد يلتقون بطريقة مؤقتة أو عرضية. والأساس فى تكوين المجتمع أن تكون هناك جماعة ترتبط بعضها ببعض عن طريق علاقة منظمة . « فالمجتمع إذن مجموعة من الناس عاشوا معاً لفترة كافية بحيث تنتظم إبانها علاقاتهم . ويفكرون فى أنفسهم على أنهم وحدة إجتماعية » وبطريقة أخرى يمكن أن نقول، إن المجتمع مجموعة منظمة من الناس، يتبعون« طريقة معينة فى الحياة ». وتكون ثقافة هذا المجتمع هى طريقة الحياة التى يسير عليها أعضاؤه .

٥ ـ وهناك شبه إتفاق بين علماء الاجتماع على أن المجتمع عبارة عن العلاقات الاجتماعية فى زمن معين لجماعة من الناس ، وأن الثقافة هى ما تتمخض عنه هذه العلاقات من آثار مادية تبقى على مر الزمان أو تتعدل أو تختفى . وتبدو أهمية الثقافة فى الحياة الاجتماعية إذا عرفنا أن الثقافة نفسها لا تنمو إلا من خلال العلاقات التى يكونها بنى الإنسان بعضهم مع الآخر . وهذه العلاقات فى حد ذاتها تفترض وجود مجتمع . وعلى هذا يمكن القول إن الثقافة هى التى تجعل المجتمع الانسانى ممكنا ، ذلك لأن الناس لا يستطيعون أن يؤدوا وظائفهم كجماعات منظمة ما لم تكن لهم ثقافة متعارف عليها . ففى وجود مثل هذه الثقافة يستطيع أن يعرف كل فرد ما يتوقعه من الآخرين، ويعرف أيضا كيف يتصرف ليواجه مطالب الجماعة وهكذا . وخلاصة القول إن المجتمع يستطيع أن يعيش لأن الطبيعة زودت الإنسان بالمعدات العقلية التى يستطيع بها أن يصنع الثقافة وأن ينقلها إلى الأجيال المتعاقبة .

كما أن الثقافة بدورها تخلق المجتمعات ،اى ان المجتمعات تعتمد فى نموها وفى حياتها على الثقافات .

٦ ـ الميادين الاساسية للمعرفة الانسانية :

من المحتمل جدا أن الثقافة بدات تتجمع عناصرها وتنتقل متجمعة خلال الأجيال منـــذ الوقت الذى استـطاع الإنسان ان يـكتسب فيه الطابـع الإنسانى . ويمكن أن حصر المعرفة الإنسانية فى نوعين رئيسيين :

الأول ـ معرفة الإنسان بنفسه ، وهذا يشمل الثقافةالتى تخلقها ومايصنعه ليبقى على مر الزمان .

والثانى ـ معرفة الإنسان ببيئته الطبيعية .

ا ـ ولكن معرفة الإنسان ليست جميعا معرفة علمية بالمعنى المتواضع عليه الآن . وأن هذه المعرفة ـ فى واقـــع الأمر ـ معرفة جمعت بطريقة منظمة وصنفت وربطت أجزاؤها ثم حللت وفسرت . فى الأيام القـديمة نادرا ما كان الإنسان يلجأ إلى جمع المعرفة على النحو السابق،ويمكننا أن نقول بأن معظم المعارف التى حصلها الإنسان قبل أن يلجأ إلى المنطق العلمى كانت غير إرادية أو غير مقصودة لذاتها . هذا إلى أن الأقدمين قبلوا « عالمهم » كماهو عليه ، وإن حاروا فى تعليـل أمر ، أرجعو أسبابه إلى قوى فوق قوةالبشر على أى نحو . ولهذا اعتقد بعض البدائيين أن كل مجرى مائي وكل شجرة وكل صخرة تحوى روحا تسيطر على أفعالها . ولكن اهتمامنا اليوم ينصب على محاولة كشف علة كل شىء كشفا مؤيدا بالحقائق العلميـــة المحسوسة أو المبرهن عليها إما قياسا او استقراء .ونظرا لضخامة المعارف العلمية التى تجمعت على مر الزمان ولا زالت وستظل تتجمع ، فقد قسمت الميادين العلمية وستظل

تقسم إلى عدة أجزاء ، ويمثل كل علم اليوم مجموعة من الحقائق التي تتصل بأحد هذه الميادين أو بأجزاء منها . حتى أن العلم الواحد ينقسم إلى عدد من الفروع قد يصل إلى عشر أو إلى عشرين فرعا في بعض الأحيان . وانقسام العلم إلى فروع هو ما يطلق عليه إسم التخصص العلمي الضيق .

ب - وبصفة عامة نستطيع أن نصنف المعرفة العلمية إلى ميادين رئيسية ثلاث : العلم الإجتماعي ، والعلم الطبيعي والإنسانيات وكل من هذه الميادين يقسم إلى عدد من العلوم المتخصصة وذلك بقصد تسهيل مزيد من الدراسات المركزة للوصول إلى الحقائق المضبوطة،فالعلم الاجتماعي هو ذلك الميدان من المعرفة الإنسانية الذي يتناول جميع جوانب الحياة الجمعية للانسان . ويتناول العلم الطبيعي البيئة الطبيعية التي يعيش وسطها الإنسان ، كما أنه يشمل علوما مثل الطبيعة والكيمياء التي تعالج مسائل عديدة كقوانين المادة والحركة والمكان والكتلة والطاقة ، كما أنها تشمل أيضا العلوم الحيوية التي تدرس الكائنات الحية . أما الانسانيات فانها أكثر الميادين ارتباطا بالعلم الاجتماعي لأن كليهما يدرس الإنسان وثقافته : ولكن العلم الاجتماعي يهتم بوجه خاص بالعناصر الأساسية للثقافة التي تحدد الأنماط العامة للسلوك الإنساني . وتعالج الإنسانيات بعض وجوه خاصة من الثقافة الإنسانية أو بمعنى أكثر وضوحا تحاول أن تحدد نفسها في تقصي محاولات الإنسان للتعبير عن قيمة الروحية والجمالية من خلال الأدب والفن وتهدف إلى اكتشاف معنى الحياة من خلال الدين والفلسفة .

حـ - إننا لا نستطيع أن نصل إلى فهم سليم لحياة الإنسان الاجتماعية بدراسة بعض نواحيها وإهمال النواحي الأخرى . نقول هذا لأن تاريخ

تطور علم الاجتماع زاخر بالنظريات التى كانت تفسر الحياة الإجتماعية من جانب واحد ، أو تغلب عاملا من العوامل المؤثرة فى نشاط الإنسان وتجعل له الأهمية الأولى والأخيرة فى توجيه هذا النشاط . ومثال ذلك ان فلاسفة التاريخ الذين مهدوا لقيام هذا العلم كانوا يحاولون تفسير تطور البشرية على أساس نظرى معين ، وأغلب نظرياتهم كانت تقوم على رسم خط مستقيم أو دائرى أو غير منتظم لتطور الحوادث ، ينظمونه فى حلقات ، لكل حلقة خصائص متمايزة من الفكر والعمل .

د - ومع ذلك فمن المسائل التى تلفت إليها النظر أن جميع نواحى الثقافة الإنسانية مرتبطة ومتساندة إلا أن العلم الاجتماعى اليوم يعد ميدانا معقدا وواسعا جدا حتى ليصعب على باحث أو عالم واحد أن يحيط به علما . ولذلك يكتفى الباحث أن يستفيد ما أمكنه من النظر إلى المجتمع كحقيقة كلية ، أما ان يحصل على معرفة عميقة فعليه أن يركز دراسته على ناحية واحدة من نواحى الحياة الاجتماعية، وهذا يوضح لماذا انقسم البحث فى فى المجتمع إلى عدة أقسام يختص كل واحد من العلوم الاجتماعية بقسم واحد منها . وهذا التقسيم من وجهة النظر العلمية ليس إلا تقسيما ضروريا للعمل إذا كان علينا أن نستمر فى إنماء معلوماتنا عن المجتمع وعن القوانين أو المبادىء التى تحكمه

هـ - ويقول كنجسلى ديفز Kingsley Davis ، إن الحدود الفاصلة بين العلوم الاجتماعية غير واضحة من حيث الواقع ومن حيث المبدأ ايضا ، ومثل هذا الموقف خلق خلافات كثيرة مثلما تخلق خلافات الحدود بين الأمم من مجادلات ومشاكل كثيرة . ويرى ان النظر إلى الموضوع من الناحية

العلمية البحته يدعونا إلى الإهتمام بهذه الخلافات ، لأن العلم لا يعرف حدا. وربما كان من أهم عوامل الخلاف بين العلوم الاجتماعية الصراع بين العلماء على مسائل لا تتصل بالمعرفة ذاتها [1] وخير طريقة لفهم طبيعة العلوم الاجتماعية المتعددة أن تفحص ما يقوم به الباحثون ، لا ما يقولونه . ولسوف يتضح من ذلك أن أساس التمايز لا يمثل اختلافا فى الموضوع، لأن جميع هذه العلوم تدرس نفس الظواهر «حقائق الحياة الاجتماعية» أو بمعنى آخر يمكننا أن نقول ، إن الاختلافات تنصب على مركز الاهتمام أو النظرة الخاصة لكل علم من العلوم الاجتماعية . ومع ذلك فمن المناسب أن نلقى نظرة سريعة على أهم هذه العلوم وأكثرها اتصالا بعلم الاجتماع ليتضح مدى الصلة التى تربطها به :

١ ــ الاقتصاد :

هناك تعريفات كثيرة للاقتصاد بقدر ما هناك من تحديدات لميدان دراسته وقد كان تعريف الاقتصاد قديما يعتمد على عدد من القضايا المنطقية والفلسفية كأن يقال ، إن الإنسان وكل إنسان هو خير حكم على ما هو فى صالحه . ولكن الأمر تطور فى العصور الحديثة ، فأصبح من المألوف الاعتماد فى تعريف الاقتصاد وفى تحديد ميدانه على التعرف على العلاقات الواقعية باستخدام الاستقصاءات الإحصائية والتاريخية . ومنذ منتصف القرن الثامن عشر حتى النصف الأول من القرن العشرين بدأ الاقتصاد يتطور ويتخذ صورة علم اجتماعى واضح المعالم . فقد عرف آدم سميث الاقتصاد بأنه علم الثروة ، وميدانه يقتصر على دراسة طبيعة ثروة

---

1 — Kingsley Davis; OP. Cit., pp 6 - 7 .

الامم وأسبابها ومظاهرها الخارجية . كما أن الفرد مارشال يعرف الاقتصاد بأنه « دراسة الناس فى حياتهم العمليـة العـادية » . وقد ارتبط الإقتصاد دائما بالسياسة وربما كان هذا هو الأصل فى تسميته « الإقتصادالسياسى » ولذلك كانت كتابات الإقتصاد السياسى هى أعمال قصد بها مناقشة المسائل الإقتصادية ذات الأبعاد السياسية المعينة . ومن المألوف أن يميز علماءالإقتصاد عند تعريفه وتحديد ميـــدان دراسته بين المسائل الإقتصادية ذات الطابـع النظرى ، والمسائل الإقتصادية ذات الطابـــع التطبيقى . وعلى كل حال ، فاننا نجد ان مسألة إقتصادية معينة تكون محل الدراسة ، إذا تبين أن هنـاك هدفا إجتماعيا محددا ينبغى الوصول إليـه بأقل نفقـات ممكنة ، أو إذا كانت لدينا وسائل معينـة ونريد ان نصل عن طريقهـــا إلى أقصى نتيجة ممكنة .

ومن جل هذا فاننا لا نستطيع ان نفصل الإقتصاد عن الأهـــداف الإجتماعية فى المجتمع ، كذلك يمكن أن يقـال ، إن الإقتصاد هـو وسيلة المجتمع لبلوغ اهدافه بأقل قدر ممكن من النفقات او المجهود ، ومن أجل هذا لا يمكن ان ندرس « القيمة » فى الإقتصاد دون معرفة اتجاهات الجماعات المختلفة فى المجتمع والذبذبات التى تحدث فى مفضلاتها او مطالبهـا المتغيرة . وقد أبرز كثير من علمـــاء الاجتماع الدافـع القوى للانسان فى سبيل الحصول على مطالب المعيشة باعتبـاره أهم دافـع فى حيـــاة المجتمع ، يترتب عليه عدد كبير من الدوافع الفرعية ، ومن أجل هـــذا فان الجانب المادى من المجتمع والثقافة يعطى أهمية كبيرة فى التحليـــل السوسيولوجى .

٢ – علم النفس :

يتجه كثير من علماء النفس الان إلى القول بأن مركز اهتمام علم النفس يتركز حول الفرد فى تفاعله مع بيئته . وربما كان هذا القول يصور شيئا هاما ، وهو أن علم النفس من العلوم المتداخلة فى عدد آخر من العلوم ، ذلك لأنه إذا اعتبرنا علم النفس من العلوم الاجتماعية ، فهو إذن علم سلوكى ، على الرغم من أنه فى بعض الأحيان قد يكون علما بيولوجيا أيضا ، ولكن اهتمامه الأول بالفرد جعله أكثر تحديداً من أى علم آخر . كما أن ميدانه لم يكن فى يوم من الأيام متسعاً . إن اهتمام علم النفس بموضوعات معينة كالإحساس والإدراك والتفكير جعل بعض الناس يعزلونه خطأً عن دائرة العلوم الإجتماعية . باعتبار أن هذه الموضوعات يمكن أن تدرس مستقلة دون ربطها بالبيئة التى يعيش فيها الفرد ، ذلك ان التكيف مع البيئة مستحيل من غير ان تكون لدينا معلومات عنها ، كما أن حدود نجاحنا فى حصولنا على هذه المعلومات مرتهن بقدرة الكائن الحى على التفاعل مع طاقة الإحساس من حوله .

وقد أدى إهتمام علماء الاجتماع فى السنين الأخيرة بدراسة التفاعل الاجتماعى بين شخصين أو اكثر ، ودراسة العلاقات المتبادلة بين الجماعات المتمايزة إلى إقتراب وجهات النظر بين علم النفس الإجتماعى وبين علم إجتماع الوحدات الصغيرة . حتى أن موضوع ديناميات الجماعة يدرسه علماء اجتماع ونفس فى ذات الوقت ، كما أن اهتمام علماء الاجتماع بموضوع التنشئة الاجتماعية يكشف عن مدى أهمية دراسة الشخصية فى فهم المجتمع والثقافة . وربما كان أقوى إتجاه فى هذا الصدد ما يقوم به تولكوت بارسونز ومدرسته من

التركيز على دراسة الفعل الإجتماعى لتحديد دوافعه وابعاده ونتائجه فى حياة الشخص والجماعة والمجتمع .

٣- علم السياسه :

السياسة كالأدب تلبس ثياباً جديدة فى كل جيل ، وتتغير بتغير اسلوب الناس فى الحياة . وليس معنى ذلك أن السياسة لا تتبع منطقا معينا ، ذلك لأن أساليب الناس المتغيرة هى فى واقع الأمر اعراض وتوجيهات تنبع من الظرروف الجديدة وتعبر عن الإستجابة المباشرة لها . وعلى الرغم من ان السياسة قديمة قدم الإنسان نفسه ، إلا أن علم السياسة كموضوع أكاديمى حديث نسبيا ويختلف علماء السياسة فى تتبع اصل هذا العلم . فبعضهم يفضل أن يذهب بعيداً حتى أفلاطون وأرسطو . ويفضل أصحاب النزعة العملية رده إلى مكيافيللى ، ويذهب آخرون إلى القول بأن علم السياسة كعلم منظم بدأ عند إنشاء الأقسام المستقلة لعلم السياسة فى الجامعات فى أواخر القرن التاسع عشر . وعلى كل حال فالأمر يعود إلى تذوق الباحث للموضوع .

وقد اختلف علماء السياسة كثيراً فى تعريف العلم وتحديد ميدانه ، ومثال ذلك ، أن البعض يزعم أن الدراسة الحقة للسياسة هى دراسة للقيم المثالية . ولذلك يكون علم السياسة فنا . وربما كان محور تفكيرهم يدور حول إيجاد نظرية لتبرير وجود الدولة والدفاع عنها . او يكون - كما فعل هارولد لاسكى فى كتاب « قواعد السياسة » - محاولة للدفاع عن الفرد وروابطه ومنظماته ضد الدولة . وقد حاول ديفيد ايستون David Easton فى كتابه « النظام السياسى ١٩٥٣ » أن يحلل علم السياسة متخذا نقطة إنطلاقه من الحاجة إلى إطار شامل يسمح بالتنظيم التلقائى المنسق للحقائق المتجمعة

عن النظم الإجتماعية والسلوك السياسى . هذا إلى ان عدداً من الباحثين فى السياسة فى الوقت الحاضر يهتمون بما يسمى « السلوك السياسى أو السلوكية السياسية » فى محاولتهم فهم العلاقة المتبادلة بين النظم ذات الطابع السياسى والسلوك العملى للأفراد فى المجتمع . ولكن هذه المحاولة أصبحت محل نقد من الكثيرين نظراً للأساس النفسى الذى تقوم عليه . وخير طريقة لفهم موضوع علم السياسة أن نذكر فى إيجاز المسائل الأساسية التى يهتم لها علماء السياسة فى واقع الأمر وتتكرر فى كتاباتهم ، وهى على النحو الآتى :

ا — النظرية السياسية . من اهم الظواهر التى برزت فى علم السياسة ، أنه انفصل ، فى اواخر القرن التاسع عشر عن صلته الزواجية بالفلسفة الخلقية والتاريخ والقانون العام وظهرت معالم النظرية والبحث الواقعى فيه . والنظرية السياسية الحديثة عبارة عن مزيج من التفكير الألمانى المجرد عن طبيعة الدولة وافكار أوستن عن السيادة ، وهذا إلى جانب النظريات التطورية عن عن الأجناس والأمم . ويلاحظ أنه منذ إنتهاء الحرب العالمية الثانية تزايد الإهتمام بمسائل السياسة العامة .

ب — الحكومة : تعتبر دراسة الحكومة عند كثير من علماء السياسة جوهر التحليل السياسى . فقد كان بروز النظرية السياسية كميدان شبه مستقل فى علم السياسة ، داعياً إلى الاهتمام المتزايد بالدولة كوحدة أساسية فى التحليل. ففى خلال الأربعين سنة الماضية إستطاع علم السياسة أن يخرج دراسات متعددة تناولت التاريخ والدستور والنظم المتعلقة بالحكومة على مستويات متعددة محلية او قومية أو عالمية . وهنا يظهر تأثير علم الاجتماع على تطور علم السياسة بتزايد الإعتماد على المدخل السوسيولوجى فى دراسة المسائل

المختلفة التى يعالجها العلم من وجهة نظر تعدد العوامل. ويعتبر ماكيفر MacIver من أبرز علماء الإجتماع الذين لهم تأثير بالغ على التحليل السياسى فى الوقت الحاضر.

حـ ـ السياسة العامة والإدارة : من اهم فروع علم السياسة، تلك الدراسة التى تهتم فى المحل الأول بالعلاقات الإنسانية أو العلاقات العامة كمدخل لدراسة موضوعاتها متأثرة فى ذلك بعلم النفس. كما تأثر علم السياسة فى هذه الناحية بعلم الإجتماع أيضاً وخاصة فى معالجته للنظرية التنظيمية. ويلاحظ ان طلاب السياسة العامة يشاركون غالباً فى نشاط الحكومة، الأمر الذى يتيح لهم فرصة إختبار مبادئهم وأفكارهم العامة.

د ـ السياسة العالميـة : إن اهتمام علم السياسة بالسياسة العالمية يتقدم باستمرار ليحل محل القانون والتاريخ. وقد زاد الاهتمام بالسياسة العالمية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ووصل إلى قمته فى اعقاب الحرب العالمية الثانية، ولا زال يتزايد حتى الآن. وقد تغير مركز الثقل فى دراسة السياسة العالمية بتزايد الاهتمام بدوافع الأمم وقادتها وظروفها النفسية والصناعية والجغرافية وخصائصها السكانية، التى تلقى ضوءاً هاما على إمكانيات كل أمة ومبلغ ما يمكن أن تسهم به فى المجتمع الدولى :

٤ ـ التاريخ.

التاريخ هو دراسة التطور الماضى للمجتمعات الانسانية. خاصة خلال المرحلة التى كانت فيها السجلات المكتوبة متيسرة. وهو علم إجتماعى لأنه يمثل المحاولة المنظمة لمعرفة وتحقيق الحوادث الماضية، بربطها أحدها بالأخرى

ويكشف اثرها فى تشكيل المدنيّة . هذا الى أننا لكى نفهم أى موقف إجتماعى فلا بد ان نعرف الظروف التى أدت إلى إنبثاقه ـ او كما يقال لانستطيع ان نفهم الحاضر دون ان نعرف الماضى . ومع ذلك فالتاريخ لا يستطيع ان يقدم تفسيرا كاملا عن كيف ولماذا تطور الحاضر عن الماضى ، كما انه لا يستطيع أن يعطينا القدرة للتنبؤ بالمستقبل . فليست هناك مبادىء او قوانين عامة للتطور التاريخى تجعل مثل هذا التنبؤ ممكنا . إننا غالبا ما نقول بأن التاريخ يعيد نفسه ، ولكن هذا غير صحيح، فكل ما يعنيه مثل هذا القول أن حوادث فترة معينة يمكن ان تحوى بعض وجوه الشبه فى فترة اخرى سابقة. فلو أن التاريخ يعيد نفسه لما كان هناك تاريخ .

ومع أن التاريخ لا يساعدنا على التنبؤ بالمستقبل فانه يعيننا على اكتشاف إتجاهات معينة فى تطور المجتمعات الإنسانية . ومثال ذلك هذا الإتجاه الذى ظل ينمو منذ حوالى مائتى عام وهـو إنتشار التصنيع . لأنه إذا كان هذا الإتجاه ظل ينمو دون أدنى نكوص حتى اليوم فانه من المناسب لنا فى هذا المجال أن نتوقع استمراره لفترة من الزمان فى المستقبل.

٥ ـ الانتروبولوجيا : Anthropology :

يذهب كثير من الأنتروبولوجيين إلى أن الأنتروبولوجيا تهتم من حيث الموضوع بالانسان وأعماله فى كل زمان وفى كل مكان . وعلى الرغم من أن باحثاً واحدا لا ينتظر منه أن يكون ملماً بكل فروع الأنتروبولوجيا ، إلا أنه لابد أن يكون على صلة بالمسائل التى تعالجها الأنتروبولوجيا الطبيعية واللغويات والآثار والإثنولوجيا . ولعل ادعاء الأنتروبولوجيا أنها تهتم بكل جوانب الحياة الانسانية فى جميع الأزمنة هو الذى جعل ميدانها نقطة التقاء

عدد كبير من الباحثين من تخصصات مختلفة . ويلاحظ أن دراسات أنثروبولوجية كثيرة فى الماضى وحتى الآن من عمل أشخاص ليسوا أنثروبولوجيين بالاحتراف ، وربما كان هذا هو السر فى تعدد مداخل الدراسة فيها إلى جانب تعدد مناهج البحث أيضاً .

ومن الناحية التاريخية إهتمت الانثروبولوجيا بمجتمعات وثقافات لم تهتم بها العلوم الموجودة فعلا ، ولهذا انصب بحثها على تلك المجتمعات التى توصف أحيانا بالبدائية أوالمتوحشة أوالبربرية . ولكن هذا لم يمنع الأنثروبولوجيا من أن تنمى مناهجها ومداخلها لدراسة المجتمعات البسيطة نسبياً . وعلى الرغم من التغيرات الجوهرية التى حدثت فى التوجيه الموضوعى ومناهج البحث ، فان الأنثروبولوجيا لا تزال تركز على دراسة المجتمعات البدائية . ولذلك عندما حول الأنثروبولوجيون اهتمامهم - إلى حد ما - إلى دراسة المجتمع الغربى المعاصر ، فانهم يتلمسون السبيل إليه - ما أمكن ذلك - كما لو كانوا يدرسون مجتمعاً بدائياً ، ومثال ذلك ما يقوم به الأنثروبولوجيون الأمريكيون فى دراسة التجمعات الفرعية والثقافات الفرعية فى المجتمع الأمريكى .

ويلاحظ من يتتبع نمو الأنثروبولوجيا ، أن الباحثين فيها لا يزالون يفضلون دراسة الشعوب المعزولة او التى تعيش على هامش المدنية الكبرى . ولعل اهم تطور حدث فى الأنثروبولوجيا فى السنين الأخيرة ذلك الاتجاه الذى ينمو بسرعة ويتركز حول الإهتمام بدراسة تجمعات اكثر تعقيدا كالقرى والمجتمعات المحلية القروية . وقد تدرس هذه القرى باعتبارها مناطق معزولة او قد تدرس على أنها جزء من مركب حضارى معقد .

وهناك من يفضل إطلاق اسم « الأنثروبولوجيا الثقافية » على فروع الانثروبولوجيا التى تقوم بدراسة موضوعات اجتماعية وثقافية . كما ان تقسيم الأنثروبولوجيا الثقافية على اساس الموضوعات ذات الأهمية ، ادى إلى ظهور مجموعتين كبيرتين من الدراسات. الأولى ، تشير الى الميادين التى يغلب عليها الناحية الوصفية والتاريخية ، والثانية ، تشير الى الميادين التى يغلب عليها التحليل الاجتماعى . وتشمل المجموعة الأولى ، الإثنولوجيا Ethnology وهى الدراسة النظرية والمقارنة للعادات الانسانية ، والإثنوجرافيا Ethnography وهى وصف الثقافات المفــــردة ، والآثار Archaeology وهى وصف بقايا الثقافات الماضية أو القديمة . اما المجموعة الثانية فتسمى الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، التى تسمى فى بعض الأحيان علم الاجتماع المقارن . وهى تهتم فى المحل الأول بدراسة البناء الاجتماعى والتنظيم أكثر من اهتمامها بدراسة العادات . ومن خصائص الأنثروبولوجيا المعاصرة أن الباحث قد يهتم فى نفس الوقت بهاتين المجموعتين من الميادين ، أى أنه يجمع الحقائق ويفسرها ، وقد تكون هذه الحقائق تاريخية او غير تاريخية .

ويلاحظ إن كلا من من المجموعتين على صلة وثيقة بالعلوم الإجتماعية ، الا أن صلة المجموعة الأولى بالتاريخ واضحة ، كما أن صلة المجموعة الثانية (الأنثروبولوجيا الاجتماعية) اشد ما تكون بعلم الاجتماع وعــلم النفس الاجتماعى . وأبلغ دليل على ذلك تأثر المدرسة الإنجليزية فى الانثروبولوجيا بنظريات إميــل دوركايم التى اكدهـــا الفرد رادكليف براون وخاصة فى الأفكار المتعلقة ـ بالتحليل البنائى الوظيفى .

و ـ إن اهم فارق بين علم الاجتماع والعلوم الإجتماعية ، هو أن كل

علم إجتماعى يعالج جزءا من العالم الإجتماعى الثقافى ، بينما يعالج علم الاجتماع بطريقته هذا العالم ككل محاولا أن يصل إلى خصائصه العامة ، أو بمعنى آخر ينظر إلى علم الإجتماع باعتبار أنه يعالج موضوعا أوسع من الموضوعات التى تعالجها العلوم الإجتماعية ، كل على حدة ، ومثال ذلك أن الاقتصاد يدرس الصناعة ، وكذلك يفعل علم الإجتماع ، ولكن دراسة علم الإجتماع للصناعة أوسع من دراسة الإقتصاد ، من حيث أنه يدخل فى التفسير عوامل أعم ويحاول أن يتتبع تأثير الصناعة على المجتمع إلى آفاق أوسع مدى من الإقتصاد. ويظهر اختلاف علم الاجتماع عن العلوم الاجتماعية ، إذا عرفنا إهتمامه الفريد بموضوعات مثل الأسرة والسلوك الإجتماعى والسكان والمشاكل الإجتماعية مثل الجريمة والانحراف والفقر والتميز العنصرى (١) .

القيمه العملية لعلم الاجتماع :

كلما زاد تعقد المجتمع الذى نعيش فيه ، نتيجة لاتساع نطاق التخصص وزيادة السكان ، وكلما زادت المدن حجما ، كلما كانت الحاجة ماسة إلى معرفة دقيقة بطبيعة الحياة الاجتماعية . ومن الملاحظ أن أهم ما يميز عصرنا ، ذلك التغير الاجتماعى والثقافى السريع الذى يواجه الانسان بتحد واضح لما تعوده وما نقله عن الأجيال السابقة . إن النتائج المذهلة للتكنولوجيا المعاصرة تفرض على الفرد كما تفرض على الجماعة . أن تراجع مناهجها التقليدية فى الحياة ونظرتها اليها . ولذلك إذا كان التفكير فى الفعل الاجتماعى والتفاعل المنظم والعلاقات الاجتماعية المتعددة والمعقدة ، أمرا مارسه فيما مضى الحكماء وكبار السن الذين كانوا يلخصون تجاربهم وآرائهم فى الحياة على

---

1 - Ogburn & Nimkoff; Sociology, London, 1960, pp 14—15

صورة حكم يجرى مجرى الأمثال ، فان التفكير الاجتماعى المنظم اصبح سمة العصر الذى نعيش فيه ، وأصبح علما له موضوعه ومناهجه،وله اهميته البالغة فى فهم الانسان الحديث . ومن العوامل الهامة التى تكمن وراء تزايد الاهتمام بالعلم الاجتماعى فى كل انحاء العالم ، أن دورة حياة الفرد لم تعد أمرا يمكن التنبؤ به فى دقة كما هو الحال منذ قرون مضت ، فالفردية النامية وعلاقات المعاملة التى تحل تدريجيا محل علاقات الجوار والصداقة والدم والقرابة ، جعلت الفرد يحس تدريجيا بالعزلة وبالحاجة إلى أساس جديد للوجود الاجتماعى . هذا ويمكن أن نلخص القيمة العملية لعلم الاجتماع فيما يلى :

١ ـ يقدم علم الاجتماع معاونة جوهرية فى تحديد الأهداف التى يمكن الاتفاق عليها ، ويمكن أن يرسم الوسائل الناجعة لبلوغها . وهذا يظهر واضحا من أن السياسات الاجتماعية فى مجتمع يتغير باستمرار ، لا يمكن أن تقوم على الأساس من العادة أو العاطفة . إذ لا يتسنى لمشتغل بالسياسة الاجتماعية العامة أن ينجح فى مهمته ، إلا إذا كان لديه قدر كاف من المعرفة عن المجتمع الذى يرسم له خطوط نموه الاجتماعى والاقتصادى ، وكلما ترامت أطراف المجتمع . وكلما تعقدت ظروفه الاجتماعية . اصبحت المعرفة الاجتماعية أكثر إلحاحا وأوسع مدى . كذلك يلاحظ أن السياسة الاجتماعية لمجتمع معين ، إذا كانت ذات طابع شامل ومحدد فى نفس الوقت، اصبحت الحاجة ماسة إلى المعرفة ذات الطابع السوسيولوجى أكثر من المعرفة ذات الطابع الاقتصادى أو السياسى . ومثال ذلك ، اننا إذا كنا بصدد رسم سياسة لضبط النسل ، فان الوسائل الناجعة لبلوغ هذا الهدف لا يمكن ان نعتمد فيها على الوسائل ذات الطابع السياسى او الاقتصادى . فقط. لاننا يجب ان ندخل فى الاعتبار مسائل هامة ، مثل التنظيم الاجتماعى ، والتنظيم

العائلى وديناميات السكان وعادات الإنجاب والقيم التقليدية . وكل هـذه الموضوعات لا يمكن أن نحسن تقديرها أو تحليلها إلا إذا إعتمدنا على علم الاجتماع فى المحل الأول[1] .

٢ ـ فى المجتمع الحديث المترامى الأطراف ، تقتصر خبرة الفرد على عدد قليل من الناس ، بل إن عددا كبيرا من الأفراد قد ينغلقون داخل جماعة واحدة وينعزلون بذلك عن كل أعضاء المجتمع . والمجتمع الحديث بطبيعته ينقسم إلى أقسام سكانية ومهنية متعددة ، قد يتاح للفرد أن يخبر بعضها عن قرب ، ولكنه لن يستطيع مدى حياته أن يخبر كل هذه الأقسام . ولذلك يظل الفرد فى المجتمع الحديث بعيدا عن أغلب أعضاء المجتمع ، لا يعرف دوافعهم ولا نظرتهم أو طريقتهم فى الحياة ، ولا القيم التى تسيطر على سلوكهم الإجتماعى . ومهما كانت إيديولوجية المجتمع واحدة ، إلا أنها تتعدل فى أقسام المجتمع الواحد وتلبس رداء كل جماعة بحسب إتجاهاتها وطابعها المميز فى الحياة .

فاذا أضفنا إلى ذلك أن الثقافة هى الأخرى قد تكون عامةفى المجتمع من حيث خصائصها الأساسية ، إلا أن هذا لا يمنع من وجود ثقافات فرعية فى المجتمع الواحد تتميز بخصائص مختلفة . ولهذا قد يصعب على أغلب الأفراد فهم أقرانهم الذين ينتمون إلى نفس الثقافة الكلية . من أجل هذا كان علم الإجتماع ضرورة ثقافية واجتماعية ملحة فى المجتمع الحديث . فهو وحده الذى يقدم صورة متكاملة لحياة المجتمع،ويعطى أهمية بالغة

---

1 — Kingsley Davis; OP. Cit.; P 15.

للمسائل المتعلقة بالاختلافات والمتشابهات التى تظهر بين أقسام المجتمع ، ويحاول أن يتعمق إتجاهات الفعل الإجتماعى والصور المختلفة للعلاقات الإجتماعية التى تترتب على ذلك . كما أنه يهتم بالقيم والسلوك الناجم عنه ويحاول أن يمد بصره بعيدا ليدرك أبعاد السلوك الإجتماعى وأهدافه ووسائله ، وغير ذلك من الموضوعات التى تهم الإنسان الحديث . فعن طريق علم الإجتماع يستطع الفرد فى المجتمع أن يكون على علم بما يجرى فى نطاق الحياة الإجتماعية لأفراد آخرين او فى جماعات أخرى قد لا يتيسر له طوال حياته أن ينتمى إليها أو أن تكون له بها صلات. وإذن فعلم الإجتماع ينمى التكامل الإجتماعى، وهو لذلك عنوان وحدة المجتمع .

٣ — إن علامة الإنسان المثقف ، أن يكون لديه الإدراك الكافى والتقدير المناسب للأشياء التى قد تفوت الرجل العادى . ولذلك فان علم الإجتماع بجانب أنه يسهم فى تقدم المجتمع إسهاما جوهريا ، فهو مفيد جدا من الناحية الشخصية ، لأن الفرد عن طريقه يستطيع أن يحصل على فهم أفضل لنفسه وللاخرين ، ويتيح له هذا الفهم أن يكون أكثر مرونة إزاء المواقف الجديدة . دون الإلتجاء إلى الأنماط المتحجرة الشائعة ، التى قد تكون قائمة على أسس خاطئة ، ومن ثم يستطيع أن يوسع مدى الاحتمالات والنتائج التى يتصور فيها الفعل . كذلك يستطيع الشخص عن طريق نتائج الدراسة المقارنة للمجتمعات والجماعات التى تختلف عن مجتمعه أو جماعته الخاصة ، أن يرى أشياء ، ربما فاتته عند التفكير فى الوجود الإجتماعى له أو للاخرين . ومن ثم تصبح حياته أكثر ثراء وأكثر امتلاء . وربما كان هذا هو السبب الذى من أجله يتجه المسؤولون عن الجامعات والتعليم العالى والثانوى فى أنحاء العالم ،إلى جعل دراسة علم الإجتماع جزءا متكاملا من الدراسة فى كل الكليات

والمعاهد والمدارس مهما اختلفت تخصصاتها . (١)

٤ - ويجب أن نتبه هنا إلى أن مهمة عالم الإجتماع أن يقدم المشورة وأن يعاون على تحديد السياسة الإجتماعية داخل إطار هيئة منظمة يناط بها مثل هذا التحديد ، أما أن يعمل كموظف داخل هذه الهيئة،فان فاعايته وأهمية مشورته يمكن أن تتعرض للطمس . ذلك لأن القرار النهائى فى تحديد هذه السياسة يكون دائما فى يد رجال الإدارة . وهذا يتأتى من أن مهمة رجل الإجتماع كعالم أن يحلل وأن يشرح وأن يزيد من كمية المعرفة ، ولذلك يجب ألا نخلط بين مهمته وبين مهمة رجال السياسة والإقتصادالذين قد يكون فى أيديهم القوة التنفيذية الصالحة لوضع أفكارهم موضع التطبيق العملى . ومن المألوف أن يسأل عالم الإجتماع أسئلة لا يمكنه الإجابة عليها، ولا يوجه مثلها إلى العلماء الآخرين فى الميادين المختلفة . ولهذ فقد يتململ بعض الناس ويقولون ، ما فائدة علم الإجتماع إذن ؟ وربما كان مرجع ذلك إلى الفهم الخاطىء لرسالة عالم الاجتماع . فالجيولوجى مثلا لا يسأل إلا عن تحديد الأماكن التى يحتمل أن يكون فى باطن أرضها خام البترول ، ولا يخطر ببال أحد أن يطلب منه منع الاستغلال السيء للمصادر الطبيعية ، ولم يطلب أحد كذلك من المؤرخ أن يحول مجرى التاريخ . ولكن علماء الاجتماع غالباما يطلب إليهم تغيير المجتمع. إن عالم الاجتماع شأنه فى ذلك شأن أى عالم آخر يستطيع أن ينمى المعرفة التى تعاون على حل المشاكل التى تعترض المجتمعات ، ولكنه مثل أى عالم آخر ايضا لا يستطيع أن يسيطر على مجرى الحوادث (٢) .

1 — Ibid., P. 16

2 — Green, A W.; Sociology, New, York, 1960, PP. 8 - 9

وهنا يجب أن نفرق بين هدفين متمايزين لعلم الاجتماع، الأول هو الدراسة المنظمة للعلاقات العلية التى تجرى على أيدى متخصصين ، والثانى نشر المعرفة التى يحصل عليها الباحثون وجعلها فى متناول الجميع، رغبة فى تمكين السكان جميعا من مزيد من الفهم والوصول بالمجتمع إلى وحدة متكاملة . ومعنى هذا أن علم الاجتماع يضع نفسه دائما فى خدمة المجتمع الخاص والمجتمع العالمى فى نفس الوقت، بعكس كثير من العلوم التى تغلق نفسها على العدد القليل من المتخصصين فيها، ولا تبذل فيها محاولات حقيقية لجعل المعرفة التى تتوصل إليها فى متناول الجميع .

الفصل الثانى

علم الاجتماع والمنهج العلمى

حظيت مناقشة « علمية » دراسة المجتمع (علم الاجتماع) بأكثر إهتمام الرواد الأول للعلم الجديد . وظلوا يدافعون عن إمكان تطبيق مناهج العلم الطبيعى أو الرياضى على ظواهر المجتمع،ولا زالت المناقشة حيـة حتى الآن ، وقد وصل إميل دور كايم بهذه المناقشة إلى قمتها فى كتابه « قواعـد المنهج فى علم الاجتماع» عندما فصل نوعيا بين الظواهر الاجتماعية وغيرها من ظواهر الكون وعين لها خصائص ملازمة ، واعتبرها « أشياء » فى الوقت عينه تخضع لقواعد الميتودولوجيا العامة ، ومن ثم تسقط حجـة الناهضين لعلم الاجتماع والمشككين فى إمكان علمية البحث فى المجتمع . وقد انقسم علمـاء الاجتماع طوائف كثيرة ميدان المعركة ،الامر الذى ظل علم الاجتماع يحمل آثارها حتى اليوم ، والمتتبع للنظريات السوسيولوجية المعاصرة يستطيع أن يلحظ مظاهر التبـاين فى مسألتين :

الأولى : منهجية ، وتدور حول طبيعة المنهج الذى يطبق على دراسـة ظواهر المجتمع الانسانى وإصطلاحاته المختلفة ، ولهذا نجد المتشيعين لمناهـج العلوم الحيوية والمشبهين للمجتمع بالكائن العضوى ، وما تفرع عن ذلك من شعب مختلفة فى النظرية السوسيولوجـية ، ونجد أيضـا المتشيعين لمناهـج العـلوم الطبيعية والمشبهين لحـقائق المجتمع بالمواد وما فيها من حركة داخلية وطاقة وتوازن وتجاذب وتنافر وغير ذلك ، كذلك نجد المتشيعين

لمناهج العلوم الرياضية،وجوهر ادعائهم أن كمال العلم فى إمكان صياغة نتائجه فى صورة رياضية ولن يكون علم الاجتماع علما إلا إذا استطاع الوصول إلى هذه النتيجة. الأمر الذى أدى إلى تقديس العدد وتجريد الحقيقة الاجتماعية من مضامينها الحقيقية ومن وشائجها الحيوية ولننى أتصور المغالين فى اهمية الأرقام والجداول فى فهم الحقيقة الإجتماعية بمن يحصى من القتلى فى ميدان المعركة،ويصنفهم بحسب رتبهم وسنهم ومواطنهم الأصلية ، متناسيا ان كل واحد منهم إنسان عاش حياة معينة تفعمت بمختلف الإتجاهات والإنتماءات ثم ينتهى من هذه الدراسة ببحث عن المقاتلين .

الثانية : موضوعية ، وهى لازمة ومترتبة على الأولى ، ذلك ان الميل المنهجى يؤدى فى اغلب الأحيان إلى ضرورات موضوعية معينه . ويظهر التباين « الموضوعى » فى الموضوعات الأساسية التى تكون مادة البحث فى علم الاجتماع . وتصور تعريفات علم الاجتماع هذا التباين خير تمثيل. والموضوع الأساسى الذى التزمه كثير من الباحثين،أن علم الإجتماع يدرس « الظواهر الاجتماعية » الأمر الذى أدى إلى متناقضات كثيرة خصوصا فى موقف علم الإجتماع من العلوم الاجتماعية . وثمة إتجاه آخر يميل إلى تحديد « التفاعل الإجتماعى » كأهم موضوع لعلم الاجتماع . وهناك فريق آخر يدافع عن « الجماعة الاجتماعية » كموضوع جوهرى فى علم الاجتماع ، وغيرهم يعتقد أن دراسة العمليات الإجتماعية الإضطرادية تمثل المركز الذى يجب ان تدور عليه كل أبحاث علم الاجتماع . (١)

ولعل فكرة العلم وحدوده المختلفة،هى التى أثارت كل هذه الخلافات بين

1 - Timasheff, N S; Sociological Theory, Garden City, N.Y., 1955, PP. 293-299

علماء الاجتماع وفى هذا الصدد يقول « كوهين » أن العلم فى أضيق معانيه يعنى الوصول إلى القوانين العامة التى تقيم الصلة المنطقية بين الحقائق المختلفة، كما أن المنهج العلمى بأوسع معانيه يساعد على تدعيم الفروض بتخليصها من الأخطاء ومن أشباه الحقائق (١) ومعنى هذا أن الغاية العظمى من البحث فى علم الإجتماع الوصول فى رأى « كوهين » إلى قوانين وأن فاعلية المنهج العلمى تكون فى قدرته على مد الباحثين بالفروض المبدئية للدراسة ، وربما لا يكون هناك اختلاف كبير بين علماء الإجتماع حول هذه النقطة، وإنما مرد الخلاف إلى طبيعة المنهج العلمى الذى يجب أن يتبع كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

ويجمع علماء المناهج مثل « كارل بيرسون » و «دوهيم» و «بوانكريه» على أن الحقائق وحدها لا تصنع العلم . أى أن العلم لا يعرف عن طريق موضوعه ، فهو وحدة تنضوى تحت لوائها جميع العلوم المختلفة . ويتميز كل علم عن الآخر باختلاف موضوعه وباختلاف وسائل الملاحظة العلمية فيه . ولهذا يكون العلم فى أى فرع من فروع المعرفة وسيلة للحصول على المعرفة المضبوطة عن أى نوع من أنواع الظواهر التى تنظم الكون وتطبيق هذه المعرفة فى عمليات التنبؤ والضبط (٢) ولهذا يمكن النظر إلى الجدل الذى قام حول علمية علم الاجتماع خارجا عن نطاق بحثنا الآن ، وكل الذى نود أن نشير إليه أنه يجب على دارس المجتمع ليكون علميا أن يتبع منهجا معينا لنتأكد انه لا يسير طبقا لفكرة فلسفية او متأثرا بمدرسة خاصة من مدارس التفكير ، لأنه يجب أن يسير حسب ما يمليه عليه المنهج العلمى مهما

1- Cohen. Y. R. Ency clopaedia of Social sciences

2- Lundberg, Foundations of Sociology, New York, 1939, PP. 5-10

كانت النتائج التى يصل إليها ، فالأمانة العلمية تقضى أن نكون محايدين ، ولم يتقدم علم الاجتماع إلا بعد ان طرح العلماء الأفكار القبلية او التأثرات الخاصة .

وهناك جانبان للعلم ولنشاط العلماء . الجانب الأول يتمثل فى خلق او بناء نظرية عامة لطبقة معينة من الظواهر، والعالم الذى يهتم بمثل هذا العمل يجد ان أى حالة خاصة من الظاهرة محل البحث يجب ان تكون محل إهتمام فقط كجزء من المادة التى تستطيع استخدامها لتكوين فروضه أو اختبارها، ومثل هذا النوع من النشاط العلمى يشار اليه غالبا على أنه علم خالص او نظرى . والجانب الثانى تطبيق ما أمكن إقامته من معرفة عامة لشرح ظاهرة معينة أو فهمها، ويقال لمثل هذا النشاط « العلم التطبيقى » ولهذا يكون الطب تأسيسا على ذلك علما تطبيقياً يقوم على علوم نظرية مثل الفسيولوجيا والباثولوجيا[1]. والعلم الذى يشترك فى مثل هذا العمل لا يكون الهدف الأساسى فيه الإضافة إلى النتائج النظرية العامة، بل الوصول إلى تفسير لحالة خاصة من الظواهر يكون العلم مهتما بها . وهذان النوعان من النشاط العلمى متساندان تماما وقد يطبقان معا ، ولفهم علاقة كل منهما بالآخر لا بد أن نميز بينهما منذ البداية، ولذلك كان من المستحسن فى أى دراسة نقوم بها ان نعرف ما نحاول ان نفعله، ومثال ذلك إذا كنا بصدد دراسة لنظام اجتماعى مثل « القرابة » فان الباحث الإجتماعى ينظر إليه على أنه نسق اجتماعى معين ويعتبره « موضوعا » يزوده بمجموعة من الحقائق الواقعية يمكن ان يستخدمها فى إقامة نظرية او اختبارها ، ولكن من ناحية أخرى يمكن إستخدام المعرفة

---

1 - Radcliffe-Brown, Daryll Forde, African Systems of Kinship and marriage, oxford, PP. 2-3

النظرية لفهم مظاهر نسق اجتماعي معين . وفي ضوء المعرفة النظرية العامة التي تنتج عن الدراسة المقارنة للمجتمعات يستطيع العلم أن يقوم بتحليل لنسق خاص بحيث يمكن لأي مظهر معين فيه أن نراه في علاقته بالمظاهر الأخرى لهذا النسق ومكانه من النسق ككل، وقيمة اي دراسة كهذه وصدقها تعتمد في المحل الأول على مدى دقة الأفكار النظرية العامة التي توجهها .

وقد دارت مناقشات كثيرة حول ما يكون علما وما لا يكون في علم الاجتماع وربما كان ذلك مرجعه أن العلم مسألة درجة، وقد نجحت كثير من العلوم في تنظيم مادتها وفي تعميق قدرتها على التنبؤ أكثر مما فعل علم الاجتماع، ولكن علم الاجتماع مع هذا له - وعلى الرغم من ذلك - الخصائص التالية للعلم :-

(ا) الواقعية ، أي أنه يقوم على الملاحظة والفحص وتحري العلل ولا يقوم على علاقات غيبية، كما أن نتائجه ليست تأملية . والعلوم في مراحلها المبكرة الخلاقة تقوم على التأمل بالطبع ، ولكنها وبطريقة مثالية تخضع هذا التأمل للاختبار وفحص الوقائع قبل إعلانه على أنه كشف علمي .

(ب) النظرية : أي أنه يحاول أن يلخص الملاحظات المعقدة في قضايا مجردة ومرتبطة إرتباطا منطقيا بحيث يمكن شرح العلاقات العلية التي تربط الحقائق بعضها بالآخر .

(حـ) التراكمية : أي أن النظريات السوسيولوجية تبنى بعضها فوق فوق بعض فالنظريات الجديدة تصحح وتوسع وتنقي النظريات القديمة .

(د) الموضوعية : أي أن النظريات السوسيولوجية ليس لها طابع أخلاقي، ولذلك لا يسأل علماء الإجتماع عما إذا كانت أفعال إجتماعية معينة حسنة أو رديئة، وإنما يحاولون شرحها وحسب .

إن علم الإجتماع لم يصل بعد فى كل هذه الخصائص إلى درجة الـكمال ، ولكن التقدم ماض إلى الإمام باستمرار .

مفهومات ضرورية :

١ – ترجع اهمية العلم إلى أهمية المعرفة خصوصا إذا ما قورنت بالمعتقدات أو الخرافات،أو إذا وضعت جنبا إلى جنب مع المفاهيم غير الناضجة التى تنجم غالبا عن قلة المعلومات أو عدم دقتها ومثال ذلك أننا كـنا نعتقد يوما ما كما زعم « ليفى برول » بأن العقلية البدائية تختلف نوعا عن العقليـــة المتحضرة، ونسى أن اختلاف الثقافة ربما أدى إلى اختلاف أنماط التفكير وننسى أيضا أن ظروف التنشئة الإجتماعية يمكن أن تجعل الطفل الذى ولد فى أكـثر الثقافات تقدما بدائيا خالصا إذا نشأ وسط مجتمع بدائى،ولـكننا نعلم اليوم أن مثل هذا الزعم خاطىء،لأنه قام على أساس نظرى غير سليم، فالمعـــــرفة لا تزودنا باليقين أو بشىء مقارب له فحسب بل أنها تطارد الخـوف والجزع الذى ينجم من عدم التثبت من طبائع الأشياء ولذلك فالتعريف الموجز للعـلم أنه معرفة (١).

وفى هذا الصدد يجب أن نعلم أن المعرفة والأفـكار ليستا شيئا واحـدا، لأن كل الأفكار ليست جميعاً معرفة ،فهناك مثلا فكرة فى أن وجود حكومة عالمية سيؤدى إلى منع الحروب.أو أن الشخص يتحدد مستقبل نمـوه العقلى إلى الإختلال أو التكامل فى سن الخامسة،وربما أمكن إثبات هذه الفكرة

I — Ogburn, Nimkoff. A Handbook Of Sociology. London. 1960. PP. 1 - 15

ومن ثم تصبح معرفة،او قد يؤدى البحث فى النهاية إلى إثبات عدم صحتها هذا إلى أن كثيرا من الأفكار لا تتردد لتصبح خاضعة للاثبات أو الدحض وإنما تذيع لمجرد التسلية أو قد تكون من قبيل الأحلام أو التمنيات كما أن بعضها قد يستخدم للاثارة أو التخويف . ومع ذلك فاننا لا ننـــكر بأن الأفكار تشكل مادة النشاط الذهنى وتكون لامعة وجذابة عندما لا تخضع للتحديدات المنهجية وخاصة عندما تغلف باطار انفعالى . ولهذا فاننا نحب أن نناقش وجوه الحسن فى الحياة والهدف من وجود العـــالم وطبيعة الحكمة وهكذا.وعلى ذلك تكون الأفكار مادة مهمة بالنسبة للعالم الإجتماعى كما هى أيضا كذلك بالنسبة لغير العالم . فالعالم الإجتماعى يحتـــاج إلى تصورات يمكن أن تؤدى إلى مزيد من التبصر والفروض،ولكنه يعالجها بفرض محدد وهو إمكان تحويلها إلى معرفة أو أن يكتشف فى نهاية الأمر أنها من طبيعة تستعصى على التحديد العلمى .

٢ ـ فى بعض الأحيان تكون الأفكار من الـكثرة والتعقيد بحيث يلزم أن نقرر منذ البداية ما يمكن أن يدخل منها فى باب المعرفة وما لا يمـكن ، ولذلك يواجه العالم الإجتماعى بسؤال هام عليه أن يجيب عليه بعناية تامة : ما الأفكار التى تصلح معرفة وما لا تصلح ؟ ومثال ذلك أن هنـاك نظريات كـثيرة عن عوامل انحراف الأحداث مثل نظرية الضعف العقـلى والنظرية العصابية ونظرية البيت المهجور ونظرية التعلم الإرتباطى . والسؤال الآن : كيف نثبت أن واحدة من هذه النظريات أو كلها يمكن أن يصلح معرفة ؟ الطريق العلمى أمامنا هو أن نجمع الحقائق المتصله بكل نظرية ثم ننظر لنرى إلى أى حد يمكن أن تثبت الحقائق المجمعة هذه النظرية أو تلك . ولهـــذا يكون العمل العلمى معنيا بالمادة والأفكار فى نفس الوقت ، ولـكن المادة

ليس من السهل جمعها فى كل الأحوال،وتواجه عمليات الجمع صعوبات نسبية فى جميع العلوم،فمادة العلوم الطبيعية مثلا بسيطة يمكن أن نجمعها داخل معمل ولكن فى علم الإجتماع لا نستطيع ان نحصل على مادته إلا عن طريق العمل الحقلى،وغالبا ما يستغرق جمع مثل هذه المادة وقتا طويلا إلى جانب بهاظة التكاليف فى بعض الأحيان .

٣ - يعتبر التحيز الناجم عن العاطفة من أهم معوقات البحث العلمى، ويجد أرضا خصيبة إذا كانت المادة غير كاملة أو غير دالة ، الأمر الذى يؤدى إلى انحراف النتائج،التى نصل إليها والتقليل من الدقة الواجبـــة ودرجة الاعتماد على هذه النتائج،ويرجع التحيز إلى أن علم الإجتماع يعالج موضوعات لــكل منا ازاءها عاطفة معينة كما هو الحــال بالنسبة لموضوعات الجنس والأسـرة والجريمة والفقر.ويظهر تأثير التحيز بوجه خاص فى عملية التنبؤ التى إن لم تقم على أساس معلومات عالية الدقة،فان ما يمكن تأسيسه عليها ينهار تماما فى مدى قصير،وتظهر خطورة هذا الموقف إذا كـنا بصدد تطبيق نتـائج العلم فى التخطيط .

٤ - العلم إذن ليس فنا من الفنون،وهو يخاطب التفكير،ومع ذلك فاننا نفكر كثيراً ولـكن بطريقة غير علمية ، فهدف العلم أن يصل إلى المعرفة وليس من شأنه أن يؤدى إلى الحـــكمة (١) . والعلم كذلك يختلف عن الأخلاقيات،الا أن المعرفة التى نحصل عليها عن طريق العلم تكون ذات فائدة فى الأغراض العملية،ومما لاشك فيه أن القيم السائدة فى المجتمع والأخلاقيات

---

1 - Ibid., PP. 3-15.

تعتبر موجهات السلوك الفردية أو الجماعية،فاذا كنا بصددالاختيار بين الإقامة في مدينه أو في قرية ،فان مجموعة من العوامل الذاتية يمكن أن تتدخل في الإختيار كما هوالحال بالنسبة لتفضيلنا لألوان معينة . لكن المعرفة العلمية يمكن أن تؤثر خصوصاً في عصرنا هذا في القيم التي توجهاختيارنا لأى أمر من أمور حياتنا المادية أو المعنوية،ومع هذا فان موضوع العلم لا يتعلق بخلق القيم ، ويعبر العلماء عن هذه النقطة أحياناً بالتميز بين الوسائل والغايات أو بمعنى آخر نقول،إن وظيفة العلم أن يهيء الوسائل التي نصل عن طريقها إلى الأهداف المتعلقة بالقيم التي نؤمن بها ،وفيعلم الإجتماع يختار الباحثون غالبا مسائل يهدفون من ورائها إلى الكشف عن معرفة جديدة تفيد الجنس الانساني،ولهذا يحاول عالم الإجتماع أن يكتشف عوامل الجريمة التي قد تستخدمفي نواح متعددة ،من بينها زيادة الجريمةنفسها،ولكنعلماء الإجتماع يأملون أن تؤدى معرفة هذه العوامل إلى الاقلال من نسب الجريمة . ومعنى هذا أن علم الإجتماع حين يبدأ من النظر وينتهى إلى النظر فانه لايغض الطرف مطلقاً عن النواحى التطبيقية التى يمكن استخدام نتائجه فيها ،ذلك أن عالم الإجتماع لايبحث في الفراغ ،وإنما يستمد انبعاثاته العلمية وفروضه الموجهة لدراساته من حياة المجتمع ومشاكله المتعددة ،ولذلك فتصنيف البحث في علم الإجتماع إلى بحث نظرى وبحث تطبيقي، تصنيف غير متفق تماما مع علم الإجتماع، ولسوف تبرز هذه الناحية عند مناقشتنا لفكرة التطبيق في علم الإجتماع .

٥ — المعرفة العلمية تظل قابلة للتوضيح والإضافة والتعديل نتيجة لتقدم البحث العلمى واستمراره ، ومع هذا يجب أن تصبح محل ثقة ولها خاصية الدوام التى تبدو على وجه خاص في نتائج العلوم الطبيعية والبيولوجية

ونظراً لعدم إتساع نطاق البحث فى علم الإجتماع،فان بعض معارفه لا تصدق فى كل زمان ومكان . ولهذا لا يمكن أن تكون لها صفة العمومية . ومع ذلك فان كثيرا من المعارف السوسيولوجية يمكن تطبيقها على نطاق واسع بغض النظر عن الاختلافات الثقافية ، ومثال ذلك، إذا أردنا أن نتحقق من القول بأن نسب المواليد فى المدن أقل منها فى المناطق الريفية ، وجدنا أنه يصدق فى الشرق كما يصدق فى العصور الوسطى . وعلى الرغم من أن ما يتوصل إليه علم الإجتماع محدد بالزمان والمكان نظراً لاختلاف العامل الثقافى وتغيره، فانه مثل جميع العلوم يحاول أن يكتشف القوانين التى لها عمومية التطبيق بغض النظر عن اختلافات الثقافة .

المنهج العلمى : ١)

إن الاهتمام بالمنهج العلمى يمثل فى علم الإجتماع نقطة جوهرية . وقد اهتم بالمنهج العلمى كل علماء الاجتماع تقريبا منذ ولادته الشكلية على يد أوجيست كومت. وقد تزايد الإهتمام به فى السنوات الأخيرة ، حين نمت طرق البحث الاجتماعى المتعددة باعتبارها أدوات الملاحظه العلمية ، الخطوة الأولى فى المنهج العلمى . ووضح لعلماء الاجتماع أن التثبت من المنهج العلمى أمر جوهرى فى كل مراحل الدراسة ، ومؤهل ضرورى للمبتدئين يمكنهم من إجراء بحوث أفضل . ولهذا كان التدريب على معالجة المنهج العلمى

---

١ ـ سنعتمد فى عرض هذا الموضوع على الكتب الآتية :

a - Lundberg; Social Research, 1942

b- Lundberg; and Othes; Sociology; 1958

c- Lazarsfeld & Rosenberg; The Language of Social Research, N. Y., 1962

ضرورة موضوعية . ويحصل عالم الطبيعة على هذا التدريب بدراسة الرياضة وبتعلم العمليات المحددة التى تتضمن التجريب . ويتلقى البـــاحث فى المسائل الإنسانية هذا التدريب من خـــلال الدراسة المركزة للغات الكلاسيكية . ولكن التدريب الذى يناسب الباحث الطبيعى والإنسانى لا يقابل الحاجات والمطالب التى تواجه العالم الإجتماعى الحديث . فعـلى الرغم من ان الصور الرياضية والدراسات التجريبية تزداد أهميتها كل يوم وتلعب دورا هـاما فى إستقصاء السلوك الإنسانى ، إلا أنها لن تصبح الوسائل الرئيسية فى المستقبل القريب . وعلى الرغم أيضا من أن الباحث الإجتماعى يمكن أن يستفيـد من دراسة اللغتين اللاتينية واليونانية ، إلا أن اهتمامه الرئيسى بالمادة المعـاصرة ، يحد من الفائدة التى تعود عليه من دراسة هذه اللغات الكلاسيكية . ولذلك كان عليه أن ينمى طرقا للتفكير بأسلوب آخر . أو بمعنى آخر يمكن القول ، إن نوع التحليل المطلوب فى الدراسات المنهجيـة هو الذى يحـــدد التدريب المناسب .

ويزيد المنهج العلمى قدرة العالم الإجتماعى على مواجهـــة التطورات الجديدة أو غير المألوفة فى الميدان الذى يتخصص فيه . وخير ما يوضح هذه النقطة ، هو أن نميز تمييزا واضحا بين المنهج العامى والوسائل الفنية (طرق البحث الإجتماعى) . فالفرد الذى يتعلم كيف يصمم بعض الإجراءات أو الإختبارات ، أو ذلك الذى يتفوق فى تطبيق بعض الطرق الإحصائيـــة ، يتمكن من المهارات التى تكون فى متناول اليد فى لحظة معينة . وقد يـكون قادرا أيضا ــ فى المستقبل ــ أن يتعلم المهارات الجديدة ، كما أنه يستطيع أن يفاضل بين هذه المهارات جميعا من حيث صلاحية بعضها أو عـدم صلاحية البعض الآخر . ولكن هل يستطيع أن يدرك المزاعم التى تكمن وراء هذه

الوسائل الفنية ، وهل عنده من القواعد والمقاييس ما يمكنه أن يقدر على أساسها مناسبة إجراء معين لمسائل معينة ؟ والواقع أن القدرة على إصدار أحكام من هذا النوع لا يمكن أن نصل إليها من مجرد تعلم الوسائل الفنية التى تستخدم الآن أو التى استخدمت فى الماضى . وما هو مطلوب إذن هو ذلك النوع من التمرين الذى يمكن الباحث من مقابلة ومعالجة المواقف البحثية المختلفة لعشر أو عشرين سنة . ذلك لأن المتدرب تدريبا جيدا فى المنهج العلمى سوف يكون فى استطاعته لسنوات عديدة فيما بعد ، أن يواجه التطورات الجديدة فى العلم الذى يتخصص فيه ، وسوف يكون فى استطاعته أيضا أن يحكم على محاسنها،وأن يربط الجديد بالقديم ، كما أنه فى هذه الحالة ، يتمكن من تخير ما يريد أن يضيفه ليصبح جزءا متكاملا من تفكيره .

ولعل أهم معاونة يقدمها المنهج العلمى للعلوم الإجتماعية ، هى توجيه الدراسات التى تهتم بالموضوعات المتداخلة بين هذه العلوم . والإهتمام بالدراسة الإجتماعية المتداخلة ينمو فى السنين الأخيرة ليحطم الحدود الفاصلة ، والحواجز التى تقيم الفواصل العميقة بين فروع العلم الإجتماعى . ويضع العلماء ثقتهم فى المنهج العلمى الذى يقع عليه وحده عبء إزالة هذه الفواصل ويكفى أن نفحص جيداً موضوع كثير من العلوم الإجتماعية ، فنجد أنها قد تدرس موضوعات واحدة ولكن اختلاف المصطلحات التى يستخدمها كل علم هو الذى يباعد من نقطة الإلتقاء بينها . وهنا يجب أن نشير إلى أن تأكيدنا لأهمية المنهج العلمى لا يجب أن يقودنا إلى المبالغة فى فى دوره فى تقدم العلم ، كما لا يجب أن يقودنا أيضا إلى التقليل من أهمية البحث فى الواقع . وفى هذا الصدد يقال ، إن الدارس الخلاق هو الذى يقوم بالبحث ، اما الدارس العقيم فهو الذى يتكلم عن هذا البحث .

تطبيق المنهج العلمي عمليا :

يفضل كثير من العلماء التفرقة بين المنهج العلمي باعتباره مجموعة من العمليات العقلية التي تقود أي دراسة علمية مهما كان موضوعها ، وبين أدوات البحث العلمي ، التي هي في واقع الأمر وسيلة كل علم لجمع الحقائق بطريقة خاصة ولهدف معين . ومن أجل هذا يقال إن المنهج العلمي واحد في جميع العلوم بينما تختلف أدوات بحث كل علم بحسب طبيعة موضوعه . ويعبر وليام أجبرن Ogburn عن هذا الفصل بين المنهج العلمي وأدوات البحث بتطبيق فكرته في التخلف الثقافي فيقول ، إذا نظرنا إلى المنهج العلمي وأدوات البحث باعتبارها عناصر ثقافية، فان المنهج العلمي يصنف ضمن الثقافة اللامادية ،وطبقا لنظريته يزداد تغير أدوات البحث بازدياد الإختراع والتجديد فيها ، بينما لا يحدث ذلك بالنسبة للمنهج العلمي ومن أجل هذا يحدث التخلف بين أدوات البحث وبين منهج العلم. ويشير أجبرن بذلك إلى التقدم الكبير - في رأيه - في أدوات البحث الإجتماعي المتعددة ، بينما ثبت المنهج العلمي عند التحديدات التي وضعها ديكارت وبيكون ودوهيم وبوانكاريه وكارل بيرسون وغيرهم من علماء المناهج .

إن استخدام أدوات معينة في جمع الحقائق في ميدان علم الإجتماع، لابد أن يكون موجها على أساس الفهم العميق للمنهج العلمي ، لأن مجرد جمع الحقائق مهما تشعبت وسائلها وبلغت مبلغا عظيما من الدقة ، يصبح عبثا من غير تثبت واضح من خطوات المنهج العلمي من ناحية، ومن الإطار النظري الذي يحدد الأفكار والمفاهيم تحديدا دقيقا من ناحية أخرى . واستخدام أي أداة من أدوات البحث الإجتماعي لابد أن يسبق إذن بتحديد واضح للمشكلة أو الموضوع محل الدراسة ، إلى جانب الإحتياطات الأخرى

لسلامة الأداة وفاعليتها فى جمع المعلومات ، مثل الدراسات الإستطلاعية وحسن اختيار العينة واستجلاء الصعوبات وغير ذلك من المتطلبات الضرورية فى البحث العلمى . وقد استحدثت العلوم الإجتماعية عددا من أدوات البحث من أهمها : الإستخبار Questionnaire والمقابلة Interview ودراسة الحالة Case Study ، تعتمد جميعا على أنواع من الأسئلة تصمم وتبنى وتستخدم لأغراض متعددة ، هذا إلى جانب الاعتماد على البيانات والوثائق والسجلات الإحصائية [1] .

ومن أحدث طرق البحث الطريقة المسماة « السوسيومترى Sociometry أو القياس الإجتماعى » التى يعتبرها صاحبها مورينو Moreno علما قائما بذاته يقف جنبا إلى جنب مع علم الإجتماع والإشتراكية العلمية، ويرفض أن تكون مجرد وسيلة من وسائل البحث الإجتماعى [2] .

ويقول جورج لندبرج . إن الهدف الأول للعلم الاجتماعى ، أن يقيم نسقا من المقررات المحققة أو القوانين العلمية ، التى تمكننا من فهم وضبط وجوه النشاط الإنسانى والتنبؤ بها ، وخاصة تلك الوجوه التى تهمنا فى الدرجة الأولى . وقبل أن نقرر أن قانونا أو قضية لها صفة الصدق ، يجب أن نخضعها للاختبار الواقعى التجريبى . وهذا الإختبار فى حد ذاته عبارة

---

١ ـ يمكن للطالب الذى يريد أن يتفهم أساليب البحث الاجتماعى أن يرجع الى الكتب الآتية.

(١) الدكتور جمال زكى والسيد يس ، أسس البحث الاجتماعى، ١٩٦٣ (ويتميز هذا الكتاب بالشمول والاحاطة بكل التطورات التى وصل اليها فن البحث)

(٢) الدكتور ابراهيم أبو لغد والدكتور لويس مليكه : البحث الاجتماعى ١٩٤٩٠

(٣) الدكتور محمد طلعت عيسى : البحث الاجتماعى ، ١٩٦٠

2- Moreno, L. (ed) The Sociometry's Reader, Illinois 1960.

عن عمل يقوم على الخبرة والتجربة التي تأيدت عن طريق عدد من الملاحظين المؤهلين للملاحظة المنظمة . ومثل هذا الإختبار أيضا لا يعتمد على مجرد تجميع ادلة تثبت صحة القانون ، بل إنه يشتمل على سلسلة من الملاحظات المضبوطة والمنظمة التي يمكن أن تدحض القانون أو تشكك في صحته . وعلى الرغم من أن العلوم الإجتماعية لم تتوصل بعد إلى « مخبار » مثالى ، فان هذا لا يمنعنا من أن نضع في الذهن دائما أن وظيفة البحث ، جعل ملاحظاتنا لها القدرة على إثبات فروضنا أو رفضها أو تعديلها .

ميادين نامية في البحث :

تمر الموضوعات التي تحظى باهتمام الباحثين في علم الإجتماع بتغيرات عميقة ، ونلاحظ أنه مع ثبات الإهتمام بالموضوعات التقليدية التي تتناول ظواهر أو علاقات لها صفة العموم النسبي سواء في البناء الإجتماعي أو في التغير الإجتماعي ، إلا أن هناك ميلا يعمق جذوره وبسرعة للتركيز على وحدات ينظر إليها باعتبارها الخلايا الأساسية في بناء المجتمع ، أو الخيط الأساسي الذي يتكون منه نسيج العلاقات الإجتماعية مهما أتخذ من صور أو أنماط . وقد صاحب هذا الإتجاه الجديد إعادة فحص أدوات البحث لتتناسب مع أهدافه ، ولذلك تراجع الآن مدى كفاية الإستخبار والمسح والمقابلة للنهوض بهذه الأهداف ، وغالبا ما يدخل عليها تعديلات جوهرية من حيث المبنى والوظيفة . وسوف نعطى لمحة سريعة لهذا كله فيما يلي :

١ - نمت إلى جانب الدراسات الديموجرافية (السكانية) والإيكولوجية (البيئة والإنسان) ، دراسة الجماعات الصغيرة ، التي تتميز بقلة العدد (الحجم الصغير) وبالتفاعل المباشر بين الأعضاء . ومن المعروف أن دراسة السلوك

الجماعى ووصفه ، موضوع قديم فى علم الإجتماع . ولكن الجديد اليوم هو الإهتمام المتزايد بالدراسات التجريبية فى هذا الميدان. وفى نفس الوقت يهتم الباحثون بدراسة الجماعات فى ظروفها أو وضعها الطبيعى مثل دراسة جماعات الصناعة أو جماعات اللعب وغير ذلك . ولا يقتصر الإهتمام بدراسة الجماعات على اتجاه معين فى العلم الإجتماعى .

ا ـ فهناك اتجاه نفسى اجتماعى ابتدعه كورت ليفين Kurt Lewin لدراسة الجماعة ويعرف بطريقة غير محددة باسم مدخل « ديناميات الجماعة » .

ب ـ وهناك الإتجاه السوسيولوجى الذى يقوم على رأسه بيلز Bales ، والذى يعالج الجماعة الصغيرة باعتبارها نسقا إجتماعيا .

حـ ـ وهناك أخيرا « السوسيومترى Sociometry » التى استحدثها مورينو ، والتى تدرس الجماعة عن طريق أسلوب خاص فى قياس العلاقات داخلها .

٢ ـ وقد ظهر الإهتمام الكبير ببحوث الجماعة الصغيرة بتدعيم طرق ملاحظة التفاعل الذى يتم بين أعضاء الجماعة الواحدة . ومن أجل هذا ظهرت عدة طرق للملاحظة المنظمة ، ومن أهمها الطريقة التى ابتدعت نظاما تصنيفيا لتسجيل التفاعل . ولم تقتصر دراسات الجماعات الصغيرة على اكتشاف عدد من النتائج المتعلقة بنواحى التفاعل المختلفة، مثل انماط وسائل الإتصال وبناء السلطة ومصدر القوة فى الجماعة ، وفاعلية الجماعة وإنتاجيتها وتماسكها وغير ذلك ، بل إنها قربت المسافة بين النظرية والبحث . ومن أبرز الأمثلة

على ذلك أن النتائج التى توصل إليها بيلز دعمت بعض نظريات تولكوت بارسونز ، التى اثارت بدورها اهتمامات أخرى فى مزيد من النتائج التجريبية. ويرى بعض الباحثين ، أنه إذا استمر هذا الإتجــاه فى النمو ، سوف تصبح دراسة الجماعات الصغيرة مصدر خصب للنظرية السوسيولوجية (١) .

٣ ـ أصبحت السوسيومترى عند مورينو والتى كان من أهم أغراضهـــا قياس أنماط التجاذب والتنافر بين أعضاء الجماعة ، مدخلا يستخدم إستخداما واسع النطاق فى دراسة الجماعة الصغيرة . وقد أصبحت بعض اصطلاحاتهـا مثل القيام بالدور ، والعلاج الجماعى والسوسيوجرام ،مألوفة فى لغــة علم الإجتماع . ولكن هناك إتجاه سوسيومترى آخر ابتعد إلى حد ما عن اتجاه مورينو الأصلى ، الذى كان ينظر إلى السوسيومترى كنهج فى خفض حدة الصراع الذى يقوم بين الأشخاص ،ويبدو هذا فى الإهتمام «بتحليل العلاقة» عن طـريق سؤال الفرد أن يقرر عمـا إذا كان أعضاء الجماعة الآخرون يتقبلونه أو يبتعدون عنه ويرفضونه .

٤ ـ وهناك إتجاه آخر قريب لاتجاه دراسة الجماعات الصغيرة ، يبدو فى الإهتمام بنسق الترتيب الطبقى الذى يربط الأفراد بعضهم بالآخـــر ، وتختار المجتمعات المحلية ميدانا لمثل هذه الدراسات . ومثال ذلك أن وليـام وورنر William .Warner نشر بالإشتراك مع زملائه ومعاونيـه دليـــلا مفصلا للاجراءات التى يمكن استخدامها لدراسة المكانة الإجتماعية فى مجتمع

1 — Tiryakian, E.A.; Methodology and Research; in Roucek K: Contemporary Sociology, London, 1959, PP. 157-1650

محلى يسمى جونزفيل Jonesville ، وفي هذا الدليل يرى وورنر ، أن تعيين أو تحديد الأفراد في مكانهم من الطبقة الاجتماعية موضع النظر ، يعتمد على طريقتين مختلفتين ، الأولى سماها « المشاركة المقومة Evaluated Participation » وتشتمل على ست وسائل فنية لقياس المعدلات ، عن طريقها يقوم الخبيرون المشاركة الاجتماعية لأعضاء المجتمع المحلي . وينظر أغلب الباحثين إلى هذه الطريقة على أنها طريقة ذاتية . والثانية ، سماها « دليل أو فهرست خصائص المركز (Index Of Status Characteristics (I. S. C وهي عبارة عن دليل لأربع عوامل اجتماعية إقتصادية هي ، المهنة ومصدر الدخل ، وطابع المنزل ومنطقة الإقامة . وينظر إلى هذه الطريقة باعتبارها طريقة موضوعية تترجم المفاهيم المتعلقة بالطبقة الإجتماعية إلى إصطلاحات أو معاني إجتماعية إقتصادية والعكس . وقد زعم وورنر أن هاتين الطريقتين وما تمخضت عنها من نتائج يمكن أن تطبق على كل أنحاء الولايات المتحدة ، ولكن هذا الزعم قوبل بنقد شديد من عدد كبير من الباحثين في علم الإجتماع لاعتبارات تتصل بالمنهج وبوحدة الدراسة المختارة . (١) ومن المحتمل ، إذا كان هذا المدخل لدراسة الطبقة الاجتماعية لا يصلح في ظل الثقافة الأمريكية المتميزة ، ألا يصلح أيضاً للتطبيق في مجتمعات أخرى ذات ثقافات مختلفة (٢) . وقد حاول علماء الاجتماع أن يسدوا النقص الذي ظهر في دراسات الترتيب الطبقي للمجتمعات المحلية ، بأن يبتدعوا الطرق

---

1 — Ibid; p. 159

٢ — ولمزيد من الايضاح وبيان وجوه النقص في طريقة وورنر يمكن الرجوع الى :

Bendix. R & Lipset, S; Class, Status and Power, 1961, pp. 224-255

التى يمكن معها دراسة هذا الموضوع فى النطاق القومى ، وذلك بوضع قائمة للأدوار المهنية التى يسهل تصميمها عن طريق عينات ممثلة من السكان .

٥ - وقد نما الإهتمام أيضا بأدوات البحث عن طريق إدخال تحسينات منهجية عليها . فالمسح الإجتماعى كطريقة يراجع الآن ليؤدى وظيفته بطريقة أفضل وليخدم أهدافا منهجية عامة فى نفس الوقت ، ويحل الإستخبار الآن محل المذكرات الشخصية والوثائق الخاصة بتاريخ الحياة ، ووجهت إليه عناية كبيرة فيما يتعلق ببناء الأسئلة وتنظيمها . كذلك زاد الإهتمام « بالمقابلة أو الاستبار » كوسيلة فنية لجمع الحقائق وتعددت أنواعها لتؤدى أغراضا مختلفة . هذا وقد تزايد الاهتمام - بتأثير علم النفس الاجتماعى - بالوسائل الفنية للقياس التى تستخدم المعادلات الرياضية ، وخاصة فى قياس الاتجاهات . وقد كان هذا الاهتمام بطرق البحث وأدواته صدى لإحساس علماء الاجتماع أن تقدم المعرفة فى علم الاجتماع يتوقف على مدى نجاحهم فى الوصول إلى أدوات لجمع الحقائق لهـا من الدقة ما يسمح بالاطمئنان إلى صدق هذه الحقائق وثباتها .

إن الإتجاهات الجديدة فى دراسة الجماعات الصغيرة أو دراسات المجتمع المحلى وما صاحبها من إعادة النظر فى أدوات البحث والقياس ، لم تلق ترحيب جميع علماء الاجتماع .بل أنها تعرضت لنقد لاذع من عالم كبير من علماء الاجتماع المعاصرين « سوروكن » فى كتابه

« Fads and Foibles in Modern Sociology »ومن أهم نقداته قوله ،إننا لا ننكر أهمية الاحصاء والقياس فى دراسة مسائل العالم الاجتماعى والثقافى ،ولكن محاولة تقليد العلوم الطبيعية بالبحث عن معادلات رياضية

إتجاه يخرب علم الاجتماع ويكشف عما سماه « هوس الاختبارات » ويزيد الأمر سوءا جهل وادعاء الذين يعتبرون قادة هذا الميدان. ويهاجم سوروكن ايضا أولئك الذين ينتقلون من ميدان إلى آخر فى علم الاجتماع وبيدهم علم لجيش من الخشب المسددة هو « الاستخبـــار أو غيره من أدوات البحث » دون معرفة أو دراية صحيحة بالنظرية السوسيولوجية أو بتاريخ الفكر أو بالأرض التى أنبتت المذاهب الفكرية الرئيسية فى مجرى التاريخ، وكأنهم يسعون فى كل مكان وينادون «أعندكم بحث »وما أيسر البحث إذا كانت عدته مجموعة من الأسئلة يزعمون انها تقيس بطريقة كمية مضبوطة ظواهر المجتمع، وينسون أن هذه الطريقة لا تميزهم كعلماء لأنها فى استطاعة أى إنسان، ويطلق سوروكن على هؤلاء إسم «Omnibus-Researcher-professor» .

ويستطرد سوروكن فيقول، إن حالة هؤلاء النفسية تـــكشف عن مرض وبائي خبيث أصاب الكثيرين ، يسميه « فصام الكم » ، ويظل يهاجم هذه الاتجاهات الحـــديثة فى علم الاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا مفندا لها بقسوة وعنف بالغين ، إلى ان يتعرض لأولئك الذين يبحثون عن أبسط وحدة فى الظواهر الاجتماعية الثقافية ، تقليدا لعلماء الطبيعة الذين يعتبرون « الذرة » أبسط وحدة فى الظاهرة الطبيعية ، ولذلك سقطوا فى متــاهات وسراديب أوصلتهم إلى الضلال ، فبعضهم يرى أن الوحـــدة هى الفرد أو الزمالة وبعضهم يرى أن هـــذه الوحـــدة هى الدور أو الفعل أو العلاقة الاجتماعية ، ويرى آخرون أنهـا الأسرة أو المجتمـع البدائى أو الجماعة الصغيرة .

ويحاول سوروكن أن يهدم هذا كله ويبين فى تفصيل عدم فهم من يساند هذا الاتجاه أو ذاك لخصائص الوحدة البسيطة من حيث البنـاء والوظيفة

ويختتم كتابه بقوله ، إن العلم الاجتماعي النفسي قدم خلال القرون ١٦، ١٧، ١٨، ١٩ معرفة بالغة الأهمية عن الانسان وعالمه الاجتماعي النفسي ، فلا نكاد نجد جديدا في أيامنا هذه . وكل الذي نجده علامات التعب والضيق التي بدت على باحثين اليوم ، المتسرعين والمتعجلين للنتائج، ولهذا تتميز بحوث علوم المجتمع اليوم وخاصة علم الاجتماع وعلم النفس بالعصابية والعقم . إن الحاجة اليوم ماسة إلى علاج هذه الحالة بعد حسن تشخيصها ، ولن يتم ذلك إلا بتوحيد جهود ثلاث مناهج وتعاونهـا على انتشال البحث عن الحقيقة الاجتماعية من الوهدة التي تردت فيها بفعل هوس الاختبارات وفصام الكم، وهذه المناهج هي :

منهج الملاحظة الذي يقوم على الادراك الحسي .

ومنهج المنطق الرياضي الذي يقوم على استخدام العقل في التفكير المجرد .

ومنهج الحدس الذي يعلو فوق الحس والعقل معا .

ويقول سوروكن إن إمتزاج هذه المناهج الثلاثة كفيل بأن يكشف في وضوح الأبعاد الثلاثة للحقيقة الاجتماعية التي يقابل كل بعد منها المنهج الملائم من المناهج الثلاثة السابقة . إلى أن يقول ، إن هذه المناهج الثلاثة كمل أحدها الآخر ويراجع أحدها الآخر أيضا ، الأمر الذي يترتب عليه ضمان عدم الوقوع في أخطاء التزام منهج واحد (١).

---

1 — Sorokin, P ; Fads and Foibles in Modern Sociology London, 1958, PP. 315—317

خطوات المنهج العلمي :

مهما كانت طبيعة المـــادة التي نعالجها ، ومهما كانت طـرق البحث التي نستخدمها فأن هناك عدة خطوات ضرورية ، لا بد أن نلتزمها في كل عمل علمي .

١ ـ الفرض المناسب : وسيشير إلى الفرض هنا ، على أنه نوع من من التعميم ، يحتاج إلى اختيار او تحقيق . والفرض في مراحله المبدئيـة ، عبارة عن فكرة تصورية أو حدس أو ظن ، يمكن أن يكون قاعدة لدراسة منظمة . ونحن في سبيل الحصول على الفروض ، تنظر في ميـادين الأدب والفلسفة والشعر ، وكل ما كتب في علم الاجتماع والانثولوجيا وخصوصا النظريات التي ترد كثيرا في كتابات العلماء .

ومن شروط الفرض المناسب أن يصاغ بصورة واضحة ومحددة كلما كان ذلك ممكنا،لأن كل فرض معد للبحث يحدد مقدماً المصادر التي سنعتمد عليها والميادين التي سنرتادها وبالتالي يمنعنا من الجمع العشوائي للحقائق .وعلى ذلك ينبغي أن نتجنب منزلقاً خطيراً في هذا الصدد مخافة أن نعتبر الفرض قضية علينا أن ندافع عنها وبالتالي نختار الحقائق المؤيدة ونسقط الحقائق التي تبدو مضعفة لها .

٢ ـ ملاحظة الحقائق وتسجيلها : وتشمل هذه الخطـوة كل ما تعلق بالعدد والقياس،وهي تنطوي أيضا على إجراء ملاحظات مضبوطة عن طريق استخدام الحـواس الإنسانية بمساعدة الآلات المناسبة . ومن المسلم به أنه كلما زادت دقة الحقائق المجمعة كلما زاد الاعتماد عليها، وكلما كانت النتائج المترتبة عليها محل ثقة علمية .

٣ - تصنيف الحقائق وتنظيمها : وتبدو أهمية هذه الخطوة عندما نعلم أن التشابه والاختلاف لا يظهران إلا بعد التصنيف والتنظيم . وكلما كان من الممكن أن نبرهن على الإطراد أو الاتفاق فى مجال الحقائق كلما أصبحت دراستنا ذات إطار علمى .

٤ - التعميم : وعندما تتم الخطوات الثلاث السابقة يصبح من الممكن أن نصوغ الأوصاف التى تنطبق على إتجاه الحقائق فى شكل جملة قصيرة يمكن أن نجد لها تطبيقات فى عدة نواح أو نجد لها مشابهات فى ظواهر لها نفس الظروف، ومثل هذه الجملة يقال لها « قانون علمى » والشكل المثالى لمثل هذه التعميات هو الصورة الرياضية ومع ذلك فلا ينبغى لنا أن نزعم أن هذه الصورة يمكن أن تكون مضبوطة تماما أو أن لها خصائص الاطلاق غير المقيد بالزمان والمكان، حتى أنه فى الميادين التى سار فيها البحث العلمى شوطا بعيدا لا نستطيع أن نطمئن إلى دقة مايتوصل فيها من تعميمات ، ذلك لأنها تخضع دائما للتحسين والتصحيح على أساس مزيد من الملاحظات الدقيقة وجمع أوسع للحقائق . ومثل هذه التصحيحات تتم نتيجة للإختبار التجريبى لما نصل إليه من تعميمات . ولكن هذا القول لا ينبغى أن نفقد معه الثقة فى قيمة التعميمات كأساس للتنبؤ العلمى . ومع ذلك فلا بد ان نحذر تطبيق التعميمات على نطاق واسع ، أى نطبقها على مواقف أو حالات مختلفة عن الحالات الأصلية .

الاختبار والوصف والتفسير:

بعض المعرفة السوسيولوجية عبارة عن وصف للظواهر كما هو الحال مثلا فى مسح للمجتمع المحلى . ولكن ليس من الممكن أن يلاحظ جميع الناس بطريقة صحيحة . حتى أنه من الواجب أن

يتدرب جامعو الاحصاء . وهذا التديب بدوره ضرورى للمؤرخين وعلماء الإجتماع .

١- الاختيار :والمشكلة الكبرى فى الوصف هى ، ماذا نصف ؟ ذلك لأنه عندما تكون الظاهرة المراد وصفها معقدة ومتغيرة ومتعددة ، فان كل شىء لا يمكن أن يخضع للوصف . ولذلك وجب الاختيار . فالأوصاف التى يجمعها أمريكى لروسيا غير التى يجمعها روسى لها ، فقد يكون وصف كليهما دقيقاً ولكن كليهما فى نفس الوقت مختلف عن الآخر .

٢-الأوصاف التحقيقية : الملاحظات العلمية لا بد أن تتم بشكل يمكن التحقق منها، ولذلك فان القول بأن السكان فى الهند يزيدون بنسب تنذر بأوخم العواقب ، قول لا يخضع للتحقيق لأنه ليس لدينا مقاييس عن «أوخم العواقب » ولهذا يكون مثل هذا القول مجرد رأى . وعلى العكس من ذلك يمكن التحقق من القول الآتى :

«فى عام ١٩٤٠ زاد سكان الهند حوالى ٥ مليون نسمة ، أى أن عددا من السكان مساو للسكان فى الولايات المتحدة عام ١٨٩٠ يمكن أن يضاف فى مدى جيل واحد إلى مجموع سكان الهند » .

٣-وصف العينة : يميل علماء الاجتماع إلى وصف عينات اكثر من ميلهم إلى وصف الكل ، لأن البحث السوسيولوجى باهظ التكاليف . ومع ذلك لابد ان تكون العينة كبيرة نسبيا وممثلة، ومثال ذلك أننا إذا اردنا ان نصف الرأى العام فان من الخطأ ان نعتمد على تتبع أقوال الصحف فى المدن الكبرى فقط، بل لابد ان نعتمد فى نفس الوقت على الصحف التى تصدر فى كل

مكان إذا كانت موجودة ، كما هو الحال فى الولايات المتحدة وبعض البلاد الأوربية . كما انه من الواجب أن نفحص حالات كافية لنتأكد من أن العينة التى اخذناها صالحة ونموذجية . إذن فالوصف فى العلم يتطلب مهارة وتدريباً .

٤ـ قياس العلاقات : إذا دققنا النظر فى العمل العلمى فى علم الإجتماع نجد أن نسبة كبيرة منه لا تتعلق بوصف الظواهر . فكثير من العمل السوسيولوجى يتعلق بالعلاقة الموجودة بين ظاهرتين أو اكثر ، ومثال ذلك عندما نبحث العلاقة بين ظروف العمل ونسبة الزواج . والمنهج المتبع فى هذه الحالة هو بحث سبب الظاهرة . وحول السبب ومعناه جرت مناقشات متعددة ، حتى أن كثيراً من الكتاب يستخدمون كلمة « السبب Cause » فى معان مختلفة (١)

المتغيرات Variables

١ ـ عندما نفحص العمل السوسيولوجى نجد ان كثيراً منه يتكون من محاولات للبحث عن أسباب الظواهر ، مثل الحرب والجريمة والطلاق ... الخ . والظاهرة التى نريد غالباً البحث عن سببها هى تغير من حالة سابقة إلى حالة لاحقة . فالحرب تغير من السلام ، والجريمة تغير من الأمان وهكذا ... ففى الولايات المتحدة مثلا كان عدد حالات الطلاق واحد إلى ثلاث زيجات ، وكان قبل الحرب فى عام ١٩٣٠ واحد إلى ست زيجات . وفى كل هذه الحالات كان هناك تغير ، ولذلك نقول عنه أنه انحراف . ويقال للظاهرة متغيرا variable . ولذلك فنحن نريد ان نبحث عن أسباب الانحراف من السلام إلى الحرب ، وفى زيادة نسبة الطلاق ، أو فى انخفاض نسبة الجرائم .

1 - Ogburn, Nimkoff. Op. Cit, pp. 5—10

والظاهرة التي نريد ان نشرحها يقال لها المتغير المعتمد dependant variable لأن هذا التغير معتمد على او تسببه عن التغير فى المتغير الآخر او المتغيرات الأخرى . وهكذا نجد ان بعض الزيادة فى حالات الطلاق بعد الحرب تسبب عن زيجات متسرعة وانفعالات ترتبت على ظروف الحرب، كما ان الانتعاش الذى اعقب الحرب اسهم فى زيادة حالات الطلاق ايضاً، ومن المعلوم ان الطلاق يزداد إبان الانتعاش ويقل إبان الكساد . ولهذا نقول ان سبب زيادة الطلاق بعد الحرب كان فى نفس الوقت تغيرا من السلام الى الحرب . فالتغير فى متغير واحد يمكن ان يفسر بالاضافة إلى تغير فى متغير آخر ، وإذن عندما ندرس أسباب ظاهرة معينة ، فاننا ندرس بذلك العلاقة بين متغيرين او اكثر .

٢ـ الدائم ليس سبباً للتغير: إذا استطعنا ان نفسر إنحرافاً فى ضوء انحراف آخر ، فان النتيجة تكون فى أن انحرافا لا يمكن ان يفسر بالاضافة إلى دائم . والدائم هو العامل الذى لا يتغير ، ومع ان الدائم لا يمكن ان يكون سبباً فى تغير متغير ، فقد يكون مع ذلك عاملا فى التغير . ولذا لا تكون الغريزة (غريزة المقاتلة والعدوان) سبباً فى الحرب ، لأن هذا العامل البيولوجى دائم ، ولأن هذه الغريزة كانت موجودة فى السكان فى سنوات السلام، بنفس الدرجة التى كانت موجودة بها اثناء الحرب، ومع ذلك فان هذا العامل البيولوجى سبب فى الحرب ، لأنه اذا لم يكن موجوداً ، فلربما لاتنشب الحروب . إذن فالظاهرة يكون لها عدد كبير من العوامل الدائمة وفى نفس الوقت يكون كل تغير فى الظاهرة نتيجة لعوامل علية اقل . (١)

---

1 Ibid., p. 7

٣ـ الظواهر الاجتماعية ذات اسباب متعددة : المجتمع الحديث مجتمع معقد وملىء بالتغيرات . ولهذا فمن المنطق ان نقول ان للظاهرة الاجتماعية أسبابا عديدة . ولكن العقل الإنسانى فى حبه للتبسيط يميل دائما للتفكير فى ضوء سبب واحد . ولا ينبغى أن يفهم من قولنا بتعدد العوامل والأسباب اننا نضعها جميعا فى مصاف واحد ، بل إن بعضها أهم من البعض الآخر . ومثال ذلك ان اسباب الهجرة كثيرة ، فقد تكون فرصا إقتصادية ، او ضغطا سكانيا ، أو لأسباب دينية كالإضطهاد ، أو لسهولة وسائل المواصلات او لأسباب تتعلق بدورة العمل وذبذباتها .

٤ـ سلسلة الأسباب : عندما نبحث فى الأسباب لابد ان تدفق فى العلاقات القائمة بين المتغيرات والخطوة الأولى، ان نحدد عما إذا كانت هناك مصاحبة فى الإنحراف أو حدوثاً فى نفس الوقت بالنسبة للمتغيرات أو بينها . ومثال ذلك أننا إذا وجدنا نسب الجريمة فى مدن ذات حجم محدد مقاربة لنسبها فى مدن تنمو بسرعة ، ثم وجدناها أيضاً مقاربة لمدن يقل عدد سكانها او تزداد فى بطىء ، فاننا ننتهى من ذلك إلى القول بأن درجة النمو فى المدن ذات الحجم المعين والحدود المعينة ، ليست سبباً محتملا لزيادة الجريمة . لأن نسبة الجريمة دائمة وثابتة عند تختلف درجات النمو بالنسبة لعدد كبير من المدن .

ومن ناحية اخرى إذا كانت نسبة الرجال إلى النساء فى المدن مرتفعة مع إرتفاع فى نفس الوقت فى نسبة الجريمة ، ومنخفضة مع إنخفاض فى نسبة الجريمة ايضا فقد يكون هناك تغير نسبى اومصاحب بين الظاهرتين ، ومن ثم لا بد أن نبحث عما إذا كانت هذه المصاحبة تتضمن عليه ام لا . وينبغى أن ننبه هنا أنه فى دراسات علم الاجتماع لا يعنى التغير المصاحب ضرورة

إرتباط المتغيرين عليا ، لأن هذين المتغيرين قد يكونان مستقلين احدهما عن الآخر،ويرجع التغير المصاحب إلى عوامل اخرى.

كيف نختار موضوع البحث :

من المسائل الهامة التى تعترض الباحثين فى علم الإجتماع وخاصة المبتدئين منهم ، الموضوعات التى تصلح للدراسة . لأن البعض قد لايكون عنده إدراك سليم للصعوبات المتعددة التى يتبينها الباحث المتمرن ، ولذلك يوصى الاخصائيون فى وسائل البحث الاجتماعى بضرورة توفر عوامل وعناصر هامة هى :

١ ـ التخصص بمعنى أن الباحث يجب أن يكون متخصصا فى الناحيةالتى يريد ان يبحثها،ولذلك يمتنع هنا ان نسمح للهواة أو للذين لم يتلقوا دراسة منظمة فى شئون المجتمع بمعالجة أى ناحية من نواحى البحث

٢ ـ يجب قبل الشروع فى البحث ان يتلقى الباحثون معلومات منظمة عن ميدان الدراسة،وعن صلته بالميادين الأخرى عن طريق برنامج تدريب محدد ينظم لهذا الغرض .

٣ ـ يجب أن يعين للباحث مقرراً للقراءات التى تنقصه لحسن فهم موضوع الدراسة،وخاصة الأبحاث التى أجريت عليه قبل ذلك أو الأبحاث المتصلة به.

٤ ـ يجب أن ينطوى البحث على تحليل دقيق لجزء محدد من ميدان المعرفة السوسيولوجية .

٥ـ يجب أن يتعرف الباحث على الإجراءات المتبعة قبل الشروع فى البحث او أثنائه او بعده وما يترتب على ذلك من مطالب .

٦ - يجب أن يتكرر البحث مرة بعد أخرى على مستويات مختلفة حتى يتأكد الباحث من أنه قد وصل إلى معلومات عالية الدقة تتوفر فيها خصائص الثبات والصدق .

وهناك مستويات رئيسية لا بد من إتباعها فى اختيار المشكلة التى تصلح للدراسة منها، الأصالة والجدة، على أن نتجنب الازدواج حتى لا يضيع جهد الباحثين عبثاً، فضلا عن أهمية الموضوع محل البحث، لأنه من غير الملائم أن يهتم الباحث بمسائل عرضية أو وقتيه أو سطحية . كل هـذا يجب أن يتم على اساس من التثبت من المنهج والإمكانيات المتوفرة فى جمع المادة والتى يجب أن تكون فى متناول اليد مع تقدير عامل الزمن .

أما منطوق الموضوع محل البحث فلا بد أن يكون فى صورة سؤال أو جملة خبرية مباشرة وتشمل مراحل تعريف موضوع البحث ما يلى :

١ - تحليله إلى عناصره المكونة الأساسية حتى يمكن ترتيب جمع المادة ترتيباً منطقيا .

٢ - معرفة واضحة بحدود البحث ومداه وصلته بغيره من الأبحاث المشابهة ومكانه من أبحاث علم الاجتماع عامة .

٣ - معرفة القراءات المتصلة بالموضوع التى يمكن أن تكون صالحة فى إعداد الأساس النظرى الذى يجب أن يهضمه الباحث قبل ان يشرع فى الدراسة

٤ - معرفة مصادر المعلومات وطرق البحث المناسبة وبيان وجه الحاجة إلى هذا البحث .

٥ ـ تحديد دقيق للاصطلاحات العلمية التى سترد فى التحليل العلمى للمعلومات المجمعة وإلتزام هذه التعريفات بكل دقة فى كل نواحى التحليل كما أن الفروض الموجهة للدراسة يجب أن تكون واضحة ودقيقة جدا بحيث لا تختلط فى الأذهان بفروض مشابهة .

الفصل الثالث

المجتمع والحيـــاة الاجتماعية

إذا كانت الثقافة طريقة المجتمع وأسلوبه فى الحياة ، فالمجتمع هو الحيـــاة بذاتها . والمجتمع حقيقة جوهرية فى حياة الأفراد ، من غيره لا يستطيع الفرد بذاته أن يستمر فى الحياة ، فهو الذى يجعل الحيـاة الاجتماعية ممكـنة ، وقد يقول قائل إن الفرد ليس عليه أن يعيش حياة اجتماعية بالضرورة ، وبالتالى يمكن ألا يكون المجتمع شرطا للبقاء . ولـكن وجود الفـرد ذاته متوقف على وجود المجتمع ، فهو من صنعه إلى أبعد ما تحمله كلمة « الصناعة » من معانى . وقد استقرت أهمية المجتمع للفرد وجاوزت حدود الجدل حول هذه الحقيقة ، وخفت حدة الإختلاف حول العلاقة المتبادلة بين الفـرد والمجتمع ، ودور كل منهما فى الحياة الاجتماعية للانسان ، منذ أن تخلى علم الإجتماع عن تتبع الفروض الخيالية عن أصل المجتمع وسر تطوره ، والإحتمالات الظنية التى تحمـل الطابع القصصى للأدوار التى مر عليهـا الإنسان ، حتى أصبح المجتمع صانعه وصانع أفكاره وقيمه ومحدد أنماط سلوكه . ولا يتوقف وجود الفرد على وجود المجتمع فحسب ، بل إن الثقـــافة نفسها لم تكن لتنبثق وتعمق جذورها دون وجود المجتمع .

ويمثـل « المجتمع » الموضوع الـكبير الذى يكون ميـدان الدراسة فى العلوم الإنسانية والاجتماعية . ونظراً لضخامة هذا الميدان وتعـدد أطرافه وتعقد مسالـكه ، فقد تخصصت علوم كـثيرة فى جزء أو آخر طلبـا لمزيد من الدقة . وعلم الاجتماع حـين يدرس المجتمع ـ بالمعنى الذى سبقت الإشارة اليه ـ يحاول أن يغوص وراء الحقيقة الاجتماعية التى تفسر إمكانيـة المجتمع

وشروط بقـــائه وتكشف الستار عن أسباب التجمع والتفـــرق والتنوع والتغير وما يترتب على هذا كله من نتائج على الأفراد وما يظهر على سلوكهم بسبب تفاعلهم المستمر . وقد اختلف علماء الاجتماع حول تعريف المجتمع فترة طويلة ، وظهر أثر هذا الاختلاف فى إطارات المفاهيم والأفـكار العامة التى يقوم عليها التحليل السوسيولوجى . ولكن هذا الاختلاف تضيق شقته فى السنين الأخيرة ، ورغبة فى مزيد من الإيضاح سنعرض عدداً من وجهات النظر فى تعريف المجتمع :

١ ـ يعرف توماس إليوت Thomas Eliot (١) : المجتمع ، بأنه جماعة من الناس يتعاونون لقضاء عدد من مصالحهم الـكبرى ، التى تشمل حفـظ الذات ودوام النوع. وتشتمل فـكرة المجتمع على الاستمرار والعـلاقات الارتباطية المعقدة والتركيب الذى يتضمن ممثلين من الأنماط الإنسانية الأساسية وعلى الأخص من الرجال والنساء والأطفـال . ومن الطبيعى أن يكون هناك عنصر الإقامة فى أقليم محدد . والمجتمع فوق هذا جمـاعة وظيفية حتى يمكن أن نحدده من حين لآخر فى ضوء العلاقات والعمليـات الاطـرادية . ويقول إليوت أيضا ، إن المجتمع هو أكبر جماعة إنسانية . ولهذا يجب أن نميزه عن الجماعات غير الممثلة والتجمعات الأخرى كالجمهور والمسافرين على سفينة والمشاهدين لمباراة فى كرة القـــدم أو المقيمين فى معسكر من معسكرات الجيش. ويتضح من هذا التعريف أن إليوت يتصور المجتمع من الناحية البنائية الوظيفية على أنه مجموع متفاعل من الرجال والنساء والاطفال يقيمون على أرض محددة ، ويتعاونون « وظيفيا » على البقاء « الاقتصاد » وحفظ النوع « الزواج والتناسل »

---

1. Fairchild, H ,(ed) Dictionary of Sociology, N.Y, 1944, P 300

٢ — ويشير بيسانز Biesanz إلى ضرورة التفرقة بين استعمال كلمة « مجتمع » فى اللغة العادية وبين استعمالها فى العلوم الإجتماعية فيقول ، « إن المجتمع هو تنظيم العلاقات الإجتماعية لجماعة من الناس يسهمون فى ثقافة مشتركة ، ويتقاسمون الإحساس بالمشابهة » . ويحتاج الأمر إلى تفسير هذا التعريف . فالمجتمع يبدأ بوجود مجموع من الناس ، ولكن وجود هؤلاء الناس، على قرب مكاني أو فيزيائى لا يجعل منهم جماعة اجتماعية ، لأن الجماعة تقوم حين يكون اثنان او أكثر من الناس على صلة واعية الواحد بالآخر . وهذا الاتصال قد يكون مباشراً أو غير مباشر ؛ ولكنه يشتمل على أى حال على « وسائل اتصال » فى مستوى رمزى : إما عن طريق الإشارة أو اللغة ، كما أن هذا الاتصال يعني أن سلوك فرد يتعدل أو يعدل سلوك الآخرين. أو بمعنى آخر يؤثر أعضاء الجماعة أحدهم فى الآخر ، كما أنهم يستجيبون بعضهم لبعض ، وهم جميعا يستجيبون لمؤثرات تأتيهم من خارج الجماعة . ومثل هذا التأثير المتبادل والاستجابة المتبادلة التى تتم بين الأفراد والجماعات، يقال لها «التفاعل الإجتماعى Social Interaction » [1]

وعندما يتكرر التفاعل لفترة كافية يمكننا أن ندرك قيام نمط من السلوك، الذى نعبر عنه بتسميته « العلاقة الإجتماعية Social Relation » . ومثل هذه العلاقة تكون ذات طابع متبادل دائماً ، لأنها تتضمن على الأقل فردين، ولهذا يستمد سلوك أى شخص معناه من علاقته بشخص أو بأشخاص آخرين . ومثال ذلك ، أن علاقة الإبن بأبيه والموظف بالمدير ، والطالب بالأستاذ ، والصديق بالصديق ، والجندى بالعدو ، لا تكون ذات معنى إلا إذا أخذت أو فهمت على أنها علاقة متبادلة .

1—Biesanz & Biesanz; Modern Society; N.Y.; 1954; pp. 85-88

وتنظم العلاقات الاجتماعية على هيئة نمط من المراكز Status المتبادلة والأدوار Rols والمركز هو مجموع الحقوق والواجبات التى تناط بمكانة ما فى الجماعة . ويحدد السن والجنس والقرابة والزواج مراكز الأفراد فى كل المجتمعات ، كما أنه فى أغلب المجتمعات يتحدد المركز أيضا عن طريق المرتبة والمهنة والطبقة وبعض الاعتبارات الأخرى . والمراكز التى يحتلها الفرد بالوراثة أو الولادة تسمى المراكز النسبية ؛ أما المراكز التى يصل اليها الفرد نتيجة لجهوده وكفاحه فتسمى المراكز المكتسبة . ويسمى نمط السلوك الذى يصاحب مركزا ما « الدور الاجتماعى » ولذلك يشغل الفرد فى الواقع عددا من المراكز ، ويلعب أدوارا مختلفة فى مختلف فترات حياته وفى مختلف الجماعات التى ينتمى اليها . ومثال ذلك . قد يلعب الفرد فى مدى يوم واحد، دور الأب والإبن والزوج والرئيس والجار والمضيف والضيف والصديق المخلص. ولكن سلوكه فى أى دور من هذه الأدوار تنظمه المعايير الثقافية – أى العادات والعرف والتقاليد والقانون السائد فى المجتمع – التى تحدد الطرق الصحيحة والمقبولة لعمل الشيء أو الامتناع عنه . هذا ويرى أغلب علماء الإجتماع أن أنماط التوقعات الجماعية مع الجزاءات والسلطة التى تنفذها وتحافظ عليها تعتبر أساس التنظيم الاجتماعى، كما أنها هى التى تمكن المجتمع من أداء وظائفه وتحقيق أهدافه الرئيسية التى تتمثل فى حماية الفرد والإبقاء على الجماعة ذاتها .

والمجتمع فوق هذا ، أكبر جماعة إجتماعية ، ويشتمل فى الغالب على عدد كبير من الجماعات ترتبط بعضها بالآخر داخل المجتمع الواحد عن طريق نظم معينة ، مثل الحكومة أو النسق الإقتصادى وغير ذلك . كما أن المجتمع يشغل عادة – وليس ضرورياً – أرضا محددة . ومن علامات المجتمع الأساسية أن أعضاءه يتفاعلون بعضهم مع بعض أكثر مما يتفاعلون مع أعضاء آخرين من

مجتمع آخر . كما أنهم يشاركون فى أكبر مجموعة من القيم . ولذلك كان هـــذا التساند والقيم المشتركة من أهم العوامل التى تساعد على وحدة المجتمع .

من هذا يتضح أن تعريف كل من إليوت وبيسانز واحد تقريبا . فقد اتفقا فى أن المجتمع جماعة من الناس تتفاعل للوصول إلى أهداف محـــددة ، ويتخذ هذا التفاعل صورا مختلفة أبرزها بيسانز وحاول أن يبين دورها مع ما تخلقه من قيم فى بقاء الجماعة الكبرى (المجتمع) وفى تحقيقها لأهداف الفرد والجماعات الفرعية على السواء .

٣ ـ أما ارنولد جرين Arnold Green فيقول ، إن المجتمع هو أكبر جماعة ينتمى إليها الفـرد . ويتكون المجتمـع من السكان والتنظيم والزمن والمكان والمصالح. (١) والحياة الاجتماعية تنظم فى المحل الأول كتقسيم عمل فى إقليم مشترك وعلى مستوى أساس دائم فى الزمن . ويشترك جميع الأفراد فى مصالح مشتركة ، وتتحدد كل المصالح العامة والخاصـــة بطريقة تجعل الحياة الاجتماعية مكتفية بذاتها بين الأفراد . هذا ويفرق جرين كما يفرق غـيره من العلماء ، بين المجتمع الإنسانى والمجتمع الحيواني ، ويقـول ، إن أساس التمييز بين المجتمعين يقـوم على اعتبارات هامة ، منها أن المجتمعـات الإنسانية تقوم على المعتقدات المشتركة،وأخصها أن أعضاء المجتمع يعتقدون فى المصير ، ويقوم بينهم نسق من القواعد الخلقية التى يلتزمونها فى توجيـه السلوك العام . ومن الواضح أن تعريف جـرين أيضا لا يختلف كثيرا عن التعريفين السابقين إلا فى إدخاله عنصر الزمن . ولو أن فكرة الزمن متضمنة

1 — Green. A. ; *Sociology*, N.Y., 1960, pp 31-22

بالضرورة فى أى تعريف آخر ، لان كل باحث فى علم الإجتماع لا يمكنه إهمال فكرة التغير الدائم فى المجتمع ، والتغير يتم دائما فى الزمان . ونلاحظ هنا أن كنجسلى ديفيز Davis وإن كان يوافق جرين على الخصائص التى وردت فى تعريفه للمجتمع ، إلا أنه يؤكد دائما أن المجتمع ، وعلى الأقل فى الوقت الحاضر، لا يمكن أن ينفصل عن الثقافة ، ولذلك ليست هناك حقيقة اجتماعية خالصة . فالحقيقة المتعلقة بحياتنا الاجتماعية هى حقيقة إجتماعية ثقافية فى الدرجة الأولى (١) .وهذا أيضاهو مايراه سوروكن ويسانده بأدلة ضخمة، ويتضح هذا أكثر عندما نعرف أن تعريفه لعلم الاجتماع يضع فى إعتباره دائما الظواهر الاجتماعية الثقافية وليست الظواهر الاجتماعية وحدها .

٤ — ويعرف ما كيفر وبيج MacIver & Page المجتمع على النحو الآتي: « تعبر الكائنات الاجتماعية (الناس) عن طبيعتها بخلق ومعاودة خلق تنظيم ، يوجه ويهيمن على سلوكهم بطرق متعددة . ويحرر هذا التنظيم (المجتمع) ويضع الحدود لأوجه نشاط الناس ، كما أنه يضع المقاييس التى يسيرون ويحافظون عليها . ومهما ظهر فى المجتمع الإنسانى من نقائص او طغيان فانه شرط ضرورى لتحقيق الحياة . والمجتمع إذن نسق من العادات والإجراءات، والسلطة والمعونة المتبادلة ، ومن تجمعات وأقسام عديدة ، ومن ضوابط السلوك الإنسانى والحريات . ونحن نطلق على هذا النسق المعقد الدائم التغير اسم « المجتمع » وهو نسيج العلاقات الاجتماعية الذى يتغير باستمرار ».(٢)

وواضح من هذا التعريف اختلاف ما كيفر وبيج ، إلى حد ما — فى فهم المجتمع عمن يسبقانهما . فالمجتمع تنظيم أو نسق يتكون من العلاقات

1- Davis, Kingsley, Human Society, New York, 1956, p 49
2- MacIver & Page, Society, London, 1953 p. 5.

الإجتماعية المتغيرة ، ولكنهما أبرزا بصفة خاصة القواعد التى تصب سلوك الناس فى قوالب محددة ، وتخليا عن فكرة إرتباط الثقافة بالمجتمع ، لأنهما يعتقدان أن موضوع علم الإجتماع دراسة المجتمع ، وليس دراسة الثقافة . فاذا حدث وكان لا بد من التعرض للثقافة ، فان هذا التعرض يكون فى الحد الأدنى اللازم لتوضيح الحقيقة الإجتماعية موضوع الدراسة . ومع هذا فقد أبرزا أيضاً عددا من الشروط اللازمة لوجود المجتمع، وهى الجماعات وضوابط السلوك وأكدا فكرة التغير المستمر فى العلاقات الإجتماعية ، ونلاحظ أيضا أنهما لم يشيرا إلى المكان أو المصالح المشتركة بين الناس بصورة بارزة .

ويوضح ماكيفر وبيج بعض المفاهيم التى قام عليها تعريفهما للمجتمع على النحو الآتى :

ا - العلاقة الإجتماعية مشروطة من حيث الوجود بالوعى المتبادل بين الأطراف الداخلة فيها . فبدون هذا الوعى لا تكون هناك علاقة إجتماعية ولا يكون هناك مجتمع .

ب - كلما تعقد المجتمع كلما تنوعت وتعددت العلاقات الاجتماعية.ولذلك هناك علاقات إجتماعية إقتصادية وسياسية وشخصية وغير شخصية وودية وعدوانية وهكذا . ولكن تصنيفها كعلاقات إجتماعية يعتمد فى المحل الأول على توفر الشرط الأول وهو الوعى المتبادل .

حـ - المجتمع ليس قاصرا على الإنسان ، لأن هناك مجتمعات حيوانية من من مختلف الأنواع . وقد لاحظ ذلك كثير من العلماء بين الحشرات والطيور والقردة .. الخ

د ـ المجتمع ينطوى على التشابه والاختلاف ، وتبدو أهمية التشابه حين نعلم أنه بدونه لا تتهيأ الفرصة للوعى المتبادل التى تقوم كأساس فى وجود المجتمع . كما تبدو أهمية الاختلاف أيضا فى أنه إذا كان أفراد المجتمع متشابهين فسوف تكون علاقاتهم الاجتماعية محدودة وبسيطة ، ومن ثم يعوقون نمو المجتمع . ويعتقد ما كيفر وبيج أن التشابه أسبق فى المجتمع وجوداً من الاختلاف ، لأن تقسيم العمل هو تعاون قبل أن يكون تقسيما . وتفسير ذلك أن حاجة الناس المتشابهة تجعلهم يرتبطون للقيام بوظائف مختلفة . (١)

ه ـ لعل أوضح تعريف للمجتمع هو الذى قدمه هارى جونسون Harry Johnson وحدد فيه الخصائص التى تميز المجتمع عن غيره من المصطلحات التى تستخدمها العلوم الأخرى كالأمة والشعب . فالمجتمع جماعة تتميز بالخصائص الاتية : (٢)

أ ـ الإقليم (الأرض) المحدد :

المجتمع جماعة إقليمية ، وقد تتحرك بعض المجتمعات البدوية داخل إقليم مترامى الأطراف أوسع بكثير من الإقليم الذى يشغلونه فى وقت معين ، إلا أن أعضاء هذه المجتمعات تنظر إلى كل مكان يذهبون إليه باعتباره « بلادهم » وهناك بالطبع داخل كل مجتمع ، جماعات إقليمية مثل العشائر أو الوحدات السياسية والإدارية مثل المحافظات والمدن والقرى وغير ذلك .

---

1 — Ibid, PP. 6—8

2— Johnson, H. ; Sociology, London, 1961 ; 9-13

ب - التكاثر عن طريق الجنس :

تحصل المجتمع على أعضائه عن طريق التكاثر الجنسى داخل الجماعة ، وقد تحصل كثير من المجتمعات على أعضاء عن طريق التبنى أو الاسترقاق أو الغزو أو الهجرة الخارجية ، ولكن التكاثر الجنسى داخل الجماعة يظل المصدر الرئيسى فى المجتمع للحصول على أعضاء جدد .

حـ - الثقافة الجامعة :

الثقافة كما عرفها تايلور Tylor : هى ذلك الكل المعقد الذى يشتمل على المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والعادة وكل القدرات أو الإمكانيات التى اكتسبها الإنسان كعضو فى المجتمع . وشمول الثقافة بالنسبة للمجتمع معناه أن يكون المجتمع مكتفياً بذاته « ثقافيا »،فلا يكون المجتمع معتمداً ثقافيا على ثقافة أخرى لمجتمع آخر ، وخاصة فيما يتعلق بالأنماط الثقافية التى تحدد وجوه النشاط المختلفة وقوالب السلوك الأساسية. كما أن وجود ثقافة جامعة للمجتمع لا يمنع من أن تكون هناك ثقافات فرعية ، متصلة بالجماعات الفرعية التى تندرج تحت الجماعة الكبرى (المجتمع) .

د - الاستقلال :

والاستقلال معناه أن المجتمع لا يكون جماعة فرعية من جماعة أخرى ولذلك إذا احتلت جماعة (مجتمع) جماعة أخرى ، فان هذه لا تفقد استقلالها بالمعنى السابق إلا إذا ذابت فى الجماعة الأولى .

ويرى جونسون ، ان إدخال مقاييس أو خصائص أخرى ، فى تعريف المجتمع ، سوف يؤدى الى تعريف مثالى ليس مطابقا للواقع . ومثال ذلك ، إذا قلنا ، إن المجتمع هو الجماعة المتكاملة المكتفية بذاتها ذات الثقافة الشاملة والأرض المحددة ، فإن إضافة كلمة التكامل ستوقعنا فى مشاكل كثيرة من الناحية النظرية والتطبيقية ، فلأجل أن يكون المجتمع متكاملا ، لابد أن تكون هناك معايير عامة يلتزمها الأفراد والجماعات على السواء ، ولما كانت بعض المعايير تستمد كثيرا من خصائصها من الدين ، فيلزم إذن أن يكون بالمجتمع المتكامل دين واحد وهذا ماليس موجودا بالفعل. ومن أجل هذا يجب أن نبتعد عن التعريفات المثالية ، ونحاول أن نقتصر على الخصائص الأربع ذات الطابع العام بالنسبة لجميع المجتمعات . وإذا كانت هناك استثناءات فعلينا أن نبرزها عن طريق إجراء بحوث خاصة .

المجتمع والفرد :

مناقشة علاقة الفرد بالمجتمع ، نشأت مع نشأة علم الاجتماع . وكان إبراز المجتمع كحقيقة موضوعية تعلو على الأفراد ، وتسبقهم فى الوجود ، وتفرض عليهم إلزاما معينا ، وتحدد أنماط سلوكهم ، موضع معارضة من عدد من علماء الاجتماع وأخصهم جابريل تارد Tarde . وأساس حجة المناصرين للفرد . أن تبعية الفرد للمجتمع بهذه الصورة طمس « لفرديته » ، وتقليل لدور الفرد فى الحياة الاجتماعية ، وإلغاء للعقل والعواطف التى تلعب دورا حاسما فى رأيهم فى المجتمع . ويستدلون على ذلك بقولهم ، كيف نفسر عمليات الخلق والإبداع ، ودور الزعامة والقيادة فى تغير المجتمع وفى تعديل النظم الاجتماعية وفى إعطاء صور متجددة للحياة الاجتماعية ؟ إن المبالغة -فى رأيهم-

فى تصور المجتمع كصانع للفرد يوقع الباحث فى التحيز لعامل واحد فى تفسير الحياة الإجتماعية . وخير طريقة ، أن نتصور العلاقات المتبادلة بين الفرد والمجتمع ومدى إسهام كل منهما فى بناء الاخر ونغيره دون أن نقع فى خطأ النظر إلى الفرد والمجتمع ، كما ينظر عالم البيولوجيا إلى الخلية والكائن ، نظرا للاختلاف الواضح فى الحالتين .

إن حاجة الفرد إلى المجتمع ليعيش ، وحاجة المجتمع إلى الفرد ليستمر فى الوجود ، حقيقة فى الدرجة الأولى من الأهمية ، ومن أجل هذا كانت الصلة بين الفرد والمجتمع ضرورية . وعلى علم الاجتماع أن يوضح طبيعة الصلة وحدودها . وإذن فالنظرية « الفردية » التى تحاول أن تجعل للفرد وجودا مستقلا خاطئة ، وكذلك النظرية الاجتماعية التى تحاول أن تتغاضى عن الفرد نهائيا باعتباره نتاجا للمجتمع . وعلى ذلك تكون النظرية التعاقدية لروسو وهوبز وكذلك النظرية العضوية التى تتصور الفرد والمجتمع كما يتصور البيولوجى الجسم وخلاياه ، تقومان على أساس خاطىء من الناحية النظرية (١) .

وتتلخص المزاعم الأساسية التى ساقها الباحثون فى العلاقة بين الفرد والمجتمع فيما يلى :

١ - يوجد « مجتمع » على كل إقليم مسكون . ويتكون من كل الأشخاص الذين يسكنونه .

---

1 — MacIver & Page; OP. Cit; PP. 42—44

٢ - ينقسم الجنس البشرى إلى سلسلة من هـــذه المجتمعات . كل منها يشغل إقليما خاصا . ولا يحدث أن يعيش مجتمعان فى إقليم واحد .

٣ - ينتمى كل فرد إلى أحد هذه المجتمعات فقط .

٤ - عندما تتطابق مصالح الفرد الخاصة مع مصالح المجتمع ، يكون هناك انسجام بين الفرد والمجتمع ، وإذا تعارضت مصالحهما يكون هناك نوع من العداء بين الفرد والمجتمع .

٥ - ليست هناك جماعات توسطية بين الفرد والمجتمع .

ويلاحظ أن المشايعين للفرد والمشايعين للمجتمع يتشابهان فى وضع كل منهما إزاء الآخر كمتعارضين، كما يزعم الفريقان أن الفرد يواجه المجتمع ككل وغالبا ما تتعارض مصالحه وقيمه مع مصالح المجتمع وقيمه . ويأسف المشايعون للفرد والفردية ، لأن المجتمع يعتدى على الفرد ويصادر حريته ويدوس مصالحه ، أما المشايعون للمجتمع ، فانهم يتهمون الفرد ، لأنه يحاول دائما أن يتحلل من رقابة المجتمع وأن يعتدى على قيمه ويخرج على تقاليده . ونلاحظ أن حجج كل من الفريقين تقوم على تحليل خاطىء لطبيعة العلاقة القائمة فى الواقع بين الفرد والمجتمع . ولهذا يجب أن نفصح عن علامات الخطأ وعن الوضع الصحيح للعلاقات المتبادلة بين الفرد أو الفردية، وبين المجتمع والحياة الاجتماعية .

١ - إذا كنا نعنى باصطلاح « المجتمع » مجرد السكان الذين يكونون الجنس البشرى ، أو سكان إقليم معين ، فنحن نعلم جيدا ، أن مثل هؤلاء

السكان ليسوا فى واقع الامر ، سوى « جمع لفظى » ، أى أنهم لا يكونون نسقا منظما للتفاعل . ولو نظرنا إليهم من ناحية أخرى باعتبارهم « تجمع » يتكون من عدد من الجماعات المختلفة التكوين ، فان هذا التجمع لن يكون مجتمعا كليا بل سيكون فى واقع الأمر عددا من المجتمعات.

٢ ـ ولو فهمنا المجتمع على أنه نسق تفاعل شامل أو جماعة ، فاننا سنجد فى أى إقليم مسكون مجتمعين أو أكثر ، يتكون كل منهما من جماعات مختلفة التكوين والهدف ، ولن يكون هناك مطلقا ، مجتمع له صفة الكلية وعلى أى نحو ، لن نجد فى أى حالة مجتمعا كليا بل عدداً من المجتمعات متجمعة ومتآزرة ومعتمدة كل منها على الاخر . إن الإعتقاد فى وجود « مجتمع كلى » نوع من الخرافة أو الأسطورة. ومن الخرافة أيضا القول بأن هناك مجتمعا واحدا متكاملا يوجد على إقليم بعينه ، لأن السكان يتمايزون ويتسلسلون طبقيا فى جماعات متعددة ، ويعيش على الإقليم الواحد جماعات متعددة ومختلفة أيضا .

٣ ـ ومن الخطأ ان نزعم أن الفرد ينتمى إلى مجتمع واحد فقط . ذلك لأن الفرد ينتمى فى الواقع إلى جماعات متعددة مختلفة البناء والوظيفة تبعا لسنه وجنسه ولغته ومهنته ودينه وطائفته أو طبقته الاجتماعية وأسرته . وإذا انتزعنا كل هذه الجماعات من عالم الفرد الاجتماعى ، فلن يبقى هناك مجتمع أو جماعة على الإطلاق .

٤ ـ ولما كان الفرد ينتمى فى الواقع إلى عدد من الجماعات ، فان المقابلة التقليدية بين الفرد والمجتمع ، أو التعارض المزعوم أمرا عديم المعنى ولا أساس له نظريا وتطبيقيا . وإذا كان لنا أن نقابل الفرد والمجتمع على مستوى

التضاد ، فإن هذا يعنى أن الفرد فى موضع بعيد عن المجتمع وعن التفاعل مع أعضائه . ويترتب على ذلك أن الفرد الذى لا يتفاعل مع المجتمع أو الجماعة لا يمكن أن يكون معاديا أو متساندا مع أى منهما . كذلك لا يمكن أن تقوم بين الفرد فى هذه الحالة وبين الجماعة أى علاقة ذات معنى . وإذن ، عندما يكون الفرد عضوا فى المجتمع ، ومتفاعلا مع أعضائه ، فاننا لا يجب أن نضعه فى موقف متعارض مع المجتمع كشىء كلى يوجد خارجه أو فى وضع أعلى منه . ولكننا نستطيع أن نقابله كعضو من خلال نسق التفاعل مع الأعضاء الآخرين .

وخلاصة القول ، إن التعارض بين الفرد والمجتمع موضوع أثير فى علم الاجتماع دون أساس فى الواقع ، وقام على خرافة لا مبرر لها . وربما كان عدم فهم المجتمع كفكرة ، والمجتمع فى الواقع، هو الذى أدى إلى صرف جهود الكثيرين عبثا فى التحيز لهذا الرأى أو ذاك . إن التعاون أو النزاع فى المجتمع لا يتخذ طرفى الفرد والمجتمع . وإنما يتم ، كما يحدث فى الواقع الملاحظ ، بين الفرد والفرد ، أو بين الأفراد والأفراد ، أو بين الجماعات والجماعات . كما أن العمليات الاجتماعية الأساسية : التجمع والتفرق، تتخذ صورا متعددة وتكشف عن طبيعة العلاقة بين الأفراد والجماعات ، وليس بين الفرد والمجتمع .

العمليات الاساسية فى الحياة الاجتماعية

الإنسان كائن « إجتماعى ثقافى » يعيش فى مجتمع، وهو لذلك يجد نفسه مرتبطاً بعلاقات متعددة ومتشابكة مع الآخرين ، إنه يخلق الثقافة التى تؤثر بدورها فى حياته فى المجتمع. فكيف إذن يصل الإنسان إلى هذا الوضع ، وكيف يحدث كل ذلك ؟

الرد على ذلك بسيط جدا : ذلك أن التفاعل ، الذى يعتبر العملية الجماعية الأساسية ، هو الذى يشكل العامل المركزى فى كل حياة الانسان الاجتماعية . وتظهر أهمية التفاعل حين ندرك أنه يكمن وراء كل تنظيم للأنساق السلوكية من « الذات » إلى المجتمع . وإذا كان التفاعل الإجتماعى يتم عن طريق « وسائل الاتصال » المختلفة ، وإذا كان الطفل الوليد يؤهل لحياة المجتمع عن طريق عملية التفاعل التى نطلق عليها اسم « التنشئة الاجتماعية » كان علينا أن نبحث صور هذا التفاعل المتكررة والعامة التى يسميها علماء الإجتماع « العمليات الإجتماعية الاضطرادية » وذلك إتفاقاً مع وجهة النظر التى عبرنا عنها فى هذا الكتاب أكثر من مرة ، وهى أن علم الإجتماع يهتم فى المحل الأول بالتكرار والاضطراد فى العلاقات الإجتماعية .

وقبل أن نمضى فى تحليلنا لعمليات التكامل الإجتماعى ، نشير هنا إلى أن العمليات الإجتماعية المحددة ، كالتنافس والصراع والتوافق والتمثيل ، يجب أن ننظر اليها باعتبار أنها صور أو نماذج من التفاعل الإجتماعى ولذلك كانت الثقافة والجماعة والشخصية الانسانية من هذه الزاوية نتاج تفاعل اجتماعى . وربما كان هذا النتاج هو الذى يميز التفاعل الإجتماعى الإنسانى عن التفاعل البيولوجى والفيزيائى .

وقد صنفت العمليات الإجتماعية بطرق متعددة ، فبعض هذه التصنيفات يشتمل على طبقتين من هذه العمليات ، وهما التعاون والتعارض . كما أن بعضها الاخر مثل تصنيف فيزا L. von wiese ، يقسم العمليات الإجتماعية الأساسية إلى نماذج فرعية متعددة ، ولكن منذ ان قسم بارك E. Park هذه العمليات إلى أربع ـ التنافس والصراع والتوافق والتمثيل ـ صار هذا

التقسيم مقبولا من كثرة علماء الاجتماع وإن اضافوا « التعاون » كنوع خامس لها . (١)

والعملية الاضطرادية من حيث التعريف، هى سلسلة من الحوادث المترابطة التى تؤدى إلى نتيجة محددة يمكن التنبؤ بها . وتتكون عملية التنفس من الشهيق والزفير، وهذه السلسلة من الظواهر تتكرر باستمرار مؤدية إلى نتائج محددة فى كيمياء الجسم ، وقد يكون من المفهوم فى الفسيولوجيا أن نتحدث عن عملية التنفس على الرغم من حدوثها تحت مجموعة متنوعة من الظروف .

وبنفس الطريقة وجد علماء الاجتماع أنه من المناسب أن ينظروا إلى التفاعل فى المواقف الإجتماعية فى ضوء اصطلاحات العمليات الاجتماعية الاضطرادية مثل التعاون والتنافس والصراع والتوافق والتمثيل ، وفى ضوء اصطلاحات العمليات الإيكولوجية الاضطرادية مثل التركيز والمركزية والتخلخل والفصل والعزل والتتابع . ومثل هذه المفهومات تصور الصور المتكررة والدائمة للتفاعل الموجودة بدرجة معينة فى كل مجتمع خلال التاريخ الإنسانى .

ما الذى نتوقع أن نجنيه من فهم لهذه الصور الأساسية من التفاعل ؟ الواقع أن هذه العمليات تصف ـ عامة ـ الطرق التى يرتبط بها الناس بعضهم مع الآخر للقيام بالوظائف الضرورية للحفاظ على اى نظام اجتماعى والعمل على نموه واتساع حجمه , والطاقة التفاعلية التى تترتب على اتصال الناس بعضهم

---

1 - Gittler, J.B. , Social Dynamics, New York, 1952, p. 168

بالآخـــر ، مؤدية إلى قيـام العمليات الإجتماعية التى تكـــون البناء الإجتماعى للجماعات ، وعندما يمكن أن ندرسها موضوعيا بتحديدها تحديداً دقيقاً تصبح مادة يمكن قياسها وملاحظتها كما هو الشأن بالنسبة للعوامل الجغرافية والفيزيائية والايكولوجية للمجتمع . (١)

التعاون لالتنافس والصراع :

السلوك الذى تشير إليه هذه الاصطلاحات يتداخل بعضه مع الاخر فى واقع الحياة . ولذلك يمثل كل اصطلاح ناحيةمعينة من نواحى السلوك الإجتماعى المتكامل أو بمعنى آخر ، يكون فى كل موقف إجتماعى قدر معين من هذه العمليات . ومثال ذلك إذا درسنا السلوك فى مباراة رياضية نجد أن تصوير الموقف من وجهة نظر المتفرج منحصر فى إدراك كل فريق متنافس على انه وحدة متعاونة للوصول إلى النصر بينما لو بحثنا الأمر من وجهة نظر أحد أعضاء الفريق ، لوجدناه مهتما بالتنافس بين فريقه والفريق الاخر ، وربما حميت وسائل التنافس فتنقلب إلى صراع ، بل إن أعضاء الفريق الواحد قد يظهرون أنواعا من السلوك المنافس تجاه أحدهما الاخر فى بعض المواقف المعينة أثناء المبـاراة أو بعدها . وهذا هو الذى يجعلنا نستخدم أحـــد الاصطلاحات السابقة لنصف به أحد وجوه الموقف الذى نريد أن نؤكده .

والصراع كما يستخدم عادة يشير إلى نوع عنيف من التنافس ، وهو فى أقصى صورة عبارة عن العملية التى عن طريقها تحاول جماعـــة أن تدمر أو الأقل أن تقلل من مركز جماعة اخرى. وعندما يعمل الناس معاً للوصول إلى أهداف مشتركة نصف سلوكهم فى هذه الحالة بأنه «تعاون» وعنـــدما

---

1 . Lundberg & Others; Sociology, New York, 1958 p. 244

يعارضون بعضهم الاخر نقول إن سلوكهم « صراع » . ولذلك كان التعاون والصراع عمليتين أساسيتين فى حياة الناس الجماعية . ولكن المبادىء التى تحكم هذه العمليات ليست متشابهة بالنسبة لكل منها . ومثل ذلك أن تكامل الجماعة يصبح محل تهديد خطير إذا نشب الصراع داخل الجماعة أكثر من نشوبه بين جماعة وأخرى . كما أن الصراع قد يكون موجودا بين أمتين أو جيشين دون أى مظهر من مظاهر العداوة فى أى جماعة أو فريق على حدة إذا نظرنا إليها من وجهة نظر سلوك الأعضاء المكونين لها . ولهذا يجب أن نميز بين الصراع الداخلى فى الجماعة الواحدة والصراع الخارجى بينها وبين جماعة أخرى ، وما يترتب على ذلك من عمليات داخلها أثناء كل حالة . ففى الحالة الأولى قد تتعرض الجماعة إلى التفكك ، ولكنها تميل فى الحالة الثانية إلى التكامل .

التوافق Accommodation :

التنافس والصراع من أى نوع مهما تعددت انماطهما أو اختلفت درجة شدتهما ينظر إليهما على أنهما أمور طبيعية فى كل الجماعات . وتبعاً لذلك تستخدم كلمة « التوافق » لتشير إلى الحلول السلمية او الإتفاقات التى يلجأ الناس إليها ليتخلصوا من الإرهاق والتوتر الذى نجم عن التنافس والصراع . والصور السلوكية التى يلجأ إليها الناس ليتوافقوا مع ظروف الحياة هى : المهادنة Truce او التوفيق Compromise والتحكيم Arbitration والتسامح Toleration .

١ – فالمهادنة هى ببساطة إتفاق للكف عن الصراع الدائر على الرغم من عدم حل المشاكل موضع الخلاف .

٢ – والتوفيق عبارة عن ترتيب معين يتنازل فيه أحد الطرفين عن بعض مطالبه فى مقابل موافقة الطرف الاخر على التنازل عن بعض مطالبه أيضا ، وفى نفس الوقت يحدث تسليم بمطالب الطرفين نتيجة لهذا التوفيق .

ولعل هذا النمط من التوافق من أهم الوسائل التى تلجأ إليها الجماعة للابقاء على تكاملها إزاء المواقف المتعددة التى تعرض لها، وقد تكون مثار خلاف فى الرأى بين الأعضاء .

٣ - والتحكيم نوع من التوفيق، ولكن ربما كان له طابع رسمى، ولذلك كان التحكيم عبارة عن قبول الطرفين المتنازعين حكم طرف ثالث فى موضوع الصراع . وقد يكون التحكيم وديا أو تلقائيا، وقد يكون « نظاميا » أى يخضع لإجراءات معينة تقوم به هيئة منظمة، أو قد يكون ذا طابع إجبارى .

٤ - أما التسامح فهو نوع من التوافق حيث تقرر الأطراف المتنازعة أن يكفوا عن الإستمرار فى النزاع دون محاولة من أى طرف للتغلب أو تعديل أو قبول أى نمط من أنماط سلوك الجماعات الأخرى التى بدأت بالعدوان أول الأمر . هذا وقد ينطوى التسامح فى نفس الوقت على قبول أمور صعبة أو غير ملائمة، لأن قبول عكسها ربما كلف الجماعة مشقة كبرى . ولذلك تفضل أن تقبل الأمر على علاته مهما كان فيه من مسائل منغصة .

ونلاحظ أن المجتمعات المختلفة ذات الطوابع الثقافية العامة المتمايزة تختلف من حيث أخذها بأنماط التوافق، فبعضها يميل إلى السير فى النزاع حتى آخر حدوده، وبعضها الآخر يميل إلى الوقوف موقف الوسط، كما أن هناك مجتمعات أخرى تميل إلى التسامح والسلام. ولا يقتصر الإختلاف فى التوافق على المجتمعات، بل إنه يمتد إلى المجتمع الواحد ذى الطوابع الثقافية المتعددة. فالتوافق فى المجتمع الحضرى يختلف عن التوافق فى المجتمع الريفى، كما أن التوافق عند بعض أقسام السكان يختلف عن التوافق عند أقسام أخرى. وفى

هذا الصدد تظهر الإختلافات الثقافية والإقتصادية والمهنية والعقائدية والإيديولوجية العامة . ومع ذلك يمكننا أن نقول بأن التوافق يميل إلى أن يصبح أمراً منظماً له إجراءات معروفة وتختص به هيئات محدودة كلما تغير المجتمع من البساطة إلى التعقيد .

التمثيل Assimilation

نستخدم إصطلاح « التمثيل » ليشير إلى عملية التكيف المتبادل ، التى من خلالها تقلل الجماعات المختلفة ثقافيا وبالتدريج ، اختلافاتها إلى الحد الذى لا تصبح معه هذه الاختلافات ذات أهمية اجتماعية أو ملحوظة . والتمثيل بهذه المثابة مسألة درجة : فمن ناحية معينة قد تعتنق جماعة كل ثقافة جماعة أخرى دون أى تعديل ملحوظ فى ثقافة الجماعة الأخيرة . ومن ناحية أخرى قد تتبادل جماعتان التأثر بثقافة كل منهما الآخر ، مما يترتب عليه ظهور نمط ثالث من الثقافة يختلف تماما عن نمط الثقافة فى كل من الجماعتين المتفاعلتين . وبنفس الطريقة قد يحدث مثل هذا التفاعل بين أكثر من جماعتين وتكون النتيجة ظهور ثقافة مختلفة تماما عن ثقافات الجماعات المتفاعلة جميعا .

وبين هذين الطرفين اللذين أشرنا اليهما فى التمثيل تكمن كل درجاته المختلفة،ويظهر ذلك عندما لا يكون التمثيل كاملا ، مما يترتب عليه ظهور كل العمليات السابقة بصورة أو بأخرى ، وبصفة عامة ، تكون الجماعة ذات الثقافة العالية التكيف مع الظروف الموجودة فى الزمان والمكان محل الإهتمام ، أكثر مقدرة على الفوز بالمركز الممتاز . فى عمليات التفاعل ، وتكون ثقافتها أقدر على طبع نتاج التمثيل بطابعها — وما لم تكن ثقافة الأقلية ذات أصالة

ملحوظة ومركز ممتاز ، فان ثقافة الأغلبية تفرض نفسها عليها وتخضعها لطابعها . ومعنى ذلك أن ثقافة الأقلية غالبا ما تتغير إلى ثقافة الأغلبية التى قد تستعير وقد لا تستعير عناصرا أو سمات من الثقافة الأولى .

وتصور كلمات « الكثرة أو الغالبية ، والتكامل ، والتمثيل ، درجات ثلاث من التماسك الإجتماعى . وأكثر الكلمات السابقة غموضا هى الغالبية ، وربما كان لهذه الكلمة معنى محدد فى علم السياسة كنوع من الإشتراكية النقابية ، ولكنها استخدمت أخيرا فى مناقشة مشاكل الأقليات لتشير إلى أعلى درجة من الإستقلال أو الإكتفاء الذاتى ، وبطريقة عكسية لتشير إلى أقل درجات التكامل أو التمثيل . أما كلمة التكامل فانها تصبح عديمة المعنى إذا لم تخصص إلى درجة معينة ، وهى تستخدم للاشارة إلى درجة من العلاقات مقابلة للمصالح الكبرى فى المجتمع . والتمثيل مثل التكامل مسألة درجة ، أى أننا لا نستطيع أن نجد تمثيلا كاملا ولا تكاملا كاملا . وهذه حقيقة تستند إلى التغير المستمر فى علاقات الناس الإجتماعية ، واستمرار اتصالهم بغيرهم فى الزمان والمكان . ولهذا يجب أن نضع نصب أعيننا دائما عند دراسة موضوع التمثيل ، أنه مرتبط بمراحل متعددة ومتصل إتصالا مباشرا بالتكامل والتماسك الإجتماعى ، وله صلة وثيقة بما يقبله الناس وما لا يقبلون . وهذا هو الذى أتاح للسوسيومتريين أن يجروا عددا من التجارب لقياس التكامل داخل جماعات معينة على أساس تسجيل ما يفضله المنتمون لأى موقف إجتماعى منظم .

عوامل التأثير فى التعاون والتنافس

هناك ثلاثة ظروف يظن أن لها أهمية فى تحديد طابع التفاعل الاجتماعى،

من وجهة نظر التعاون والتنافس :

١ - إذا كانت القيمة التى يناضل الناس من اجل الحصول عليها« نادرة » فان السلوك التنافسى هو الذى يحتمل أن يظهر . وهناك بالطبع استثناءات من هذه القاعدة ترجع إلى نمط العلاقات القائم بين الأفراد أو الجماعات المتنافسة . ومثال ذلك أن الأم ترفض ان تنافس مطلقا فى سبيل الحصول على الطعام الذى تحتاجه ، وخاصة إذا كان هذا التنافس سيؤدى إلى حرمان أطفالها من طعامهم .

٢ - إذا كانت علاقات الصداقة أو القرابة أو العاطفة هى السائدة فى جماعة ، فان أعضاءها يحتمل جدا أن يظهروا سلوك التعاون ، والعكس فانهم يتنافسون إذا كانت قاعدة علاقاتهم تقوم على الحقد والحسد والغيرة . ولذلك يتعاون المشتركون فى عمل ما إذا كانوا أصدقاء خارج نطاق العمل والعكس إذا كان المشتركون فى عمل يحسون أن هناك تفاوتا فى الأجور بينهم. أو أن مدة العمل نفسها لن تستغرق إلا يوما أو بعض يوم ، إن هؤلاء العمال لا يمكن إلا أن يتنافسوا . وباختصار نقول أن سهولة وسائل الإتصال وما يترتب عليها من اتجاهات شخصية تعتبر مسائل أساسية فى تحديد نمط العملية الاجتماعية الاضطرادية التى تترتب على ذلك.

٣ - كما أن المساواة فى الحصول على نتاج العمل أو النشاط ، تؤدى فى أغلب الأحيان إلى ظهور الإتجاهات التعاونية أكثر من الاتجاهات التنافسية .

المبادىء العامة فى العمليات الاجتماعية :

على الرغم من أن العمليات الإجتماعية أصبحت الآن موضع إهتمام أكثر

علماء الإجتماع ، إلا أن المعلومات الموثوق بها حولها لا تزال قليلة . وهناك مجموعة من التجارب لا زالت تجرى بصورة أو بأخرى عن هذه العمليات فى علم النفس والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع . ومع ذلك فان استشارة المصادر واستقراء ما كتب عن هذا الموضوع الهام يجعلنا نقف عند نقطة هامة، وهى أنه برغم اختلاف الباحثين فى بعض المسائل المتصلة بفهم العمليات الإجتماعية، إلا أن هناك شبه اتفاق حول عدد من المبادىء أو القضايا العامة نفضل أن نضعها هنا لتكون محل النظر والدراسة :

١ ـ الناس فى كل مكان يناضلون من أجل الوصول إلى أهدافهم والحصول على مطالبهم الأساسية . والإشتراك فى النضال مع الآخرين (التعاون) أو النضال ضدهم (التنافس) يعتبر أحد الصور المكتسبة للسلوك .

٢ ـ تظهر رواسب التنافس والتعاون عند الأطفال خلال السنة الأولى من حياتهم ، ولكن التعاون والتنافس لا يبدو جليا إلا حول السنة الثالثة ، وينمو هذا الإتجاه عند الأطفال ويمر على تغيرات سريعة حتى سن السادسة . وعند هذا السن يظهر التنافس والتعاون عند جميع الأطفال .

٣ ـ الإصلاح الإجتماعى للسلوك ، أو قيام الفرد أو الأفراد بأدوارهم ، يتأثر عندما يتغير موقف اجتماعى معين من التعاون إلى التنافس أو العكس .

٤ ـ التنافس بين الجماعات يشجع التعاون داخل الجماعة الواحدة .

٥ ـ صور التنافس والتعاون فى ثقافة معينة ، تعتبر وظيفة لتكامل عدد

من العوامل التاريخية والإقتصادية والإجتماعية المعقدة .

٦ — الأهداف الأولية التى يتنافس من أجلها الأفراد أو يتعاونون ، أو يقفون منها موقفا سلبيا ، تعتبر أحد وظائف ثقافتهم الخاصة .

٧ — إذا كانت الأهداف أو القيم نادرة فى أى ثقافة ، يصبح طابع السلوك (غالبا) تنافسيا وإذا كانت وفيرة يصبح طابع السلوك (غالبا) تعاونيا .

٨ — يكشف تاريخ حياة أى فرد، الدور الفريد والهام لأسرته ، فى نقل القيم الأساسية للثقافة، وعلى الأخص تلك الاتجاهات التعاونية والتنافسية المقررة فى هذه الثقافة .

٩ — يتنافس الناس أو يتعاونون للحصول على المزايا المادية ، كما أنهم يفعلون ذلك للحصول على مزايا لا مادية مثل النفوذ أو القوة او السلطان .

١٠ — لا نستطيع أن نجد مجتمعا يكشف فى ثقافته عن « تنافس كامل » او « تعاون كامل » . ذلك ان كل مجتمع يشتمل على درجات متغيرة منهما . وهذا هو الشأن أيضا بالنسبة للصراع والتوافق والتمثيل .

١١ — الصراع ليست له صفة الاستمرار ، فهو متقطع ، بينما يكون التنافس مستمرا .

١٢ — الصراع بين الجماعات يؤدى إلى التضامن داخل الجماعة الواحدة .
١٣ — التنافس يشجع تقسيم العمل فى المجتمع .
١٤ — عندما يحدث صراع داخل الجماعة الواحدة ويحدث فى نفس الوقت

بين الجماعات ، يقع الأفراد الذين لهم ولاء للاطراف المتنازعة فى وقت واحد، فريسة للصراع الشخصى واضطراب الشخصية .

١٥ ـ عندما يحدث صراع بين الجماعات ، تتكامل شخصية الفرد إذا حدد جهة ولائه إلى جماعة واحدة

١٦ ـ التوافق المتساوى يكون نتيجة الصراع أو التنافس بين متنافسين متعادلين فى القوة .

١٧ ـ التوافق غير المتعادل أو غير المتساوى من ناحية احد الطرفين ، يكون نتيجه للصراع او التنافس بين متنافسين غير متعادلى القوة .

١٨ ـ التوافق يمهد الطريق للتمثيل .

١٩ ـ المتشابهات فى الثقافة توصل إلى التمثيل .

٢٠ ـ يتوقف التغيير من الصراع إلى التعاون على التغلب على الأنماط المتحجرة والصور الخاطئة التى يحملها البعض للاخرين .

٢١ ـ ليس هناك علاقة بين المناطق الثقافية وصور التفاعل الاجتماعى، ذلك لأن كل أنماط التفاعل يمكن أن توجد فى منطقة واحدة كبيرة .

مكونات التكامل :

التكامل فى الجماعة أو المجتمع ، هو الروابط التى تربط الناس بعضهم مع الاخر،وهذه الروابط تختلف من جماعة إلى أخرى ،ولهذا نجد جماعات تامة التكامل واخرى غير تامة . وليس معنى هذا ان هناك طرفين للتكامل ،ولكن فى الواقع نجد درجات متعددة منه. ومثال ذلك أن الاسرة تكون عالية التكامل من حيث الانتاج الاقتصادى ، ضعيفة التكامل من حيث الروابط العاطفية . فما هى إذن المكونات التى تسهم فى عملية التكامل ؟

١ ـ التكامل الآلى والعضوى :

يقال إن التساند الذى يترتب على تقسيم العمل يعتبر عاملا تكامليا ، وخير مانفهم به هذا الموضوع أن نبرز العــوامل أو الأسباب التى تجعل الأفراد يبقون فى الجماعة أو ينصرفون عنها . وتعطينا الأسرة خير مثال على ذلك . ما الذى يقرر أن الرجال والنساء المتزوجين سيبقون متزوجين ؟ أحد العوامل هو كفاية تقسيم العمل بين الزوج والزوجة ، لأن الزواج وإن كان علاقة جنسية ، إلا أنه علاقــة اقتصادية مهمة أيضا . ولذلك كان الزواج تنظيما فعالا لأشباع الحــاجات اللازمة للبقاء . ومعنى ذلك أن تقسيم العمل فى الأسرة وبالتالى فى الجماعة أو المجتمع يؤدى إلى التساند . فاعضــاء الجماعة الواحدة يحتاج أحدهما للاخر ، والحاجة المتبادلة تربط الجماعة معا . وقد أشار دور كايم إلى أن هذا النمط من التكامل الجماعى المترتب على تقسيم العمل يعتبر « تكاملا آليا Mechanical » وهناك نمط من التكامل يحدث عنــد ما يعمل الأفراد فى عمل متشابه ، فيسمى التكامل حينئذ تكاملا عضويا Organic [1] والعمل المتشابه هنا هو العمل الذى تعمله جماعة معينة فى مقابل عمل الجماعة الأخرى المختلف . ولذلك فالآلية والعضوية هنا مقتصرة على الجماعــة لا على المجتمع . لأن دور كايم يقصد عكس ذلك بالنسبة للمجتمع ككل .

٢ ـ التــكامل المعيارى :

الإنسان هو الكائن الوحيد الذى له ثقافة ، ولذلك قد تكون الثقــافة

---

1 - Ogburn & Nimkoff, Handbook of Sociology. London, 1960 pp. 86-87

فى حد ذاتها عاملا تكامليا فى الحياة الجماعية . وقد تبدو هنا أهمية المعـــايير الجماعية التى تنظم السلوك عن طريق وضع مجموعـــة من التوقعات لأنواع السلوك الذى نفترض أن يشخص اليها الأفراد . ومعنى هذا ان الاتفاق حول الآراء أو القيم فى الجماعة يؤدى إلى ما يمكن أن نسميه « الرضـــا العام أو الاجتماع » ولذلك كان الرضا العام مقياسا من مقاييس التكامل . ولكن لما كان الرضا العام مسألة درجة على كل حال ، فاننا نستطيع أن نقيم مقاييسا لقياس درجة اتفاق أعضاء الجماعة حول موضوع معين .

وهناك ميل عام إلى اعتبار الأصدقاء أخير الناس، وأبناء الثقافة التى ننتمى اليها افضل البشر، والمجتمع الذى نعيش فيه أفضل المجتمعات. ولكننا نلاحظ أن اشتداد هـذا الميل أو ظهوره فى إتجـــاهات السلوك يميز المجتمعـات المنعزلة .

ولذلك كان الإتصال الثقافى بثقافات أخرى، من شأنه أن يعدل من هذه الميول، لأن الفرد سيطلع بنفسه على أنماط أخرى من الحياة قد تكون أفضل من نمطه هو عنـــد المقارنة . وعند ذلك قد يؤمن الفرد بالنسبية الثقافية حين تقـدر كل ثقافة فى ضوء ظروفها الخاصة وقيمتها

ومن البديهى أن الرضا العام القوى إزاء بعض المعايير يؤدى إلى تكامل الجماعة أكثر مما يؤدى الرضا العام الضعيف , ولكن السؤال الهام هنا ، هل هناك معايير أقدر على « تكامل الجماعة » من معايير أخرى ؟ والإجابة على هذا السؤال تقتضى أن نتأكد من الأهداف التى تسعى الجماعة للوصـول اليها وإلى الاختلافات الثقافية بين الجماعات. ولذلك فقد تعتبر جماعة بعض المعايير هامة وقد تعتبرها جماعة أخرى قليلة الأهميـــة . ولكن كلما كانت المعايير

متساندة ومتداخلة كلما مالت الجماعة إلى التكامل الشديد ، لأن عدم تساند المعايير يجعل أعضاء الجماعة الواحدة يعملون للوصول إلى أهداف متعارضة . وأخيرا نجد أن إعطاء أكبر قدر ممكن من الاهتمام والتقدير « للنظام والضبط » يجعل الجماعة قادرة على الوقوف أمام الهزات التي تتعرض لها ويتحقق لها أكبر قدر من التكامل فى نفس الوقت . والجماعة المنظمة هى الجماعة القـــادرة على البقاء فى وجود أعنف أنواع النضال .

٣ ـ التكامل الاجتماعى النفسى :

ذكرنا من قبل أن التكامل قد يشتمل على إتفاق أو رضا عام حول معايير الجماعة . والرضا العام هو فى الواقع ظاهرة اجتماعية نفسية . ولكن هناك أكثر من الرضا العام تشتمل عليه التكامل ، هو ذلك الشعور بالإشباع والراحة الذى نسميه « الروح المعنوية » فالزوج مثلا يرتبط بزوجتـــه عن طريق اعتمادهما الإقتصادى أحدهما على الآخر . وعن طريق تعاليم الثقافة إزاء السلوك الزواجى ، كما أن الايديولوجيات المتعلقة بطبيعة الزواج تصبح ذات أهمية فى هذا الميدان .

فاذا كانت الجماعة تعتقد ان الزواج رابطة لا ينبغى أن تفصم ، أصبح الطلاق نادرا ، ولكن هذه الندرة لا تنطبق على حالات الإنفصال . ولذلك فان إمكانية « الطلاق العاطفى » برغم وجود الروابط الزوجية الرسمية ، يصور وجود العوامل الإجتماعية النفسية فى التكامل . وإذن فالتماسك الجماعى يقوم إلى حد ما على « الروح المعنوية » وهى شعور يبنى أساسا حـول الاشباع أو عدم الاشباع .

العوامل المؤثرة فى التكامل :

نعنى بالعوامل المؤثرة فى التكامل تلك التى ترتبط بزيادة التكامل أو قلته. ونلخصها على النحو الآتي :

١ - حجم الجماعة : يقال دائما إن الجماعة ذات الحجم الصغير أكثر تكاملا من الجماعة ذات الحجم الكبير ، وهذا راجع إلى كثافة العلاقات فى الجماعة الأخيرة واتساع مداها. وقد أشار تشارلس كولى Charles Horton Cooley عالم الإجتماع الأمريكى إلى أن الجماعة الأولية Primary group تتميز بالعلاقات الودية المباشرة بين أعضائها . أما العلاقات التى تتميز بالعرضية أو الرسمية فتسمى العلاقات الثانوية Secondary relations وليس معنى هذا أن العلاقات الأولية والعلاقات الثانوية هما الطرفان المحتملان للعلاقات ، بل إن العلاقات فى واقع الأمر تتدرج بين هذين الطرفين بدرجات متفاوتة. ويلاحظ أنه كلما صغرت الجماعة كلما تميزت بالعلاقات الأولية التى تنم عن التكامل الشديد ، وكلما كبرت كلما تميزت بالعلاقات الثانوية وباحتمال قلة التكامل النسبى . ولذلك يميل بعض الباحثين فى علم الاجتماع إلى النظر إلى تغير المجتمع من وجهة نظر تغير العلاقات من الأولية إلى الثانوية أو من تكامل قائم على المودة والمعرفة المباشرة ويتميز بالشدة ، إلى تكامل قائم على التعاقد ويتميز بالعرضية والسطحية .

٢ - التجانس : يرتبط حجم الجماعة بتضامن الجماعة على أساس كم التفاعل بطريقة مباشرة وعلى أساس فرص الإتفاق أو الرضا العام بطريقة غير مباشرة ومن السهل ان نحصل على اتفاق فى جماعة صغيرة ومن الصعب أن نحصل عليه فى جماعة كبيرة . وهذا هو الذى يجعلنا ندخل التجانس كعامل من عوامل التكامل فى الجماعة . فالتجانس أكثر ظهورا فى الجماعة الصغيرة

منه فى الجماعة الكبيرة ومعنى هذا ان المجتمعات البدائية والقبلية والقروية أكثر تجانسا وبالتالى أكثر تكاملا من المجتمعات المتحضرة والصناعية، ولكن هذه القاعدة لا تنطبق على كل حالة ، فبعض القرى فى الهند قد تكون أكثر لا تجانسا من مجتمع بأسره ، كما أن قبرص أكثر تجانسا من السويد وهكذا .

والتجانس ينبع من التشابه ، وخصوصا التشابه فى المهنة أو الأهداف أوالتنظيم الأسرى،وينبع اللاتجانس من الاختلاف فى هذه المسائل . ولذلك كان الاصطدام الذى يترتب على اختلاف أو تعارض المصالح من أهم المعوقات أمام تكامل الجماعة .

٣ ـ التنقل الفيزيائي Physical Mobility : ليس من الصعب أن ندرك كيف يعمل التنقل ضد التكامل ، لأن التكامل يفترض البقاء فى الجماعة أو الرغبة فى البقاء ، ولما كان التنقل عملا يفرق الفرد أو الأفراد ويبعدهم عن الجماعة ، فانه يصبح بهذه المثابة عاملا من عوامل انعدام التكامل . وإذا كان التحرك يتجه إلى ترك ثقافة والإنتماء إلى ثقافة اخرى ، فان مشكلة التكيف للقيم الجديدة تصبح أهم موضوع يواجه الفرد . وإذا كان التحرك يتم داخل النمط الثقافى الواحد مع تغيير منطقة الإقامة ، فان على الفرد ان يواجه مشكلة الحصول على الأصدقاء واكتساب المعارف الجدد ، ولذلك تؤدى الهجرة إلى ظروف ومشاكل على الفرد ان يواجهها فى منطقة الإقامة الجديدة ، وربما كانت تجربة الهجرة اصعب ما تكون وخاصة بالنسبة للأطفال .

وفى الهجرة يجب أن نميز بين نمطين ، الأول عندما تهاجر جماعة بأسرها والثانى عندما يهاجر عضو واحد أو أعضاء متفرقون منها . ففى الحالة الاولى خصوصا فى الجماعات « المتخلفة » نسبيا لا تفقد الجماعة تكاملها في الغالب، وكذلك الأمر بالنسبة للأسرة فانها لا تفقد تكاملها أيضا . وتكون المشكلة هنا مشكلة التكامل فى منطقة الإقامة الجديدة . وهناك من الأدلة على أن انحراف الأحداث - دليل انخفاض التكامل فى المجتمع - مرتبط ارتباطا قويا بالتنقل الفيزيائى أو أن نسبة منخفضة من انحراف الأحداث تظهر فى المجتمعات المستقرة على الرغم من فقرها وسوء الأحوال السكنية فيها أو ازدحامها الشديد . وفى الحالة الثانية حين يكون المهاجر عضوا واحدا فى الأسرة ، تصبح حياة مثل هذا الشخص معرضة للاضطراب ، كما أن حياة أسرته تتعرض أيضا لعدم الإستقرار . وتفسير ذلك أن انهيار الروابط الأسرية بالهجرة أو طول الغياب ، بالإضافة إلى عدم وجود ضغط من مكونات الضبط الإجتماعى فى الموطن الجديد إذا قورنت بما كان يرزح تحته فى موطنه الأصلى ، ربما تدخلت فى تغيير بعض اتجاهاته السلوكية ، مثل لجوئه إلى طلاق زوجته والزواج من جديد ... وهكذا .

الجماعات والتنظيم الاجتماعى

التفاعل الإجتماعى المنظم ، فى صوره المعنوية والمادية ، يخضع لقواعد ويسير نحو أهداف تحقق مطالب الجماعة . وهو لذلك يتعدد ويتنوع بتنوع مطالب الجماعة ذاتها لتحقيق الوجود الإجتماعى . وعلم الإجتماع يهتم بالتفاعل ذى الصفة التكرارية ، لأن التكرار يجعله قاعدة السلوك الإجتماعى . وينقسم التفاعل لأغراض تصنيفيه إلى أنماط متعددة ، كل نمط يتضمن العلاقات

الإجتماعية (نتيجة التفاعل) التى تتجه إلى مقابلة مطلب أساسى ، أو فرع منه ، من مطالب الجماعة الأساسية. ولذلك يكون المجتمع مكونا من مجموع هذه العلاقات . أى أن البناء الإجتماعى يتكون من الأنماط المتعددة التى تحقق مطالب الجماعة ككل لكن علماء الإجتماع يفضلون تصنيف هذه العلاقات إلى اقسام (اجزاء) وينيطون بكل جزء وظيفة معينة ، تفهم على اساس الأغراض التى تنهض بها ، والارتباط الذى يكون بينها وبين الوظائف الأخرى لبقية الأجزاء ، والوظائف الكلية للبناء بأسره ، وكان هذا التصنيف محل خلاف كبير ، لا يمتد إلى الاختلاف الإصطلاحى فحسب ، بل إلى الاختلاف على فهم طبيعة كل قسم ، وما يترتب على ذلك من مفارقات كثيرة تترك آثارها على النظرية السوسيولوجية .

ومثال ذلك أن مكيفر وبيج Màclver & Page فى الفصل الذى عقداه عن المفهومات الأولية فى علم الإجتماع ، يعتقدان أن كل شىء « مقرر إجتماعاً » يعتبر « نظاما » Institution (١) ويشيران إلى تعريف بارنس Barnes ، ان النظم الإجتماعية هى البناء الإجتماعى والأداة التى عن طريقها ينظم المجتمع الانسانى ويوجد وينفذ نواحى النشاط المتشعبة اللازمة لاشباع الحاجات الانسانية (٢) . وطبقا لذلك التعريف تعتبر الأسرة والدولة والزواج والحكومة نظما ، ولكن مكيفر وبيج فرقا فى هذا المقام بين المنظمات associations والنظم Institutions ، ذلك ان الأولى هى الجماعات المنظمة لمتابعة مصلحة او عدة مصالح مشتركة ، والثانية هى الصور

1 - Maclves Page; Society London 1953 P. 15

2 - Barnes; Social Institutions, New York. 1942; P. 12

المقـررة والمميزة لنشاط هذه الجماعات ، ولذلك فنحن ننتمى إلى منظمات ولا ننتمى إلى نظم ، فالأسرة التى ننتمى لها منظمة لها نظم تضمن وصول العمل المشترك اهدافه وتنظم علاقة الفرد بالاخر ، مثل الزواج ، والعلاقة الزوجية والمنزل . ولذلك يتكـون البناء الإجتماعى من المنظمات والنظم معـــا . (١)

ومكيفر وبيج يريدان أن يفرقا بين المنظمة كجماعة تتكون من أعضاء لهم أدوار وعلاقات محددة ، وبين النظام الذى هو فى صميمه عبارة عن مجموعة القواعد المعترف بها لتنظيم هـذه الأدوار والعلاقات التى يجب ان تكون موصلة للأغراض اوالمصالح التى تتولاها المنظمة . لكن «جونسون» يرى من الناحية اخرى أن البناء يتكون من العلاقات الثابتة نسبياً بين اجزائه، لأن كلمة « جزء » فى ذاتها تعنى درجة معينة من الثبات ، والنسق System يتكون من الأفعال المترابطة للناس،ولذلك يكون بناء النسق عبارة عن « الانتظام والتكرار فى هذه الأفعال ، ويمكن فهم هذا عن طريق الدور Role ، فالدور أدوم وأثبت من شاغله ، فالدور إذن بناء وشاغله نسق على هذا الأساس (٢) . ولذلك فالبناء الإجتماعى يتكون من الأدوار التى لها صفة الإنتظام والتكرار بغض النظر عن شاغليها لأنهم مؤقتون .

ومعنى هذا أن « جونسون » يرى أن البناء مجموعة من الأنساق لا تختلف فى مفهومها كثيرا عن النظم عند مكيفر وبيج وخاصة فى قيامها على الأدوار، أما لندبرج Lundberg الذى يهتم بدراسة السلوك الإجتماعى ، فانه يرى ان

---

1 - Op , Cit , P. 15

2 - Johnson H M, Sociology London. 1961, P. 58

البنـــاء الإجتماعي ليس إلا النظم الإجتماعية ،والتي هي في نفس الوقت الأنماط السلوكية الرسميه ، العامة والموحدة ، تلك التي تعبر عن بقائها من خلال الجماعات الإجتماعية ممتدة من جيل إلى جيل ، وتنشأ هذه الأنماط من تكرار تجمعات الأشخاص الذين يتفاعلون بعضهم مع الآخر عند استجاباتهم لظروف الحياة المعقدة ،والتي يجب أن يحددوا موقفهم منها. والنظم ـعلى ذلك تقدم للأفراد الطرق الموحدة الـكفيلة بمقابلة المطالب المتكررة والمتجددة كالتناسل والطعام والمأوى والحماية المتبادلة. الخ كما أن هذه النظم تنطوي على عادات دائمة نسبياً واتجهات وتسهيلات مادية منظمة داخل أنساق معقدة للغاية (١) . ويقرر لندبرج أنه لدراسة الجوانب البنائية والوظيفـة للنظم الإجتماعية الرئيسـية كالأسرة والإقتصادوالسياسة والدين والجمال وغيرها ، يجب أن تؤدى هذه الدراسة إلى تحديد الوظائف الأساسية لـكل نظـام والأدوار الرئيسية فيه وسماته الفيزيائية والرمزية (٢) وواضح أن لندبرج لا يختلف كثيرا عن جونسون إلا في إدخاله أو إخراجـه لبعض الوظائف الملازمة أو غير الملازمة للنظام أو النسق ، وفي الاختلاف حول مفهوم الفعل action والسلوك Behaviour ومضامينها . وخاصة أن جونسون يسير في الإتجاه الذى رسمه بارسونز Parsnos عند تعريف النسق الإجتماعي « أنـه يتكون من مجموعة الأفراد الذين يقومون بأدوار معينة ، ويتفاعلون بعضهم مع الآخر ، في موقف له جانب طبيعي أو بثوى على الأقل ، ويحركهم ميل يتسم بالتفاؤل للوصول إلى اشباع أو ارضاء، وتتحدد علاقاتهم بمواقفهم التي تشمل بعضهم الاخر متخذة موقفا وسطا في ضـوء نسق من الرموز الثقافية المشتركة (٣) .

1 — Lundberg & Others, Sociology new York, 1958, pp 524-525
2 — Ibid P. 525
3 — Parsons, T; The Social Syatem. Ill, The Free press, 1951 pp. 5 — 6

ومن الجلى أن هناك اتفاقا بين هؤلاء المؤلفين على إبراز فكـرة الدور وعامل الانتظام والتكرار فى النظام أو النسق على الرغم من اختلافهم حول ربط « الفرد » بالدور او عزله باعتباره لا يمثل الانتظام والدوام. كما ان هناك اختلافا آخر حول مفهوم النظام والنسق وهو اختلاف يعكس فيما أرى مستويات معينة من التجريد.

لكن هذا الخلاف بين علماء الاجتماع لا يجب ان يغرقنا فى مناقشات طويلة وسوف لا احصر نفسى فى طريق مسدود. وأبادر فأقول بأن الوحـدة الأساسية للبناء الاجتماعى عند تأدية وظيفته هى « الفعل act » ولهذا نتحدث عن الفعل الإجتماعى والتفاعل الاجتماعى والانتظام فى المجتمع كما يبـدو من تجمعات الأشخاص وترتيب سلوكهم أو تنظيمهم. وعندما يترابط مجموع من الأشخاص فى جماعة فانهم يكونون بناء Sructure ، وما تفعله الجماعة هـو الوظيفة Function أما أن البناء يحدد الوظيفة او العكس ، فذلك امر لا لا يجب الوقوف عنده طويلا ، لأننا نهتم، فى نفس الوقت بالتشريح ووظائف الأعضاء (١) أى اننا بهتم بالبناء والوظيفة معا.

والواقع ان كل ما تحدثنا عنه من منظمات او نظم او أنساق ، هى فى الواقع انماط مختلفة للتنظيم الاجتماعى Social Organisation ،وغالبا ما يفهم هذا التنظيم على انه البناء الاجتماعى الذى نعنى به تنظيـم الأجزاء والأشخاص. ولذلك تعتبر الأسرة والنقابة والقوة البشرية فى المصنـع ، وأعضاء ناد رياضى ، والمجتمع المحلى ، وهيئة الأمم المتحدة تنظيمـات

I —Ogburn, Nimkoff, Handbook of Sociology, London, 1960
, PP, 339—340

اجتماعية (١) تمايز فى الحجم من حيث الاتساع والضيق ، وتختلف من حيث تعـــدد الوظائف أو اقتصارها على وظيقة واحـــدة بحسب الغرض الذى تسعى إليه .

وإذن فالتنظيم الإجتماعى للمجتمعات مسألة حجم . فكلما زاد السكان إتسع التنظيم وتعدد ، وكلما زاد تراكم الثقافة كلما تنوعت وظائف التنظيم وهذا ينطبق أيضا فى حالات زيادة تقسيم العمـل ، كما ان التنظيم الإجتماعى حين يزداد عدداً تزداد التنظيمات ذات الغرض الواحد، وعندما يحدث تغير إجتماعى ، يفقد التنظيم المتعدد الوظائف بعض وظائفه وتستقل بها تنظيمات إجتماعية أخرى،فتغير الأسرة مثلا جعل بعض وظائفها تنتقل إلى أجهزة الدولة او المؤسسات الأخرى .

ومن التنظيمات الاجتماعيــة ماعاش مئات من السنين ، دون ان يفقد وظائفه المتعددة وخاصة ما كان لها صفة العمومية فى ثقافات متعددة ، وهذه التنظيمات نطلق عليها إسم «النظم الإجتماعية الكبرى » ٢) مثل الأسرة والدين والحكومة . وكل نظام منها له فى الغالب عدة وظائف ، فالأسرة مثلا لهـا وظائف الإنجاب والتربية والإنتاج « أما المنظمات » فهى تنظيمات إجتماعية ذات تاريخ أقصر ، ولها فى الغالب وظيفة واحدة مثل المنظمات الخاصة ، كما أن للنظم والمنظمات فروعاً ، أى تنظيمات إجتماعية أصغر ،تكـون أقصر عمرا وأقل إنتشاراً أو أكثر تخصصا مثل الجمعيات والنوادى .

وعلى الرغم من تعدد أنماط التنظيم الإجتماعى بحسب الزمن والوظائف

1—Ibid. p. 341
2—Ibid- p. 337

إلا أن كل تنظيم مهما تدرج من النظام ذى الوظائف الثابته نسبيا الى المنظمة ذات الأغراض المحددة والأقل ثباتا ، لابد أن ينطوى على مجموعة من المكونات الضرورية تعتبر فى واقع الأمر مظاهر ملازمة للتنظيم الإجتماعى ، ويتضح ذلك بما يلى :

١ - الإنسان مفروض عليه فى كل مكان ان يعيش حياة إجتماعية . وهذه الحقيقة تجعله متضمنا دائما فى علاقات اجتماعية متبادلة .

٢ - والإنغماس الحتمى فى الوجود الاجتماعى يتطلب مجموعة منظمة من الإجراءات التى لا بد من إتباعها والتى يمكن أن نطلق عليها اسم « التنظيم الإجتماعى للمجتمع » .

٣ - وهذه العلاقة المنظمة لا بد أن تدرك إدراكا واضحا من كل عضو من أعضاء المجتمع .

٤ - وإدراك هذا النظام يوصل إلى كل فـــرد أثناء نموه عن طريق المشاركة ، وعادة عن طريق عملية التربية ذاتها .

٥ - وفى أثناء عملية النمو خلال النسق ، يترجم الفرد أهدافـه الشخصية إلى أشكال إجتماعيه من السلوك المقبول ، ويخضع أغراض سلوكه الشخصى إلى متطلبات المجتمع بالقدر الذى يتوافق فيه مع الصراع الذى يكون بين هذه المتطلبات فى واقع الأمر .

٦ - ويقبل الفرد هذه الأهـــداف الاجتماعية من خلال نسق العقاب والثواب الذى يعمل فى المحل الأول فى ضوء حاجة الفرد إلى أثر إيجابى . .

٧ - ولهذا فان التنظيم الاجتماعي عبارة عن نمط متحـرك من العلاقات الاجتماعية المتبادلة مستمر خلال الزمن . ويمكن أن نفكر فيه على أنه جزء من الثقافة ، أو على أنه جـزء من الخبرة المشتركة للسكان التى أمكن تعلمها (مع تعديلها) ونقلها خلال الأجـيال .

٨ - وهـذا التنظيم الاجتماعى المنبثق من الثقافة ليس نتاجا ناميا حـرا للتغير التاريخى . ولكنه خاضـع للتحديدات التى تفرض اليه ، وهذا يتضح عندما ننظر اليه على أنه وسيلة لحفظ النظام .

٩ - ومن أجل ذلك كان لابد أن ننظر إلى التنظيم الاجتماعى من حيث تحقيقه الذاتى لنظام المجتمع ، اكثر من تحقيقه للاشباع الفردى ، ومع ذلك لا بد أن يحدث للفرد من خلال هذا التنظيم أدنى حـد من الاشباع لرغباته على الأقل ، حتى يمكن الوصول الى « حالة الدوام فى التنظيم » التى بدونهـا لا يمكن أن يكون هناك تنظيم بالمعنى المعروف .

١٠ - وقاعدة الدوام فى التنظيم هى ما يمكن أن نطلق عليه « بالسياسـة الذاتية » لأن الفشل أو الإخفاق سوف يؤدى إلى هدم المجتمع أو إلى تغـيير التنظيم الاجتماعى ذاته .

١١ - وعلى ذلك تكـــون المكونات الضرورية للتنظيم الإجتماعى هى ما نطلق عليه « الضرورات الاجتماعية Social Imperatives » (١)

1 — Goldschmidt w: understanding human Society, London 1959, P- 62

مكونات التنظيم الاجتماعى:

ماهى إذن الضرورات الإجتماعية أو الملزمات؟ أول ما يجب أن ننبه إليه أن هذه الملزمات لها صفة الضرورة والعمومية بالنسبة لجميع الأنساق الإجتماعية بغض النظر عما إذا كانت بدائية أو قروية او متحضرة، وهى: الجماعات والقيم والمركز والدور والسلطة والايديولوجية.

ونعنى بالجماعات Groups تكوين الأجسام الاجتماعية التى يسود كل منها شعور بالمشابهة أو الإنتماء بين أعضائها، بالاضافة الى تمييز مشعور به بين الأعضاء وبين أعضاء آخرين غير متشابهين او غير منتمين، إلى جانب البناء الداخلى.

ونعنى بالقيم Values الصفات المعترف بها التى يجب أن يحصل عليها الأشخاص فى المجتمع والتعبيرات أو التصورات الرمزية التى عن طريقها تنقلب هذه الصفات المرغوبة إلى تعبير مرئى ملموس.

أما المركز Status فانه يشير إلى وضع الأشخاص أو الجماعات داخل الصيغة الكلية للمجتمع. أى وضع الأشخاص بالنسبة لأشخاص آخرين، أو الجماعات بالنسبة لجماعات اخرى.

والدور Role يشمل الإتجاه والسلوك والمشاعر المناسبة لمراكز محددة، على أن تكون مقبولة من الأشخاص الذين هم فى هذه المراكز.

والسلطة Authority هى العلاقة المعترف بها، والتى تتضمن القوة الشرعية لإصدار القرارات على مناطق معينة من السلوك ووجوه النشاط التى تصدر عن أعضاء آخرين فى المجتمع.

والإيديولوجية Ideology هى نسق المعتقدات الذى يهيىء الأساس لفهم أو استيعاب النظام الإجتماعى القائم أو بمعنى آخر ، هى التعقل الذهنى والروحى للوضع الاجتماعى الراهـن .

ولسنا فى حاجة إلى القول بأن هذه المكونات العديدة مرتبطـة إرتباطا متبادلا فى أثناء عملها فى أى نسق اجتماعى . ولذلك فلن يكون هناك بعد عن الصواب أن ننظر إلى كل منها على أنها وجـه من وجوه الفكرة العـامة « التنظيم الاجتماعى » وسنعرض فيما يلى لكل من هذه المكونات فى شىء من التفصيل .

الجماعات

الجمـاعات موجـــودة فى كل مكان من العـالم ، وهـذه حقيقـة مسلم بها ، ومن أجـل هذا كانت أحـد الدعائم الهامة وجـزءا أساسيا من مكونات أى نسق إجتماعى . ومع ذلك فمن الضرورى أن نقـدر معنى الجماعات فى تسيير المسائل الانسانية وان نفحص طبيعتها وتنوعها .

كل الكائنات الإنسانية تدخل الجماعة الأول ـ الأسرة ـ منـذ لحظة الولادة وفى أثناء حياتها تصبح جزءا فى عدد كبير من الجماعات الاجتماعية، وحجم هذه الجماعات يمكن آن يتنوع من العلاقة الثنائية لأسرة بغير أولاد إلى النسق الاجتماعى ذى الطبيعة التجمهرية المفككة كالحزب السياسى ، ومن أجل هذا يمكن النظر الى المجتمع ـ على نحو معين ـ على أنه أكبر جماعـة تحوى داخلها الجماعات الأخرى .

خصائص الجماعية :

١ ـ يشعر أعضاء الجماعة بوحدتهم ومشابهتهم ، وبتميزهم عن أعضـاء جماعة أخرى .

٢ — كل جماعة لابد ان يكون لديها مركز اهتمام خاص ويختلف هذا الإهتمام باختلاف طبيعة الجماعة ، فقد تكون الجماعة مهتمة بجمع طوابع البريد . وقد تكون مهتمه بفرض سيطرتها على منطقة واسعة من النشاط الاجتماعى فى المجتمع ، والناس لا يكونون جماعة لمجرد انهم يعيشون مع بعضهم الآخر ، بل أنهم يشتركون فى الإهتمام والقيام بنوع معين من النشاط . ذلك أن طبيعة وسائل الاتصال الحديثة أصبحت لا تفرض على الجماعة أن يكون أعضاؤها متجاورين فيزيائيا .

٣ — الجماعات لابد أن تكون منظمة . فهناك بناء داخلى يحدد المراكز والأدوار ووسائل الاتصال ومواضع السلطات .

أشكال الجماعات :

وعندما نفحص عدة جماعات من انساق إجتماعية متعددة فاننا نتعرف على ثلاث أسس عامة للتكوين الجماعى .

١ — الشكل الأسرى Familistic حيث تعتمد الوحدة المركزية وقاعدة العضوية على روابط القرابة . أما أى الروابط تعتبر هامة ، وإلى أى حد تكون كبيرة أو صغيرة وما الوظائف التى تقوم بها ، فانها تختلف من مجتمع لآخر ، ولكن جميع الأنساق الاجتماعية بها جماعات أسرية .

٢ — الشكل المكانى Spatial ويقوم على أساس أن عددا من الأشخاص لهم محل إقامة مشترك أو يعيشون فى منطقة واحدة ، ومن هذه الزاوية تعتبر القرى والمدن والمناطق الإقليمية جماعات أقليمية ، وعضوية

النـ ـاس فيها تقوم أساساً على الإقامة على الرغم من أنه يمكن إدخال اعتبارات أخرى .

٣ ـ الشكل الخاص Spec al ويقوم على أساس الإهتمام بنوع معين من النشاط بغض النظر عن المكان أو القرابة .(١)

عضوية الجماعة :

وتعتبر الطريقة التى يتوصل بها إلى العضوية أحد الصفات الهامة للجماعات، ويفرق علماء الإجتماع غالبا بين العضوية التى يجد الفرد نفسه حاصلاعليهادون ترتيب سابق ودون أن تكون له سيطرة على توجيهها ، وبين العضوية التى يكون الفرد حرا فى قبولها أو رفضها .

وتسمى الجماعات التى ينتمى إليها الفرد فى الحـالة الأولى « الجمـاعات ذات الأصل المشترك Common origin »وتسمى الجماعاتالتىينتمىإليها الفرد فى الحالة الثانية « الجماعات ذات المصلحة المشتركةCommou interest» ولكن هذه التفرقة لا تعطينا التمييز الكافى بين هذين النوعين من الجماعات ، لأن كل الجماعات فى واقع الأمر لها مصلحة مشتركة،ومن أجل هذا نطلق على الجماعة الأولى إسم « الجماعة الشكلية الرسمية » والثانية إسم « الجمـاعة الغرضية » ولما كان الفرد لا يستطيع أن يختار والديه مقدما ، كانت الأسرة التى يولد فيها « جماعة شكلية رسمية » وفى العالم الحديث تعتبر « القومية »من هذا النوع من الجماعات ، وفى المجتمعات البدائية نجد اختلافا كبيرا بينها من حيث وجود مثل هذه الجماعات أو انعدامها.ولكن المرجح أن تطور المجتمع

1 - Ibid. P. 67

من البساطة إلى التعقيد يتضمن إنحرافا من حيث الاهتمام من الجماعات الشكلية الرسمية إلى الجماعات الغرضية .

ومع ذلك فان اختيار العضوية فى الجماعة الغرضية ليس حرا تماما . ذلك لأننا نلاحظ أن عضوية الفرد فى جماعة ما قد ترفض أو قد يجد نفسه واقعا تحت ضغط شديد للانضمام . وتعتبر النوادى من النوع الأول ، بينما تعتبر الروابط المهنية كنقابة المحامين والأطباء والمدرسين من النوع الثانى ، لأن القانون فى بعض الأحيان يجعل الإنضمام إلى الجماعة شرطا لممارسة المهنة ، أو أن الجماعة تقدم من التسهيلات والإمكانيات مالا يستغنى عنهـا الفرد . ويظهر الإختلاف بين الجماعات من زاوية التضامن والوحـدة ، فالجماعة الشكلية الرسمية تفرض مسئوليات ومطالب لا يمكن للفرد أن يتحلل منها ، أى أن تأثيرها يعتبر من الناحية الواقعية أوتوقراطيا ، بينما الأمر على عكس ذلك فى الجماعة الغرضية، لأن الفرد يشعر دائما أنه من الممكن التحلل من المسئوليات إذا أراد .

وظائف الجماعات :

والجماعات من ناحية أخرى تقوم بعـدة وظائف فى المجتمـع . وكل جماعة لها وظيفة ظاهرة مميزة . ومثال ذلك أن وظيفة الأسرة هى الإنجاب وضمان الاشباع الاقتصادى لأعضائها المكونين لها . ووظيفة النقـابة أو الإتحاد حماية المصلحة المتبادلة وتعميقها ، والنادى وظيفتـه أن يهيء وسائل الترفيه لأعضائه، وغالبا ما تقوم الجماعات بعـدة وظائف ثانوية مرتبطة بحاجات الأعضاء .

(١) تؤدى الجماعة وظائفها ككل : من خلالها توصل الإتجاهات الثقافية والمطالب الإجتماعية الخاصة للأفراد . وكذلك التوقعات التى تتطلبها المواقف الإجتماعية المختلفة ، ولذلك فان الطفل يكتسب الثقافة أولا من الأسرة .

(٢) تعطى الجماعة القوة للفرد فهى تسنده فى سلوكه وتؤكد له ملكية أفعاله واتجاهاته .

(٣) تهيء الجماعة وسطا إجتماعيا يشبع فيه الفرد حاجاته ويمارس تأثيره الإيجابي . وفى هذا الوسط الإجتماعى يستجيب الأشخاص الإستجابات الشخصية التى تعبر عن العاطفة أو التفوق أو المركز ، أى أن الفرد يشبع رغباته فى هذا المضمون الاجتماعى للجماعة .

العلاقات الجماعية :

من المسائل الهامة التى يؤكد عليها علم الاجتماع أن المجتمعات الإنسانية مكونة فى كل مكان من جماعات عديدة ، ولهذا كان من المهم هنا أن نعطى بعض الأهمية إلى العلاقات التى يمكن أن تنشأ بينها فى النسق الاجتماعى . ولذلك يمكن أن نضع تمييزا آخر للجماعات ، فنميز بين الجماعات المستغرقة والجماعات الإختيارية . ففى حالة الجماعات الأولى تكون العضوية فيها من النوع الذى لا يسمح للفرد بالعضوية فى جماعة أخرى ، وذلك مثل الطوائف فى الهند ، فالذى ينتمى إلى طائفة بعينها لا يمكن أن ينتمى إلى طائفة أخرى فى نفس الوقت . والجماعات التى من هذا النوع تكون فى الغالب متماثلة فى فى القوة والنفوذ ، أو تكون من الجماعات ذات الأنساب المتمايزة . ومن هذه

الزاوية تعتبر العشائر والطـوائف جماعات مستغرقـة .

أما الجماعات الإختيارية فاننا نعنى بها الجماعات التى تـكون العضوية فى أحدها شاملة أو يمكن أن تشمل عضويات من جماعات أخرى ، ويمكن أن نقسم هذا النوع بالتالى إلى نوعين :

الأولى حين يكون الأعضاء فى جماعة واحـدة متضمنين فى الجماعة الكبرى ، ولذلك نطلق على هذه الرابطة إسم « الاستغراق » ومثـال ذلك أنه فى الدولة التى تنقسم إلى ولايات يكون الأعضاء فى ولاية أعضاء فى مجتمعها وأعضاء فى نفس الوقت فى المجتمع الكبير أى مجتمـع الدولة . والبـدنات فى المجتمع البدائى يكون أعضاؤها أعضاء فى نفس الوقت فى جمـاعة أكـبر هى العشيرة التى تتكون من عدة بدنات ، والنوع الثانى يمكن أن نطلق عليه إسم « اللاستغراق » وفيه تكون العضوية فى جماعة لا تؤهل ولا تمنـع فى نفس الوقت العضوية فى جماعة أخرى . ولهذا عندما تفحص العضوية فى أحد هذه الجماعات،فان بعض أعضائها يمكن أن نجد لهم عضويات أخـرى فى جماعات غير جماعاتهم هذه ، بينما لا نجد للبعض الآخر مثل هذه العضويات . ونظام الروابط والنوادى خير مثال على ذلك .

أما فيما يتعلق بالولاء ، فنى كثير من الأنساق الاجتماعية مثل المجتمع العشائرى المنظم ، نجد أن الإخـلاص والـولاء للجماعات الخاصة يعلو على الولاء للمجتمع ذاته . وربما يتوقف بقـاء النسق الاجتماعى على توازن القوى بين الجماعات المتساوية والتى تقف فى موقف يعـارض كل منها الأخرى .

وفى المجتمع الذى يقوم على « مبدأ التدرج الإجتماعى بين الجماعات » يكون النفوذ أمرا شديد الإتصال بالإنتماء الجماعى ، والقـوة عادة ما تميـل ناحية النفوذ، وفى المجتمعات التى تكون جماعاتهـا من النـوع الاختيارى الإستغراقى ، تصبح عواطف الوحدات الأكبر غير متعـارضة مـع عواطف الوحدات الأصغر ، بل على العكس، تمتص العواطف الأولى الروابط المباشرة للثانية ، ولكن حين تكون الجماعات من النوع الاختيـارى اللاستغراقى ، حيث ينتمى بعض أعضاء الجماعة إلى جماعة أخرى والبعض الآخر لا ينتمى إليها ، تكون الفرصة مهيئة للصراع على الولاء . وفى المجتمع الحـديث حيث تكون روابط القرابة والدين والجماعات المهنية والصداقة ذات طابع فردى، تختلف العواطف المنبعثة عن كل رابطـة، ويؤدى الولاء إلى الجمـاعات إلى تفريق الأفراد لا إلى تجميعهم وتوثيق عرى مشاعرهم المشتركة .

القيم :

كل مجتمـــع له طابـــع خـاص فى النظـــر إلى الصفـــات والخصائص ، ولذلك تختلف المجتمعات من حيث طبيعة الصفـة ومـدى الاهتمام بها والدعامة التى تستند بها . ولـــكن خـــلال كل نسق اجتماعى هنـــالك اتفـاق عام بصدد الفـــكرة التى تجعل الإنسان صالحـــا وصادقا ومحترما (١) .

١ - لقد كان لليونان اصطلاح Areté يستخدمونه ليشير إلى الخصائص الصحيحة أن الواجبة « للانسان الفاضل » ولكل الثقافات صيغتهـا الخاصة بالـ Areté حتى ولو لم يكن هناك اصطلاح معروف لذلك . وفى المجتمعات

1 — Ibid. P. 72

البدائية نجد أن هناك إتفاقا عاما فى كل منها حول الصفات التى يجب أن تتوفر فى القادة والزعماء ، والصفات التى تجعل من الإنسان إنسانا صالحا أو سيئا أو محترما أو قليل الأهمية .

٢ — والقيم إذن يمكن أن تعرف بطريقة مبدئية أنها « الصفات الشخصية التى يفضلها أو يرغب فيها الناس فى ثقافة معينة » فالشجاعة والقوة والإحتمال والإيثار والمهارة الفنية وضبط النفس يمكن إعتبارها ، كل على حدة أو فى مجموعها ، الصفات المرغوبة فى كل ثقافة . ولكن القيم من ناحية اخرى ليست صفات مجردة فحسب ، بل إنها فى الواقع أنماط السلوك التى تعبر عن هذه القيم .

٣ — ومن المقرر الآن أن التقاليد تضع القيم فى أى مجتمع ، فهى إذن محافظة بطبيعتها . ولهذا كانت القيم ثقافية الأصل والإتجاه . وكلما كانت القيم ذات عمق واضح كلما تم اكتسابها دون وعى ، وتصبح من موجهات السلوك دون إحساس مشعور به ، ومهما اختلفت القيم باختلاف الجنس أو الطبقة فى النسق الاجتماعى ، فان قيما معينة تظل ذات عمومية لجميع الأعضاء على الرغم من أن الكثيرين قد يفشلون فى تحقيقها فى سلوكهم الفردى أو الاجتماعى . كذلك يعكس طابع النسق القيمى حاجات أساسية معينة للنسق الإجتماعى الذى يتأثر بالبيئة التى يوجد فيها وبالعناصر والتكنولوجية به .

٤ — هذا ونزعم أن وجود القيم يعتبر « ملزما إجتماعيا » لأن الشكل الذى يأخذه يرتبط وظيفيا مع النواحى الأخرى فى الموقف الإجتماعى الذى يتناقل مع التعديل خلال الزمن . والشىء الذى يجب أن نؤكد عليه

أن كل ثقافة لديها مجموعة أو عدة مجموعات من القيم ، ولكن كل فرد (لسبب أو لآخر) يحصل عليها بدرجات متفاوتة . ومن الناحية الإجتماعية تعطى القيم الوحدة للمجتمع والثقافة ، لأنها تعمل على إقامة نقط إلتقاء تتجه إليها الأفعال ، وعندما قلنا إن القيم يمكن النظر إليها على أنها « محافظة » كنا نعنى بالطبيعة الطبيعية الإجتماعية ، لأن بالنسق الإجتماعى عدة قوى تميل إلى المحافظة على النمط القيمى القائم وعلى الأخص فى نواحيه الرمزية التى تعتبر أحياناً حوافزا « للسلوك » ، وأحيانا أخرى أهدافا له . ولا يعنى ذلك أن الأعضاء فى أى ثقافة لهم نفس الحوافز والأهداف من وجهة النظر القيمية ، بل أنهم يتمايزون فى ذلك تمايزا كبيراً. ولذلك كان من يركزون على القيم يحصلون على مركز مرموق فى مجتمعهم، لأن هذا هو طبيعة النسق القيمى ، والأشخاص ذوى النفوذ يميلون إلى الحصول على القوة التى تمكنهم من التأثير على سلوك الآخرين ، أما مباشرة عن طريق الضغط ، أو غير مباشرة عن طريق معالجة القرارات التى يأخذ بها المجتمع أو عن طريق اعتبارهم نماذج يحتذيها الشباب .

٥ - ومن الطبيعى أن نتوقع أن مثل هؤلاء الأشخاص لا يحاولون تدبير النسق القيمى الذى يستمدون منه نفوذهم ، بل إنهم يحاولون شاعرين أو غير شاعرين أن يحافظوا على الواقع الإنسانى الذى يقوم على هذه القيم أو على التصورات الرمزية لها . ولا يعنى ذلك أن إمكانية التغير بالنسبة للنسق القيمى قليلة الإحتمال ، بل أنه يتغير تحت ضغط عوامل متعددة مثل اندفاعات النمو لتكنولوجيات جديدة ، أو الإنتشار من حيث السكان على أرض أوسع، أو ظهور اعداء لم يكونوا فى الحسبان وهكذا . أو بمعنى آخر تأتى فرص تغير النسق القيمى من الخارج أكثر مما تأتى من الداخل إذا ظل الداخل

محتفظ بتوازنه التكنولوجى أو السكاني . ومثال ذلك أن الثورة الصناعية فى أوربا كانت لها آثار واضحة على الحياة الأوربية ، فالطريقة الجديدة فى الإنتاج والتى وجدت فى التجارة والحرب فرصا كثيرة للانتشار خارج أوربا ، هيأت الأرض لمصدر جديد من الثروة والقوة ، والذى انحصر فيما مضى فى ملكية الأرض والزعامة الحربية . ونتيجة لذلك نشأت طبقة جديدة لم تكن موجودة من قبل وهى الطبقة المختارة أو الممتازة Elite ، ومن ثم بدأت قيم جديدة فى الظهور ، ولم تختف القيم القديمة تماما بل ظلت فارغة من غير مضمون .

المركـــز والدور

١ - العلاقات التى تقوم بين الأشخاص تخضع لنظام معين ، ومعنى هذا أن كل شخص يرتبط بالآخر بطرق لها مستويات محددة تعتمد فى تحديدها على اوضاعهم النسبية . وفكرة الموضع التى نستخدمها بصورة منتظمة فى حديثنا عن الناس فى المجتمع ، ولهذا يمكن أن نعرف المركز بأنه الأوضاع التى يتخذها الأشخاص فى المجتمع كل إزاء الآخر . والنسق الاجتماعى من هذه الزاوية يمكن إعتباره مجموعة متسلسلة من الأوضاع المحددة التى تربط جميع أعضاء المجتمع .

٢ - وللمركز ناحية خاصة وناحية عامة أيضا . فيظهر العنصر الخاص فى المركز فى العلاقات المباشرة التى تقوم بين الأشخاص مثل علاقة الإبن بالأب ، أو الرئيس بمرؤوسيه وهكذا . أما المراكز العامة فانها تشير إلى الفكرة التى تقع وراء العلاقات فى النسق الاجتماعى ككل مثل العمال والموظفين والمتدينين . . الخ ، ويرتبط بهذا النوع الأخير ما يمكن أن

نقول عنه ، الواجبات والحقوق والامتيازات التى تعتبر فى نفس الوقت المكونات الأساسية لهذه المراكز التى تطبع الأشخاص الحاصلين عليها بطابع خاص ، هذه الواجبات والحقوق تسمى « أدوارا Roles » من ناحية أخرى . والكلمة أخذت من المسرح حيث يفهم الدور على أنه سلوك الممثل الخاص فى مضمون معين ، والممثل عليه أن يحفظ ويفسر دوره ، كما أن عليه أن يتصرف خلال الحدود التى عينت له مستخدما كل إمكانياته . ومثل هذا القول يمكن أن يقال بالنسبة للدور الإجتماعى . ومثال ذلك أن الأب فى المجتمع الحديث ينتظر منه أن ينصح إبنه ويعنفه ، كما يتوقع منه أن يعطيه الحماية ويهيىء له الراحة وأن يرتب له مستقبلا معينا . ويتوقف كل هذا على مقدرة الأب على اختيار المناسبات الصالحة ولذلك إذا أساء الأب تفسير دوره ربما تدخل المجتمع على صورة النقد الذى يمكن ان توجهه له الأسرة أو الأصدقاء أو الجيران .

٣ ـ وفى كل مجتمع نجد « أدوارا ومراكزا » . ولكن أساس تكوينها وصيغها يختلفان من ثقافة إلى أخرى ، كما أن مركزا واحدا يمكن أن يكون عدة أدوار مختلفة . وفى كل مركز اجتماعى هناك علامات تؤدى إلى قيام السلوك العادى ومعنى هذا أن الدور ليس مجرد فعل ولكنه فى واقع الأمر توقعات للفعل . ذلك لأنه عندما نشترك فى أى موقف إجتماعى طبيعى ، فاننا نتوقع مقدما السلوك الذى سوف يصدر عن الآخرين ، فاذا أخذنا مريضا إلى طبيب فاننا نتوقع قبل أن نذهب أنه سيشخص المرض ويصف الدواء ، ومن أجل هذا فاننا نقول إن لكل شخص مجموعة من الأدوار والمراكز يقوم بها أو يوجد فيها . ويتوقف هذا كله على المضمون الاجتماعى الذى يندمج فيه ، فالفرد يمكن أن يكون أبا وإبنا فى نفس الوقت ،

طبيبا وعضوا فى ناد فى نفس الوقت أيضا ، كما أن من الممكن أن يكون منتجا ومستهلكا فى وقت واحد وهكذا . وفى المجتمع الحديث حين يكون الفرد عضوا فى عدة جماعات مختلفة المقاصد ، تكون الفرصة سانحة لصراع الأدوار . وكثيرا ما يوجد الفرد فى مواقف تثير إنفعالة أو تحرجه لأنه قد يوجد فى وقت واحد مع مجموعة من الأشخاص المختلفين كل يتوقع منه سلوكا مختلفا .

٤ – ويجب أن نلاحظ هنا ان المركز يتضمن مجموعة مختلفة من مناطق النظم الاجتماعية ، وربما كانت القرابة أحد الأسس الهامة فى تحديد المركز وربما كان هذا أيضا هو الذى قاد الأنثروبولوجيا إلى الدراسة المركزة لاصطلاحات ونظم القرابة البدائية وما تترتب على هذا الإهتمام من التعرف على أن هذه الأنماط أو التصفيات القرابية فى المجتمعات البدائيـة . مرتبطة إرتباطا وثيقا بالنواحى النظامية الأخرى فى المجتمع . وعلينا أن نقرر هنا أن أنساق القرابة ليست فى واقع الأمر إلا أنماط من المراكز والأدوار ، وأن إستخدام إصطلاح قرابي فى العلاقات يؤدى إلى تعيين الإتجاه أو إلى تحديد نوع التوقع . ومثال ذلك أن عملية الإقدام والإحجام فى مواقف الحب تتغير تغيرا تاما . حين ترفض فتاة تقدمات شاب مناسب بقولها «لا يمكن أن أكون إلا أختا لك » .

٥ – وثمة اعتبار هام فى علاقة « الدور » ينجم عن الجنس والسن . لأن هذه العناصر الأساسية فى الوجود الإنسانى لها طابع الثبات والتحديد القاطع فى كل مجتمع باعتبارها نواح متميزة فى العلاقات الإجتماعية . ولهـذا كانت توقعات الرجل غير توقعات المرأة ، وتوقعات الشاب غير توقعات المسن . ولا يعنى لذلك أن نعترف بالفروق البيولوجيـة التى تتصل بالقـدرات أو

الموروثات ، بل إننا نعنى أن المجتمع يعطى هذه الاختلافات معنى ثقافيا محددا . والمجتمع الحديث وإن كان يسير فى اتجاه تقليل نسب هـذه المعانى الثقافية ، إلا أن الأمر لم يكن كـذلك فى المجتمعات البدائية . ولعل ظهور إصطلاحات مثل الأبوية والأمية كان فى جوهره عبارة عن محاولة لتعميم أدوار الجنس من زاوية سلطة الأسرة من ناحية ولبيـان مدى التوقعـات واتجاهها التى تقوم على هذا الإختلاف من ناحية اخرى .

٦ ـ هذا وتدخل اعتبارات أخرى فى تحديد المركز فى المجتمع قد تختلف من مجتمع لاخر مثل ، التراث والظروف المباشرة عنـد الولادة ، والصفات الفيزيائية ، والإقامة والمواهب الخاصة ، والملكات ، كـذلك يمكن أن تصلح المهنة , كـأساس فى تمييز المراكز فى أى مجتمع .

٧ ـ وفى الأنساق المعقـدة تختلف القيم على أساس تسلسلى ، ولذلك يكون من الممكـن أن نقسم المجتمـع إلى درج من السلالم الاجتماعية، كل عضو فى واحدة يشترك مع الآخرين فيهـا فى نفس المركز التسلسلى ، ويعطى درجة معينة بالإضـافة إلى النسق القيمى السائد فى المجتمـع . هـذه السلالم الإجتماعية يطلق عليها إسم الطبقات أو الطوائف الاجتماعية والطوائف وهى الطبقات المتحجرة التى لا تسمح لأى شخص أن يخـرج على الجماعة التى ولد فيها، ومن مظاهر التحجر أن الشخص لا يستطيع أن يتزوج من خارج هـذه الجماعة . أما الطبقات فتتميز بمرونة نسبية ، ولـكن إذا لم يكن هناك وحدة بين أعضائها . إلى الحد الذى يمكن أن تكون معه جماعة إجتماعية ، فانه لا يمكن فنيا أن نطلق عليهم إسم طبقة . وعلى هذا نستطيع أن نقول إن المراكز النسبية للافراد فى المجتمعات ذات عمومية واضحة

بل أن الأمر لا يقتصر على الحكومات وحدها بل تظهر نفس هذه المشاكل فى المؤسسات الكبرى التى لا يمكن الاستغناء عنها فى الحياة الحديثة. ومن أجل هذا كان إصلاح الجهاز الحكومى امرا صعبا للغاية ، يقتضى دراسة مراكز السلطة والضبط فى كل فروع هذا الجهاز بحيث يمكن للسلطات العليا أن تكون على صلة مباشرة بكل السلطات الأقل منها وأن يحدد دور ووظيفة ومركز كل سلطة داخل الجهاز ، أو بمعنى آخر لابد من تحديد واضح لحدود العمل وحدود السلطة المخولة للمشرفين على تنفيذه .

الايديولوجية :

١ - يكتشف الانسان فى كل مكان بيئته الذى يعيش فيها من خلال التصورات التى تزوده بها ثقافته ، وأغلب ما يتعلمه الإنسان لفظى بحت ولذلك تخلق اللغة والتفكير صورة للحقيقة يعمل من خلالها الفرد ، فمن خلال اللغة يفرض نوع معين من التعقل على العالم المعروف ، وبذلك يصل الإنسان إلى حالة لا يعطى فيها الوحدة والمعنى للطبيعة بل لسلوك الناس أيضا . وهذا التعقل الذهنى والروحى للأوضاع على ما هى عليه هو الذى نطلق عليه كلمة الأيديولوجية (١) . ولذلك تقوم الأيديولوجية على المزاعم الميتافيزيقية التى تربط الظواهر الملاحظة والتى يمكن ملاحظتها للبيئة الطبيعية والإنسانية وتضمها فى نوع من الوحدة أو بمعنى آخر تعمل الإيديولوجية

---

1 — Ibid P 100

على إقامة نسق من التعقلات والتبريرات للظروف الراهنة الموجودة فعلا ، ولهذا يقال دائما أن الأيديولوجية عبارة عن نسق من الأفكار توجه الأفعال ويقاس على أساسها السلوك الفردى أو الاجتماعى . ومن أجل هذا أيضا كان لكل مجتمع نسقه الخاص الذى يتفق مع تاريخه وظروفه الخاصة وثقافته المميزة . وليس غريبا أن نجد فى كل مجتمع مجموعة من التبريرات أو الأفكار تقوم بوظيفة هامة ، تتلخص فى إظهار التنظيم الاجتماعى بالمظهر الطبيعى الذى يتفق وطبائع الأشياء ، ويكفى أن نشير عدة أسئلة تتعلق بالقيم أو بمراكز الناس فى المجتمع أو بأدوارهم فنتلقى إجابات تحمل طابعا تقريريا كأنها أمور مسلم بها من قبل، بينما الواقع أن هذه الأمور جميعا لا تثبت على حال بل إنها تتغير دائما ولكنها عندما تتغير يتغير معها النسق الإيديولوجى الذى يعطيها الإطار العقلى الذى يبررها. ومن أجل هذا نجد أن كثيرا من العادات الإجتماعية تكون بمثابة القوانين كالإجراءات الخاصة بالزواج أو علاقات المودة والاحترام المتبادل أو واجبات القرابة بغض النظر عما إذا كانت داخلة ضمن تشريع مكتوب ، لأنها فى أثرها تكون أحيانا أقوى من القوانين المكتوبة .

ويقول بعض علماء الإجتماع إن كثيرا من القوانين التى تأخذ بها المجتمعات تكون ذات أساس ايديولوجى ويبدو هذا واضحا إذا عقدنا مقارنات بين المجتمعات البدائية والمجتمعات المتحضرة .

٢- ونظراً لأهمية هذا الموضوع فاننا نزيده إيضاحا : الأعضاء فى كل مجتمع هم بالضرورة علماء إجتماع هواه . أى أن عندهم أفكارا حول بناء

مجتمعهم وعملياته الاجتماعية ومكانه من العالم ، لأنه إذا لم تكن لديهم أفكار حول هذه المسائل ربما كانت حياتهم الإجتماعية غير ذات معنى بالنسبة لهم وهم بهذا يكونون غير حاصلين على الإطار الذى يتحركون خلاله مع غيرهم من أفراد المجتمع . ومن أجل ذلك فان كل واحد من الأفراد فى المجتمع تكون لديه فكرة عن التمايز الداخلى للمجتمع ، كأن تكون لديه فكرة عن الطبقات الاجتماعية وكيف تختلف كل منها عن الأخرى . وكل فرد أيضا لديه صورة عن زعماء المجتمع ، لماذا هم كذلك وماذا يشبهون ، وكيف وصلوا إلى مراكزهم . وبالنسبة للموقف العالمى يكون عند الفرد مجموعة من الأفكار حول إتجاهات السياسة العالمية وعن الدول التى تعتبر صديقة أو معادية وهكذا . والناس لا تكون عندهم أفكار عن هذه المسائل فحسب بل تكون لديهم أيضا مشاعر تجاهها تجعلهم يصدرون الأحكام المختلفة عليها . وباختصار تكون عند الناس أفكار حول طبيعة الأشياء وحول اتجاهها وما ينبغى أن تكون عليه ، ومثال ذلك أن كلا منا يعرف أن الأمور ليست على درجة كبيرة من الكمال ، وهذا الحكم فى حد ذاته يتضمن على الأقل تصورا غير متكامل عن المجتمع المثالى الذى ينبغى أن يكون :

٣ ـ ومن أجل هذا نستطيع أن نقول إن إيديولوجية أى مجتمع تتكون مما يلى :

١ ـ الأفكار العامة المقبولة عن بناء المجتمع وعملياته الداخلية ومركزه العالمى .

٢ ـ الأفكار العامة المقبولة عن تاريخ هذا المجتمع .

٣ ـ الاحكام العامة عن الحقائق التى يعتنقها الناس دون مناقشة .

٤ ـ قيم مقررة ومقبولة وأهداف محددة للمجتمع . وهـذا لا يعنى أن هذه الخصائص الأربعة الإيديولوجية ينبغى ان تكون عامة فى جميـع أقسام المجمتع بلا استثناء إذ ربما تكون للجماعة الواحدة داخل المجتمع الواحد إيديولوجية خاصة تتفق والهدف الذى تسعى إليه .

الفصل الرابع

الثقافة والمجتمع

العلاقة بين الثقافة والمجتمع والحياة الاجتماعية، موضوع لازال يحمل طابع الجدل فى دراسات علم الاجتماع، ويظهر هذا بوجه خاص فى رسم حدود العلاقات الاجتماعية ومضموناتها المختلفة. ذلك أن بعض الباحثين يشيرون إلى ان علم الاجتماع يدرس العلاقات الاجتماعية التى تكون نسيج المجتمع المتكامل ويخرجون الثقافة وعناصرها المختلفة باعتبارها موضوعاً آخر لا يجب أن يشغل علماء الاجتماع. وحين يتعرضون للثقافة ودورها فى الحياة الاجتماعية فانما يفعلون ذلك بأقل قدر ممكن. وفى الموضوعات التى تبدو فيها تأثيرات الثقافة واضحة. ومكيفر مثلا حين يؤيد مثل هذا الاتجاه إلى الثقافة لا على أنها موضوع هام من موضوعات الاهتمام فى علم الاجتماع وإنما باعتبارها عامل من عوامل التأثير فى الحياة الاجتماعية، وخاصة عند دراسة التغير الاجتماعى.

وقد خلق التمييز بين الثقافة والمجتمع عدة صعوبات، نظراً للارتباط الوثيق بينهما فى المواقف الاجتماعية المعينة، حتى ليصعب فى كثير من الأحيان أن نفصل بين ماهو ثقافى، وماهو إجتماعى. فاذا كانت الحاجات الاجتماعية الإنسانية الأساسية يمكن أن تفسر تفسيرا إجتماعيا. فان طرق اشباعها ترتد إلى العناصر الثقافية. وفى كثير من الأحيان يصعب الفصل بين الحاجة ومحققاتها الثقافية. وقد اعترف بهذه الصعوبة الباحثون فى الانثروبولوجيا الاجتماعية

التى تهتم خاصة بالبناء الاجتماعى . وقد صور ايفانز ـ بريتشارد ذلك عندما كان يفرق بين الاتجاهين الثقافى والاجتماعى فى الدراسات الأنثروبولوجية ، وقرر أنه لا يمكن نفصل الصور الثقافية المختلفة التى تؤثر فى البناء الاجتماعى.

لكن علم الاجتماع لا يستطيع أن يتغافل التأثيرات العميقة التى تمارسها الثقافة خصوصا فى أيامنا هذه . على الأنماط المتعددة للتفاعل الاجتماعى وما يتخذه من صور نطلق عليها النظم أو الأنساق الاجتماعية . فالتغير الثقافى الآن نتيجة للاختراع وما يترتب عليه من تغيرات تكنولوجية بعيدة المدى يعيد ترتيب العلاقات الاجتماعية ويضع قواعدا وأهدافا جديدة للسلوك الاجتماعى، ومن أجل هذا زحفت فكرة الثقافة على موضوعات علم الاجتماع ، وأصبح معالجة العوامل الثقافية فى الجماعة أو الشخصية أو التفاعل الاجتماعى أو العمليات الاجتماعية ، أمرا ضروريا لا يتم فهم أى موقف اجتماعى أو كشف حقيقة اجتماعية دون الإشارة اليها .

فكرة الثقافة

١ — يقال غالبا إن الإنسان فى المجتمع يتأثر بالبيئة Environment التى تحيط به ، أى البيئة التى يولد فيها ولكن البيئة تتكون من أشياء كثيرة ، وأحد هذه الأشياء هى الطبيعة Nature . ومع أن بعض الناس ينشئون فى بيئة واحدة ، إلا أن لغتهم تختلف وكذلك تختلف طرق الزراعة عندهم والإسكان والأسرة وتنظيم الزواج والقوانين . . وهكذا . أو بمعنى آخر ، يتأثر هؤلاء الناس ببيئة أخرى .وقد سمى هربرت سبنسر هذه «فوق العضوية Superorganic » أى البيئة التى تختلف عن البيئة الطبيعية . ولكن هذا الاصطلاح لم يكتب له الذيوع بل ذاع استخدام كلمة الثقافة Culture

المأخوذة من الاصل الالمانى Kultur والتى تحمل نفس معنىSuperorganic.
ويقبل كثير من الباحثين تعريف تايلور T lor للثقافة بأنها « ذلك الكل المعقد الذى يشتمل على المعرفة والعقيـدة والفن والأخلاقيات والقانون والعادات ، والقدرات الأخرى التى يكتسبها الإنسان كعضو فى المجتمع » وأهم نقطة فى تعريف الثقافة عند تايلور أنها تشتمل على « القدرات التى يكتسبها الإنسان كعضو فى المجتمع » الأمر الذى يجعل أهم عامل فى هـذا الإكتساب هو القدرة على التعلم من الجماعة . (١)

٢ — ونشير هنا إلى أن هناك طريقين يتحـدد عن طريقهما سـلوك الكائنات : الأول من خلال الوراثة ، والثاني التعلم من الجمـاعة ، وفى حالة الإنسان تسهم الوراثة بسلوك مثل الرضاعة والابتلاع . بينما يكون سـلوك آخر مثـل تعلم لغـة ، أو قيادة سـيارة متعلماً من الآخرين . هـذا إلى أن العمليات المتضمنة فى اكتساب هذين النمطين من السلوك مختلفة أسـاسـا . فالأول عبارة عن العملية البيولوجية للانتقال عن طريق البويضة المخصبة ، والثانى عبارة عن العملية السيكولوجية والاجتماعية التى تشتمل على الانتقال عن طريق نسق من وسائل الاتصال يقوم على قدرة الإنسان على التعلم .

والسلوك الذى ينتقل عن طريق التعلم من جيل إلى جيل يسمى « الثقافة » ويمكن أن نتلمس البدايات الاولى للتعلم الاجتماعى والثقافى فى العالم الحيوانى ، ولكن عدم وجود الكلام عند الأنواع الراقية من القردة ، يقيد بشكل ملحوظ القدرة على الاكتساب ويقلل من درجته . ولذلك فالإنسان وحده هو الذى له ثقافة . (٢)

1 -Ogburn & Nimkoff, A. Handbouf of Sociology. London 1960, p. 29
2 -. Ibid. p. 45

٣ — ولم تكن للانسان دائما ثقافة معقدة كما هي له الآن . فالثقافة تؤثر فيه بطرق متعددة . وهي تتكون من المخترعات أو السمات الثقافية المتكاملة في نسق على درجات متفاوتة من الارتباط بين الأجزاء وهناك تصنيف مفيد لهذه الأجزاء في ضوء ما يسميه أجبرن ونيمكوف ، الثقافة المادية Material Culture والثقافة اللامادية Immaterial Culture . وكل من الثقافة المادية واللامادية ينتظمان حول اشباع الحاجات الرئيسية ، الأمر الذى يعطى الانسان نظمه الاجتماعية التى هى جوهر الثقافة . وتترابط نظم الثقافة لتكون نمطا Pattern يميز كل مجتمع على حدة.

عناصر الثقافة

١ — أن معرفة الإنسان لتاريخه الماضى ليست كاملة ، ذلك لأن اختراع الكتابة لم يحدث إلا منذ ستة آلاف سنة تقريبا . وكانت خبرات كل جيل تنتقل قبل ذلك الى الجيل الآخر عن طريق المشافهة . ومن المعلوم أن اختراع الكتابة مكن الإنسان من تسجيل معرفته وزيادتها، الأمر الذى سهل تجمع عناصر الثقافة وزيادتها زيادة كبيرة . ولذلك يقال إن اختراع الكتابة كان أخطر اختراع فى تاريخ الإنسان ، ومع أن علماء الاجتماع يوجهون معظم اهتمامهم لدراسة السلوك المعاصر ، فانهم إذا نجحوا فى إقامة تعميمات يمكن أن تطبق على الماضى ، فانهم يفسرون التاريخ فى ضوء هذه التعميمات . وربما كان هذا الاتجاه ، هو البديل الوحيد أمام الباحثين لتفسير الوقائع الاجتماعية التى وقعت فى المجتمع الإنسانى منذ فترات طويلة قبل استطاعة الإنسان تسجيل معرفته وثقافته وحفظها عن طريق الكتابة .

٢ — هذا ويجمع الباحثون فى علم الاجتماع أيضا على أن كل تغير يحدث فى الكائن خلال فترة محددة يمكن ان يسمى « فعلا » والأفعال هى الوحدات

الأولية للسلوك . وتعنى آخر هى الميكانيزمات الأساسية التى بوساطتها يتكيف الكائن مع بيئته . ومن ثم كانت الأفعال الانسانية هى وحدات الملاحظة للدراسة العلمية للانسان والثقافة . وهنا يجب أن نلاحظ أن الأفعال الإنسانية ليست دائما أفعالا اجتماعية ، أى أن كثيرا من وجوه نشاط الإنسان تصبح قليلة التأثير على الناس الآخرين . ومع ذلك فان الأفعال غير الاجتماعية والأفعال الاجتماعية يمكن أن تقدم التسهيلات لتوافق الفرد مع بيئته ويمكن أن تزيد من فرصه للبقاء .

٣- ويهتم علماء الإجتماع فى المحل الأول بالتفاعل الاجتماعى أو بالتأثيرات المتبادلة التى يمارسها الناس كل على الآخر ، فى سبيل الحفاظ على المجتمع والثقافة. والميكانيزمات الكبرى التى تنظم التفاعل هى الأفعال الإجتماعية والعادات الشعبية أو الطرق التى يستخدمها الناس كأمور مسلم بها Folkways والعرف والنظم الاجتماعية. وقد اهتم الباحثون فى علم الاجتماع بموضوع العادات الشعبية منذ أن كتب عالم الاجتماع الأمريكى سمنر Sumner كتابه المشهور فى هذا الموضوع .

٤- وإذن فالعادات الشعبية هى الأفعال الاجتماعية المتكررة التى يمارسها الأعضاء المختلفين فى الجماعة أو المجتمع المحلى ، أى أنها المعتقدات النموذجية أو المعتادة والإتجاهات وصور التصرفات التى تلاحظ داخل الجماعة أو المجتمع المحلى (١) ومن خصائصها :

1- Lundberg & Others, Sociology, New York, 1958, P. 286

١ - انها تميل إلى البقاء كميكانيزمات للتوافق .

٢ - أنها تميل إلى أن تصبح منظمة فى أنساق متساندة من العادات .

٣ - أنها تختلف من حيث الدوام من العادات الدائمة نسبيا إلى الصور المتغيرة للأزياء مثلا .

٤ - أنها تختلف فى الجزاء الذى تتلقاه من الاخلاقيات والتقاليد إلى المسائل المتعارف عليها أو السلوك المتواضع عليه أدبا أو ذوقا .

٥ - أنها تختلف من حيث انطباقها على الجماعات أو الأشخاص من العمومية إلى الإختيارية وإلى الخصوصية .

ويلاحظ جونسون Johnson بالإضافة إلى ذلك أن ثقافة كل الشعوب تشتمل على قدر كبير من المعرفة التى تتصل بالعلم الفيزيائي والاجتماعى، بغض النظر عن طبيعة المعرفة المتضمنة فى هذا العلم ، ومثل هذه المعرفة تعلم بعناية لكل جيل ، كما أنه يضيف إلى عناصر الثقافة العلامات التى تشتمل على الإشارات والرموز ، والإشارة تشير إلى وجود شىء أو حادث أو ظرف فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل (١)

٦ - فاذا كانت العادات الشعبية هى الطرق المميزة والمشتركة للفعل فى المجتمع والجماعة ، والتى تنتقل من جيل إلى جيل ، فان « العرف » هو الطرق العامة المشتركة التى ينظر إليها على أنها أكثر صدقا وسلامة من

1— Johnson, H. M, Sociology, London, 1961, PP.90-96

العادات الشعبية . ومن مميزات العرف أنه يعطى وثوقا للفرد كما يفرض عقابا صارما فى حالة الإعتداء عليه ، لأن المجتمع ينظر إلى الإعتداء على العرف على أنه مصدر خطر على الآخرين .

ومن وظائف العرف أنه يحدد الصواب والخطأ ، ويعين ما يمكن وصفه بأنه خلقى أو غير خلقى دون حاجة إلى الإجابة على ، لماذا ؟ والعرف كالعادات الشعبية ، يتغير ولكنه يتغير ببطء شديد . ولكن الملاحظ أن تغير العادات الشعبية يكون أسرع من تغير العرف فى عدد كبير من العادات . ولهذا إذا انتقلت عادة فى المجتمع من نطاقها « العرفى » إلى نطاق العادات الشعبية ، فانها تصبح أقل إلزاما وأخف عقابا فى حالة الإعتداء عليها .

ومثال ذلك أن عادة التدخين عند النساء أمر غير معترف به ، وقد ينظر إليه على أنه عمل مناف للأخلاق . ولكن انتشار التدخين بين النساء أذاب من حدة موقف المجتمع إزاء هذه العادة .

٧- فى عدد من المجتمعات البدائية تكون العادات الشعبية والعرف كافية لحفظ النظام فى المجتمع، ولهذا من النادر أن يجرؤ فرد على مجرد التفكير فى مخالفة هذه القواعد النظامية . ولكن المجتمع الحديث الذى يقوم على تقسيم العمل وما يستتبعه من تنظيمات اجتماعية متعددة ومعقدة، تجعل الناس ينقسمون إلى جماعات و طوائف وطبقات ، ومن ثم لابد أن يعتمد المجتمع بجانب العرف والعادات الشعبية على القانون الذى يحمى ويعاقب فى نفس الوقت لحفظ النظام . كما يلاحظ ، أنه فى مثل هذا المجتمع لا تكون للعادات الشعبية والعرف عمومية كما هو الحال فى المجتمعات البسيطة ، وذلك نظرا لأن الثقافة نفسها تنقسم إلى ثقافات فرعية ، ويحمل كل فرع منها خصائص مميزة ، الأمر الذى قد تتعدد معه

أنماط العادات الشعبية والعرف . وحينئذ يصبح القانون بمعناه العام والخاص هو الرابط الوحيد والعام للأفراد الذى يحمل طابع العمومية من ناحية ، والذى يفرض النظام بطريقة تكاد أن تكون واحدة فى كل نواحى المجتمع من ناحية أخرى.

٨- وتعتبر النظم الاجتماعية من عناصر الثقافة وصورها الأساسية ، وهى فى الواقع عبارة عن تنظيم يشتمل على عدد من العادات وجوانب متعددة من العرف والقانون فى بعض الأحيان ، تندمج جميعا فى وحدة للقيام بعدد من الوظائف الاجتماعية . ويجمع علماء الاجتماع على أن النظم الاجتماعية الرئيسية فى كل مكان هى : الزواج والأسرة والدين والتربية والإقتصاد والسياسة .

كما أن هذه النظم تتكامل الواحدة مع الأخرى ، بمعنى أن كلا منها يتساند مع الآخر لا من حيث البناء فحسب بل من حيث الوظيفة أيضا . وتساندها على هذا النحو لا يعنى أنها جميعا ذات صلة واحدة متساوية كل بالآخر ، بل قد يحدث كثيرا أن يكون هناك نظامان شديدا الصلة عند مقارنة صلة كل منهما ببقية النظم ، كما يتصل الدين بالأسرة , أو كما يتصل الإقتصاد بالسياسة .

البيئة والثقافة

نستطيع أن نلخص أثر البيئة على الثقافة فيما يلى :

١ - تقدم البيئة إمكانيات متعددة لنمو الثقافة .

٢ - تفرض البيئة قيودا متعددة فى نفس الوقت على النمو الثقافى .

٣ - تأثير البيئة يتوقف نوعا ما على حالة الثقافة ، والتى تتوقف بدورها وإلى حد كبير على عوامل أخرى مثل الإنتشار Diffusion - وهو إستعارة ثقافة او عنصر منها من جماعة أخرى .

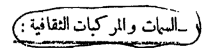
٤ - لا نستطيع فى الوقت الحاضر خاصة ، أن نقدر الدور النهائى للامكانيات التى تقدمها البيئة ، لأن العلم والتكنولوجيا يتحسنان طول الوقت .

٥ - تقدم الثقافة المستمر يحرر الإنسان من القيود التى تترتب على اى مكان معين ، وفى نفس الوقت تجعله يعتمد أكثر على الظروف الثقافية والبيئية .

٦ - وبينما يتحرر الإنسان - من ناحية - من التأثيرات المباشرة والمقيدة للبيئة ، فان تقدم الثقافة يربطه بالبيئة بطرق متعددة عن طريق كشف مزيد من نواحيها . وتعريفه أكثر وأكثر بامكانياتها .

خصائص الثقافة

يمكن إبراز خصائص الثقافة فى النقاط الآتية :



١ - السمات والمركبات الثقافية :

السمة الثقافية هى وحدة بسيطة من الثقافة ،قد تكون مكونا وظيفيا من مكونات الإطار العام للسلوك، أو من الناحية المادية قد تكون مبنى أو قطعة أثاث أو علم .. الخ . أو قد تكون كلمة أو فكرة أو إشارة،والمركب الثقافى هو مجموع سمات مترابطة تؤدى إلى قيام نمط يتضمن العادات الشعبية Folkways والعرف والنظم .

٢ - المنتجات الرمزية وغير الرمزية للسلوك الثقافى :

من المفيد أن نميز هنا بين الأنساق السلوكية وبين نتائجها . فمنتجات الإنسان السلوكية مثل الأبنية والكبارى والسدود والأدوات الميكانيكية والوثائق والكتب هى سمات ثقافية مثل وحدات الأنسان السلوكية. ولكن على الرغم من أن السمات تعتبر أجزاء من الثقافة ، إلا أنه طالما ان لها وجود مستقلا عن السلوك الذى انتجها فانها فى الغالب تعيش مدة أطول من الناس الذين اشتركوا فيها فتبقى بعد أن يموتوا .

٣ - الثقافة كأنساق متكاملة من السلوك :

الثقافة إذن تتكون من السلوك الاجتماعى الموحد والمنتجات الرمزية أو المادية (غير الزمنية) لمثل هذا السلوك وهذه الميكانيزمات ومنتجاتها تتكامل فى نسق يفرض على الأفراد الصور المتوقعة للتصرف . والمبادىء التى تسير عملية الفرض هذه يمكن ان تتلخص فيما يلى :

ا - الثقافة تتعلم : أى أن جميع أجزاء الثقافة يكتسبها الإنسان كعضو فى المجتمع خلال عملية التعلم .

ب - الثقافة نتاج إجتماعى : ذلك أن الثقافة تتأصل وتنمو من خلال التفاعل الإنسانى - فالأب ينقل إلى الطفل والمعلم إلى التلميذ من خلال انفعالات تتميز بدرجة عالية من التوحد والقرب الشديد ولذلك فان الثقافة ليست غريزية أو ولادية او مكتسبة من طريق الوراثة البيولوجية . ولكنها تتعلم عن طريق كل شخص كنتيجة لخبراته بعد الولادة .

حـ - اللغة هي الموصل الرئيسي للثقافة . والموصل (الوسيلة) الوحيد الذي ينقل الناس عن طريقه المعرفة والعقيدة من جيل إلى جيل هو اللغة، ولذلك يزود الطفل في ساعات ما كان اجداده يزودن به في أيام أو شهور .

د - الثقافة تتوافق : التغيرات التي حدثت في الثقافة الإنسانية خلال العصور كانت لها طبيعة توفيقية. ومن الأمور الحتمية أن الثقافة يجب أن تشبع حاجات الإنسان البيولوجية الأساسية ، وحاجات أخرى ثانوية مترتبة على الحاجات الأولى، وإذا كان لمجتمع معين أن يعيش ، فانه من الملزم أن يكون هناك تزويد او إشراف أو تعميم لرعاية الأطفال، اى إمدادهم بالطعام الكافي والملبس والمأوى . . ولذلك تكون أهم قواعد السلوك التي تنظم نشاط الإنسان الرئيسي هي إنجاب الأطفال وتربيتهم ، وضمان الغذاء والحماية . وتنظيم الخبرات المكتسبة ، ونقل المعرفة والعقيدة . هذه الأنساق كما نلاحظ في صورة أو أخرى عند كل الناس تسمى الملزمات الثقافية .

هـ - الثقافة تميل إلى أن تصبح متناسقة وكلا متكاملا ، ومعنى هذا أن مكوناتها المتعددة والمختلفة تتوازن توازنا متحركا خلال الزمن باستمرار .

التكامل الوظيفي للثقافة

يوضح لينتون ظاهرة التداخل الوظيفي بين عناصر الثقافة الواحدة في تصنيفه لها على اساس التدرج من الجزئيات Items إلى السمات Traits فمركبات السمات Trait Complexes فنواحي النشاط الثقافي

Cultural activities ،فالقوس سمة ثقافية فى ثقافة قبائل الـ Comanche وهو يتضمن جزئيات عدة تتعلق بنوع الخشب المستخدم والخيط وكيفية شده وهـذه الجزئيات لا معنى لها فى ذاتها ولكنها باجتماعها الوظيفى تكون هذا القوس الذى يتخذ وضعا خاصا فى ثقافة الـ Comanche ،وهذا القوس كسمة ثقافية يرتبط بدوره بعدد من السمات الأخـرى كالسهم وحقيبة السهام وطريقة الرمى، وهذا هو ما يكون مركب القوس والسهم كوحدة ثقافية أكبر ، وتمايز الصفات المكونة لهذا المركب ولكن فاعليتها متوقفة على ارتباطها المتدخل كأجزاء فى نطاق مركب القوس والسهم، وهذا المركب ذاته يرتبط بدوره بمركب ركوب الخيل ومركب اقتفاء الأثر ليكون معها فى نهاية الأمر النشاط الخاص بالصيد . وأخيرا يرتبط نشاط الصيد بأنواع أخرى من النشاط كالحرب والنقل والحياة الاجتماعية والأفكار الخاصة بالروحانيات ليكون معها جميعا التعبير الظاهرى لثقافة القبيلة .

ب ـ ويلقى رالف لينتون (١) مزيدا من الضوء على مركب السمات كعنصر ثقافى أساسى ، فينظر إليه من نواحى الشكل Form والمعنى Meaning والاستخدام Use والوظيفة Function ،ويمثل الشكل والمعنى الصفات السلبية للمركب، بينما يمثل الإستخدام والوظيفة صفاته الدينامية ، ويلاحظ لينتون أن الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة تبين أن الشكل الخاص بأحد مركبات السمات يستطيع أن يصمد فى وجه كثير من التغيرات والتعديلات التى قد تطرأ على عناصر الثقافة الأخرى . فرقصة الشمس مثلا التى تنتشر فى عدد كبير من قبائل Plains Tribes تعرضت

---

١ ـ راجع كتاب R. Linton, The Study of man

لتغيرات عـديدة فى مضمونها واستعمالاتها ووظيفتها ، أكثر من تعرضها لذلك فى شكلها فالرقص يقوم فى بعض القبائل كتعبير عن الشكر بعد الإبلال من المرض وفى البعض الآخر كتعبير عن الإنتقام لقتل أحد الأقرباء ، وفى قبائل Comanche كاعلان عن ظهور طبيب جديد فى القبيلة ، وكل من هـذه التعبيرات يصحب بتغيير طفيف فى شكل الرقصة . كما يلاحظ من ناحية أخرى أن «معنى» العنصر أقل قابلية للانتشار من كل الجوانب الأخرى نظرا لطبيعته الذاتية وفى معظم الحالات تضفى الثقافة المستعيرة معاني جديدة على العناصر المستعارة ، وقد يكون البون شاسعا بين هذه المعانى وتلك التى كانت مرتبطة بالعناصر فى أصلها الأول ، وعلى ذلك فانه من الممكن أن يستعير مجتمع ما مراسم أحد الإحتفالات التى تحمل أبلغ المعانى الروحية بالنسبة لمجتمع آخر لمجرد أن يقيمها بقصد التسلية وقضاء الوقت، وهذا فى الواقع ما نفعله عندما ننقل رقصات الهنود الحمر مثلا .

ويبدو أن الوظيفة تتعلق بالمعنى أكثر من تعلقها بالشكل او الإستخدام، ويظهر ذلك فى مركب للسمات معروف فى ثقافتنا وهو عادة إرسال الزهور ، فالمجتمع يعتبر أن إرسالها أمر مناسب فى مواقف معينة، فهى مناسبة جدا عند مرض أحد الأصدقاء أو فى الجنازات، وهى مناسبة كذلك فى حفلات الزفاف والميلاد وبعد فترات الضيافة، وفى التحية والتهنئة والإعتراف بالجميل ، ففى حالات الموت والمرض تحمل معنى المواساة، وفى حالات الزواج والميلاد تحمل معنى الإبتهاج، وفى حالات الضيافة معنى العرفان بالجميل، وفى حالات التهانى لذوى المراكز تحمل معنى توقع الفائدة ، وبصفة عامة تعبر كل هذه المعاني عن الشعور الطيب من جانب المرسل

تجاه المرسل اليه،ومع هذا فإن ذلك يعتبر مغالاة فى تبسيط الظاهرة إلى حد بعيد ،والشعور الطيب معنى واسع جدا يتضمن عدة معانى خاصة مرتبطة بمواقف متنوعة ، ونحن هنا لا ننكر أن الشعور الطيب يمكن التعبير عنه بوسائل اخرى،وما إرسال الزهور إلا إحدى وسائل التعبير التى تؤيدها ثقافتنا فى مواقف معينة،ولكن هاهنا يتضح ان الوظيفة مرتبطة بالمعنى ومشتقة منه .

جـ — ولكن هنالك جانب آخر لمشكلة وظيفة العنصر الثقافى .. فالثقافة ككل تتكون من المجموع الكلى لأنماط الإستجابة التى يواجه بها المجتمع كل حاجاته ، ووظيفة أى عنصر ثقافى يمكن أن تعرف إذن على أساس إشباعها لحاجة أوعدة حاجات معينة .وإذا كانت الحاجات الإنسانية بصفة عامة عناصر ثابتة ، فإن الأشكال التى تتخذها لدى أفراد المجتمع متنوعة وعديدة ، وحتى إذا صرفنا النظر عن عامل البيئة وتأثيره فى هذا الاختلاف فاننا لا يمكن أن نتجاهل العامل الثقافى،فالفرد العادى لا يطلب الطعام وحسب ، وإنما يطلب ذلك النوع من الطعام الذى اعتاده، وإذا عرض عليه انواع منه أخرى فانه سيشعر أولا بعدم الارتياح وهذا ما يمكن يقال بالنسبة لسائر الحاجات الأخرى، فالحاجة مرتبطة فى ذهن الفرد باستجابة أو سلسلة من الاستجابات المعينة،ولهذا فان تلك الاستجابات غير المعتادة والتى قد تنجح تماما فى إشباع الحاجة لدى أفراد مجتمع ما قد تفشل هى ذاتها فى عملية الإشباع بالنسبة لأفراد مجتمع آخر،ومن ذلك نرى أن الحاجة تشكل الاستجابة الثقافية وتتشكل بها فى نفس الوقت .

ومن الصعب أن نوضح الارتباط القائم بين مركبات السمات وبين الحاجات بأن نضع الواحدة من الصنف الأول أمام واحدة مقابلة لها من الثانى،ففى كل

الحالات تقريبا نرى أن المركب الواحد للسمات يستطيع إشباع عدة حاجات، كما أن الحاجة الواحدة قد لا يتم إشباعها إلا بعـــدد من مركبات السمات، ويمكن لهذا الوضع أن يتضح بدرجة أكبر بتحليل وظيفة أو وظائف مركب الملابس في ثقافة معينة. فقد يبدو أن وظيفة الملابس إنما هى إشباع تلك الحاجة البيولوجية إلى الدفء نظرا لبرودة المنطقة التى نحيا فيها، ومع هذا فان تلك الحاجة تعتبر حاجة موسمية فالملابس تصبح فى الصيف القائظ عبئا غير محتمل، ونحن نرتدى الملابس رغم ذلك على مدار العام كله وإن كنا ننوع فى ألوانها وأثقالها، ولكن هذا تعبيرا واضحا عن أن مركب الملابس أصبحت له عدة وظائف بعيدة تماما عن تلك الحاجة البيولوجية إلى الدفء، لقد ارتبط مركب الملابس فى ثقافتنا بما يمكن أن نسمية النشاط الجنسى، فهو يلعب دوراً هاما فى عملية ضبط التعبير الجنسى، ولكنه فى نفس الوقت وعلى العكس من ذلك له أثره فى استثارة الميول الجنسية، والملابس اذن وظيفتها فى التحشم وفى التبذل على حد سواء، كما أنهـا تتولى أيضا إشباع الحـــاجة إلى إثبات المركـز الإجتماعى، ولـكن هذه الوظيفة تتضاءل بالتدريج نظرا لارتفاع مستويات المعيشة وزيادة الـكفاءة الآلية فى صنع الملابس. ومع هذا فما زال للملابس وظيفتها فى تعيين نوع الشخص وإلى حد ما فى تقدير عمره، ومنذ زمن ليس بعيد كانت تستخدم فى توضيح المركـز الإجتماعى بحيث يستطيع الشخص الغريب أن يفطن إلى مركز من يقابله من الأشخاص فيتحاشي التصرف معه تصرفات قد لا تكون مناسبة إجتماعيا، وتوفر الملابس كذلك متنفسا للميول الجمالية لدى الفرد بأن تساعـده فى كسب إعجاب رفاقه، وكثيرون منا تذوقوا لذة ارتداء حـــلة جـديدة. هكذا تشبع الملابس سلسلة طويلة من الحاجات، وكل منها لا شك أنه يجد إشباعا له فى

مركبات أخرى للسمات الثقافية غير الملابس ، وقد يكون من المتعذر العثور على حاجة واحدة لا نجد إشباعا لها إلا عن طريق مركب للسمات بعينه . فالثقافة فى قيامها بوظيفتها لا نلقى بالا إلى علاقتها بالفرد والمجتمع فقط بل أيضا بالبيئة التى لا تكف عن التغير والتطور ، واشتراك عدد من مركبات السمات فى إشباع حاجة بعينها يجعل من السهل كثيرا على المجتمع أن يتكيف مع التغيرات البيئية الحادة ، ولو افترضنا مثلا أن الحاجة إلى الغذى فى جماعة ما لم تكن تشبع إلا بصنف واحد وليكن الأرز مثلا، فان حدوث خسارة طارئة فى محصوله سوف تعنى فى هذه الحالة فناء الجماعة .

ويميل مالينوسكى [١] إلى النظر إلى العناصر الثقافية على أنها تتجه لتحقيق التكامل فيما بينها، وعلى أنها فى حالة النظم الإجتماعية تتمتع بالانسجام الداخلى والأتساق فى العلاقات مع باقى النظم التى يضمها الإطار الثقافى ، وربما كان هذا راجعا إلى طبيعة مجتمع Trobriand الذى تعمق فى دراسته لمــــدة أربع سنوات متوالية ، ولـــكن هذا لم يمنعه من القول بأن صراعا داخليا قد يتولد داخل المجتمع نتيجة عدم التوازن بين التشريعات والأنماط السلوكية المختلفة ، وتؤكد روث بندكت R. Benedict أنه مامن ثقافة قد تمكنت من الوصول إلى تنظيم الآلاف من مظاهر السلوك فيها بشكل نهائى فى صورة نمط متسق متزن، فهناك إحتمال لبقاء بعض تلك المظاهر مشتتا ، ولاتجــاه بعض مظاهر الثقافة لتحقيق غايات قد لا تتمشى مع ما كانت تتجه إليه من قبل ، وهى ترى أن النقص فى التماسك الداخلى للثقافة قد يميز بعض الثقافات كما أن التماسك الوثيق قد يميز بعض الثقافات الأخرى ، ولا يرجع ذلك إلى نفس

---

(١) راجع كتاب مالينوفسكى عن الثقافة ومقاله فى دائرة معارف العلوم الاجتماعية

الظروف فى كل الأحوال . وتضرب بندكت مثالا (١) للمجتمع البدائى الذى ينقصه التكامل الداخلى، وترى أن نقص التكامل فى ثقافة قبائل كولومبيا البريطانية لا يعود فقط إلى تراكم عدة سمات ثقافية جمعت من ثقافات مختلفة فلم تعد نظاما مغلقا على نفسه ، فبينما نرى فى السهول القريبة أن فترة البلوغ تحاط باهتمام خاص لضمان رعاية الأرواح الحارسة وأن هذه الرعاية مطلوبة طوال المرحلة التالية من الرجولة وخاصة فى أعمال الصيد والحرب، نجد أن الناحية الدينية فى ثقافة كولومبيا البريطانية نظام مستقل عن أى نظام فيها ، حتى ليبدو أن كل مظهر ثقافى يؤلف نسقا مستقلا له دوافعه وأهدافه الخاصة التى لا تتعدى النطاق المحدود لذلك المظهر، ولا يبدو لذلك ان سمة معينة قد فرضت نفسها كمظهر عام يميز تلك الثقافة ويصبح طابعا لها ، ولكن بندكت ترى رغم ذلك أن التكامل داخل الثقافة حقيقة اثبتتها الدراسات الانثروبولوجية المختلفة رغم وجود صراعات أساسية داخلها ، وقد يحسم تحليلنا نحن لتلك الثقافة أمورا لا تكون موجودة بمثل الصورة التى تصفها، كما أن طبيعة التكامل الثقافى والوظيفة التى يقوم بها قد يعز علينا إدراكها فى كل جوانبها ، والواقع أن القول بأن الثقافات ليست دائما وحدات متسقة، وانها لا تخلو من مظاهر الصراع الداخلى، لا ينسحب فقط على الثقافات البدائية بل يشمل مجتمعاتنا الحديثة أيضا ، فقد نشهد أمثلة لصراعاتنا بين الشرائح المختلفة، وربما تسبب هذا الصراع فى توليد نظام يوحد بين العناصر الصالحة أو قد يخرج عنه نظام يمكن تشبيهه بالعصاب النفسى عند بعض مرضى النفس .

---

١ - راجع كتاب بندكت R. Bendict, Patterns of Culture

يمكن القول إذن بأنه ما من ثقافة يصح أن يقال عنها أنها تامة التكامل بمعنى أن سائر عناصرها فى حالة تامة من التكيف المتبادل خلال عملية التغير الثقافى ، وطالما أن عملية التغير مستمرة بالنسبة لأى ثقافة ، سواء بتأثير الابتكار او الانتشار فلن يتم لها التكامل فى أى زمن معين فى تاريخها . فالمسألة إذن مسألة تكامل على درجة معينة ، أى ان هناك حدا ادنى لهذا التكامل ، إذا قل تعرضت معه الثقافة لخطر الإنحلال والزوال ، وإن كان من النادر أو المستحيل أن يحدث ذلك . فكل الثقافات تمتاز بقدرة على التغير والتكيف تجعلها قادرة فى كل وقت على أن تهضم أى عنصر ثقافى جديد او مجموعة من العناصر بحيث لا تكون منافضة للظروف الأساسية لتلك الثقافة .

وبتفاعل الفرد مع عناصر ثقافته التى يحيا فى إطارها فى صورة أخذ وعطاء يأخذ طابعا معينا وخاصة عندما يتعرض لمؤثرات خارجية تعين اتجاهاته العقلية الوجدانية والإجتماعية، كما ان هذا التفاعل ذاته يتضمن فى نفس الوقت قدرة الفرد على التغيير فى مظاهر ثقافته حسب قدراته وإمكانياته ، فعملية التفاعل إذن أساسية لاستمرار ثقافة أى مجتمع، وهى أساس تلك الأساليب النمطية التى تتصرف بموجبها جماعات الأفراد عن طريق مشاركتهم فى عمل معين على أساس نوع من الإنسجام الفكرى والسلوكى بينهم ، ويتوفر هذا الإنسجام نتيجة وجود عادات وقواعد وتقاليد إجتماعية مشتركة وهذه الظواهر الثقافية الفكرية هى التى تحدد إتجاهات الفرد بالنسبة لأعضاء الجماعة وخاصة الجماعة المقربة . وأيضا تجاه المظاهر المادية المحيطة به والمجتمع العام الذى يعيش فى نطاقه والمجموعة التى يشاركها فى العمل ، وكذلك تجاه المظاهر السحرية والروحية السائدة، بل إن هذه القيم والعواطف التى تثبتها

الثقافة لدى الفرد هى التى تجعله يستعذب المـوت أحيانا على التسليم بالهزيمة والحرمان على الإشباع والألم على اللذة العاجلة . وحياة الطفل داخل الإطار العام الذى يميز ثقافته هى التى تكسبه طابعا خاصا يميزه فى حالة الكبر كابن شرعى لهذه الثقافة .

مقومات التكامل الثقافى :

الثقافة إذن ، ليست مجرد مجموع من أجزاء أو عناصر ، لأن وضع قائمة بالعادات والمنتجات المادية فى مجتمع ما لا يعطينـا صورة حقيقية عن الثقافة . ومن أجل هذا ـ يجمع كثير من الباحثين فى الثقافة أنها تميل دائما إلى أن تنتظم وأن تتكامل . وربما كان هـذا هو السبب الذى جعل بعض هؤلاء الباحثين من أمثال روث بندكت ومالينوفسكى ولنتن يبحثـون عن الصيغة الكلية للثقافة أو يستقصون العوامل التى تؤدى إلى وحـــدة الثقافة البنائية الوظيفية . وعلى الرغم من قبول الكثيرين أيضا لقسمة الثقـافة إلى جزئين ، مادى ولا مادى ، إلا أنهم يعترفون ان هذه القسمة لغرض الدراسة والتحليل ، فالثقافة كل لا ينقسم .

ويفضل علماء الإجتماع والأنثروبولوجيا دراسة التنظيم الثقافى فى ضوء إصطلاحات ، السمات والمركبات والأنماط التى تعتبر أصغر وحدات الثقافة التى يمكن عزلها لغرض الدراسة العلمية . والسمة الثقافية مثل ، المنضدة أو الطبق أو التفاحة والأكل فى الصباح ، والاعتقاد فى ضرورة إحتواء الغذاء على نوع معين من الفيتامينات ، تتجمع فيما يسمى مركب السمات الثقافى ، وفى مثل هذه الحالة يمكن أن نسميه ، مركـب التغـذية . وتتجمع المركبات فى أنماط حول مصلحة مركزية أو حول فكرة جـــوهرية ، تستمد من

أحدهما او من كليهما معناها المحدد. ومثال ذلك أن مركب التغذية جزء من نمط المعيشة اليومية . وقد تختلف الأسر –على سبيل المثال– فى طريقة الأكل والنوم وترتيب المنزل ، ولكن هناك قدراً من الثبات يسمح لنا بتحديد نمط معين . كما ان هناك فى أذهان أعضاء أى ثقافة « نمطا مثاليا » لكل ناحية من نواحى السلوك . ومثال ذلك أن كلا منا لديه صورة محددة للنمط المثالى للحياة الأسرية، ويحاول كل منا ان يطابق هذه الصورة وفى ذهنه أسرته هو . وإذا حللنا مصدر هذا النمط المثالى ، لوجدنا أننا استمددناه ممن علمونا أو نصحونا أو كانت لنا بهم صلات مختلفة . ومن ناحية أخرى يفيد هذا النمط المثالى ويستخدم كمرشد فى اختيار الزوج أو الزوجة ، وفى تربية الأطفال وغير ذلك .

إن الثقافة تتكامل دائما ، ومقومات تكاملها تدور حول المعتقدات والأهداف والقيم . والتكامل معناه التوافق المتبادل بين العناصر الثقافية ، وعدم وجود الصراع والإضطراب، ووحدة المعتقدات والأفكار والأفعال ولذلك كان التكامل الثقافى أمرا صعبا للغاية ، ولا يمكن ان نجد فى الواقع ، كما سبق أن ذكرنا . ثقافة تامة التكامل . وإذن فالتكامل الثقافى مسألة درجة . وفيما يلى نعرض فى إيجاز للمقومات الأساسية للتكامل الثقافى » .

١ – المعتقدات

تقوم كل ثقافة على أربع تصورات أساسية ، تنظم التجربة الإنسانية وتفسرها :

ا – طبيعة العالم ، كيف خلق وكيف يعمل ، وما مصدر القوة والسلطة

فيه . ويتساءل الإنسان دائما ، ما الذى يجعله يصيب أو يخطىء ، وما الذى يجعل الأشياء تسير لخيره أو شره . وعندما يفكر الإنسان فى هذه الموضوعات يحاول أن يتخذ موقفا من القوى التى لا قبل له بها ليضمن الحصول على حاجاته . وفى ضوء كل هذا يبنى الإنسان علاقاته مع البيئة الخارجية لضمان الغذاء والحماية والأمن.

ب - مكان الإنسان من العالم ، ويتساءل الناس جميعا ، عن الأمل والمصير ومكانهم من الطبيعة أو خارجها ، وعلاقاتهم بالقوة المسيطرة التى تقود العالم. ويجيبون إجابات متعددة ، ولكن تعدد الإجابات لم تجعلهم يختلفون على القوة ذات الطبيعة غير البشرية التى تهيمن على الأصل والمصير .

حـ - مكان الفرد من الجماعة ، ويتحدد تساؤل الفرد بمحاولته معرفة علاقته بالجماعة وبالأفراد الآخرين ، ومعرفة حقوقه وواجباته ومصالحه ومركزه ، ويبلغ تساؤل الفرد قمته عندما يحاول أن يعرف : من سيضحى وفى سبيل من ؟

د - الطبيعة الإنسانية والسلوك ، وتظهر فى تصور الإنسان لنفسه كخير أو شر ، أو قادر على الخير والشر معا . ومعتقداته فيما يتصل بما ينبغى وما لا ينبغى وخاصة فى العلاقات الإنسانية . وإننا لنجد التعبير الكامل عن هذه التصورات فى الدين والفلسفة والقانون ، وفى عادات الجماعة وفى فولكلورها وفنها . ويجب أن نلاحظ أن هذه « المعبرات » مترابطة ، وتكون نسقا من العقيدة والمعرفة ، كما انها تكون الأساس الذى يقوم عليه العالم الرمزى للمعانى والقيم .

٢ - القيم:

هى العناصر الثقافية التى تجعل الثقافات الأخرى عسيرة الفهم . أو بمعنى آخر ، هى موضوع الرغبة الإنسانية والتقدير . ولذلك تشمل القيم كل الموضوعات والظروف والمبادىء التى أصبحت ذات معنى خلال تجربة الإنسان الطويلة . والقيم من ناحية أخرى ، قد تكون إيجابية او سلبية ، وأساس التمييز يقوم على ما هو مرغوب وما هو غير مرغوب ، أى أن القيم الإيجابية ، قيم مرغوبة والقيم السلبية قيم غير مرغوبة . ومثال ذلك أن الزهور قد تكون إيجابية فى ثقافة ، بينما لا تكون كذلك فى ثقافة أخرى ، ولهذا كانت القيم فى أساسها ذات طبيعة نفسية ، لأنها تعبر عن الأفكار المتعلقة بالأهمية النسبية للأشياء . كما أن إتجاه الفرد هو ميله للتعرف بطريقة معينة تجاه أحد القيم .

وتنتظم القيم المختلفة فى الثقافة الواحدة فى نسق يؤدى مجموعة من الوظائف ، من أهمها :

أ - ربط أجزاء الثقافة بعضها بالآخر ، فتربط العناصر المتعددة والنظم حتى تبدو أنها متناسقة ، كما أنها تعمل على إعطاء هذه النظم أساساً عقليا يستقر فى ذهن أعضاء المجتمع المنتمين إلى هذه الثقافة أو تلك . وتبدو أهمية هذه الوظيفة . خصوصاً إذا عرفنا أن هناك شبه إجماع على تعريف المجتمع أو المجتمع المحلى . بأنه مجموعة من الأشخاص يتابعون نفس القيم، ويحاولون الوصول إلى أهداف مشتركة .

ب - تزود القيم، أعضاء المجتمع بمعنى الحياة وبالهدف الذى يجمعهم من أجل البقاء . ويبدو هذا من أن نسق القيم يجعل الأفراد يفكرون فى أعمالهم

على أنها محاولات للوصول إلى أهداف هى غايات فى حد ذاتها ، بدلا من النظر إلى هذه الأعمال ، على أنها محاولات لإشباع الرغبات والدوافع ، ومن ثم يكون عليهم استقصاءما فى هذه الدوافع من فائدة تستحق العناء. ولذلك تكون القيم العليا فى أى جماعة ، هى الهدف الذى يسعى جميع أعضائها للوصول اليها إلى جانب أنها تعطى مبرراً هاما للوجود .

هذا وقد يكون نسق القيم فى الثقافة مقدسا أو غير مقدس ، فاذا كان مقدسا ، تميزت الثقافة بالنزعات المحافظة والثبات والحفاظ على التقاليد والإجابات الموروثة لكل سؤال أو استفسار ، وليس هناك من سبيل لاعتبار أى شىء وسيلة لغاية عملية . ولهذا كان الإنحراف عن السلوك التقليدى مفضيا الى العقاب الصارم أما إذا كان نسق القيم فى الثقافة غير مقدس ، فان تقييم الأفكار والأشياء والناس يقوم على أساس نفعى . وفى مثل هذه الثقافة ، يستقبل الناس التغير استقبالا حسنا ، بل إنه يصبح مطلب يسعى اليه الجميع ويخططون من أجله ويطلق عليه إصطلاح « التقدم » كما أن الفرد يعتقد فى ظل نسق القيم المتحرر « أن الله لايعين إلا من يعينون أنفسهم » .

٣ - الأسطورة :

الأسطورة « جسم » يحتوى نسيجه على القيم والمعتقدات . ويجب أن تشير هنا ، إلى أن علماء الإجتماع لا ينظرون إلى الأسطورة كقول خال من المعنى ، أو إنه مجرد من الواقع . والأساطير فى رأى بعض الباحثين هى المعتقدات المشبعة أو المحملة بالقيم والمبادىء التى يعتنقها الناس والتى يعيشون بها أو من أجلها . ويرتبط كل مجتمع بنسق من الأساطير يعبر عن الصور الفكرية المعقدة التى تعين وتحدد فى الوقت عينه كل نواحى النشاط الإنسانى

ويقوم نسق الأساطير بوظيفة هامة ، هى النزول بالقيم والمعتقدات من التجريد الى الواقع وإقامة الأرض التى ينبثق عليها الإيمـان .

والأساطير من درجات متعددة ومختلفة الأهمية ، فهناك أساطير اجتماعية ذات نفـوذ واسع النطاق ، وهنـــاك أساطير أخـرى أقل نفوذ وهكذا . ولذلك كان لـكل مدنية ، ولـكل فـــترة من التاريخ ، ولـكل أمة نسقها الأسطورى الخاص الذى يكمن داخله سر التـكامل الاجتماعى والاستمرار فى الزمن ، كما أن تغير هذا النسق يعبر عن التاريخ الداخلى لأى مجتمع . ومثال ذلك أن العالم اليوم ينقسم إلى أقسام متمايزة ، تسود كل منها أسطورة معينة عن الديمقراطية والرفاهية ، كما انبثقت أساطير أخرى فى أعقاب الثـــورة الفرنسية والأمريكية والروسية تمجد الإخاء والمساواة والحرية وغير ذلك من أنسجة القيم والمعتقدات التى تصادف هوى فى نفوس الجمـاهير ، وترتفع عندها الى مرتبة الإيمان . وربما كان من الخير أن نستبدل كلمة الأسطورة بالإيديولوجية التى تحمل تقريبـا نفس المضامين ، نظـراً لما وقر فى الأذهان من إرتباط الأسطورة بالخرافة.

٤ - **الرموز والطقوس :**

تعبر الرموز غالباً عن القيم والمعتقدات، التى تدعم بين الحين والآخر عن طريق الطقوس . ومثـال ذلك أن كل مجتمع يحـاول أن ينمى نسق قيمه ومعتقداته عن طريق شعارات متعددة قد يعبر الأدباء والفنـانون والمثالون وغـيرهم بطرق متعـددة من الـكلمة المسمـوعة إلى الـكلمة المكتوبة إلى الصوره أو التمثال . وتقام الحفلات والطقوس بين حين وآخر لتعميق هذه القيم والمعتقـدات فى مناسبات متعددة تمجيـــداً وإقرارا لهـا فى النفوس. ولهذا تعتبر الطقوس والحفلات وسائل هامة للمحافظة على النظام الإجتماعى.

اهمية التكامل:

التكامل الثقافى مسألة درجة . ففى المجتمعات البسيطة يكون هنـاك اتفاق عام على المعتقدات والقيم، ولكن فى المجتمع الذى تتعدد فيه الثقافات الفرعية لا يكون هناك ثم اتفاق إلا حول عدد قليل من هذه المعتقـدات والقيم ، بينما يدور الصراع أو يظهر الاختلاف ـ على الأقل ـ حول عدد آخر منها .

ويؤكد الباحثون فى الثقافة ، أن قدراً معينا من التكامل ضرورى ليتمكن من سهولة أداء المجتمع لوظائفه ، لأن أنماط السلوك تصبح أكثر فاعلية ،إذا كان هناك اتفاق عام حول الأهداف والأنماط . والثقافة العاليـــة التكامل تؤدى إلى شعور الأفراد بالأمن والإحساس بالرضـا . ويلاحظ أن مثل هذه الثقافة تنوء تحت شدة وقع التغير ، بينما لا يكون الأمر على هذا النحو فى الثقافة المتكاملة العناصر ، تكاملا نسبيا . لأن الاختــلال الذى يصيب الأولى يكون أبعد مدى من الثانية . والثقافة تستطيع مواجهة عدد من الانحرافات وعدم الأنساق إذا كان هنـاك إتفاق عام على القيم الأسياسية والأنماط المركزية للسلوك . وخلاصة القول أن المجتمع الحديث مجتمع لن يصل إلى تكامل كامل نظرا للتعدد الضرورى للثقافات الفرعـية ، ولكنه يصل على الأقل إلى نوع من التوازن الذى يدفع عجلة الحياة دون اضطراب جذرى. ولكن إذا زاد الصراع الثقافى إلى درجة كبيرة بين الجماعات وخاصة فيما يتعلق بالقيم ، كان ذلك علامة على ظهور المشاكل الاجتماعية .

عمومية الصور الثقافية :

تحتوى كل الثقافات على عناصر متشـابهة ، هى العادات العـامة والعرف والقوانين والنظم . ولا تظهر عمومية الثقافة فى تشابة البناء ، بل فى تشابه

الوظيفة أيضا . ومثال ذلك أن كل ثقافة تحتوى على نفس النظم الاجتماعية التى تؤدى نفس الوظائف ، وهذا على الرغم من الاختلاف المضمونى لهذه النظم من ثقافة لأخرى . وتقوم عمومية الوظائف النظامية على حقيقتين ، الأولى ، أن الإنسان نوع واحد ، والثانية ، أن الانسان يواجه بعدد من الضرورات الاجتماعية لها صفة الدوام فى كل الأزمنة وفى كل الأمكنة.

١ ـ الأساس البيولوجى : الانسان رقيق الجلد ، ولا يغطى جلده هذا شعر كثيف ، ولا نستطيع أن ننكر صلة هذه الحقيقة بارتداء الانسان للملابس وبحثه عن المأوى ليحمى نفسه من الطبيعة والحيوان . ولكن الإنسان أظهر فى سلوكه نحو ارتداء الملابس وإقامة المساكن اختلافات كثيرة ، أظهرها ما نراه عند المقارنة بين سكان المناطق الحارة والمناطق الجليدية . ولكن هذه الاختلافات ترجع الى اختلاف مضمون الثقافة فى المحل الأول ، ولا تعبر فى الدرجة الأولى عن الاستجابة المباشرة للحاجات الطبيعية . كذلك لا نستطيع أن ننكر ارتباط تفوق الرجل على المرأة فى القوة أو الوزن ، لسيادة الذكر على الأنثى فى كل مكان . ويلاحظ أيضا أن فترة الرضاعة والطفولة عند الإنسان أطول منها عند أى نوع حيوانى آخر . فالوليد الإنسانى فى حاجة الى عناية طويلة وإلى تغذية حتى تحت أبسط الظروف ليضمن البقاء ـ على الأقل ـ حتى سن الرابعة عشر . ومثل هذه الحقيقة أدت إلى ترتيبات لها صفة العمومية ، تفرض على الكبار رعاية الصغار . ومن الحقائق التى جعلت التزاوج الانسانى يستمر فترة أطول من أنواع الحيوان الأخرى ، أن قدرة الإنسان ورغبته فى الجنس لها صفة الامتداد والاستمرار وليست دورية كما هى عند الحيوان . كل هذه الحقائق التى تتصل بالأساس البيولوجى عند الإنسان جعلت الصور الثقافية التى نتجت

عن تعمير للأرض التى يعيش عليها متشابهة البناء والوظيفة وإن اختلفت كثيرا أو قليلا من حيث المضمون .

٢ - الحاجات الاجتماعية : هناك عوامل بيولوجية خالصة غير التى أشرنا اليها فى الفقرة السابقة ، ولكن تلك العوامل على كل حال ليس لها إلا أهمية ثانوية فى عمومية صور الثقافة . ويجمع علماء الاجتماع على أن الحاجات الاجتماعية ذات الطبيعة العمومية أكثر أهمية . ومن أجل هذا يظن أن الإنسان يستطيع أن يواجه أساسه البيولوجى وحاجاته الاجتماعية كل على حدة . ذلك أن الانسان كنوع تطور ككائن اجتماعى يعيش فى جماعة ، ونما بناؤه الفيزيائى والاجتماعى معا . ويجب أن نلاحظ هنا أن ترتيبات الإنسان الاجتماعية لا ترجع الى دوافع غريزية أو داخلية ، لأن غرائز الإنسان قليلة، وغالبا ما توجهها الثقافة وتضبطها . ولما كان الإنسان لا يمكن أن يعيش وحيدا ، فانه عرف معيشة الجماعة منذ أول الأمر . وتمثل الجماعة بالنسبة للانسان حقيقة جوهرية ، ففيها يتعرف على واجباته وحقوقه ويتعلم اللغة ويستخدم الرموز ويمارس السلطة أو تمارس علية . وباتساع نطاق الجماعة الإنسانية ، تنقسم أقساما متعددة ، وتظهر الحاجة الى وجود نظم عامة مثل الأسرة والنظام الاقتصادى ونظم السلطة والقانون.

٣ - التركيز الثقافى المتمايز : توجد فى كل الثقافات نفس النظم الأساسية ، التى تنظم نشاط الإنسان ولكن يلاحظ ، أن كل ثقافة تعطى أهمية لبعض هذه النظم دون البعض الآخر . وإننا لا نستطيع أن نجيب على السبب الذى من أجله تنمى ثقافة مجموعة من الاهتمامات ، بينما تنمى ثقافة أخرى مجموعة مختلفة . فاذا كانت ظروف المعيشة المتشابهة التى واجهها الإنسان

فى كل مكان فرضت عليه نظما اجتماعية لها عمومية ، فان هذا لا يمكن أن يفسر اهتمام ثقافة دون أخرى بنظم معينة.

٤ — عمومية الطبيعة الإنسانية : لاحظ كثير من الأنثروبولوجيين ، اختلاف الاتجاهات الثقافية واختلاف طرق إشباع الجوع والجنس والرغبة فى الظهور الاجتماعى ، الأمر الذى دعاهم إلى انكار وجود طبيعة إنسانية عامة ، والقول بأن الطبيعة الإنسـانية تعكس زمنا ومكانا معينين فقط . ولكن عددا من الانثروبولوجيين — ويمثلون أقلية — لا يوافقون على هذا الرأى ، ويقولون إن الأساس البيولوجى للانسان عام ، وأن الحـاجات الاجتماعية أدت الى وجود نظم اجتماعية عامة ، تثبت وجود طبقة إنسـانية عامة على الرغم من اختلاف العقيدة وطريقة التفكير والعمل .

وإذا لم تكن هناك طبيعة إنسانية لها صفة العمومية ، فكيف إذن يستطيع الانثروبولوجى أن يفهم ثقافة غريبة ومختلفـة عن ثقافته ، وكيف يستطيع ان يكتب عنها كلاما يقرأه الناس ويفهمونه ؟ وحقيقة الأمر ان هناك عدة أسباب تجعلنا نعتقد فى عمومية الطبيعة الإنسانية :

ا — تحاول كل ثقافة أن تفسر الوجود الإنسانى ، ولا تستخدم نفس الطرق بالضرورة وإنما تستخدم نفس الوسائل ، مثل الفن والاسطورة والعلم والدين . أو بمعنى آخر ينقل الناس فى كل الثقافات تجاربهم بطريقة رمزية الى الغير .

ب — تعبر الحاجات الإنسانية عن نفسها وتضبط فى نفس الوقت عن طريق القيم والمعايير الأخلاقية . كما أن سلوك الإنسان تفسره وتسيطر عليه نظريات عن الطبيعة الإنسانية ، تختلف من ثقافة لأخرى . ولكن سلوك الإنسان من

ناحية أخرى يفسر بطريقـة عامة بوساطة نظرية فى الطبيعـة الإنسانية .

حـ ـ الإنسان فى كل مكان يجاهد فى سبيل الوصـول إلى « إحترام النفس » وربما كان ذلك أهم دوافعه على الإطلاق . وقد يختلف الناس فى الثقافات المختلفة فى معنى الإحترام وطريقة الوصول اليه ولكن الغاية واحدة .[١]

الثقافه والفرد :

إن ما تقدمه الثقافة للانسان ، متعدد الجوانب عميق الأهميـة ، فهى تكيف الفرد كنوع بيولوجى مع البيئة التى يعيش عليها . وتقـدم له الطرق الممهدة التى يستطيع أن يسير عليها فى توافقه مع البيئة الطبيعية ومع أقرانه ومع حاجاته الفسيولوجية والطبيعية . كذلك تعمل الثقافة من ناحية أخرى على ضمان وحدة الجماعة واستمرار وجودها . ويمكن أن نلخص مدى ما تقدمه الثقافة للفرد بالتفصيل فيما يلى :

١ ـ تعطى الثقافة الفرد ، القدرة على التصرف فى أى موقف ، كما تهيء له أساس التفكير والشعور . فمنذ الولادة يتعلم الطفل أساليب الثقافة التى تعيشها أسرته ومدرسته والجماعة التى ينتمى اليها . وإذا حدث أن احتج الطفل على أسلوب أو طريقة بعينها ويسأل لماذا ؟ تكون الإجابة عليه ، أن الأمر هو كذلك .

٢ ـ تزود الثقافة الفرد بما يشبع به حاجاته البيولوجية . فليس عليه أن

1 — Green, A. W. Sociology; The Analysis of Life in Modern Society, N.Y., 1960, pp. 85 87

يبدأ من نقطة الصفر ليضمن المناخ الملائم ، أو ليشبع جوعه أو ليطفىء ظمأه وليس عليه أن يتملس طريق إشباع رغباته الجنسية أو حاجته الى الراحة . ذلك لأن كل الطرق التى تنظم هذه الوظائف وتصبها فى قوالب محددة معروفة من قبل ، ويواجهها الإنسان بالتدريج فى مراحل نموه المختلفة وتعلم الثقافة الفرد ـ فضلا عن ذلك ـ آين ومتى يشبع حاجاته هذه . ومثال ذلك يتعلم الفرد طريقة الأكل وطريقة التبول والتبرز ، ويتعرف على الأصول التى يجب إتباعها فى مخاطبة الغير وفى ارتداء الملابس . بل إن الثقافة تعلم الفرد طرق المغازلة والتقرب الجنسى .

٣ ـ أن الثقافة لا تقتصر على تزويد الفرد بطرق إشباع حاجاته ، بل إنها تخلق حاجات جديدة ، فرغبة الناس فى التدخين ـ مثلا ـ قد تكون فى بعض الأحيان أقوى من حاجاتهم للطعام والشراب . كما أن حاجة الفرد ورغبته فى النجاح و الثروة ، قد تكون فى بعض الثقافات أقوى من رغبته الجنسية . ويلاحظ أيضا أن إقتناء تليفزيون قد يكون عند بعض الأسر ـ وخاصة عند إنتشاره ـ أقوى من حاجتهم إلى تغيير أساس المنزل أو التأمين على الأولاد .

٤ ـ يجد الفرد ـ فى الثقافة ـ تفسيرات مقنعة عن أصل الإنسان وطبيعة العالم ودور الإنسان فى الحياة . وقد تكون هذه التفسيرات من نوع خرافى أو قد تكون قائمة على أساس علمى . وفى كلا الحالين تجيب الثقافة على تساؤلات الفرد بطريقة أو بغيرها . ومثال ذلك أن تساؤل الطفل عن سبب الرعد والبرق قد يجاب عليه بطريقتين ، أولها أن أسرته تحاول أن تفهم هذا الطفل أن الظاهرة الطبيعية مصدرها غضب من الله ، وقد تجيب أسرة أخرى

إجابة علمية ، فتحاول أن تفهم الطفل بعض مبادىء الطبيعة كالضغط الجوى وسبب الشرارة الكهربائية .

٥ - تحدد الثقافة المواقف وتعرفها لأعضائها ، فتزودهم بمعانى الأشياء والأحداث ، ولهذا يستمد الفرد من الثقافة مفهوماته الأساسية وتحديداته لما هو طبيعى وغير طبيعى ، ومنطقى وغير منطقى ، وعادى وشاذ ، وخلقى ولا أخلاقى ، وجميل وقبيح . ومهم وقليل الأهمية ، وخير وشر . وبمعنى آخر ، تعطى الثقافة معنى للحياة وهدفا للوجود ، فتزود لأجل ذلك الفرد بالقيم والأهداف والأمل .

٦ - الضمير نتاج الثقافة ، تقدمه للفرد ، ولهذا كان الضمير شيئا يكتسبه الفرد ، وإن كانت له عمومية فى كل الثقافات . وقد يبدو الضمير مع ذلك على أنه « نداء داخلى » إلا أنه فى واقع الأمر منبثق من الإجماع الذى انعقد فى الجماعة الإنسانية المعينة على ما هو خطأ أو صواب . ذلك أن استبطان قيم الجماعة ومستوياتها يؤدى فى العادة إلى إمتزاجها فى شخصية الإنسان الأمر الذى يؤدى إلى شعور الفرد بالذنب إذا اجترأ على هذه القيم أو المستويات .

٧ - الثقافة المشتركة تعطى الإنسان شعورا بالإنتماء ، ذلك لأنها تربط الناس معا فى جماعة يشعرون بالإندماج فيها . ويظهر هذا جليا عندما يتقابل شخصان من ثقافتين مختلفتين ، فيحس كل منهما بمدى إلتصاقه بثقافته .

٨ - تعمل الثقافة على أن تكيف الشخص مع مكانه في المجتمع ، لأن

كل ثقافة تشتمل على وسائل لتدريب الناس للقيـــام بأدوارهم ولقبـول أوضاعهم فى الجماعة . ولذلك كانت الثقافة تربة خصيبة للشخصية .

٩ - الثقافة المركبة أو الغنية تضع أمام الفرد إحتمالات كثيرة ، فقد يجد نفسه مضطرا لمواجهة عدد من الصعوبات ، وقد يجد أمامه أيضا عددا كبيرا من الفرص . ومن أجل هذا يقال إن شخصية الفرد فى الثقافةالبسيطةتكون أكثر وضوحا من شخصية الفرد فى الثقافة المعقدة .

١٠ - يواجه الفرد فى الثقافة المركبة إحتمالات تفكك الشخصية فى بعض الأحيان أكثر من احتمالات التكامل ولهذا تكثر الأمراض النفسية نتيجة تعرض الفرد لضغوط كثيرة ولتعدد الجماعات التى ينتمى إليها والتى تحتاج كل منها إلى تكيف من نوع معين قد يفشل فيه .

تغير الثقافة :

عندما تتغير الثقافة يتغير المجتمع ، لأن الثقافة من صنع الإنسان،ولهذا كان التغير الثقافى عبارة عن عملية تفاعل إنسانى ، ينميها الفكر الخـــلاق والإختراع . وليس معنى ذلك أن الثقافة من صنع فرد أو جيل معين ، لأن من أهم خصائصها « التراكم والدوام والإنتشار » . وكل ثقافة - مهما كان طابعها - تخضع لعمليات التغير ، وفى المجتمعات الثابتـة نسبيا أو المنعزلة عن المجتمعات الأخرى ، قد يـكون التغير بطيئا جـدا ، ولـكن التغير فى المجتمعات الديناميه يكون سريعا جدا فى ميادين كثيرة مثل التـكنولوجيا والعادات والإتجاهات ، حتى أن الباحث يمكنه ان يميز الإخـتلافات الواضحة بين جيلين يعيشان نفس الزمن .

وقد ينبع التغير الثقافى من داخل المجتمع عن طريق الإختراع والإكتشاف وقد يأتي من الخارج عن طريق إنتشار السمات الثقافية الجديدة من ثقافات أخرى قريبة أو بعيدة . والإكتشاف إضافة جديدة إلى المعرفة كاكتشاف قارة جديدة أو جزيرة مجهولة او طريق جديد . أما الإختراع فهو عبارة عن تطبيق جديد لمعرفة قائمة بالفعل وذلك مثل الجمع بين الآلة التجارية والقارب النهرى لعمل سفينة تجارية . والإنتشار هو إنتشار العناصر من ثقافة لأخرى ويجب الا تسير وراء الأفكار الخاطئة التى تقول إن الإختراع عمل فردى خلاق ظهر من العدم ، لأن شيئا لا يخرج من العدم ، ومصداق هذا القول أن الإختراعات الكبرى فى تاريخ الإنسان توصل إليها إثنين أو أكثر فى وقت واحد أو فى أوقات متقاربة ، ولم يكن ذلك ممكنا ، لو أن الإختراعات لا تقوم على المعرفة المتراكمة قبل ذلك . ولهذا فالقول القديم ، إن الحاجة أم الإختراع ، فيه من الصدق ما يجعلنا نعيد صياغته على النحو الآتى: « إن الثقافة القائمة هى أم الإختراع »

ونلخص المبادىء الأساسية فى التغير الثقافى فيما يلى :

١ ـ تميل بعض نواحي الثقافة إلى التغير أكثر من نواح أخرى ، وهذا يرجع إلى طابع المجتمع ونمط الثقافة . وربما كان هذا هو سر التخلف الثقافى فى عدد من المجتمعات ، فقد تتغير التكنولوجيا مثلا ولا يتغير نظام الأسرة أو القوانين المنظمة للعلاقات العمالية .

٢ ـ قد يكون إنتشار العناصر الثقافية نتيجة لاتصال عرضى غير مخطط بين ثقافتين ، وقد يكون راجعا إلى تأثير وسائل الإعلام أو النشر وربما يكون نتيجة لثورة تغير من نظام الحكم ومن التنظيم الإجتماعى .

٣ - تكون الاختراعات والعناصر المستعارة من ثقافات أخرى ، أسهل فى إعتناقها أو الأخذ بها أثناء الأزمات وفى أوقات التفكك الإجتماعى بعكس الحال أثناء فترات الاستقرار فقد تغير مركز المرأة كثيرا - وقبل ذلك الناس فى كل مكان تقريبا - إبان الحرب العالمية الثانية وفى الفترة التى أعقبتها مباشرة وهى فترة تفكك إجتماعى . ولهذا قامت المرأة بأعمال واحتلت وظائف كانت ممنوعة منها .

٤ - يقبل الناس عناصر الثقافة الجديدة إذا تأكدوا من فائدتها وبشرط ملاءمتها لبقية عناصر الثقافة . وينطبق هذا على عناصر الثقافة المادية وغير المادية ، على الرغم من المقارنة التى قد تحدث فى أول الأمر .

٥ - يعارض كبار السن واصحاب المصالح التقليدية التغيرات الجديدة ، إذا هددت عاداتهم العقلية المستقرة ، أو اذا عرضت مصالح هؤلاء للخطر . ويبررون معارضتهم بطرق مختلفة ويلبسونها ثوبا منطقيا .

٦ - كلما كانت الثقافتان متوازتين ، كلما كان من السهل استعارة عناصر من الثقافة ا إلى الثقافة ب والعكس. ولذلك نجد ان الثقافة الغربية تنفر من استعارة عناصر معينة من الثقافة السوفيتية والعكس .

٧ - يكون انتشار شكل العنصر الثقافى أسهل من انتشار معناه أو وظيفته، ويرجع ذلك إلى الصعوبات التى تنشأ بسبب اختلاف اللغات . وذلك مثل ما يحدث عند استعارة بعض عناصر الثقافات اليابانية أو الهندية أو الصينية أو البدائية .

٨ - تبقى الرواسب الثقافية التى غزتها العناصر الثقافية الجديدة ، ذات

فاعلية بعض الوقت، وتظهر مقاومة تخفت قوتها تدريجيا خصوصا إذا كان المجتمع يحاول إنهاء فترة الإنتقال بسرعة . وهناك أمثلة عـديدة على ذلك ، مثل ما تقوم به رواسب مجتمعنا القديم المـادية والفكرية التى كانت متساندة مع نظام تغير كلية ، من مقاومة الإتجاهات الجـــديدة بالتخفى تحت أزياء مضللة .

٩ ـ التغير فى جانب من الثقافة غالبا ما يؤدى إلى تغير فى جانب آخر . ومثال ذلك ، أن تغير الأساس الإقتصادى للمجتمع لا بد أن يستتبعه تغير فى التسلسل الطبقى وفى نظام التربية وفى طبيعة العلاقات الإجتماعية. كما أن تغير إيديولوجية المجتمـــع المتعلقة بالرفاهية الاجتماعية يؤدى إلى تغير فى فلسفة الرعاية الإجتماعية .

١٠ ـ تدخل العناصر الثقافية الجـديدة عن طريق أفراد ، وباعتناقهم المستمر لهـا واستخدامهم إياها ، تأخذ صفة العمومية تدريجيا عن طريق التقليد أولاً ثم عن طريق الإقتناع ثانيا . وفى الغـــالب يقبل الشباب على الترحيب بمثل هذه العناصر وخاصة إذا كانوا غير مقيدين بمصالح تقليدية يخافون عليها .

الفصل الخامس

الشخصية

فى الفصول السابقة أوضحنا أن التفاعل الإنسانى الذى يقوم على الفعل الهادف ، هو الذى يكون العلاقة الإجتماعية التى تكشف عن إتخاذ السلوك الإنسانى طابعا تنظيميا . وعرضنا أيضا للمجتمع ، الوعاء الذى يحوى كل أنواع العلاقات الإجتماعية ، وللثقافة ، الصورة التى تلون هذه العلاقات وتصبها فى قوالب محددة . والآن نعرض « لمادة » العلاقات الإجتماعية « الفرد » الذى يتلقى تأثيرات المجتمع والثقافة فيصبح « شخصا » يشرب من وعاء المجتمع ويلبس رداء الثقافة . والواقع أن المجتمع والثقافة والشخصية يرتبط كل منها بالآخر إرتباطا شديدا فى الواقع ، حتى أنه ليس من السهل أن نعرض لكل منها على حدة ، دون أن نكون فى حاجة ملحة لبيان مدى صلة كل منها بالأخرى لحسن التفسير والتحليل . فالثقافة ممكنة نظرا لما للطبيعة البشرية من إمكانيات ، وهى فى نفس الوقت تزود كل مجتمع بأنماط السلوك المناسبة لأعضائه والمجتمع يقوم كنسق من العلاقات المتبادلة بين الأفراد . ومن أجل هذا لا يمكن أن نعزل الفرد عن مجتمعه وعن ثقافته ، لأنه لا يصبح « إنسانا » إلا من خلال التفاعل مع الآخرين فى الجماعة ، والتفاعل فى حد ذاته يخضع لتنميط الثقافة . وإذن فمن الضرورى ان يحيط دارس علم الإجتماع بمسألة الشخصية بإعتبارها العماد الثالث الذى يقيم الحقيقة الاجتماعية .

تعريف الشخصية

من المناسب فى مدخل مناقشة الشخصية ، أن نعرض لتعريفها عند عدد من علماء الإجتماع . ويلاحظ أن تعريف الشخصية ليس موضع خلاف كبير كما كان تعريف المجتمع الذى عرضنا له قبل ذلك . وربما كان ذلك مرجعه إلى كثرة الدراسات التى أجريت حول موضوع الشخصية فى علم النفس وعلم النفس الإجتماعى وعلم الإجتماع والأنثروبولوجيا .

(١) قد تحمل الشخصية ، كما يقول بيسانز Biesanz ، عدة معان مختلفة ويلزم من الناحية العلمية أن نحدد معالمها حتى لا تختلط بالأفكار العامة المألوفة التى قد تفهم على أساسها فى الحديث الجارى أو فى بعض الأعمال ذات الطابع غير العلمى . ويؤمن العالم الإجتماعى أن كل شخص له شخصية كما للآخرين ، طالما أنه من خلال عمليات التنشئة الإجتماعية بغض النظر عن إتجاهاتها أو الأسس التى قامت عليها . وطالما أن الأمر على هذا النحو « فالشخصية هى تنظيم يقوم على عادات الشخص وسماته ، وتنبثق من خلال العوامل البيولوجية والإجتماعية والثقافية »(١) .

ويعنى « التنظيم » هنا تكامل العادات والإتجاهات والسمات أو ثباتها ذلك أنه عندما نقول ، إننا نعرف « شخصا » فنحن نعنى أننا نستطيع بقدر من الوثوق أن نتنبأ بما سيكون عليه سلوكه فى مواقف معينة ، لأنه على أساس الخبرة السابقة ننسب إلى الشخص ثمة سمات معينة . « والعادات » هى الطرق الدائمة نسبيا التى يسير عليها الفرد فى سلوكه وأفعاله .

1— Biesanz & Biesanz; Modern Society, N.Y., 1954. P. 178

و « الإتجاهات » هى الميول التى تظهر فى الأفعال الموجهة نحو قيم معينة ، وقد تكون هذه القيم أشخاصا أو أفكارا أو أشياء أو نظما إجتماعية .

أما « السمات » فهى الصورة العامة للاستجابة . ونظرا لما بين هذه المكونات الأساسية للتنظيم أو الشخصية من صلة وثيقة فان عددا من باحثى الشخصية يفضلون معالجة « الإتجاهات » على أنها شاملة لكل ما عداها .

٢ - وتعنى الشخصية عند أجبرن ونيمكوف . التكامل النفسى الاجتماعى للسلوك عند الكائن الإنسانى الذى تعبر عنه عادات الفعل والشعور والإتجاهات والآراء . (١) ويتعارض السلوك المشار إليه مع السلوك الفسيولوجى على الرغم من الصلة المتبادلة بينهما . ولذلك فكما تشتمل الشخصية على القيم ، تشتمل أيضا على كل نواحى السلوك . ويكمن الجانب الإجتماعى الهام للشخصية فى أنها تنمو فى المواقف الاجتماعية ، وتعبر عن « نفسها » من خلال التفاعل مع الآخرين . ولذلك يهتم عالم الإجتماع بمعرفة تكوين الشخصية وبقائها وتغيرها . وإذا كان عالم الإجتماع يهمه أن يعرف كل المؤثرات فى الشخصية فانه يركز أكثر على المؤثرات الإجتماعية .

٣ - أما أرنولد جرين ، فيقول ، إن الإنسان لا يولد « شخصا » ، بل إنه يولد مزودا بامكانيات يمكن أن تجعله كذلك . والإنسان يصبح شخصا ، نتيجة للمؤثرات الاجتماعية التى تؤثر فى كيانه التشريحى والفسيولوجى والعصبى . ومن أجل أن يصبح الكائن شخصا ، لابد أن يكتسب اللغة

1— Ogburn & Nimkoff, A Handbook of Sociology, London, 1960, P. 191

فالتفكير. ولذلك يكتسب إلى جانب هذا أغراضه وقيمه. ولتوضيح ذلك يقول جرين، إن الشخص يشارك فى السمات الاجتماعية ذات الطبيعة العمومية فى كل المجتمعات الإنسانية، وهى اللغة والمركز والدور والإنتماءات والمعتقدات والمعايير الخلقية. وإذن تشتمل الشخصيــة على الشخص، أى ما هو مشترك أو مشارك فيه مع الآخرين. ولكن الشخصية من جهة أخرى تشير إلى ما يميز أى شخص، وهى لذلك تعرف « بأنها مجموعة قيم الشخص » (موضوع كفاحه فى الحياة كالمثل والنفوذ والقوة والجنس) وسماته غير الفيزيائية (الطرق المعتادة فى الفعل ورد الفعل).

هذا ويرى جرين « أن الشخصية ليست مجرد القيم والسمات، بل إن تعريفها يجب أن يتضمن صفة هامة فيها، وهى التنظيم الدينامى، لأن الشخصية تتخذ فى كثير من الأحيـان طابع المرونة، الذى بدونه، قد تصبح الشخصية عاملا معوقا فى النمو والإنتمـاء إلى جمـاعات متعددة فى المجتمع ». (١)

٤ - ويقول لندبرج أن إصطـلاح « الشخصيــة » يشير إلى العـادات والإتجاهات والسمات الإجتماعية الأخرى التى تميز سلوك فـرد معين. ولذلك تدل الشخصية على أنساق السلوك التى تكتسب من خلال عمليـات التعلم والتفاعل الإجتماعى. ومن أجـل هذا لا يطبق اصطلاح الشخصية على المظاهر الفيزيائية الخارجية أو على الوظائف الداخلية للـكائن كالتنفس وحفظ حرارة الجسم أو تنظيم المكونات الكيميائية للدم والخلايا او الهضم

---

1 — Green, A; Sociology, New York. 1960, P.P. 115 -116.

أو امتصاص الطعام .. وغير ذلك .(١)

ويكتسب الفرد الشخصية كنتيجة لمشاركته فى حياة الجماعة . ومن المعروف أن أنساق السلوك والمهارات الرمزية ، يتعلمها الفرد عن طريق الإتصال الإجتماعى . ولذلك تعرف « التنشئة الإجتماعية » بأنها ، عمليات التفاعل المركبة ، التى من خلالها يتعلم الفرد العادات والمهارات والمعتقدات ، ومستويات الحكم الضرورية لمشاركته الفعالة فى الجماعات والمجتمعات المحلية . والتنشئة الإجتماعية لهذا تدل على كل العمليات الإجتماعية والملزمات ، التى بوساطتها تأخذ معايير الجماعة ومستوياتها طريقها فى سلوك الأفراد ومعتقداتهم .

وكل طفل يولد فى بيئة اجتماعية تؤثر فيه منذ البداية كما يؤثر فيه الضوء والهواء والملابس والمهد الذى يوضع فيه . وعلى الرغم من أن حواس الطفل الوليد . تكون غير واضحة كبصره ، إلا أنه من غير شك يستجيب منذ اللحظة الأولى للبيئة الطبيعية والإجتماعية . ويتوقف بقاء الطفل على العناية والعطف اللذين يتلقاهما من الآخرين . ويلاحظ أن هناك من لا زال مشغولاً بالبحث عما يمكن اعتباره من الخصائص الوراثية للكائن الإنسانى. ومثال ذلك ، التساؤل عن وجود سمات أو خصائص تتعلق بالشخصية يحتمها التكوين البيولوجى للوالدين ، أو القول بأن اكتساب المهارات وسمات الشخصية الأخرى مسألة وراثة فى الدرجة الأولى .

ولعل تردد هذه التساؤلات والأقوال فى علم الإجتماع ، يرجع إلى عدد

---

1 — Lundberg and Others, Sociology, N.Y., 1958 PP 205-206

من المغالطات والمزاعم التى تروج فى بعض المجتمعات عن عمليات الوراثة. كما أن بعض علماء الإجتماع يهتمون بمعرفة الخصائص المتعلقة بالشخصية التى يمكن أن تخضع للتعديل نتيجة لمؤثرات البيئة، والخصائص الأخرى التى لا تخضع لمثل هذا التعديل. من أجل هذا لا يجد غالبية علماء الإجتماع مناصا، عند التعرض لموضوع الشخصية، من أن يعالجوا باختصار العمليات التى تفسر «حوامل الصفات الإنسانية» إلى جانب عمليات النضج البيولوجى.

٥ ـ ويحاول سوروكن أن يبرز أهمية « موضوع الشخصية » فى علم الإجتماع. بقوله، إن الأفراد هم المكونات التى لا غنى عنها فى كل الأنساق الإجتماعية والثقافية. فاذا كان الأمر كذلك، فان شخصياتهم (كتنظيم عقولهم وسلوكهم) تؤثر من غير شك فى إطار الأنماط الثقافية والاجتماعية. ولذلك يقول سوروكن، إن قول هربرت سبنسر « إن طابع الكل يحدده طابع الوحدات المكونة له » صحيح فى هذه الحالة. إن سوروكن لا ينكر أهمية الوراثة البيولوجية فى الشخصية، ولكنه يعتقد أن الجانب الإجتماعى الثقافى من الشخصية لا يتحدد ولا يكتسب عن طريق هذه الوراثة، لأنه يصاغ أو يصب فى قالب معين من خلال الوسط الاجتماعى الثقافى. إن معتقدات الإنسان وقيمه ومعاييره، وتعبيراته الإرادية والغائية والعاطفية، وأفعاله التى تحمل معنى محددا، تقوم جميعا وتنبعث عن الجماعات التى يتفاعل معها، وليس هناك فى الواقع أى مصدر آخر لخصائص الفرد الإجتماعية والثقافية. وربما كان هناك نوع من الإختيار الهامشى للفرد، فيما يتعلق بهذه القيم والمعانى، لكنه لا يستطيع أن يختار أو يبدع شيئا منها، إلا من المصادر التى تزوده بها بيئته الثقافية والإجتماعية. هذا ويؤكد سوروكن

على الإتصال المتبادل بين الفرد والثقافة والمجتمع ، فالفرد يمتص عالمه الثقافى الاجتماعى ويتمثله وينمو على تربته ، والثقافة مرآة أعضائها وما يقيمون من تنظيمات اجتماعية ، أما البناء الاجتماعى فانه يعكس مكوناته من الأفراد وأنماطهم الثقافية .

ومن أجل هذا يعتقد سوروكن أن التناقض بين المدرسة السوسيولوجية والمدرسة السيكولوجية لا محـــل له . ذلك أن النظرية السوسيولوجية المتطرفة ، لا يمكن أن تستغنى عن الفرد فى تحليلها ، لأنه بدون الأفراد ، لا يمكن أن تكون هناك جماعة ، كما أن أى نظرية سيكولوجية لا يمكن أن تفسر او تعالج الفرد ، إذا أنكرت حقيقة أساسية ، وهى أن التفاعل الاجتماعى والثقافة يشكلان شخصية الفرد . ويبدو عدم إمكان الفصل بين ما هو فردى أو اجتماعى أو ثقافى ، من أن النمو الذى يتم للعقل الفردى يصاحب النمو فى البناء الاجتماعى ، والاتصال الوثيق بين بناء الأنا الفردية وبين بناء الجماعات التى ينتمى إليها الفرد . ويبدو عدم إمكان الفصل بين وجوه هذه الحقيقة المثلثة الأطراف أيضا فى أن سلوك الفرد يتحدد بصورة فعالة عن طريق الجماعات التى يعيش فيها ، وكـذلك فى أن مضمون العقل الفردى الذى ينطـوى على قيمه العلمية والفلسفية والدينية والخلقية والجمالية ، يتخذ صورة محـددة عن طريق العالم الثقافى الذى يتحرك فية(١) .

إن النمو الفردى مستحيل بدون تنظيم ثقـافى اجتماعى . ويترتب على ذلك أن الجـــانب الاكبر من الشخصية الإنسانية يرتكـز على دعائم

---

1 — Sorokin, Society, Culture and Personality, N Y., 1947 PP. 342--343

المجتمع والثقافة . ويقول سوروكن إن هذا القول قد أكدته الدراسات المتعددة التى أجريت فى ميادين علم نفس الطفل ، والتحليل النفسى وعلم الجريمة .

ونظرا لأهمية نتائج هذه الدراسات . فسوف نعرض ما يتصل منها بموضوع الشخصية فيما يلى :

ا - يستحيل النمو العقلى للانسان العاقل بدون التفاعل الإنساني .

ب - لا يمكن أن تتراكم الخبرات أو الثقافة من غير تفاعل الأجيال بعضها مع الآخر . وهذا يؤكد أن التفكير والقيم الثقافية لا تنتقل عن طريق الوراثة .

جـ - لا يمكن التمييز بين الصواب والخطأ ، والحقيقة والمغالطة،والعادى والشاذ ، من غير الخبرة الجمعية .

د - لا يمكن أن تنمو الحياة العقلية الواعية من غير المؤثرات المستمرة لعالم ثقافى إجتماعى دائم التغير ، لأن الإنسان إذ لم يعش فى مثل هذا العالم الذى يحمل خصائص التغير والتراكم ، فان هذا الإنسان ربما وقفت خبراته وجمدت ، وانتهى الأمر به ، كما هو الحال عند الحيوان ، أن تتكون عنده ميكانيزمات ثابتة للسلوك ، تنتقل من جيل إلى آخر دون تغيير ، فيفقد الإنسان بذلك القدرة على تعديل البيئة ، ومن ثم لا يمكن أن يفترق عنه بقية الحيوانات .

هـ - إن تطور قدرات مثل ، الذاكرة والتحليل والتعميم والتركيب ، يصبح مستحيلا من غير إطار واضح للتفاعل . وكذلك الأمر

بالنسبة لمسائل مثل المطابقة والاختلاف والعلية والزمان والمكان والعدد ، إن انبثاق هذه القدرات وتلك المعانى المجردة يرجع إلى نمو التفاعل والتفاصل او التمايز الاجتماعى والترتيب الطبقى والتكامل ويعتقد سوروكن أن ظهور قدرة الإنسان على التحليل كانت مصاحبة لنمو التفاضل الاجتماعى . وكذلك الأمر بالنسبة لنمو ملكة التركيب والتأليف ، فقد صاحبت عمليات التكامل فى الجماعات والأنساق الثقافية .

و ـ ولم يكن للغة أن تنشق من غير التفاعل . ويلاحظ سوروكن أن العمليات الاضطرادية اللغوية مرتبطة أشد الارتباط ، كما يقول جراسيرى Grasserie ، بالتغير الاجتماعى .

ز ـ وأخيرا ، لم يكن للاختراعات أن تظهر ، من غير وجود الجماعات المنظمة المتمايزة . ومن المعروف أن الاختراع هو المصدر الأول لكل تطور يحدث فى العالم الثقافى الاجتماعى[1] وخلاصة القول ، إن سوروكن يرى أن الشخصية الإنسانية تتوقف من حيث النمو أو التغير أو حتى الانحلال على النواحى المختلفة والمتعددة للحقيقة الاجتماعية الثقافية [2] وإذن فالشخصية عند سوروكن ، هى حقيقة اجتماعية ثقافية ، تكون مع المجتمع والثقافة ، كلا واحدا هو العالم الثقافى الاجتماعى ، وهى لذلك تكون موضوعا أساسيا فى علم الاجتماع .

إن التعاريف السابقة للشخصية جميعا ، تبرز حقيقة هامة ، وهى أن

---

1 - Ibid. P 344

2 - Ibid. P. 345

الشخصية الإنسانية نتاج التفاعل الاجتماعي ، وأن مكونات الشخصية تقوم جميعا على أسس ثقافية واجتماعية ولهذا كانت دراسة الشخصية لا يمكن أن تكون كاملة دون دراسة المجتمع والثقافة معا . فالمجتمع هو المكان الذى يتم فيه التفاعل ، والثقافة هى التى تصب هذا التفاعل فى قوالب معينة ، وتعطى للفرد أنماط السلوك ومختلف القيم والمعايير التى يحسن بها التفاعل ويحقق أغراضه . حقيقة أن الفرد يولد ولا يحمل معه أى سمة من سمات الشخصية ، ولكنه يولد مزودا بمجموعة إستعدادات لاكتساب هذه السمات بالتفاعل فى المجتمع والالتصاق بالثقافة . ولو لم تكن هذه الاستعدادات من طابع يتميز به الإنسان دون غيره من الكائنات لكان هناك احتمال ألا يستطيع الإنسان تجميع خبراته والاستفادة بها وإنشاء الثقافة . كما أن أهمية هذه الاستعدادات تظهر بوضوح إذا حدث بها خلل أو نقص ، فان الفرد يتعثر فى اكتساب الثقافة ، ولا يحسن تفاعله مع الآخرين ، ومن ثم تظهر عليه علامات هامة يوصف معها بأوصاف متعددة تكون محل اهتمام الطب وعلم النفس والتحليل النفسى . ولكن علماء الاجتماع قد لا ينظرون إلى مثل هذه الحالات باعتبارها حالات شاذة ليست ذات تكرار واسع المدى . ولهذا فانهم يفترضون تماثل هذه الاستعدادات عند بنى الإنسان . وما دام الأمر كذلك فهى « عامل دائم » لا يدخل - كما يرى سوروكن وغيره - فى التحليل السوسيولوجى للشخصية . ويكون الاهتمام إذن محصوراً فى العوامل الحقيقية التى تشكل الشخصية ، وهى عوامل ثقافية واجتماعية فى المحل الأول . كما أن الأفكار المتعلقة بتكامل الشخصية ، يمكن أن تغفل المسائل المتعلقة بالوراثة البيولوجية . وتركز على حسن اكتساب الفرد لمقومات الشخصية ومكوناتها ، والمرونة والتوافق والتكيف الذى يتصف

بها الشخص المتكامل فى مواجهة الظروف المختلفة التى تترتب على تعدد انتمائه لجماعات مختلفة البناء والوظيفة فى الحياة الاجتماعية . ومع ذلك فمن المناسب استكمالا لفهم الشخصية من حيث مكوناتها الأساسية أن نعرض فى اختصار، الأسس البيولوجية للفرد ، حتى يمكن للطالب والقارىء أن يحيطا علما بكل الجوانب المتعلقة بالفهم المتكامل لموضوع الشخصية .

المقومات الوراثية

لقد كان يظن فى بعض الأوقات أن الشخص يرث معظم عاداته وسماته، ولا زال هذا المعنى يتردد كثيرا على ألسنة الناس،ومثال ذلك ما قد يقال عن حب شخص معين للموسيقى أو للفنون بصفة عامة، وعند تفسير هذا ينسب المتكلم تلك الصفة إلى خاصية فى الأسرة . وقد يكون الأمر على هذ النحو صحيحا، إلا أن حب الفرد والموسيقى وغيرها إنما يكون راجعا إلى عمليات التعلم وخصوصا من الوالدين . ولكن الحقائق العلمية تشير الى أن الطريقة التي تتحد بها العوامل الوراثية فى الخلية النووية لحظة الحمل هى التى تحدد كل النواحي الوراثية للفرد ، ويتحدد الجنس فى تلك اللحظة عن طريق وجود الكروموزوم X أو W فى الخلية المنوية ، كما أن الامتزاج المعين للعوامل الوراثية يحدد مظهر الشخص مثل لون العين أو لون الشعر أو الطول أو القصر أو المظاهر الفيزيائية الأخرى . وتحدد الوراثة أيضا مستوى ذكاء الشخص،وربما تدخلت إلى حد بعيد فى تعيين مزاجه . ومن أجل هذا يقال إن توازن الغدد يرتبط ارتباطا شديدا بالنمو والمزاج والسلوك بوجه عام .

ويكون للفرد منذ الولادة عدد من الأفعال الإنعكاسية التى ترتبط كل منها بمؤثر معين، ولذلك تكون ضربات القلب والتنفس والإخراج وحركة العين وانقباضها فى الضوء الشديد والأفعال المنعكسة الأخرى غير إرادية

ويمكن أن تتعدل تدريجيا . وقد رفض العلماء منذ عدد من السنين الفكرة القائلة بأن الإنسان يولد مزودا بمجموعة من الغرائز ، ولكن ذلك لا ينفى أن الكائن الحى لديه عدد من الحاجات والدوافع يجب اشباعها بصورة ما ومثل هذه الحاجات الولادية أو الحوافز يشعر بها الفرد كحالات من التوتر أو النقص فى التوازن . ولهذا يسعى الفرد دائما الى البحث عن إشباع لحاجته وعن وسيلة لخفض التوتر وحفظ التوازن ومن بين الدوافع العضوية نستطيع أن نبرز دوافع الجوع والعطش والحاجة الى الاكسوجين والإخراج وحفظ حرارة الجسم والحاجة الجنسية والحاجة الى النوم والراحة ، اما الدوافع المتعلقة بالحواس فانها تكون متصلة بما يسمى الإشباع الحسى عن طريق الاحتكاك ، مثل الشعور الملمس الناعم والنظر فى الأشياء الجميلة وغير ذلك ، ويعتقد علماء النفس أن الاستجابات للمواقف التى تتطلب سرعة الاستجابة وخاصة إذا كان هناك خطر ، تكون الأساس الذى تقوم عليه عواطف الخوف والغضب والاحتقار والخجل والحزن، وعلى أى حال يبدو أن العواطف ترتبط بفسيولوجية الكائن الحى لأننا نلاحظ أنه فى حالات الإنفعال الشديد تحدث تغيرات يمكن ادراكها بسهولة فى وظائف الجسم . لكن الإنفعالات أو العواطف التى تتعلق بالدوافع الوراثية مثل الجنس والجوع تكون خاضعة لعدد من الشروط والظروف تفرضها الخبرة والتجربة فالفعل الشرطى يربط دائما الاستجابة بالموقف ، ومثال ذلك أن الطفل ينفعل عاطفيا بطريقة مشروطة ويحب أمه ، لأن عناية الأم المستمرة بطفلها فى إطعامه وفى رعايته لفترة من الزمن تجعل الطفل يستجيب ببشاشة عند رؤية أمه أو سماع صوتها .

وتظهر بعض السمات الكامنة فى الكائن الحى عندما يبلغ مرحلة معينة من

مراحل نموه ولذلك فإن الطفل لا يستطيع أن يقرأ إلا بعد أن تتمكن عينه من تمييز الحروف، وكذلك الأمر بالنسبة لتمكن الطفل من المشى فانه لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا بعد أن تبلغ عضلات رجله وظهره درجة كافية من النمو . ولهذا يقال أن نمو القدرة على الإستجابة لمؤثرات معينة فى مراحل معينة من النمو علامة على النضج وعلى الرغم من أن درجة النضج تتغير من فرد إلى آخر ، إلا أنها تتبع نفس المراحل فى عملية النمو ، ومثال ذلك أن الطفل يجلس قبل أن يقف ، ويسير قبل أن يجرى . ومعنى هذا أن الطفل لا يمكن أن يكون مستعدا لأى مرحلة من مراحل النمو إلا بعد أن يكون جسمه معدا لذلك

وعلى ذلك يميل بعض الباحثين فى الشخصية إلى القول بأن الوراثة البيولوجية بالنسبة للفرد تعد الشخصية وتوجهها فى اتجاهات معينة ، كما أنها تضع حدودا للنمو المحتمل، ولقد كان من الموضوعات المفضلة منذ سنين قليلة مناقشة الأهمية النسبية لكل من الوراثة والبيئة، ولكن تطور العلم أثبت عدم جدوى مثل هذه المناقشات ، ومن ثم تخلى الباحثون فى السلوك الإنسانى عن مناقشة مثل هذه الموضوعات . ومع ذلك يمكن أن نناقش فى بعض الأحيان العوامل الوراثية والعوامل البيئية عند دراسة موضوع الشخصية، على ألا ننظر إلى أيهما باعتباره العامل الوحيد الذى يؤثر على النمو ، كما أننا لا ينبغى أن ننظر إلى أيهما على أنه العامل الأهم .

الذكاء .

الذكاء هو قدرة الكائن على التكيف مع بيئته ، ولما كان الذكاء يعتبر صفة عامة عنصرا كامنا عند بنى الإنسان فانه، ينظر إليه باعتباره أساس

الثقافة الإنسانية ، كما أنه باعتباره صفة أو خاصية من خصائص الأفراد فانه يتغير تغيرا واسع النطاق عند أعضاء أى مجتمع . ويميل كثير من علماء النفس والإجتماع إلى القول بأن اختلافات الذكاء عند الأفراد ترجع إلى أثر كل من البيئة والوراثة، ويلاحظ أن الكيفية التى يعمل بها المخ والجهاز العصبى أمر متعلق بالوراثة ولذلك يولد الفرد مزودا بكيفيات متغيرة نسبياً لا يمكن قياسها بدقة على الإطلاق ، وليس هناك من سبيل إلا ان نخمنها عن طريق ملاحظة وظائف المخ كنتيجة للخبرة الفردية .

وهناك ثلاثة أنواع من القدرة على التكيف مع البيئة :-

عندما نتكلم عن الذكاء فاننا نعنى عادة الذكاء النظرى أو المجرد أى القدرة على اقتناص الأفكار والكلمات والمعانى والرموز ،وكذلك القدرة على التفكير والتعقل،ومثل هذا النمط من الذكاء هو الذى يحاول الذكاء التقليدى أن يبلغه،أما الذكاء الإجتماعى، او القدرة على التعامل مع الناس فهو من غير شك نتيجة للخبرة البيئية ، والذكاء الحركى أو الآلى هو القدرة على استخدام الأشياء التى يمكن تناولها واستخدامها استخداما فعالا .ويقاس بتطبيق اختبارات القدرات الآلية . ويضع الذكاء النظرى الحدود للقدرة على التعلم وهى الحدود التى تكون منخفضة جدا عند ضعاف العقول .

من هذا نتبين ان العوامل الوراثية تكون مهمة إذا نظرنا إليها باعتبارها القاعدة التى تنمو عليها المؤثرات الثقافية والاجتماعية . وإذا كانت هذه المؤثرات تصل إلى الأفراد بطريقة تكاد ان تكون متشابهة ، فان اختلاف الأفراد بعد ذلك يمكن تفسيره إلى حد ما فى ضوء الإستعدادات التى جاءت نتيجة هذه الوراثة ،ويمكن أن يقال مثل هذا عن الذكاء ،فاذا كانت الخبرة

التى يتعرض لها فردان متشابهة ومع ذلك يختلفـــان فى مدى تفاعلهمـــا واستفادتهما منه، فان هذا الإختلاف الفردى يمكن رده بطريقةما الىأسباب تتعلق بالمخ والجهاز العصبى . ويميل عدد من الباحثين فىموضوعالشخصية إلى القول بأن الدراسات المستمرة حول الغدد الصماء وأثرهـــا فى السلوك الشخصى يمكن أن تعطينا تفسيرا للخـلافات التى نلاحظهـــا فى حيـاتنا اليومية والتىتظهر على الأفراد عند الاستجابة لمواقف اجتماعية أو ثقافية متشابهة .

الأصل الاجتماعى للذات :

الذات تشير إلى ما يشارك فيه الشخص عن وعى بالإضافة إلىالأشخاص الآخرين ، كما أنها تشير أيضا إلى ما يختلف فيه مع شخصيات أخرى، ولذلك فالوعى هنا هو إدراك الشخصلما فيه من متشابهات أومختلفات معالآخرين، ويقول علماء النفس أن التمييز القاطـع بين الشخصية والإنسانية والشخصية الحيوانية هوفى احتواء الشخصية الإنسانية على الذات . وتنبثق الذات عنـد الإنسان من خلال التفاعل الإجتماعى مع غـيره من بنى الإنسان، فاللغـة لا تكـتسب إلا من خلال التفاعل وكذلك الأمر بالنسبةللمراكز والأهداف الإنسانيـة التى تصطبغ بالصبغة الرمزية ، وأهم نقطة فى هذا المقام أن الوعى بالذات والإحساس بتميزها عن الذوات الأخرى لا ينبثق إلا من خـلال إدراك إتجاهات الاخرين نحـــو الذات. ولذلك لا يتمكن الإنسان الذى تنقصه وسائل الإتصال بالآخرين من أن يصبح إنسانا ، وترتبط فـكرة الذات بموضوع التنشئة الإجتماعية التى تعتبر من أهم مقومات الشخصية ، ومن أجل هذا نعرض فيما يلى لعمليات التنشئة الإجتماعية الأساسية :

١ - التفاعل الإجتماعى - إن إستجابة الطفل المبكرة للبيئة الإجتماعية أقل وضوحا من إستجاباته للبيئة الفيزيائية ،ومع ذلك يكون السلوك الإجتماعى الذى نسميه الحب أو العاطفة أمرا ضروريا لبقاء الأطفال وحسن تربيتهم تماما مثل إشباع مطالبهم الطبيعية ،وهذه الحقيقة تظهر عند مقارنة الأطفال الذين يتربون فى إحدى المؤسسات ويتوفر لهم الرعاية والعناية الكافية من حيث الأكل والنظافة وإجابة مطالبهم الفيزيائية الأخرى ، والأطفال الذين ينشأون داخل أسرهم التى توفر لهم المطالب السابقة بالإضافة إلى المحبة والمودة والعاطفة . فالأطفال الأول يظلون طوال حياتهم يحسون بحاجتهم الشديدة إلى مالم يتوفر لهم فى صغرهم من الحب والحنان ،ولذلك يمكن أن يفقدوا توازنهم فى أى لحظة من لحظات حياتهم، ويظهر أثر ذلك فى إستجاباتهم لمواقف الحياة المتعددة ، أما الأطفال الآخرون فانهم يشبون متكاملين ولا يحدث أن يفقدوا توازنهم إلا إذا تعرضوا لصدمات إنفعالية شديدة .

٢ - الشعور بالذات والشعور الإجتماعى : يكتسب الطفل عن طريق إتصالاته بأشخاص آخرين عاداته واتجاهاته ومعتقدات الجماعة التى ينتمى إليها ،وتتيسر الإتصالات الإجتماعية عن طريق إستخدام اللغة ،ويلاحظ أنه خلال المرحلة التى لم يكتسب فيها الطفل اللغة بعد يكون نموه الإجتماعى مشابها لنمو صغار الحيوانات الإجتماعية الأخرى، واللغة فى حد ذاتها ليست نموا مفاجئا عند الطفل، بل إنها تطور تدريجى يبدأ من الصيحات الحيوانية البسيطة. إن صيحات الطفل تحظى باهتمام أفراد عائلته الذين يربطون إهتمامهم هذا ببعض الأصوات والكلمات والجمل ، وعند ما يدرك الطفل أن صدور

أصوات منه يؤدى إلى تغير مرغوب فى البيئة من حوله ، فان تعلمه بالتـالى للـكلام يتكون من تحسين واستكمال لتلك العملية ،أو بمعنى آخر يستطيع الطفل فى مرحلة معينة من نموه أن يميز بين الأصوات التى تصادف نفورا ممن حوله وبين الأصوات ، التى تصادف قبولا . وعندما يستطيع الطفـل أن يربط بين الصوت ودلالته فانه يتقدم على طريق معـرفة المعاني المرتبطة بكل صوت ومن ثم يتمكن من تعلم اللغة تدريجيا . إن كلمـة المحـاكاة أو التقليد نستخدمها لنشير بها إلى مركب التفاعلات الذى يؤدى إلى الأخذ بنوع من السلوك مشابه لسلوك الآخر تحت ظروف معينة،ولهذا يصل السلوك اللفظى درجة من التركيب أو التعقيد تمكـن الطفل من أن يسبق السلوك الذى يمكن أن يترتب عليه فى بيئته عندما يقلد صوتا معينا أو كلمـة بعينها. ومثل هذا الإستباق يكون بداية الشعور بالذات والشعور الإجتماعى،وكلما تطورت اللغة كلما إزداد الشعور بالذات والشعور الإجتماعى وضوحا،وكلما ظهرت خصائص الفرد الإجتماعى بوضوح تدريجياً . وباكـتساب اللغة تبدأ الحساسية الإجتماعية تنمو عند الطفل،وهى التى تحدد إلى درجة كـبيرة علاقاتنا الإجتماعية .

٣ ـ الجماعة الأولية :ـ من أهم الأوصاف المقنعة عن أصل الشخصية وقيام الشعور بالذات تحليل كولى Cooley على أساس المودة والتقليد،ومن المعروف أن الطفل يبدأ مبكراً فى تقليد السلوك الذى يخـبره فى الجماعات الأولية مثل الأسرة وجماعات اللعب والجـيران التى يتصل بهاالأول مرة، وينطوى هـذا التقليد على السلوك اللفظى إلى جانب التعبيرات الوجهيـة والإشارات المتنوعة،ومن خلال تفسير هذا السلوك بالإحـالة إلى ذاته يحتفظ الطفل بتقديره لنفسه ، وهذه هى الذات التى يراها منعكسـة فى سلوك الآخرين

نحوه، وليست هناك طريقة أخرى تمكن للطفل من أن يحصل على رأى فى نفسه إلا من خلال الحكم التصورى لما يمكن أن يفكر الآخرون فيه بالنسبة له، أو بمعنى آخر إن ما يهم هنا ليس هو رأى الاخرين فيه بالفعل، ولكن تصوره المطلق لرأيهم فيه، لأن تقدير الطفل لنفسه يتوقف إلى حد كبير على هذا التصور، الأمر الذى يحدد إتجاهاته الإجتماعيـة أى شخصيته وسلوكه. ومن هـذا نتبين أن الشعور بالذات والشعور الإجتماعى لا ينفصلان، وأن الجماعة الأولية هى صانعة الطبيعة الإنسانية. ويجب أن نلاحظ هنـا أن ما نسبناه إلى الطفل ينطبق على الناس جميعا فى كل مراحل الحياة، أى أن توازن الشخصية الذى يقوم على الإتصال بين الشعور بالذات والشعور الإجتماعى يظل ملازما للفرد طوال حياته، ولذلك تتعرض الشخصية للتفكك أو سوء التوافق كلما حدثت هناك ثغرة بين هذين النوعين من الشعور .

٤ ــ التطابق الجماعى :ــ إذا إتسع نطاق إتصالاتنا الإجتماعية فاننـا نميل إلى إعتبار أنفسنا أعضاء فى جماعة أو عدة جماعات مثالية، وتبدو أهمية هذه النقطة إذا عرفنا أن الفـرد يطابق بين شخصه والجماعة التى ينتمى إليها، ولذلك فاننا نتوقع أن الشخصية تكون عرضة للتغير إذا تغير تطابق الفرد مع جماعته، ومن المألوف أن يستبدل الفرد ولاءه للجماعات الأولية بولائه إلى الجماعات الأخرى التى ينتمى إليها خلال مراحل حياته المختلفة، ويترتب على هذا الولاء أن يكون الفـــرد إزاء جماعة إتجاهات معينة، كالإخلاص والصدق وعدم الخيانة وغير ذلك من القيم التى تجعله يبدو فى كل لحظة على أنه متطابق مع الجماعة تماما .

وقد ترتب على إتجاهات الولاء المحددة نحو الجماعات أن ظهرت الأفكار

المتعلقة بالجماعة الخاصة والجماعة الخارجية فى علم الاجتماع، فالجماعة الخاصة هى تلك الجماعة التى يتطابق الفرد مع قواعدها ومستوياتها العامة ومعاييرها بحيث تكون له مكانا للتنشئة الاجتماعية تماما كما كانت الأسرة وتزوده أيضا بمجموعة من الخبرات ويكتسب منها بالتالى شخصية تكاد أن تكون متميزة ،أما الجماعة الخارجية فهى تلك الجماعة التى لا يحس للفرد إزاءها بالولاء أو الإنتماء أو التطابق وغالبا،ما ينظر إليها على أنها جماعة مختلفة ومتعارضة لجماعته هو، كما ينظر إلى أعضائها على أنهم مختلفون عنه فى مقومات أساسية للسلوك الإجتماعى .

الجماعة والشخصية :

يجمع كل الذين تعرضوا لموضوع الشخصية على أهمية الجماعة فى نموها ومن المألوف أن نجد المؤلفات التى تعالج بناء الشخصية ووحدتها وتكاملها وتفككها تشير إلى دور الجماعة فى كل هذه المظاهر،وتبدو أهمية الجماعة بالنسبة للشخصية خصوصا بعد أن عرفنا أن الإنسان إجتماعى يعيش فى جماعات أيا كان نوعها معيشة تتصف إما بالدوام أو التوقيت أو العرضية أو السطحية . كما أننا نعلم الآن أن شخصية الفرد تأخذ شكلها المحدد خلال مراحل الطفولة،ويظل هذا الشكل يكتمل كلما ازداد الفرد نموا وخاصةعند إتصاله الوثيق بالأسرة وجماعات اللعب والجوار . ويكتسب الفرد فى كل حالة خبرات تحمل طابعا ثقافيا،الأمر الذى جعل كثيرا من الذين يدرسون الشخصية يركزون على أهمية الثقافة كعامل أيضا فى تشكيلها . وقد سبق أن ذكرنا من قبل أن الإتصال الوثيق بين المجتمع والثقافة وبين الشخصية يجعل فصل أى منها وعزله لا يؤدى إلى فهم حقيقى لفكرة الإتصال الوثيق الذى يلاحظ فى الواقع بينهم .

ويقول أجبرن ونيمكوف (١) . أنه على الرغم من أن الجماعة والثقافة لا يمكن أن نباعد بينهما عند دراسة المسائل المتعلقة بنشاط الإنسان ، إلا أن كلا منهما يمثل عاملا مستقلا عن الآخر ، ومن ثم تواجه الباحث مشكلة الفصل بينهما وإبراز أهمية كل منهما النسبية لتحديد تأثير كل منهما على الشخصية ، ويميلان أى اجبرن ونيمكوف إلى الإعتقاد بأن تأثيرات الجماعة فى الشخصية خصوصا فى مراحل الطفولة المبكرة أكثر وضوحا من تأثير الثقافة .

ولهذا تكون تأثيرات الجماعة على أعظم جانب من الأهمية فى البناء الأساسى للشخصية . ويدللان على إعتقادهما ذلك بقولهما إن الطفل وهو لم يبلغ بعد مرتبة النضج لا يمكن أن يهضم التعاليم الثقافية ، على الرغم من أنه سيكون شديد الحساسية للاستجابات الإنفعالية أو العاطفية التى تصدر عن الأفراد الذين يتصل بهم ، وخصوصا إذا كانت تلك الإستجابات متعلقة بشخصه ، ومثال ذلك أنه فى المجتمعات التى يكون التمييز العنصرى فيها مهيمنا على اتجاهات الكبار ، يلعب الأطفال من مختلف الأجناس معا ولا يمتنعون عن ذلك إلا إذا صدرت إليهم أوامر مشددة بذلك ، ومعنى هذا أن اكتساب الطفل للمعايير الإجتماعية والثقافية لا يتم إلا فى مرحلة متأخرة بعد أن يكون قد مر على عدد من الخبرات التى تثبت إتجاهاته المتعددة .

ويبحث الطفل عادة عن طريقة يطابق نفسه بوساطتها مع من يرعونه عندما يكون قد مر من المرحلة التى يحتاج فيها إلى الحنان والحماية ليعيش ،

1- Ogburn and Nimkoff, OP. cit., PP.

وكلما ازداد نضجا يحاول أن يجعل نفسه مؤهلا للتفاعل مع مختلف الجماعات التى ينتمى إليها والتى يزداد عددها بالتدريج، كلما اتسع نطاق تفاعله الإجتماعى، ومن المسائل المعروفة أن الطفل يرغب دائما فى أن يكون محل قبول من الآخرين، ومن أجل هذا تؤثر فيه إستجاباتهم التى تعمل على نمو سمات شخصيته فى الاتجاه الذى يكون مقبولا من الجماعة ولهذا يكون قبول الجماعة للفرد وارتياحها له قوة منظمة للشخصية، وبالعكس يكون رفض الجماعة وازورارها عن أفعال الفرد قوة مفككة للشخصية ، وإذن تنمو فكرة الذات دائما متصلة بالاخرين الذين يكونون عبارة عن نقاد فى الواقع، يعكسون قبولهم أو رفضهم لهذا النوع من السلوك أو ذاك ، ويلاحظ أن المهارات والسمات تكتسب من خلال تقليد الآخرين، أى بأخذ أدوارهم ومحاولة القيام بها بنفس الطريقة التى يقوم بها الآخرون .

وقد وسعت السوسيومترية هذه المفاهيم عن طريق قياس قبول الجماعة للفرد أو رفضه، ولكن السوسيومترية لا تقف عند حد اعتبار الجماعة محددة للشخصية بل إنها ترى ان الجماعة تعمل على تقييم الشخصية أيضا، ومن اجل هذا يصبح التقويم بدوره عاملا مؤثرا فى الشخصية.

الثقافة والشخصية

إن أهم ما يعنينا فى هذا المقام أن نبين اختلافات الشخصية فى المجتمعات المختلفة، وخاصة من حيث الخصائص العامة، وكذلك الاختلافات التى تظهر فى الشخصية فى مجتمع بعينه . إن العامل الأول فى هذه الإختلافات كما يرى كثير من علماء الإجتماع يرجع إلى تأثير الثقافة، وقد اوضحنا فى الفصل السابق أن ثقافة المجتمعات المختلفة تختلف كل عن الأخرى فى مجموعة متنوعة من

السمات ومركبات السمات والأنماط، وكذلك يمكن أن تنطوى الثقافة الواحدة على عدد من الثقافات الفرعية قد يتميز احدها عن الآخر فيما يتعلق ببعض مركبات السمات التى قد يكون لها تأثير واضح على تعدد أنماط الشخصية .

ومن المسائل التى أصبحت موضع إتفاق بين الباحثين فى موضوع الشخصية فيما يتعلق بأثر الثقافة عليها ما يلى :

١ - إن اختلاف سمات الشخصية فى المجتمعات المختلفة يرجع فى المحل الأول إلى تأثير الثقافة ، وقد كان للأنثروبولوجيين دور كبير فى إبراز هذه الإختلافات نتيجة لدراساتهم لعدد كبير من المجتمعات البدائية ذات الثقافات المتمايزة على الرغم من أنهم شغلوا أنفسهم بدراسة التنظيم الشكلى لتلك الثقافات ولم يبرزوا بوضوح أثر الثقافة على الشخصية ، ولكن علماء الإجتماع استطاعوا الاستفادة من المادة الأنثروبولوجية فى تحديد الطرق التى تؤثر على أساسها ثقافة مجتمع معين على أعضائه ، وقد تقدمت دراسات علم الاجتماع التى تتجه إلى تحليل علاقة المركز الاجتماعى والدور الاجتماعى والتغير الاجتماعى على الشخصية .

٢ - ومن أجل هذا إهتم الباحثون فى الثقافة والشخصية بالعلاقة بين الثقافة اللامادية وعلى الأخص القيم وبين الشخصية، إلا انهم لم يوجهوا عناية كافية لإدراك العلاقة بين الجانب المادى وبين الشخصية حتى فى الأحوال التى يكون فيها هذا الجانب المادى عاملا هاما فى خلق قيم جديدة ، ويرى أجبرن ونيمكوف أنه من الممكن أن ندلل على أن العناصر المادية من الثقافة تؤدى إلى استجابات تؤثر من غير شك فى الشخصية .

٣ – ترتبط الشخصية إرتباطا وثيقا بالأنماط الثقافيـــة ،ومعنى ذلك أن كل نمط ثقافى يمكن أن يؤدى إلى تثبيت سمات معينة فى الشخصية،ويبدو هذا واضحا فى موقف عدد من المجتمعات من موضوعات هامةمثل إشتغال المرأة ومدى إستقلالها أو طبيعة طاعتها للرجل . وقد يتجاور مجتمعـــان فيسمح نمط الثقافة السائدفى المجتمع الأول للمـرأة لأن تعمـل وأن تستقل إقتصاديا،ولكنه لا يعطيها حقوقها المدنية المساوية للرجل ، بينما يسمح المجتمع الثانى الذى له نمط مختلف من الثقافة باعطاء تلك الحقوق المدنية المراةحتى لو لم تكن عاملة .

٤ – إننا لا نستطيع فى ضوء المعلومات المتجمعة والمتيسرة حول أنمـاط الشخصية سواء فى مجتمعات متعددة أو فى مجتمع واحد أن نؤكـد وجودنمط رئيسى للشخصية .

ولكن الدراسات الأنثروبولوجية الثقافية،وخاصـة تلك التى أجرتهـا روث بندكت تؤكـد أنه إذا تغاضينا عن الاختلافات الفردية فان كل ثقافة يمكن أن يكون لها صيغة كلية تنطبع بالتـالى على الشخصية والتى يمـكن تحديدها فى نمط عام . ولهذا يحاول عدد من الباحثين التدليـل على وجـود نمط رئيسى للشخصية يميز كل ثقافة على حدة ، ويضربون أمثـلة كثيرة على ذلك،من أهمها أننا نستطيـع أن نميز فى وضوح أفـرادا ينتمـون إلى ثقافات متعددة بادراك الصيغة الـكلية لسماتهم الثقافيـــة وما يترتب على ذلك من توجيه نمطى معين .

٥ – يعترض كثير من علماء الاجتماع فى الوقت الحاضر على النتيجة التى

يمكن أن تترتب على ما جاء بالفقرة السابقة ، وهى أن جميع أعضاء المجتمع يمكن أن يكون لهم شخصيات متطابقة ، ولكن الأمر فى الواقع ليس على هذا النحو ، فاذا كان القول السابق صحيحاً فى حالة المجتمعات الصغيرة أو البدائية أو القروية ،فانه من الصعب أن نطبقه على المجتمعات الحضرية الواسعة النطاق ذات الثقافات الفرعية المتعددة . وقد أصبح معلوما نتيجة إهتمام علم الإجتماع المتزايد بالثقافة كموضوع أساسى فى البحث السوسيولوجى، أن الاختلافات الثقافية داخل المجتمع الواحد حقيقة لا تقبل المناقشة ، ومن ثم فان النتيجة التى يمكن أن تترتب على ذلك تجعلنا نؤكد إختلاف أنماط الشخصية فى المجتمع الواحد ، ومن أبرز الأدلة على ذلك ما يلى :

ا ـ أن اختلافات التربية والتعليم تؤدى إلى اختلافات فى الشخصية ، كما أن اختلاف العقيدة الدينية يمكن أن يؤدى إلى ذلك أيضا .

ب ـ أن الاختلافات الطبقية التى تقوم على مقومات التسلسل الطبقى فى المجتمع تؤدى أيضا إلى اختلافات فى الشخصية يمكن أن نلحظها بسهولة لو أجرينا دراسة عن العاملين فى مهن مختلفة ، أو الذين ينتمون إلى شرائح إقتصادية شديدة التمايز

حـ ـ أن الاختلاف بين التنظيمات الإجتماعية الكبرى فى المجتمع مثل الاختلاف الواضح بين المجتمع الريفى والمجتمع الحضرى يؤدى إلى اختلافات جوهرية فى أنماط الشخصية .

٦ ـ ومن أبرز العوامل التى تؤدى إلى اختلافات جوهرية فى الشخصية ، الحقائق المتعلقة بالتغير الثقافى . ومن المعلوم أن التغير الثقافى يصاحبه تغير

إجتماعى يؤدى إلى إحداث تجديدات وتعديلات فى المعـــايير الاجتماعية والقيم والإتجاهات ، وقد يمتد التغير إلى أساس التنظيم الإجتماعى ولكن درجة قبول هذه التجديدات أو التغيرات لا تكـون بنفس الدرجة عند كل أعضاء المجتمع ، فكبار السن قـد يحافظون فى عناد على مقومات شخصياتهم القديمة، بينما يميل الشباب إلى سرعة الاستجابة . ومن ثم فاننا نتوقع أن نجد فى المجتمع الواحد أنماطا مختلفة من الشخصيات قد تظهر فى الجماعة الواحدة .

وخلاصة القول أن تأثيرات الثقافة على الشخصية متعددة الجوانب ولن نستطيع أن نذهب وراءها بعيداً لأن معلومات علم الإجتماع فى هذا الموضوع لا تزال قليلة نسبياً ،والأمر يحتاج إلى مزيد من الدراسات لمعرفة الإختلافات التى تظهر فى الشخصية نتيجة لاختلاف الجنس والسن والخبرة، على الرغم من تعرض جميع أعضاء المجتمع المتمايزين على هذا الأساس لتأثيرات ثقافيـــة واحدة ، ويميل عدد من علماء الاجتماع بالإضافة إلى ذلك إلى القــول بأن دراسة العوامل المتعلقة باختلاف المهنة والتربية والدخل والأصل الأسرى لابد أن تسير جنباً إلى جنب مع الإختــلافات السابقة لتكمل معرفتنا بحقيقة علاقة الثقافة بالشخصية .

الشخصية كوحدة دينامية :

لا زال الاختلاف يظهر بين الحين والآخر حول ما إذا كانت الشخصية تعبير عن السمات أو أنها نتيجة للمؤثرات الاجتماعية وغيرها التى تكون خاضعة لها ، ويبدو هذا الخلاف على أشده حين يكون الباحث فى الشخصــية متأثرا بعلم النفس أو بعلم الإجتماع ، وبيان ذلك أن الدخــول إلى دراسة الشخصية من مدخل السمات يكشف عن الإتجاه السيكولوجى الذى يزعم فى المحل الأول

أن « الشخصية فى الشخص » أى أنها تكون ثابتة محددة مستقلة غير متغيرة، ولذلك ينمى الشخص خلال حياته إتجاهات سلوكه ، فيكون كريما أو بخيلا محافظاً او متحرراً ماديا أو مثالياً ، ويقاوم التغير فى المواقف الجديدة ، أما المدخل الثاني الذى يجعل الشخصية مرتبطة بالمواقف المتعددة ، فانه يراها متغيرة متوقفة على المؤثرات الخارجية ، كما أن السمات إذا كانت موجـودة حقيقة فانها تظهر وتختفى بحسب المواقف المتغيرة .

ويرى جرين Green (١) أن كلا المدخلين صحيح إلى حد ما ، ولكـن كلا منهما على حده لا يصلح أساسا لتحليل الشخصية وتفسيرها . حقيقة إن الشخصية مكونة من عدد من السمات التى تتغير أو تتعدل من غير حدود عند كل خبرة أو تجربة جديدة ، كما أنه صحيح أيضا أن الشخصية تتشكل وتتعدل وتتغير كلما واجهت مواقف إجتماعية مختلفة . ويرى جرين أن مصدر خطأ كل من الأتجاهين يكمن فى إخفاقه النظر إلى الشخصية باعتبارها وحدة دينامية أو بمعنى آخـر ، كان مرد الخطأ الى الإخفاق فى الوصول الى الأسئلة الآتية :

ما الذات وماذا تحاول أن تفعل ؟ ماذا تحاول أن تناضل من اجله ؟ كيف ترى العالم ؟

والإجابة على تلك الأسئلة يمكن أن يعمق إدراكنا للشخصية كما هى فى واقع الأمر ، ويمنعنا من النظر اليها على أنها مجرد ميكانيزم ، ومع ذلك يمكن أن نوفق بين المدخلين إذا استطعنا ان نؤكد على الوحدة الدينامية للشخصية على النحو الآتي :

---

(١) أنظر كتاب جرين « علم الاجتماع »

١ - السمات والشخصية : الهجوم الذى وجه إلى نظرية السمات فى الشخصية فى السنين الأخيرة قام على اختبارات مقارنة لأمانة الأطفال فى مواقف معينة أثناء دراساتهم داخل الفصول وخارجها، وقد تبين من هذه الاختبارات، أن سلوك عدد كبير من الأطفال فى مواقف متعددة بدا على أنه يتغير عشوائيا ، فالأطفال الذين يغشون باستمرار خلال الامتحانات يكونون أمناء مع آبائهم وزملائهم، كما أن اطفالا آخرين ممن أظهروا أمانة أثناء الإمتحانات غالبا ما يكذبون ويسرقون خارج فصول الدراسة . ولكن المادة التى بنيت عليها هذه النتائج لا يمكن أن تثبت إتجاهات الأمانة وعدم الأمانه عند الأطفال . ومثال ذلك أن الطفل الذى يتعود الكذب والسرقه قد يكون أمينا اثناء الامتحانات لأنه ليس منشغلا أو راغبا فى منافسة الأطفال الآخرين للحصول على أعلى الدرجات .

والسمات فى الواقع لها وجود حقيقى، ولكن ظهورها فى السلوك يعتمد دائما على مبلغ ثبات تصور الشخص لذاته . ومن الواضح أن اصطلاح « السمة » لا يشير الى شىء دائم أو غير متغير فى ذاته ، بل إنه يشير إلى ميل للفعل فى الحدود التى يتصور الشخص نفسه فيها والشخصية إذن وحدة تستمد مقوماتها من الأهداف التى يحاول الفرد الوصول إليها . أو بمعنى آخر إن كل فعل يعتبر جزءا متكاملا من نسق شخصى ، ولا يمكن أن يفهم تماما إلا فى ضوء اصطلاحات هذا النسق . ويلاحظ أن سمات معينة فى أى شخصية يمكن أن يكون لها وجود حقيقى أذا فهمت على أنها تميل الى مقاومة التغير اذا تغيرت الظروف الخارجية أو المواقف ولكن الوجود الواقعى للسمة يجب تقديره على أساس مضمون التصور الذاتى وعلى أساس مضمون الوحدة التى تناضل الذات من أجلها .

وليس معنى هـذا أن سمات الشخصية غير قابلة للتغير بصورة أو بأخرى، ولكنها تتغير فى الواقع فى بعض المواقف الحاسمة وخاصة عندما يتعرض الفرد لضغط أو لظروف لا قبل له بها، تضطره إلى التخلى عن كثير من مقومات شخصيته، وبالتالى يجب عليه ليواجه الموقف الجديد أن يتخلى عن بعض سماته . والتخلى هنا لا يحمل معنى التفكك وإنما يشير إلى المرونة التى تتميز بها الشخصية فى مواجهة المواقف المتغيرة ، وهناك من غير شك اختلافات فردية فى هـذا النطاق أى أنه لا يلزم أن تتغير السمات كقاعدة عند كل الأشخاص عندما يتعرضون لمواقف حاسمة أو لخبرات طارئة أو قاسية ، ويلاحظ عدد من علماء النفس فى هـذا الصدد أن بعض الأشخاص يظهرون مقاومة شديدة قد تصل إلى حد العناد فلا يغيرون سماتهم إلا إذا تعرضوا لنفس الموقف الحاسم عدة مرات متتالية، بينما يغير أشخاص آخرون سماتهم هـذه عند التعرض لموقف حاسم واحد .

٢ - المواقف والشخصية : كل المواقف التى يتعرض لها الطفل يخضع لها لأنه يوضع فيها عن طريق من هم أكبر منه أو من لهم سلطة عليه، ولذلك كلما تحددت المواقف التى يتعرض لها هذا الطفل بشكل قاطع كلما قلت الفرصة أمامه لأن يظهر أصالة أو إبداعا ،اللهم إلا ذلك الإبداع الذى لا يخرج عن نطاق الموقف المعين الذى يوضع فيه ، ومعنى ذلك أن أنصار هـذا الاتجاه يزعمون ان السلوك ينحصر فى مؤثر واستجابة فى كل فقرة من فقراته، وهذا هو الذى أدى إلى القول بأن السلوك الإنسانى على هذا النحو لا يمكن أن يتقدم على طريق الإبداع ،ويظل خاضعا لتهديدات وقيود تقلل من فاعليته، الأمر الذى قد يفهم معه إذا أمعنا فى التحليل، أن الأخذ بمثل هـذه النظرية

يقلل من إحتمالات التقدم الإنسانى . ومع الإعتراف بأهمية السمة والموقف فى الشخصية الانسانية إلا أن الوحدة الدينامية لهذه الشخصية فى الفعل حقيقة يجب أن تظل نصب أعيننا حتى لا تقع فى خطأ التحيز او الانسياق وراء المزاعم الخاطئة التى يبرر بها كل من هذين الاتجاهين دعواه الأساسية

تكامل الشخصية :

الشخصية المتكاملة هى الشخصية التى لا يظهر عليها تناقض أو صراع أو عدم اتساق ، وتكامل الشخصية مثل التكامل الثقافى مسألة درجة لا يمكن أن يتحقق فى الواقع بصورة كاملة،ذلك لأن درجة عالية نسبيا من التكامل توجد إذا كان الشخص يقوم بأدوار محددة تحديدا واضحا ويعتنق إتجاهات ملائمة ولا يتابع أهدافا يحجب بعضها البعض ،بالإضافة إلى انتمائه لجماعات متلائمة من حيث ثقافاتها وقيمها . ومن الواضح أن مقاييس التكامل السابقة يمكن قيامها بسهولة فى مجتمع ثابت نسبيا ،أما فى المجتمعات المعقدة التى تتغير باستمرار، فان موضوع تكامل الشخصية يصبح مشكلة على الفرد ان يواجه حلها بقدر الامكان ، وقد بينا فيما سبق ان الفرد ينتمى فى نفس الوقت إلى مجموعة مختلفة من الجماعات ،تتطلب منه أنماطا مختلفة من السلوك، الأمر الذى يقتضى منه ليكون متكامل الشخصية،أن يتكامل مع هذه الجماعات على اختلاف ثقافاتها وقيمها ، وهذا ما لا يمكن أن يحدث فى وقع الأمر .

ومن المسائل التى تجعل تكامل الشخصية أمرا صعب المنال ، تلك الظواهر المرتبطة بالتسلسل الاجتماعى فى المجتمع الحديث،وما قد يرتبط بها من تنقل اجتماعى ، كذلك تشكل الهجرة المستمرة بين أقسام المجتمع الواحد عقبة كبيرة أمام هذا التكامل . فقد ادى إنتماء الشخص إلى جماعتين دون ان

ينتمى إلى واحدة منهـا كلية إلى ظهور فكرة « الإنسان الهامشى Marginal Man » (١) حتى أن بعض علماء الاجتماع يزعمون ان نسبـة من يعيشـون على الهـامش تتناسب تناسبـا طـرديا مع اتساع نطاق العمران الحضرى. والذى يعنينا هنا هو ان نشير إلى أن تعقد المجتمع الحديث يؤدى إلى تقليل فرص تكامل الشخصية وإلى ظهور إحتمالات كثيرة لتفككها، والدليل على ذلك الزيادة المطردة فى نسبة من يقعـون فريسة للأمراض النفسية والعقلية والعصبية فى المجتمع الحديث، الذى يتغير باستمرار وبسرعة فى كثير من الأحيان.

---

(١) يستخدم هذا الوصف كثيرا فى دراسات الهجرة، التى تركز على مدى تكيف المهاجر مع ثقافة الوطن الجديد، ومدى تفاعله مع جماعاته المتعددة

الفصل السادس

قواعد الضبط والامتثال فى المجتمع

عرضنا أكثر من مرة فى الفصول السابقة ، إلى الوسائل التى تبلغ بها الجماعة أهدافها ، وتحافظ على وحدتها ، وتقلل إلى الحد الأدنى من الإنحرافات التى قد تصيبها بالتفكك والاختلال ، وفى هذا الفصل سنعرض بالتفصيل للقواعد التى تنظم السلوك الإنسانى لرعاية النظام فى المجتمع وبلوغ أكبر درجة ممكنة من التكامل. ويجب أن نعلم منذ البداية أن مسألة حث الأفراد على الامتثال لقواعد المجتمع ومعاييره والمحافظة على النظام ، قديمة جدا قدم المجتمع الإنسانى . وقد برزت كموضوع للدراسة والتفكير منذ العصور الوسطى ، وتناولها عدد من المشرعين والفلاسفة والسياسيين ورجال الدين بالبحث .

ومع أن كل مجتمع ينطوى على عدد من الوسائل والإجراءات التى يستعين بها على حفظ النظام ، إلا أن زيادة الإهتمام بموضوع الضبط الإجتماعى عامة صاحب التغيرات الكبرى التى حدثت لمجتمع الإنسان . فكلما ازداد المجتمع إتساعا ، وتعددت جماعاته ، وزاد تقسيم العمل فيه ، وزادت صلاته بالمجتمعات الأخرى ، كلما زاد اختلاف الأفراد الذى قد يبلغ فى بعض الأحيان درجة تحتاج إلى تدخل قوى لها سلطة الإلزام حتى لا يصل الخلاف إلى حد التصادم .

ومن المعروف أن مسألة الضبط الإجتماعى لم تكن تحير أحدا فى المجتمعات البدائية أو الصغيرة ، نظرا للقواعد الثابتة نسبيا التى تسير عليها ، والتى تحدد بدقة مراكز الناس وأدوارهم، وتعين فى نفس الوقت أبعاد نشاطهم فى المجتمع .

ويقول ريتشارد لابير Richard Lapiere ، إن الدراسة السوسيولوجية لمسألة الضبط الإجتماعى لا تمتد فى تاريخها إلى أكثر من خمسين عاما ، فقد كان روس Ross أول من استخدم إصطلاح « الضبط الإجتماعى Social Control » ليشير عن طريقه إلى ميدان محدد فى الدراسات السوسيولوجية . وقد كتب روس أول دراسة متكاملة عن الضبط الاجتماعى عام ١٩٠١ ، وإن كان كل من توماس وغيره قد استخدم هذا الإصطلاح بطريقة وصفية خلال دراسة ليست مخصصة لبحث موضوع الضبط الإجتماعى . فقد كتب توماس W. E. Thomas مقالا من هذا النوع فى المجلة الأمريكية لعلم الإجتماع عام ١٨٩٨ ، عنوانه « علاقة الجنس بالضبط الاجتماعى البدائي » (١) .

ومع ذلك فقد تطورت دراسة الضبط الاجتماعى فى السنين الأخيرة بازدياد الأبحاث التى أجريت على الجماعات والتفاعل الاجتماعى وما تمخضت عنه هذه الأبحاث من إبراز لموضوعات جديدة فى علم الإجتماع، كمستويات الفعل الاجتماعى والمعايير الاجتماعية والقيم ، والقواعد العامة للسلوك . ولكن الذى جعل دراسة الضبط الاجتماعى ذات أهمية فى علم الإجتماع ،

1 — Lapiere. Richard ; A Theory of Social Control, New York, 1954 PP 3 - 5

ظهور « مسألة الثقافة » وضرورة دراستها كموضوع جوهرى، والإنصراف عن الآراء التى كانت تنادى بتقليل الحد الذى تبرز فيـــه الثقافة فى معالجـــة موضوعات علم الإجتماع الأساسية . وقد تمخضت الدراسات الثقـافية عن حقائق غاية فى الأهمية ، تتصل بالأنماط الثقافيـة التى تتصل إتصالا وثيقـا بالتنوع الثقافى بين المجتمعات داخـل المجتمع الواحد .

وقد عرفنـــا من قبـل ، كيف تشـكل الثقافـــة التفاعل الإجتماعى وتوجهه اتجاهات محددة ، ولا يقتصر عمل الثقافة على ذلك ، بل إنهـا تسهم فى إرساء قواعد الضبط الإجتماعى وأساليبه على قواعـد محـددة تفـرض إلزاما على الأفراد ، وتعمل عن طريق ميكانيزماتها المتعددة على تقليل نسب الإنحراف والعدوان على أسس النظام فى المجتمع . ومن المنـاسب هنـــا أن نعرض لعدد من المناقشات التى دارت حول موضوع الضبط الإجتماعى والتى تناولت تعريفه وموضوعه وأساليبه :

١ - يرى بعض المؤلفين فى عـلم الإجتمـاع من أمثـــال هـارى بردمير Harry Bredemeier وريتشـارد ستيفنسون Richard Stephenson أن هنالك نوعين من العمليات الكبرى التى تجعل الناس يمتثلون للقواعد النظامية فى المجتمع والتى تمكنهم فى نفس الوقت من التنبؤ والإعتماد على سلوك أحدهم الاخر . ويقولان ان العملية الأولى هى عملية التنشئة الإجتماعية التى تشكل الفرد منذ مراحل الطفولة المبكرة وتعده للحياة الاجتماعية المقبلة التى سيتعامل فيها مع آخرين من غير أسـرته ، ولذلك فان التنشئة الاجتماعية تعـلم الطفل قيم المجتمع ومعاييره الأساسية التى سيشترك فيها مع غيره عنـدما ينضج ، والتى ستجعله من ناحية أخرى متشابها فى خطوط شخصيته الأساسية مع أعضاء المجتمـع الذى سيعيش فيـــه . اما العملية الأخـرى فهـى تشتمل عـلى

ميكانيزمات (١) الضبط الاجتماعى التى تعمل على تنظيم الأشياء للحيلولة دون وقوع الإنحراف او إثارة اى عامل من عوامله .

ومن الملاحظ أنه على الرغم من أن عمليات التنشئه الإجتماعية قد تكون مكتملة،فان الناس قد يتعرضون للتوتر نتيجة لمواضعهم فى البناء الإجتماعى ، ولهذا فأنهم قد يقعون تحت قوة قاهرة تجعلهم ينحرفون عن المعايير . ويعرف المؤلفان ميكانيزمات الضبط الإجتماعى على هذا الأساس، بأنها كل الترتيبات الاجتماعية التى تمنع مثل هذه التوترات، أو تمنع هذه التوترات من ان تؤدى إلى الإنحراف ، ويحاول المؤلفان ان يعددا انواع ميكانيزمات الضبط الاجتماعى التى تعتبر خطوطاً دفاعية ضد الإنحراف،وهما فى هذا الصدد يعتبران التنشئة الاجتماعية خطاً دفاعيا هاما،ولكنهما لا يدرجانه ضمن خطوط خمسة أخرى .

واول خط دفاعى هو قطع الطريق على التوتر او التصدع ذاته بوساطة ميكانيزمات معينة من شأنها ان تمنع التوتر الكامن من أن يصبح واقعا . فاذا لم يفلح خط الدفاع الأول فى منع التوتر وظهرت اعراضه على اعضاء الجماعة،يظهر خط الدفاع الثانى الذى يضع الإستجابات المترتبة على هذاالتوتر فى قوالب تأخذ طابع النمط الاجتماعى للسلوك بماله من قدرة على توقيع الجزاء على المخالفين،وهنا يظهر خط دفاعى ثالث مرتبط بالضرورة بالخط

---

١ - الميكانيزم هو بناء أو نمط محدد من السلوك يعمل على اعداد الفرد أو الجماعة للقيام بفعل معين،ومن أمثلته الأفعال المنعكسة للكائن الحى واتجاهات الأشخاص وانسنة الجماعة وعاداتها الشعبية وأساطيرها ونظمها.

الثانى و يتكون من الترتيبات التى تجعــــل الإستجابات غير المقبولة إجتماعيـا صعبة جدا او باهظة من حيث نتائجها ، وفى كلمات أخرى يقول المؤلفـان إن كل توتر لا يمكن ان يتجنب فى كل نسق اجتماعى،بل لازالت هناك طرق لمنع الناف من الوقوع فى الإنحـراف وتشجيعهم لتصريف توترهم عن طريق إستخدام صمامات للأمن يقرها المجتمع . ومع ذلك فقـد لا تصلح الخطوط الثلاث السابقة لرفع الأنحراف عن النسق الاجتماعى،الأمر الذى يفرض اللجوء إلى خط دفاعى رابع،هو سجن المنحرفين او عزلهم او حتى إعدامهم،ويرى المؤلفان ايضا ان مجرد منع الإنحراف او مصادرته على اية صورة لن يخلص المجتمع من مظاهر الإنحراف المتعددة ولن يمنع ايضا المنحرفين من معـاودة السلوك الإنحرافى،ولهذا فانهما يقترحان خطا دفاعيـا خامسا لإعادة تنشئة المنحرف إجتماعيا عن طريق العــلاج النفسى او الاجتماعى على سبيل المثـال (١) .

وواضح أن بردمير وستفنسون يعرفان الضبط الاجتماعى من خـلال سبب وجوده ويركزان على ان الضبط الاجتماعى يعالج الإنحراف فى المجتمع ولهذا يعددان الأساليب المختلفة التى يمكن ان يستعان بها فى تقليل نسبة الإنحراف أو فى منعه كلية،وهما فى هذا لا يختلفان كثيرا عن بقية من تعرضوا لموضوع الضبط الاجتماعى فى علم الإجتماع، ذلك أن منـاقشة هذا الموضوع ترتبط إرتباطا وثيقا بموضوع الإنحراف عن المعايير والمستويات والقواعد المتبعة فى السلوك الاجتماعى .

---

1 —Bredemeier & Stephenson. The Analysis of Social Systems New-york; 1962 PP. 116 -147

٢ - ويقول لندبرج Lundberg إن الضبط الاجتماعى عبارة نستخدمها لنشير إلى المسالك الاجتماعية التى تقود الأفراد والجماعات نحو الإمتثال للمعايير المقررة أو المرغوبة . ويذهب إلى ان أنماط السلوك الاجتماعى الكبرى ذات الطابع الدائم العام (النظم الاجتماعية) تعتبر نوعا من انواع الضبط الاجتماعى،ويقول ايضا إن الحكومة من بين هذه النظم ،هى التى يناط بها فى المجتمع الحديث مسألة الضبط الاجتماعى،ويبدو الضبط الحكومى واضحا فى كثير من التنظيمات كأقسام الشرطة والمحاكم والمدارس والمسئولين عن الصحة العامة وهكذا . ولكنه فى هذا المقام يشير إلى الدور الكبير الذى تلعبه الأنماط الاجتماعية كالعادات الشعبية والبدع والعرف والراى العام وغير ذلك فى الضبط الاجتماعى ، ويرى كذلك أن الضبط الاجتماعى كموضوع وادواته المختلفة كوسائل والتى تعمل على إمتثال الناس للمعايير الاجتماعية،تكون عرضة للتغير وخاصة عن طريق ما سماه الإختراعات الاجتماعية (١) .

ونلاحظ هنا ان لندبرج يوسع مفهوم الضبط الاجتماعى بطريقة تختلف عما ذهب إليه علماء علم الاجتماع،ولا يرجع ذلك إلى إبرازه للدور الكبير الذى تلعبه المنظمات الحكومية فى توجيه السلوك الاجتماعى فى المجتمع الحديث، بل لأنه يجعل الضبط الاجتماعى وسيلة لمنع الحروب ولضبط الزيادة السكانية فى المناطق المزدحمة بالسكان وللحيلولة دون زيادة الطابع المركزى للحكومة وما يترتب على ذلك من مظاهر بيروقراطية قد تعطل الأداة الحكومية ذاتها.

---

1 — Lundberg and others, Sociology, New york, 1958, PP. 720—721

٣ - اما أجبرن ونيمكوف Ogburn and Nimkoff فيقولان إن بعض طلاب علم الاجتماع يستخدمون إصطلاح (الضبط الاجتماعى) بطريقة عامة جدا لوصف كل الوسائل التى تستخدمها الجماعة لتحقيق النظام الاجتماعى ، ويترتب على هذا الإستخدام ان العادات الشعبية وتقسيم العمل مثلا يمكن اعتبارهما من وسائل الضبط الاجتماعى، طالما انهما يساعدان على استقرار الجماعة وتكاملها . ولكنهما يستخدمان فى معالجة موضوع الضبط الاجتماعى معنى مختلفا واكثر تحديدا من المعنى السابق ، فالضبط الاجتماعى فى نظرهما عبارة عن العمليات والوسائل التى تستخدمها الجماعة لتضييق نطاق الإنحرافات عن المعايير الاجتماعية . ويترتب على هذا المعنى ان العادات الشعبية فى عمومها ليست وسيلة من وسائل الضبط الاجتماعى فى مجتمع معين ، ولكن عادة شعبية محددة كالسخرية يمكن ان تكون احد وسائل الضبط الاجتماعى، إذا استخدمت لكبح جماح المتطرف ورده إلى طريق الجماعة .

٤ - ويختلف تعريف جونسون Johnson عن التعريف الأول لأن كلا التعريفين مستمد من تولكوت بارسونز للضبط الاجتماعى ،الذى يتكون من كل الميكانيزمات التى تعارض الإتجاهات الإنحرافية ،او تصادرها سواء بمنع الانحراف الظاهر او باجتثاث عناصر التأثير او الإثارة التى تميل نحو اخراج الإنحراف من حالة الكمون الى الواقع (١) .

---

1 — Johnson, sociology, London, 1961, PP 553—554

المدخل السوسيولوجى لفهم الضبط الاجتماعى:

يرى بعض علماء الإجتماع أن موضوع الضبط الإجتماعى لا يختلف كثيرا عن موضوع التنظيم الإجتماعى، ومن ثم فان مناقشة هذا التنظيم يمكن أن تغطى المسائل التى تعود الباحثون على إدراجها ضمن موضوع الضبط الإجتماعى . كما أن غيرهم من أمثال جورج جرفيتش يعتقد أن أنواع الضبط الإجتماعى كالظواهر ثقافية مثل الدين والقانون والفن والمعرفة والتعليم، التى يجب أن نفصلها عن وسائل الضبط الإجتماعى التى هى الظواهر الإجتماعية كالجماعات والمجتمعات . ولكننا نرى أن إعتبار الضبط الإجتماعى نوعا من التنظيم الإجتماعى قد يكون إعتبارا وجيها ، لكن النظر إلى الضبط كما يريد جرفيتش لا يعطينا عمقا فى فهم هذا الموضوع الهام ، لأنه فى واقع الأمر يفصل بين ما هو ثقافى من الضبط الإجتماعى وبين ما هو إجتماعى، وقد سبق أن ذكرنا أن الدراسة فى علم الإجتماع سواء بالنسبة لهذا الموضوع أو غيره، تقوم على النظر إلى الحقيقة الإجتماعية من زوايا ثلاث مترابطة هى المجتمع والثقافة والشخصية ، ولذلك فالضبط الاجتماعى باعتباره جزءا من هذه الحقيقة الاجتماعية يجب أن يدرس بهذا المفهوم ، فالأشخاص هم الذين يكونون محل الدراسة لمعرفة مدى إمتثالهم للمعايير والقيم ، ولا يمكن ان تتم الدراسة إلا إذا لاحظنا هؤلاء الأشخاص فى تفاعلهم داخل جماعات او مجتمعات . كذلك لا يمكن ان يستقيم فهمنا لطبيعة سلوك هؤلاء الأشخاص، إلا إذا كانت لدينا معرفة محققة عن نمط الثقافة الذى يعطى هذه المعايير اجتماعية قالبا معينا وابعادا خاصة يمكن ان نلاحظ خروج الأفراد عليها او امتثالهم لها . ومن اجل هذا فاننا نعرض فى إيجاز لمجموعة من الحقائق الاجتماعية التى تعتبر شروطا اساسية لفهم عمليات

الضبط الاجتماعى وأساليبه المختلفة بغض النظر عن المكان الذى نلاحظ فيه هذه الظاهرة :

١ - من المسائل المعروفة فى علم الاجتماع أن الجماعة الانسانية تعتبر قوة محافظة بطبيعتها ، فالجماعة مثلا تحافظ على حقوق اعضائها ،ولذلك فان إعتداء عضو على عضو آخر يقابل من الجماعة بعدم الرضاء الذى قد يصل فى كثير من الأحيان إلى عقاب المعتدى ، ومثال ذلك ان بعض الجماعات تحرم السرقة من داخلها على الأعضاء، بينما قد تسمح لهم بأن يسرقوا من خارجها، وقد استنتج علماء الاجتماع من ذلك ان الجماعة الانسانية تقوم كدافع ضد العدوان الذى قد يقع على بعض اعضائها .

إن فكرة الجماعة نفسها كمشكلة لسلوك اعضائها تتضمن فكرة القهر او الالزام الجماعى، ولذلك فالجماعة لا توجه السلوك فحسب، بل انها تحدده وتنظمه ايضا، وقد برزت هذه الفكرة منذ زمن بعيد على يد دوركيم الذى قال إن جوهر الحياة الجمعية هو فيما تمارسه من قهر او إلزام على الفرد .

٢ - الامتثال للمعايير الاجتماعية هو الهدف الذى يسعى إليه القهر الاجتماعى ،ذلك ان الفرد لا يستطيع ان يتراجع او ان يدير ظهره للقيم او المعايير السائدة فى جماعته لأنه يخشى من عواقب الانحراف، كما ان الفرد المنحرف يعلم ان عدم إمتثاله يؤدى إلى عدم الترحيب به فى اى جماعة اخرى، ولذلك يفكر مرتين قبل ان يستمر فى السلوك الانحرافى .

٣ - الجماعة تصادر الاختلافات المتطرفة ذلك لأن المعايير الجماعية هى فى واقع الأمر مستويات نضعها لتكون حدودا لا يتعداها الأعضاء، ومع

ذلك فقد تظهر فى اغلب الجماعات انواع من اليوتوبيا تعتبر فى واقع الأمر إنحرافا عن المعايير الموضوعة وهنا نلاحظ ان الانحراف إذا كان بسيطاً فلربما تجاهلته الجماعة، أما إذا وصل إلى درجة يهدد إستقرار الجماعة او تكاملها فان العقاب الذى يتلقاه المنحرف فى هذه الحالة يتناسب مع تقدير الجماعة لخطورة الانحراف نفسه عليها .

٤ - كل جماعة تضع حدودا للتسامح عند الاعتداء او الانحراف عن المعايير المقررة، وهذا راجع إلى أن هذه المعايير عبارة عن مقاييس على درجة كبيرة من الاكتمال من الصعب ان نحققها فى الواقع، ولهذا يصبح التسامح امراطبيعيا يتواضع عليه افراد الجماعة، ويتوقف التسامح على طبيعة الموقف الاجتماعى، وعلى مركز الشخص وسمعته، وكذلك على نمط السلوك المتضمن . وهناك عدة إعتبارات يجب ان تكون فى الذهن عند النظر فى حدود هذا التسامح ومن أهمها : (١)

ا - التقاليد الاجتماعية قد تسمح فى مجتمع بتسامح لا يسمح به مجتمع آخر وهذا يفسر اختلاف المعايير والمبادىء الأساسية التى توجه النظام الإجتماعى او تحدد إيديولوجيته . ولذلك فان السلوك البورجوازى فى المجتمعات الإشتراكية يعتبر إنحرافا عن المعايير الاجتماعية ، ومن ثم لا يكون محلا للتسامح .

ب - كلما زاد اللاتجانس فى مجتمع كلما زادت حدود التسامح إتساعا، وهذا راجع إلى ان المجتمع المترامى الأطراف تتعدد فيه الثقافات الفرعية

---

1 - Ogburn & Nimkoff, A handbook of Sociology, London, 1960 pp., 174 - 183

وتتنوع فيه الجماعات وتختلف بناء على ذلك انماط الشخصيات ، الأمر الذى يؤدى إلى وجود عدد كبير من مستويات السلوك المتمايزة . ولهذا لا يجد المجتمع مناصا من توسيع نطاق التسامح،وإلا انقلبت جماعات المجتمع على نفسها وحل الصراع محل التنافس والتعاون . أما لماذا تكون المجتمعات البدائية أو الصغيرة أقل تسامحا ، وان هذا يرجع إلى ان المعايير الاجتماعية فيها واحدة تفرض التشابه على اعضاء المجتمع . ومن ثم كان الإنحراف امرا يلاحظه الجميع وتشتد له حساسية المجتمع وغالبا ما يعاقب عليه بصرامة .

ح - كلما زاد التحضر فى المجتمع كلما زادت أهمية مؤسسات الضبط الإجتماعى الرسمية على حساب الوسائل القديمة التى كانت تسندها العادات والعرف . ولذلك نعتبر ان زيادة الالتجاء إلى الشرطة والمحاكم فى المجتمع القروى علامة من علامات التغير الاجتماعى فيه ، لأن القاعدة القديمة فيه كانت تمنع الإلتجاء إلى الغير فى فض النزاع او مصادرة الانحراف . سواء فى الوحدات الصغيرة الصغيرة المكونة للقرية او فى مجتمع القرية ككل .

د - يقول بعض علماء الاجتماع أنه كلما زادت مرتبة الفرد الاجتماعية كلما كان أكثر حرية،اى انه يكون فى استطاعته الاختلاف مع المعايير الإجتماعية دون ان يتعرض للجزاء الذى يتعرض له من هم أقل منه مرتبة، ومثال ذلك أن القرويين يكونون اقل حرية فى الخروج على المعايير ، وكذلك الطبقات محدودة الدخل أو قليلة الثقافة ، بينما لا يكون الأمر على هذا النحو عند الطبقات الأعلى دخلا والأكثر ثقافة .

هـ - مهما زادت حرية الفرد نتيجة للمرتبة الإجتماعية الكبيرة التى يتمتع بها ، فانه لا يستطيع أن يخالف التوقعات الاجتماعية والمعايير إلى اى حد .

فقد يسمح له بمخالفة الرأى العام ، أو اعتناق مبادىء تخالف مبادىء غالبية أعضاء المجتمع ، ولكنه لا يسمح له بارتكاب المحرمات التى تعتبر مخالفات خطيرة فى كل المجتمعات .

و - كل سلوك مخالف للعرف غير مقبول فى أى مجتمع . ومثال ذلك أن الجماعة لا تسمح لأحد فى هذه الأيام أن ينادى بالعودة الى الرق مثلا. وليس العرف عاملا سلبيا دائما يمنع الفرد من هذا أو ذاك . بل إنه يكون عاملا إيجابيا فى عدد من الحالات . ومثال ذلك أن العرف كان يفرض على الرجل حماية المرأة . ولا زال الرجل فى عدد من المجتمعات مسؤولا عن سلوك زوجته أو اخته . ففى حالات الإنحراف عن قواعد السلوك الذى يقبله المجتمع يمكن ان يوقع العقاب الذى قد يصل أحيانا إلى درجة القتل .

ميكانيزمات وقف التصدع والتوتر المؤدى إلى الانحراف :

إذا ظهر فى الموقف الاجتماعى أى علامة على قرب حدوث الإنحراف نتيجة لتصدع فى مراكز الأفراد او فى أدوارهم ، فانه من الممكن التدخل عن طريق أحد ميكانيزمات الضبط الاجتماعى لتلافى هذا التصدع وتخفيف التوتر ، والعودة بالموقف الإجتماعى إلى وضعه الطبيعى . وهناك ثلاث ميكانيزمات أساسية فى هذا المجال نشير إليها على النحو التالى :

١ - العزل : وهو العزل البنائى للمراكز والأدوار لمنع التصدع عن طريق فصل المصادر الكامنة للصراع المتضمنة فى المركز والدور الذى يقوم به الفرد . والوظيفة الرئيسية لهذا العزل منع الناس من أن يواجهوا

توقعات متعارضة في وقت واحد . ويمكن الوصول الى هذا العزل بطرق ثلاث :

ا - قد تقسم الثقافة الزمن إلى فترات مختلفة بالإضافة الى المراكز المختلفة التي تكون للفرد . ولذلك إذا شغلت هذه المراكز في وقت واحد، كان احتمال ظهور الصراع عند الفرد كبيراً . ومثال ذلك ان الفرد في المجتمع الحديث قد يكون إبنا وأبا ومديراً وعضواً في ناد وعاملا في جمعية خيرية ومن الطبيعي أن يقسم وقته للقيام بالأدوار التي تصاحب هذه المراكز فاذا لم يحسن التوقيت لكل مركز وما يصاحبه من دور وقع فريسة الصراع ومن أجل هذا كان العزل بمعنى عدم خلط الأدوار بالمراكز او العكس مؤديا إلى القضاء على الصدع في مهده .

ب - وكذلك يمكن القضاء على الصراع الكامن أو احتمالاته عن طريق تقسيم المكان فالانتقال من مجموعة من الإتجاهات والمعتقدات إلى مجموعة أخرى يمكن ان تكون عملية سهلة ، إذا امكن عزل مكان كل مجموعة عن الأخرى مع مايصاحب كل منها من ملابسات وظروف . ومثال ذلك أن الفرد قد يكون متعدد الجوانب،اى أنه قد يكون كاتباً وفيلسوفاً ومتديناً. ومن غير شك ان لكل حالة ظروفها وإتجاهاتها ، وليس على الفرد لكى يتجنب الصراع إلا أن يخصص لكل نشاط مكانا محدداً ،حتى لا يكون« كل نشاطه» في كل مكان يذهب اليه.

ح - كما ان عزل المتصلين بالدور ، وخصوصاً إذا كانوا مختلفين باختلاف الأدوار ، يمكن أن يقضى على الصراع في مهده . ومثال ذلك ان الطالب يجب أن يفصل بين شخصيته التي يكون عليها مع من يحب، وبين

شخصيته عندما يكون مع استاذه ، وكذلك شخصيته عنـــدما يكون مع والديه . ذلك لأن خلط هذه الشخصيات جميعاً فى كل دور ربما ادى إلى صراع يمكن أن يكون طريقا للانحراف . ومثـال آخر على ذلك ، الرجل الذى يتزوج من سيدتين ، يلعب دورين مختلفين . لاختلاف المتصلين بكل دور . ولذلك فانه يقضى على الصراع بعزل الزوجتين كل فى مسكن مستقل ويقسم وقته بينهما .

ويلاحظ أن العزل البنائي يمكن ان يستخدم كضابط إجتماعى فى مواقف أخرى . ومثال ذلك أنه إذا وجد عدد من الأشخاص يتعرضون فى موقف معين لتصدع واحد ، فان عزل كل منهـم عن الآخر ، يقطع عليهم خط الرجعة عن طريق تذويب القوى التى توحـد بينهم ، فتزيد من دوافـــع الإنحراف .

٢ — المنـع : هو أحد الوسائل التى يستعين بها الضبط الاجتماعى عـلى تجنب التصـــدع والتوتر الذى قد يترتب على عدم الأنســاق بين المراكز والأدوار . ويعنى المنع هنا « العزل الرمزى » للزمن والمناسبات أو الشركاء ، ولما كان من الصعب او المستحيل فى كثير من الأحيان عزل المراكز أو شركاء الدور لكف الصراع ، فانه يلزم فى هذه الحالة الركون إلى ميكانيزم آخر لتقوية المركز السائد فى علاقة معينة ، وإخضاع كل المراكز الأخرى له . والمنع لا يمنع من التفاعل مثل العزل ، وخاصة بين شركاء الدور الذين يحتمل أن يتصارعوا ، وفى الغالب يسمح المنـــع للمراكز التى يحتمل أن تتصارع من أن تقوم بأدوارها فى وقت واحد . ومثال ذلك ان الاختلاف بين العزل والمنع يظهر عندما ننظر فى قواعد الجنس عند من يرتبطـون عن طريق الدم أو الزواج ، ويكون من المحرم على بعضهم أن يتزوج البعض

الاخر ، فان تنفيـذ هذا التحـريم يتّم عن طـريق فصل الرجال عن النساء فيزيائيا ، ولكن هذا الفصل لا يمنع من تفاعلهم واتصالهم على مستويات مختلفة ومتعددة فيما عدا الاتصال الجنسى .

٣ ـ الأسبقيـة : ومن الوسائل التى تستخدم فى منع التصدع والتوتر ما يقال له « أسبقية المركـز النظامية » ذلك أن التحديد الإجتماعى الواضح لمطالب المركـز التى يجب أن يكون لهـا الأرجحية والأفضلية ، تخلص الناس من النضال فى سبيل الوصول إلى قرار . ولهذا يسبب الصراع اقل قدر ممكن من الصعوبات ، لأن الناس يستطيعون تقديم بعض مطالبهم على غيرها مستندين فى ذلك إلى القانون أو إلى ما تشير به نظم المجتمـع . ومثال ذلك إذا شاهدت زوجة زوجها يقـوم بعمل غير مصرح به ، فهل لها ان تنحرف عن الولاء لزوجها وتشهد ضده ، ام أن عليها أن تبقى صامته فتنحرف عن مركـزها كمواطنة ؟ القانون الانجلو أمريكى يعطى الأسبقية لمركز المرأة كزوجة على مركزها كمواطنة ، ولهذا يعفيها من الشهادة ضـد زوجها . وإذن كلما كانت المطالب مرتبة بحسب اهميتها بطريقة مقررة كلما اسهمت فى خفض حدة الصراع الذى يمكن ان يثير كوامن الإنحراف عند الفـرد ، عند الإختيار بين هذا المطلب او ذاك .

تطويع التصدع أوالتوتر وسياسته :

عندما يفشل البناء فى وقت التصدع أوالتوتر ، ويظهر الإحباط والتوتر فى الواقـع فانه من الممكن منـع المنحرف من الاسترسال فى الإنحراف عن طـــريق تمكينه من التخلص من التوتر بطرق مقبولة إجتماعيا . ويتضمن هذا الاجراء ما يطلق عليه اسم « تطويـع التصدع او التوتر وسياسته » .

ويأخذ هذا الاجراء طابعا نظاميا بوساطة طرق متعددة اهمها: السلوك التعويضى وبدائل المركز. ولسوف نعرض لها فى إيجاز على النحو الآتى :

١ - السلوك التعويضى : وهو ذلك السلوك الذى يمكن الناس من التخلص من التوتر، وهو متعدد الأنواع بتعدد درجات القبول الإجتماعى المرتبطة بكل نوع على حدة .

ا - النوع المفضل ثقافيا : وهو الذى يكون فى متناول اكثر الناس. ومثال ذلك، ان العامل الذى يفشل من حيث مركزه المهنى، يمكن ان يجد إشباعا تعويضيا فى الدور الذى يلعبه فى اسرته . فقد يلقى التقدير فى فى قيامه بدوره كزوج وكوالد ، فيعوض بذلك ماشعر به من خيبة وفشل متعلق بانخفاض مركزه فى عمله . وقد يكون العكس صحيحاً بالنسبة للرجال ، ومعنى ذلك أن العمل يقوم بالمركز التعويضى ليغطى الإحباط الذى يجده فى دوره فى الأسرة . والمرأة الحديثة تجد تعويضا عن فشلها فى أن تكون زوجة أو أما حقيقية بالإنخراط فى النشاط الاجتماعى أو السياسى .

ب - النوع المسموح به ثقافيا . ومعنى ذلك أن هذا النوع ليس مفضلا كالنوع السابق ووظيفة هذا النوع خفض التوتر الفرد دون زيادة إنتاجية المركز أو الوظائف الاجتماعية الأخرى . وهنا نلاحظ أن المجتمعات قد تسمح فى وقت ما بسلوك لا تسمح به فى وقت آخر . ولهذا كان السلوك التعويضى من التوع المسموح به ثقافيا ، متعلقا بالزمان والمكان . ومن أمثلة السلوك المسموح به ثقافيا ، ذلك النوع الذى يتجه إلى إشباع الحاجات والرغبات المحيطة أو الهروب من المطالب المتعارضة عن طريق إطلاق العنان

للتخيل . ويغذى هذا التمثيل وسائل كثيرة ، مثل أحلام اليقظة وقراءة القصص ومشاهدة الصور المتحركة والإستماع المستمر للاذاعة ومشاهدة التليفزيون وغير ذلك . ويتوقف قدر كبير من السماح بمثل هذا السلوك على مضمون هذه الوسائل . فقد تمنع الثقافة الإستمرار فى هذا السلوك إذا كان المضمون ممنوعا أو غير مرحب به .

حـ ـ النوع المتسامح فيه ثقافيا . وينطوى هذا النوع على عدد من وجوه النشاط متعارضة رسميا،ولكن القيام بها يتسامح فيه ، ويمارس فى ظل ظروف ثقافية معينة . ومثل هذا النوع من السلوك يقف على حافة الإنحراف ، والتسامح فيه يكون إلى الحد الذى لا يظهر أنه أصبح يشكل خطرا على الجماعة أو على الأنماط الإجتماعية المقررة . ومن أمثلة هذا النوع من السلوك تناول الخمر والحشونة وبعض العادات الجنسية والعربدة .

د ـ أما النوع الرابع وهو الممنوع ثقافيا ، فان الخط الذى يفصله عن النوع السابق دقيق جدا،لأن التحول من المتسامح فيه إلى الممنوع سهل جدا. والأمثلة على ذلك كثيرة ، فقد يرتكب المخمور جريمة ، وقد ينقلب الهوس بالجنس إلى قتل للنساء .. وهكذا .

٢ ـ بدائل المركز : إذا لم يؤدى التعويض الكافى إلى بناء مركز أو لا تسمح المراكز الأخرى بتعويض تام،فان الأفراد يمكن أن يسمح لهم بالإنسحاب من المركز الذى يؤدى إلى التصدع أو التوتر،وذلك فى سبيل نوع آخر من النشاط الإمتثالى . إن السماح بالإنسحاب من المركز يمكن الفرد من تجنب التوترات التى تترتب عليه،كما أن ضرورة اتخاذ مركز آخر موافق عليه ثقافيا يضمن الإمتثال ويمنع الإنحراف . وكلما

كان من المتيسر الإلتجاء إلى المراكز البديلة ممكنا،وفى الوقت نفسه يسمح للأفراد بالتحرك من مركز إلى آخر،فان إحتمالات الإنحراف تقل إلى الدرجة الأدنى .

ويعتبر الإنتقال من مركز إلى آخر من مميزات النسق المهنى المفتوح ، وكذلك المكان الذى يسمح بالتنقل بين أجزائه المختلفة ، فالناس لا يفرض عليهم مراكز معينة أو أدوار معينه مع شركاء لايستطيعون التعامل معهم أو قد يسببون لهم تصدعات وتوترات تؤدى إلى انحرافهم ، بل إن الناس فى الغالب يبحثون دائما عن المراكز البديلة إلى أن يجدوا واحدا منها يقضى حاجاتهم .او يسمح لهم بالتعامل مع شركاء او رفقاء يستريحون إليهم .

وهناك ثمة خطر اجتماعى فى إعداد بدائل المراكز، لأن الناس قد يتحركون من هذا المركز إلى ذاك دون ان يكونوا مؤهلين فعلا لأى واحد منها من اجل القيام بالدور الذى يناط بكل مركز بطريقة حسنة . وينطبق هذا القول على ذلك العامل الذى ينتقل من عمل إلى آخر،او الزوج الذى ينتقل من زوجة إلى زوجة،او الزوجة التى تغير ازواجها فى فترات قصيرة المدى ، ويتنبه المجتمع للخطر الذى يترتب على مثل هذه الحالات،ولذلك يضع عقوبات او حواجز لهذه الحركة تستند إلى المقومات النظامية فى المجتمع،حتى يكون لمثل هذا التحرك جدية واعتبار. ومثال ذلك أنه إذا ازدادت حالات الطلاق فى مجتمع زيادة يمكن تفسيرها على اساس عدم حسن استخدام بدائل المراكز،فان المجتمع يقيم الحواجز التى تؤدى إلى تقليل نسب الطلاق،وذلك عن طريق تصعيب إجراءاته او إحالة الأمر على جهات

من وظيفتها ان تفحص الأسباب الجدية وراء طلب الطلاق، وتحاول فى نفس الوقت ان تجعل تكاليف الطلاق باهظة .

ويجب ان نلاحظ هنا ان بدائل المراكز يمكن ان تؤدى إلى نفس التوتر والتصدع التى تؤدى إليه المواقف الإحباطية ، اذا لم يكن عند الناس مستويات محددة تماما تمكنهم من الحكم على حاجاتهم . ولذلك يكون الفرد الذى لا يعرف ما يريد واقعا تحت توتر،لأنه فى هذه الحالة لا يقوم بأى دور يمكن التعرف عليه،وخلاصة القول ان تعدد المراكز والأدوار فى المجتمع يمكن أن تكون وسيلة من الوسائل التى تخفف من حدة الإنحراف الذى يمكن ان يتسبب عن احساس الفرد بالعزلة او بانسداد الطريق امامه لتغيير الموقف الذى سبب له التوتر او التصدع فى بادىء الأمر .

ميكانيزمات الحصار والتعويق:

ان الوسائل السابقة التى عرضنا لها ، والتى تعتبر خطوط الدفاع الأولى لمنع الإنحراف او لكبت مؤثراته ، قد لا تفلح فى القضاء عليه . ولهذا نلجأ الى الوسيلة الثالثة من وسائل الضبط الاجتماعى وهى منع الإنحراف من ان يصبح سلوكا اذا استطعنا ان نجعل مثل هذا السلوك صعبا او باهظا .

١ ــ تعسير الإنحراف : ومعناه انه فى سبيل ضمان الإمتثال على الرغم من المؤثرات الانحرافية، نقيم مواقفا تمنع تكيف المنحرف واستمراره فى سلوكه، لأن الأمر فى هذه الحالة سيكون صعبا . وحتى اذا ظهر الإنحراف فى الواقع فانه سيكون عديم التأثير نسبيا . ويكون الجزاء السلبى هنا الذى يظهر فى

عدم الرضا عن الإنحراف وإمكانية قهر المنحرف،من العوامل التى تهيىء الفرصة وتمهد الطريق أمام الإمتثال ومن نتائج هذه الميكانيزمات أن الناس يمتثلون بالرغم من أنفسهم .

٢ - بهاظة الإنحراف : ومعناه أن الناس قد يبتعدون عن السلوك الإنحرافى إذا كانت تكاليف الإنحراف أعلى من تكاليف الإمتثال ، ولعل هذا هو أحد الأسباب الذى من أجله لا يكون العقاب مناسبا للجريمة فى كل الأحوال، ويقول جورج هومانز George Homans إن عددا كبيرا من وسائل الضبط التى تعمل بطريقة غير رسمية فى أى جماعة اجتماعية تعتبر نتيجة لطبيعة تنظيم الحياة الإجتماعية،ذلك أنه لما كان التساند والتبادل متضمنا فى تقسيم العمل فى الجماعة، وتجد الحاجات المكملة وسائل إشباعها عن طريق أنماط التفاعل المقررة،فان الخروج على مثل هذه التنظيمات والقواعد يقابل من غير شك بالمقاومة .

وترجع هذه المقاومة إلى أن التغير فى النمط المقرر حين يتسبب فيه عضو واحد من أعضاء الجماعة . فان تأثير هذا التغير يسرى إلى الأعضاء الآخرين فى تلك الجماعة ، ولذلك فان المنحرف فى هذه الحالة يضطر إلى الإمتثال لأن الجماعة تبادر بحرمانه من مراكزه وأدواره التى كان يشغلها أو التى كان من المحتمل أن يشغلها فى المستقبل .

ولعل اهتمام هومانز بوسائل الضبط غير الرسمية ترجع إلى أنه كان يحلل جماعات صغيرة بسيطة التركيب نسبيا ، ولكن المجتمع الحديث لا يمكن أن يكف الإنحراف أو ان يمنعه بحرمان المنحرف من السلع والخدمات،أو بتهديده بحرمانه من مراكزه وأدواره عن طريق الجماعة التى ينتمى إليهـا

نظرا لاتساع نطاق المجتمع الحديث من ناحية ولتعدد أنماط السلوك المقررة من ناحية أخرى . ومن ثم فان فاعلية عدم الرضا الاجتماعى كوسيلة من وسائل الضبط تقل بالضرورة، ونحن هنا لا ننكر أهمية عدم الرضا الاجتماعى وإنما ننيط به دورا جزئيا فى منع الإنحراف .

ويلاحظ أن المجتمعات الحديثة تعتمد اعتمادا متزايدا على وسائل الضبط النظامية التى تظهر فى الجيش والمدرسة والمصنع والجماعات المنظمة التى يكون لكل منها وسائلها فى الضبط التى تناسب أنماط السلوك فيها والأهداف التى تسعى إليها، كما أن المجتمع بصفة عامة يعتمد على القانون الذى يضع القواعد العامة لضبط المظاهر العامة من سلوك الأفراد بغض النظر عن إنتماءاتهم الجماعية، ولهذا يعتبر القانون فى المجتمعات الحديثة من أهم وسائل الضبط الاجتماعى وأكثرها عمومية وأشدها إلزاما وأكثرها فاعلية فى منع الإنحراف وفى الوصول إلى السلوك الامتثالى بصفة عامة .

٣ - أهمية القانون : عندما يكون المنحرف من وجهة نظر الرأى العام غير قادر على إظهار إنحرافه فانه مع ذلك يظل متربصا بالإنحراف. ولذلك يجب أن يبعد عن مسالك الإنحراف عن طريق التهديد بالعقاب البدنى أو السجن أو النفى أو الإعدام. وتكون مثل هذه الوسائل فى الضبط الاجتماعى بين الجماعات الثانوية نظامية ، بمعنى أنها تحدد فى شكل ميكانيزم رسمى يسمى القانون . وعندما يصبح القانون منطويا على جميع الميكانيزمات التى تؤهله لمنع الإنحراف وعقابه، فانه ينطوى بالضرورة على مراكز من شأنها التحرى عن المنحرفين والحكم عليهم وعقابهم ، وكلما زادت قواعد القانون دقة كلما زادت ضرورة التخصص فيه لمواجهة كل أنواع الإنحراف والمنحرفين .

ولما كان القانون ينطوى على العقاب،فانه يكون عاملا كافاعن الإنحراف وله فاعلية فى ظل أربعة شروط هى :

ا ـ يجب أن يكون العقاب قاسيا بدرجة كافية ليعيد التوازن بهـــدف الوصول إلى الإمتثال .

ب ـ يجب أن يكون مباشرا وفوريا بدرجة كافية ليربط فى الأذهان العلاقة الوثيقة بين العقاب وبين الإنحراف .

جـ ـ يجب أن يكون واحدا نسبيا، بمعنىأن يطبق على جميع الأشخاص الذين يرتكبون انحرافا معينا .

د ـ يجب أن يكون مؤكدا وموثوقا به لتصبـح للشروط الأخـــرى فاعلية محققة .

ولما كانت هذه الشروط متساندة ويتوقف تطبيقها على اعتبارات متعددة يتعلق بعضها بالقيم ، فانه من الصعب أن نحدد الفاعلية النسبية لأى منها أو إمكان تطبيقها جميعا إلى أقصى درجة من درجات الكفاية .

وخلاصة القول أن الضبط الاجتماعى ضرورى لمعالجة الفشل فى التنشئة الاجتماعية ، كما أنه من ناحية أخرى يشحذ همم أولئك الذين تعلموا دروس هذه التنشئة جيدا ، ويلاحظ أن العمليـــات الرئيسية المتضمنة فى التنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعىواحدة تقريبا ،وعلى الأخص الثناء واللـوم والمكافأة والعقاب على السلوك الذى يحوز الرضى أو لا يحـــوزه على التوالى .

وكما رأينا من التحليل السابق لميكانيزمات الضبط الإجتماعى، نستطيع أن نقول إن الجزاءات من ثلاثة أنواع : جزاءات فيزيائية واقتصادية ونفسية إجتماعية ، ويلاحظ ان الإنسان يستخدم الجزاءات النفسية الإجتماعية أكثر من استخدامه للجزاءات الفيزيائية لأنه حيوان ثقافى فى المحل الأول . وتقوم إتصالاته مع الآخرين على الرموز ، ونحن لا نستطيع ان نفصل هذه الأنواع الثلاث من الجزاءات فى الواقع،لأنها مرتبطة بطرق متعددة، ولهذا قد يحكم القاضى بالغرامة او قضاء عدة ايام فى السجن ، ومن المسائل الهامة التى يجب الا تغيب عن بالنا أن الضبط الاجتماعى يستخدم المكافأة كما يستخدم العقاب ، ولكن العقاب يكون اشد وقعا على النفس فى حالة الإنحراف من المكافأة فى حالة الإمتثال . ومثال ذلك ان العقاب الفيزيائى لا يمكن مقارنته بالمكافآت المادية . فالشد على اليد او القبلة او العناق علامات على الرضى ولا تتضمن مسرة فيزيائية يمكن ان تقارن بالألم الفيزيائى عند العقاب البدنى .

فاعلية الضبط الاجتماعى :

ناقش عدد من المؤلفين موضوع الأثر الذى تتركه وسائل الضبط الاجتماعى فى الحصول على مزيد من الإمتثال داخل الجماعة او المجتمع ، وقد ساقوا فى هذا الصدد امثلة عديدة تؤيد اتجاهاتهم المختلفة .

ويمكن ان نحصر هذه الإتجاهات فى إتجاهين اساسيين :

الأول ـ أن فاعلية الضبط الاجتماعى تتوقف على ادواته المختلفة، اى انه كلما زادت هذه الأدوات نفاذا إلى الأفراد واصطبغت بالطابع الرادع فى اكثر الأحيان، كلما ظهرت آثار الضبط الاجتماعى فى التقليل من نسب

الإنحراف وخاصة ذلك النوع الذى يكون فيه اعتداء جسيم على المعايير الاجتماعية ذات الطابع العام. ويدعم انصار هذا الإتجاه موقفهم بقولهم إننا نريد وسائل ضبط فى المجتمع الحديث لها قوة القهر والإلزام التى كانت للوسائل العرفية فى المجتمعات القديمة أو البسيطه .

وواضح ان هؤلاء يؤكدون على اهمية القانون وضرورة توسيع نطاقه وتحديد قواعده بحيث يكون صالحا لمواجهة اى انحراف مهما صغر فى المجتمع رعاية للنظام والإمتثال .

والثانى - ذلك الإتجاه الذى لا ينكر اهمية وسائل الضبط الاجتماعى فى الوصول إلى درجة من الإمتثال عالية ، ولكن مؤيديه يرون ان الفاعلية النهائية للضبط الاجتماعى تتوقف على طبيعة الجماعة من ناحيــــة، وعلى نمط التنشئة الاجتماعية من ناحية اخرى . ولذلك يحـاولون ان يركزوا انظارهم على الظروف الجماعية التى قد تؤدى إلى الإنحراف او إلى الإمتثال . ومثـــال ذلك قولهم :

إنه كلما كانت الجماعة محببة إلى الفرد كلما زادت فاعليـــة وسائل الضبط الاجتماعى فى رد الفرد إلى طريق الجماعة المرسوم . ومثال ذلك ان احـــد عوامل انحراف الأحداث ترجع إلى ان الحدث لا يتطابق مع والديه . ومن ثم لا يقدر عضويته فى جماعته الأسرية ، ذلك لأن الأب هو رمـز السلطة وعندما يعارض الطفل اباه فانه غالبا ما يعارض كل رموز السلطة الأخرى مثل الشرطة والقضاء وحراس السجون وربما كانت معارضة الحدث لوالده طريقا يجعل شعور الطفل يتحول بصفة عامـة إلى نـوع من الإحساس بأن المجتمع كله يقف ضده، ومن ثم تنمو عنده اتجاهات العصيان ويصبح متأثرا

بالرغبة فى الإنتقام ، كذلك تتوقف فاعلية الضبط الإجتماعى على استقلال الجماعة، بمعنى أنه كلما زاد استقلال الجماعة كلما قلت فرص الإنحراف، وكلما زادت فاعلية الضبط . وقد دلل أنصار هذا الإتجاه على قولهم هذا بدراسات مقارنة أجريت على عدد كبير من الجماعات والمجتمعات المحلية تمثل ثقافات مختلفة وتتدرج فى درجة إستقلالها . كما أنهم وجدوا أيضا نتيجة لدراساتهم لعدة جماعات مختلفة البناء والوظيفة فى مجتمع معين ، أن الأوامر المتعارضة أو التوجيهات غير المتناسقة تؤدى إلى العصيان أو الإحباط . وفى هذا المقام تبينوا أن الأوامر ذات الطابع الإيجابى والمتناقضة فى الواقع تؤدى إلى زيادة نسبة العصيان، كما أن الأوامر السلبية تؤدى إلى الكبت وإلى المظاهر العصبية .

إن كلا الإتجاهين السابقين لا يصلح كل منهما على حدة لبيان العوامل الأساسية التى من شأنها أن تؤدى إلى فاعلية أكثر فى وسائل الضبط الإجتماعى،ذلك لأن الإعتماد على مجرد الوسائل للوصول إلى الإمتثال داخل الجماعة دون معرفة بطبيعتها يؤدى إلى عدم إدراك الأداة المناسبة لانحراف معين أو لجماعة بعينها .

كما أن الإتجاه الآخر الذى يركز إهتمامه على التنشئة الاجتماعية وطابع الجماعة ينسى شيئا هاما،وهو أن عمليات التنشئة الإجتماعية نفسها تعكس درجاوت متفاوتة من الضبط الاجتماعى ، وأن بناء الجماعة ووظيفتها يتضمن بالضرورة طريق الوصول إلى أهدافها وأسلوب الدفاع عنها ووسائل تذليل الصعوبات التى تقف فى وجهها ،وهى كلها من غير شك أساليب فى الضبط الإجتماعى .

وحقيقة الأمر أن فاعلية الضبط الاجتماعي تتوقف على مزج دعاوى الإتجاهين معا ، ويتأيد هذا بوضوح فى المجتمعات الحديثة التى تجعل من القانون الأداة الكبرى فى الضبط الاجتماعى ، ذلك أن ما يلحق قواعد القانون أو نصوصه من تعديلات إنما يتم لمواجهة التغيرات التى تحدث فى الجماعات المختلفة المكونة للمجتمع . والمشرع الحديث يضع فى اعتباره دائما ضرورة استقراء الظروف الإجتماعية والإقتصادية والسياسية ليكون لتشريعه فاعلية . ومن الأدلة على ذلك أن كثيرا من التشريعات ولدت ميتة لأنها جاءت غير معبرة عن طبيعة الأحوال الاجتماعية وغير متمشية مع حقيقة الظروف التى وضعت من أجلها .

المتضمنات الاجتماعية للضبط الاجتماعي :

من المناسب هنا كما يقول أجبرن ونيمكوف ان نشير إلى بعض النتائج التى تترتب على الضبط الاجتماعي، لأنها تلقى مزيدا من الضوء على علاقة الجماعة بالفرد من وجهة نظر أدوات الضبط الاجتماعى .

١ - يحظى المنحرفون باهتمام الجماعة اكثر مما يحظى الممتثلون . ذلك ان الجماعة تنشغل بمن يعتدى على المعايير او يتنكب الطريق السليم اكثر من انشغالها بالأشخاص العاديين، والأمثلة على ذلك عديدة فالطفل المشاغب يأخذ من وقت العائلة واهتمامها اكثر من الطفل الممتثل ، وكذلك بالنسبة للطالب الذى يحاول الخروج على نظام الجامعة ومن يتتبع مناقشة مجالس الكليات والجامعات يجد أن جزءا كبيرا من نشاط هذه المجالس يخصص لمعالجة مشاكل الطلاب المتخلفين او المشكلين

٢ـ يندر ان يرتفع الفرد فوق مستوى جماعته ، ومعنى ذلك ان الجماعة تضع الحـــدود وترسم الإطار الذى يحدد مدى اختلافات السلوك عند اعضائها، ولهذا يكون السلوك موافقا عليـه إذا تم فى اى ناحيـة من نواحى هـــذا الإطـار . اما إذا خـرج عليـــه فان اعضاء الجماعـــة يحاولون رده وقد عبرنا عن هـــذه النقطة من قبل بقولنـــا إن الجماعة الانسانية محافظة بطبعها ، ومع ذلك فان درجـة التغير فى السلوك لا تتـأثر بالاختلافات فى معايير الجماعة فحسب، بل تتأثر بالدرجة التى يطابق الفرد نفسه إليها مع الجماعة ، كما ان درجة التغير هذه تتوقف ايضا على مبلغ القهر الذى تمارسة الجماعة فى سبيل إمتثال اعضائها لها . وفى المجتمع الحديث قد ينتقل الفرد من لجماعة إلى اخرى سعيا وراء إطارات اوسع للسلوك إذا تبين ان جماعته المفضلة قد ضاقت به .

٣ ـ الجماعة احد الوسائل الفعالة لتغيير سلوك الفـــرد ،ومعنى ذلك ان الأفزاد الذين يظهرون حساسية شديدة لأساليب الجمـاعة في الضبط الاجتماعى يكونون اكثر إستجابة للتغير إذا تم عن طريق هـــذه الجماعة .

٤ ـ الجماعة ككل اكثر حثا على النظام واشد فاعلية فى الوصول إليه من قائد او زعيم محلى ، ويرجع ذلك إلى إن الجماعة اكثر قدرة على فرض الضبط على سلوك اعضائها من فرد يناط به سلطة ويوكل إليه هذا الضبط ،وجرياوراء تطبيق هذه الفكرة عمليا تعمل المدارس على المحافظة

على النظام،عن طريق إعطاء بعض وسائل الضبط لعدد من التلاميذ ليراقبوا سلوك زملائهم،وقد لوحظ ان التلاميذ يكونون اكثر استجابة لهذه القيادة الجماعية من زملائهم إذا قورنت باستجاباتهم للسلطة المركزية التى قد يمارسها ناظر المدرسة .

الفصل السابع

المجتمعات المحلية

إن اتساع نطاق المجتمع الحديث خلق ظروفا لم تخبرها المجتمعات القديمة أو البدائية ، كما أن إتساع نطاق العمران فى مختلف بلاد العالم غير من التنظيم الاجتماعى التقليدى الذى كان يقوم على وحدات صغيرة نسبيا . ومن الحقائق التى وصل إليها علم الاجتماع مؤخرا ، أنه كلما زاد المجتمع تعقداً ، كلما زاد اتساع التنظيم الإجتماعى وتعددت أقسامه وأنواعه ، كذلك ترتب على زيادة السكان وتقسيم العمل والتخصص والتغير المستمر فى طبيعة الإنتاج ، وجود اختلافات كثيرة بين القوة البشريه المكونة لكل مجتمع ، ويضاف إلى ذلك ان المجتمعات أصبحت تشغل مناطق جغرافية محددة ذات ظروف طبيعية متمايزة ، الأمر الذى أدى الى زيادة الضغط على مصادر الثروة الطبيعية ، وخلق ظروف ومواقف تعتبر جديدة على تجربة الإنسان الماضية .

إن علم الإجتماع عندما يدرس المجتمع دراسة واقعية ، يركز على التجمعات القائمة فعلا والتى من مجموعها يتكون هذا المجتمع . أو بمعنى آخر ، أن المجتمع عند كثير من علماء الاجتماع يعتبر فكرة او تصوراً ، أما ما هو موجود فى الواقع والذى يخضع للملاحظة العلمية ويمكن معه استخدام أدوات البحث المختلفة فهو الجماعات ومركبات الجماعات . ولهذا يهتم علم الإجتماع

الحديث بموضوع الجماعة ويجعله نقطة الارتكاز فى البحث والتحليل .

وهذه الجماعات كما انها تعيش واقعاً إجتماعيا محددا ، تمارس نشاطها فى منطقة جغرافية محددة تضيق أو تتسع حسب الظروف ، وعندما يتجمع عدد من الجماعات فى منطقة جغرافية معينة لتمارس أنواعا متشابهة من النشاط الإجتماعى والاقتصادى والسياسى، وتتميز اختلافا عن جماعات اخرى تعيش على منطقة جغرافية مختلفة،تبرز عندنا فكرة تنميط المجتمع إلى أنماط رئيسية تقوم على ما لدينا من معرفة بالاختلافات بين هذه الأنماط كل عن الاخر، فاذا ضيقنا دائرة التشابه ، وابرزنا دائرة الاختلاف يمكن أن تنحصر هذه الأنماط فى نمطين كبيرين يوجدان تقريبا فى كل مجتمع إنساني ، ويكاد علماء الاجتماع أن يجمعوا على ان هذين النمطين هما : الريف والحضر. وطالما انهما ينتميان إلى منطقة جغرافية واحدة ويخضعان لسلطة واحدة ايضا ويضمهما مجتمع واحد وثقافة واحدة،فقد اصطلح علماء الاجتماع على إطلاق اسم المجتمع المحلى على كل منهما ،وهكذا نتبين ان الباحثين فى المجتمع الإنسانى يلتقون حول نقطة هامة،وهى ضرورة وجود اساس إقليمى او جغرافى للمجتمع المحلى ، وقد يختلفون فى الخصائص التى تنسب إلى هذا المجتمع المحلى ، ولكنهم فى نهاية الأمر يسلمون بأن المجتمعات المحلية حقيقة واقعية ادق تصوراً واكثر تحديداً من المجتمع ذاته .

ومن أجل هذا وجدنا من المناسب أن نعرض فى بداية هذا الموضوع لمجموعة من التعريفات التى تناولت المجتمع المحلى وخصائصه لنتبين موقف علم الاجتماع اليوم من هذا الموضوع الذى يحمل طابع الأهمية فى دراساته المتعددة .

١ - يقول أجبرن ونيمكوف (١) Ogburn & Nimkoff إن هناك أنواعا كثيرة من المجتمعات المحلية يمكن أن نختار من بينها للعرض والدراسة . فهناك مثلا المجتمعات المحلية الريفية والمدن المزدحمة،وهناك القرى والمدن الصغيرة . ولا تختلف هذه المجتمعات فى الحجم فقط بل أنها تختلف أيضا فى خصائصها العامة . ذلك أننا نلاحظ أن بعض هذه المجتمعات المحلية ذات طابع صناعى تقوم حول المصانع.كما أن بعضها يحمل الطابع الزراعى ويقع وسط الأرض الخصيبة التى تروى بانتظام . ويقولان إننا لن نستطيع أن نتعرض بطريقة واضحة لتغير المجتمعات المحلية أو لأنواعها المتعددة مالم نعرف مقدما «ما المجتمع المحلى ؟» ولهذا يعرفان المجتمع المحلى بأنه جماعة أو مجموعة من الجماعات التى تعيش على إقليم معين ، ويعتبران أن رابط الأقامة فى منطقة محددة أحد الخصائص التى تميز المجتمع المحلى عن غيره من المجتمعات . ولكن الإقامة فى منطقة واحدة وإرتباط الناس برابط الإقامة الواحد لا يجعل منهم فى الواقع مجتمعا محليا، فقد يعيش الناس فى منطقة واحدة وعن قرب أيضا دون أن تنشأ بينهم صلات إجتماعية يمكن أن ترقى إلى مرتبة العلاقة الإجتماعية المنظمة التى تشمل كل نواحى النشاط الإنسانى ، ولهذا يضيف أجبرن ونيمكوف إلى شرط الإقامة شرطا آخر،وهو التنظيم الكلى للحياة الإجتماعية فى المنطقة التى يوجد عليها المجتمع المحلى ، وعلى هذا الأساس تكون جمعية البحوث الإجتماعية جماعة وتكون قرية القيطون مجتمعا محليا

ويرجع أصل كلمة « المجتمع المحلى » إلى الوقت الذى كانت فيه المناطق

1- Ogburn & Nimkoff: A Handbook of Sociology, London, 1960 P. 965

المسكونة صغيرة،تتكون من عدد قليل جدا من الأسر.ولذلك كانت جماعة الأسر التى تعيش فى مكان معين هى التى تكون المجتمع المحلى هناك .وقد ظل هذا اللفظ يطبق على مثل هذه الأماكن عندما تزداد إتساعا أو تزداد حجما من الناحية السكانية مثل المدن الصغرى والمدن الكبرى التى تحتوى كل منها على جماعات مختلفة قد لا تربطها روابط القرابة أو الدم . ويلاحظ أن إصطلاح المجتمع المحلى قد يطبق على مناطق متسعة جدا ،فيقال مثلا المجتمع الدولى أو المجتمع العالمى .

٢ — ويرى أرنولد جرين (١) Arnold green أن المجتمع المحلى،تجمع من الناس يعيشون فى منطقة صغيرة دائمة ،ويتقاسمون طريقة مشتركة فى الحياة، ولذلك فان المجتمع المحلى يعتبر جماعة إقليمية محلية. وفى المجتمعات البدائية يكون المجتمع المحلى والمجتمع شيئا واحدا ، اما فى المجتمعات المتحضرة فان المجتمع يتكون من مجتمعات محلية منفصلة تتقاسم كل منها بطريقة او بغيرها حياة إجتماعية مشتركة ، وفى نفس الوقت تكون هذه المجتمعات المحلية شبه مستقلة يمكن ان تتميز الواحدة عن الأخرى فى الزى او الخلق او العادات او القواعد الإجتماعية .

ويختلف جرين قليلا عن اجبرن ونيمكوف،لأنه يعتقد انه فى المجتمع الحديث لا تكون الجماعات الاقليمية المحلية سرة التنظيم الإجتماعى الكلى لأن التنظيم السياسى فى المجتمع الكبير لا يفرق بين القرية وبين المدينة،ومعنى ذلك أن التنظيم الاجتماعى الكلى فى المجتمع الحديث ينفذ إلى كل اجزائه المحلية ويفرض نوعا من التشابه فى هذا المجال ويدلل جرين على رايه هذا بقوله ان جزءا من مدينة كبيرة « كمنطقة البلد او الرمل فى الاسكندرية » لا تكون مجتمعا محليا، على الرغم من انها تجمع من ناس يشغلون منطقة جغرافية محددة ، كما ان ظروف المدينة

الحديثة تجعل الناس يسكنون فى مكان ويعملون فى مكان آخر ويتبضعون فى مكان ثالث . ولهذا تكون الحركة الإجتماعية فى المدينة الكبيرة من شأنها أن تقلل من إنطباق إصطلاح المجتمع المحلى على مثل هذا النوع من التجمعات الإنسانية .

وواضح أن جرين يحاول أن يبين أن إصطلاح المجتمع المحلى لا ينطبق إلا على المجتمعات المعزولة نسبيا ذات الطابع الإجتماعى والثقافى المحدد ، أما تطبيقه على المدينة، والمدينة الكبرى بالذات فانه يحمل بين طياته عدم إدراك لخصائص الحضرية والتنقل الإجتماعى وحركة السكان الدائمة بين اقسام المدينة الواحدة. ولكن جرين ينسى أن من يطبقون إصطلاح المجتمع المحلى على المدينة أيا كان حجمها لا يقسمونها إلى مجتمعات محلية فرعية ، وإنما ينظرون إليها ككل . ومن غير شك أن خضوع المدينة لإدارة واحدة ولتنظيم إقتصادى وسياسى واحد أيضا واشتراك سكانها فى عدد كبير من الصفات المشتركة ، يجعل سكان المدينة يعيشون حياة إجتماعية كلية ويخضعون لتنظيم إجتماعى متكامل يواجه كل أنواع نشاطهم .

٣ — من الدراسات المبكرة فى علم الإجتماع عن المجتمع المحلى تلك الدراسة التى كتبها روبرت ما كيفر Robert MacIver عام ١٩١٧ . وقد لخص هذه الدراسة مع تعديلات متعددة فى كتابه عن «المجتمع» الذى كتبه بالإشتراك مع تشارلس بيج Charles Page ،وفيه يعرفان المجتمع المحلى بقولهما : إننا نطلق كلمة المجتمع المحلى على أعضاء أى جماعة صغيرة أو كبيرة يعيشون معا بطريقة يترتب عليها أن يشاركوا فى الظروف الأساسية للحياة المشتركة، ولا يشتركون بالذات فى مصلحة دون غيرها . وعلامة المجتمع

المحلى أن الفرد يستطيع أن يقضى حياته كلها داخله. فالفرد لا يستطيع أن يقضى حياته فى أحد المنظمات أو المؤسسات، ولكنه يستطيع أن يعيش هذه الحياة داخل قبيلة أو قرية أو مدينة. وإذن فالمقياس الأساسى فى المجتمع المحلى هو أن نجد كل علاقات الفرد الإجتماعية موجودة فيه. ويرى ما كيفر أن المجتمع المحلى يقوم على أساسين هامين هما، الإقليم الذى يشغله والشعور المشترك الذى يربط أعضاء هذا المجتمع المحلى معا، ويعطيهم طابعا خاصا ويؤدى فى نفس الوقت إلى تماسكهم الإجتماعى.

٤ — ويتناول هنط Hunt (١) المجتمع المحلى بقوله، إنه يتكون من الناس الذين يعيشون فى منطقة محليـــة، والذين تكون لهم نتيجة للمعيشة المشتركة مصالح معينة ومشا كل مشتركة. ونظرا لقرب أعضاء المجتمع المحلى أحدهم من الآخر، فانهم يتعاونون وينتظمون ويتعين عليهم نتيجة لذلك أن يبحثوا عن طرق توفير الخدمات والسلع من جميع الأنواع وإقامة كل التنظيمات الأخرى التى يتميز بها المجتمع ككل، ويقول هنط أيضا ان المجتمعات المحلية تختلف فيما بينها من حيث الطابع والحجم، فالمجتمعات الريفية او القروية المحلية يبدو عليها الوحدة والتجانس اكثر من المجتمعات الحضرية الكبيرة التى تتميز بالعلاقات غير المباشرة بين اعضائها. ويجب ان نميز هنا، طالما اننا جعلنا القرب المكانى شرطا فى وجود المجتمع المحلى، بينه وبين الجوار، ذلك لأن الجوار أصغر واقل تنظيما من الناحية الرسمية.

٥ — اما لندبرج (٢) Lundberg فيقول إن تأثير الجغرافيا على حياة

---

1 - MacIver & Page; Society; London, 1953, pp 8 11

2 Hunt, Social Science N.Y 1955, pp 198 — 200

الانسان مشروط دائما ومعقد فى نفس الوقت عن طريق العوامل الثقافية .
ولهذا فان المجتمع المحلى الإنساني ليس مجرد تجمع من بنى الانسانى يعيشون معا تحت ظروف فرضها المناخ ومصادر الثروة الطبيعية ، وكل النواحى الفيزيائية للاقليم المحلى . فالمجتمع المحلى له تقاليد وعادات وعرف ينظم العلاقات بين الانسان وبين الطبيعة ، كما تنظمها فى نفس الوقت بين الانسان والانسان . إذن، المجتمع المحلى ظاهرة ثقافية تحل بمكان معين أو هو بصورة أكثر تحديدا ، السكان الذين يعيشون داخل منطقة جغرافية محددة ويعيشون حياة مستقلة مشتركة ، وليس معنى معيشة الإنسان فى منطقة جغرافية انه يصبح خاضعا لها ، بل إن الإنسان فى واقع الأمر قد استطاع خلال تاريخه الطويل وعن طريق التكنولوجيا التى يطورها باستمرار، أن يروض الطبيعة وأن يخضع البيئة الجغرافية لمشيئته . ولذلك فان العلاقة بين الإنسان وبيئته الطبيعية ليست علاقة سلبية من جانب الانسان ، وإيجابية من جانب البيئة ، بل إن العكس هو الصحيح ، ويزداد الأمر وضوحا كلما تقدم علم الإنسان وزادت خبراته وتجاربه .

من هذا نرى أن كل التعريفات السابقة تجمع على أمرين يعدان من الخصائص الرئيسية للمجتمع المحلى ، وهما المعيشة الاجتماعية الكلية والإقليم المحدد الدائم ، وليس معنى هذا أن حركة الإنسان فى المجتمع مقيدة بالمجتمع المحلى ، فالتنقل الإجتماعى والهجرة الداخلية ، وخاصة فى المجتمعات التى تتميز بالتسلسل الطبقى المفتوح، تجعل الحدود الفاصلة بين المجتمعات المحلية داخلها مرنة إلى حد كبير . ومن الحقائق المعروفة أن الناس يغيرون مناطق إقامتهم ويغيرون مهنهم، فيغيرون بذلك فى مدى حياتهم ،المجتمعات المحلية التى ينتمون إليها ، ومن أجل هذا كان المجتمع المحلى القروى والمجتمع المحلى

الحضرى من أكثر المجتمعات المحلية وضوحا فى وقتنا الحاضر

اهميه البيئه الجغرافيه فى المجتمع المحلى :

يهتم عالم الاجتماع بالمجتمعات المحلية من وجهات نظر متعددة يمكن أن نلخصها فى جملة واحدة،وهى التنظيمات الاجتماعية التى تجعل الحياة الكلية ممكنة فى كل نوع من أنواعها . ولذلك يعالج الباحث كل الموضوعات التى ترد دائما فى مؤلفات علم الاجتماع عند محاولته التعرف على المجتمع المحلى كالثقافة والشخصية والضبط الاجتماعى والأسرة والنظام الاقتصادى والتغير الاجتماعى . ولما كانت المجتمعات المحلية كما وضح من العرض السابق مشروطة من حيث التعرف عليها بوجود إقليم محدد تعيش عليه ، فان التعرف على ما فى هذا الإقليم من ثروات طبيعية أمر شديد الأهمية لفهم المجتمع المحلى ، فنحن لغرض استكمال الدراسة نبحث عن مكونات البيئة الطبيعية من تربة ونبات ،وحيوان ومعادن ، ومصادر المياه إلى جانب المناخ الذى يعطينا درجات الحرارة المختلفة التى يتعرض لها المجتمع المحلى فى أوقات السنة. ويسمى هذا الاهتمام بالبيئة الطبيعية والمناخ فى علم الاجتماع «المدخل الإيكولوجى» لدراسة المجتمع الإنسانى ،والإيكولوجيا كما هو معلوم فرع من البيولوجيا تعنى فى المحل الأول بمعرفة مواطن الحيوانات والنباتات . وقد استفاد منها عدد من الباحثين فى علوم مختلفة لمعرفة الطرق التى تسير عليها بعض هذه الكائنات فى بناء مأواها وفى تنظيمها الاجتماعى . وعندما طبق هذا الإتجاه على الإنسان سمى «الايكولوجيا الانسانية» ،على الرغم من أننا نعلم أن تأثير البيئة الطبيعية محدود جداً،ولا يمكن أن نعول عليه فى تفسير مقنع لنشاط الإنسان فى المجتمع . ومع ذلك فاننا نحتاج فى بعض الأحيان لمعرفة أثر البيئة الطبيعية فى تحديد العمران الإنسانى . أو فى تحديد مصادر غذائه ، أو فى طابع العمل .

المجتمع المحلى الحضرى والقروى :

الحياة فى العصر الحديث تتركز الان تدريجيا فى المدن ، ويظهر هـــذا التركز فى الدول الكبرى . وتدل الاحصاءات على تزايد عدد السكان الذين يقيمون فى المنـــاطق الحضرية ، كما أن الظاهرة الواضحـة الان، أن المناطق التى لا تزال تعتبر (ريفا) أخذت تتأثر بخصائص المدينة ، وروبرت ردفيلد فى هذه الناحية على حق عندما قال بأن «القروية» ظاهرة فى سبيلها إلى الزوال، ودعا الى ان الحاجة ماسة الى دراسة المناطق الريفية فى بعض الدول قبل ان تنطمس معالم الحياة المميزة لها بزيادة الخصائص الحضرية. وقد ساعد على ذلك فى هذه الدول الأخذ بنظام الزراعة الالية، مما ادى الى تنـاقص الايدى العاملة فى الزراعة باستمرار وهجرتها الى المدن والمناطق الصناعية . وهـذا الى جانب ان المدن فى عصرنا الحالى اخذت تتمتع بخاصية جذب قوية لم تكن لها من قبـل ، الامر الذى يزيد من اتساع نطاق العمران الحضرى وتناقص العمران الريفى

والدول النامية الان والتى لاتزال تحمل فى أساسها الطابع الريفى اخذت فى السنوات الاخيرة تخطو نحو « الحضرية » بسرعة وتزداد مدنهـا زيادة مذهلة فى بعض الاحيان نتيجـة لتركز الحركة الاقتصـــادية فى مناطقها الحضرية واخذها بسياسة التصنيع . وقد دلت نتائج التعـداد الاولية الذى أجرى فى الجمهورية العربية المتحـدة فى عام ١٩٦٠، على ان ما يقرب من عشرة ملايين نسمة يعيشون فى مدن وهـذا معناه زيادة عـدد السكان النسبية التى تقيم فى المدن بالمقارنة بتعداد عام ١٩٤٧، وينتظر أن تزداد هذه النسبة زيادة مطردة فى السنين القادمة . من اجل هذا تصبح دراسة الحياة الحضرية حاجة ملحة لمواجهة المشاكل التى يمكن أن تترتب على اتساع المـدن من حيث

الإسكان والمواصلات والخدمات العامة والصحة والوقاية من الجريمة والإنحراف وغير ذلك من المشاكل التى تحمل طابع المدينة .

والحضرية كطريقة فى الحياة ليست مقصورة على المدن، على الرغم من أنها تنبثق من المراكز المتروبوليتية الكبرى. ولما كانت الحضرية كما سنعرضها هنا هى طريقة فى السلوك ، فمعنى هذا أن الفرد يمكن أن يكون حضريا خالصا فى تفكيره وسلوكه، على الرغم من أنه قد يكون مقيما فى قرية ، ومن ناحية أخرى قد يعيش إنسان بعيداً كل البعد عن التحضر فى أكثر أجزاء المدينة تحضرا .

خصائص الحضرية :

حددت الحضرية داخل إطار المدينة ، كما أنها قد تحدد بطريقة أكثر دقة فى بعض اجزاء المدينة دون غيرها . والانسان الحضرى لا يقلقه كثرة الناس الذين يتصل بهم ولا ذهابهم عنه ، على الرغم من انه يعمل باستمرار على إكتساب معارف جدد ، ومعنى هذا أن الفرد الذى يعيش فى مدينة لا يستطيع أن يعرف كل الناس ، ولا تتيسر له الفرص للاتصال بهم ، ومن أجل هذا يصف علماء الاجتماع الحضرى جماعات المدينة بصفة عامة ، أنها جماعات غير مباشرة ، بمعنى ان العلاقات التى تقوم بين سكان المجتمع الحضرى ليست من النوع المباشر الذى يظهر فى الجماعات الأولية مثل العائلة، ومن الملاحظات القيمة التى لوحظت عند دراسة عينات مختلفة فى مدن كثيرة فى أنحاء العالم ، أن العلاقات التى تتصف بالقرب بين الأشخاص إذا دخلوا فى معاملات من اى نوع، تكون ذات طابع سطحى فى أغلب الأحوال ، كما أن الإنسان الحضرى لا يزعجه أن يسير بين الناس فى الشارع أو أن يجلس معهم فى أى مكان عام دون أن يعرفهم ، لأنه فى الواقع لا يهتم بهم .

وقد حاول كثير من الكتاب أن يناقشوا عبارة « لويس ورث » [1] والتي تصف سكان المدينة من خلال خصائصها المميزة « العلاقات العابرة والسطحية والفردية المجهولة » ومثال ذلك ما حاولته « مونا صدقي » التي كانت عميدة للمعهد العالي للخدمة الإجتماعية بالاسكندرية في مقال لها نشر عن الجماعات في مدينة الاسكندرية في « مجلة البحث الإجتماعي مجلد ٢٢ رقم ٤ سنة ١٩٥٥ » لتحديد طابع الحضرية في المدينة، فادعت أن سكان الاسكندرية لازالوا يعيشون حياتهم العائلية في أسر كبيرة كما هو الحال في الريف، وأنهم لا زالوا يسيرون على التقاليد القديمة. ثم زعمت أنها من خلال بحثها في مدينة الإسكندرية لم تعثر على دليل يؤكد ظهور الفردية التي تميز سكان المدن في أغلب بلاد العالم. وقد حاول « نلز أندرسون » أن يؤيد رأي « مونا صدقي » فزعم أيضا أن الاسكندرية أكثر عزلة من القاهرة، ولهذا فهي أقل منها حضرية، ودلل على ذلك بأن الاسكندرية ينقصها لتبلغ مرتبة الحضرية الكاملة، أن تشتد فيها حركة الدخول والخروج منها . وغني عن البيان أن مزاعم « مونا صدقي » التي وردت في مقالها تنم عن تسرع في الحكم وعدم دقة في البحث ، ولست أدري كيف درست الجماعات في الاسكندرية ومن أين إختارت عيناتها، لأنها لو كانت قد تحرت الدقة العلمية لوجدت أن الاسكندرية تنقسم إلى قسمين كبيرين من حيث البناء الإجتماعي والطابع العام للحياة ، احدهما لا يمكن أن يلتبس الأمر فيه على الباحث، فيدعى أن الأسرة التي يعيشها الناس هناك كبيرة تماثل الأسرة الريفية ، بل أن القسم الآخر الأقل حضرية في الاسكندرية لا يمكن أيضا أن تنطبق عليه المزاعم.

---

١ - راجع كتاب Anderson Urban Community

و « نلز أندرسون » عندما ساير « مونا صدق » مؤيدا مزاعمها ومرتبا نتائج مقارنة عليها بالنسبة لبغداد وطهران قد جانبه الصواب أيضا .

ولكن الحضرية ليست مجرد طريقة فى التفكير أو السلوك . فالانسان الحضرى أينما كان ، يتوافق باستمرار مع الجديد والتغير ، ولهذا فهو لا يتصف بالتنقل الإجتماعى فحسب، بل أنه أيضا لا يقف موقفا جامدا إزاء التقاليد التى تسد طريق حريته فى الحركة فى نطاق المجتمع الحضرى . ومن ناحية أخرى قد يظل على ولاء لعائلته المباشرة ، ولكنه يميل فى نفس الوقت إلى أن يفقد علاقاته أو صلاته بأقاربه الآخرين. ويضيف بعض الباحثين فى المجتمع الحضرى خاصية أخرى للحضرية ، وهى أنها تبعث بتأثيرات موحدة لمختلف المناطق التى تحيط بها، بحيث يمكن لمن تؤثر فيه أن يعلم بطريقة أو بغيرها الصفات التى يجب ان تتوافر فيه ليصبح إنسانا حضريا .

ولنفهم الحضرية كطريقة فى الحياة فى العصر الذى نعيشه والذى يتميز بالتغير السريع سواء من حيث الحركة السكانية او من حيث التغير فى النظم الإجتماعية والإقتصادية او التغير فى القيم والعادات والتقاليد والنظرة إلى الحياة، يجب ان نشير فى إيجاز إلى النقاط الآتية :

١ - أن الحضرية مسألة درجة، ومعنى ذلك اننا نتوقع من دراساتنا للمدن فى جميع انحاء العالم او فى المجتمع الواحد، ان تكون خصائص الحضرية واضحة فى كل منها وضوحا تاما . فكقاعدة يمكن القول انه كلما زادت المدينة سكانا وكلما اتسعت الخدمات فيها بحيث تصبح مركز جذب لمناطق واسعة حولها، كلما زادت الحضرية فيها وضوحا . والعكس كلما كانت المدينة معتمدة على غيرها من المدن الأكبر . ومثال ذلك اننا نستطيع ان نرتب مدن

الجمهورية العربية المتحدة من حيث وضوح الخصائص الحضرية تنازليـــا كالآتى . القاهرة - الاسكندرية - بور سعيد - السويس - الاسماعيليـة - طنطا - المنصورة - الزقازيق - اسيوط ثم عواصم المحـافظات الأخـــرى فالبنادر « عواصم المراكز »

٢ - التأثر بالحياة الحضرية عند المقيمين الجدد فى المدينة لا يبلغ مداه إلا بعد المرور على مراحل متعددة،والدخول فى علاقات مختلفة مع سكان المدينة وأجهزتها المتعددة. ويمكن القول أن الجيل الذى يهاجر إلى المدينـة بنفسه قد يظل محتفظا بالرواسب الريفية إلى حد ما،وتقل هذه الرواسب فى الأجيال الأخرى حتى تختفى فى الجيل الثالث وما بعده .

٣ - الحضرية مسألة عدد بمعنى أننا لا نطلق على مكان يـكثر فيه السكان إسم حضر ، ومكان آخر يقل فيه السكان إسم ريف ، لأن الأمر فى كلتـا الحالتين يتوقف على نوع العلاقات التى تقوم بين النـاس ونوع العمـل الذى يقومون به ، والتخصص وتقسيم العمل ومدى اتساع نطاقه ، ومن أجل هذا قد نجد مكانا يزيد سكانه على عشرين الف نسمة ونصنفه علميا على أنه قرية ، ومكانا آخر يقل سكانه على عشرة آلاف نسمة ونصنفه على أنه مدينة.ولهذا لا يمكن فى هذا الصدد أن نأخذ بالتعاريف الأمريكية للحضر والريف،لأنها تستمد غالبا من طبيعة الأوضاع فى المجتمع الأمريكى .

٤ - يلاحظ فى أغلب دول العالم الآن،أن توجيه السياسة الاجتماعيـــة وتوجيه التنمية الإقتصادية والاجتماعية أيضا يميل إلى النهوض بالمجتمعـــات المحلية الريفية إلى المستوى الحضرى ، وذلك بادخال بعض معدات الحياة فى المدينة إلى المناطق الريفية. كرصف الطرق ومد القرى بالمياه الجارية وبالنور

الكهربائى وإعادة تخطيط المساكن وإدخال الراديو والتليفزيون . كما ان السكان أنفسهم يميلون إلى تقليد سكان المدينة فى ملابسهم وفى طريقتهم فى الحياة وفى نظرتهم إليها .

٥ - الحضرية مختلفة عن التصنيع، إذ لا يلزم أن تكون المناطق الحضرية متأثرة بطريقة مباشرة بالصناعة، وربما كان الفصل بين الحضرية والتصنيع يصدق على المدن القديمة أكثر مما يصدق على المدن الحديثة، لأن انتشار الصناعة الآن فى أغلب المجتمعات يميل إلى خلق مراكز صناعية مستقلة تصبح مدنا بعد حين، أو إلى توطين الصناعة فى مدن بعينها ، ولهذا تختلط الحياة الحضرية الخالصة بالحياة الاجتماعية المتأثرة بالتصنيع ويصعب التميز بينهما . ولهذا فان المحاولات التى تبذل حتى الآن للتميز بينهما غير مرضية تماما من الناحية العلمية .

٦ - المعيشة فى الحضر والمسئولية : فى المجتمع الريفى تكون مسئولية الفرد مسئولية جمعية فى أغلب الأحيان سواء فى الميادين الإجتماعية أو الإقتصادية ، وهذا راجع إلى طبيعة البناء الاجتماعى القروى . أما فى المدينة فان المسئولية الفردية تصبح أكثر وضوحا، لأن الفرد يتحمل مباشرة نتيجة أخطائه ، ويجنى وحده ثمرات نجاحه ، فالمدينة لا تحمى الكسول المتراخى وتشجع دائما العمل الخلاق وتتيح الفرصة أمام العاملين أن يتنقلوا تنقلا إجتماعيا بين طبقاتها المختلفة .

٧ - المدينة تخصص العمل والمكان : ومعنى ذلك أن المدينة تحدد الأعمال التى يمكن أن يقوم بها الأفراد على اختلاف استعداداتهم تحديدا دقيقا إلى حد ما، بحيث أن الفرد قد يعرف فى بعض الأحيان عن طريق العمل الذى يمارسه .

ولهذا يكون التقسيم المهني في المدينة أمرا شديد الصلة بالتقسيم الطبقي الذي يقوم على أساس من المركزين الإجتماعي والإقتصادي والشعور الطبقي ، ومن ناحية أخرى قد نجد بعض المدن متخصصة بأجمعها إلى حد ما في نوع واحد من الأعمال وما يتصل به من عمليات مساعدة . أما من حيث المكان، فان من يدرس أيكولوجية المدينة يلاحظ بسهولة انقسامها إلى مناطق متميزة من حيث سيادة مهن معينة أو خدمات في مناطق بعينها ، وهـذا ينطبق أيضا على المناطق السكنية .

٨ ـ الحضرية تشجع الفردية : يتفق الباحثون في نقطة هامة، وهي أن الفرد يتمتع بحرية أكبر في الحياة الحضرية أكثر من الحياة الريفية ، وهذا مرجعه أن مجال الاختيار في ظل الحضرية أوسع منه في ظل الريفية ، ومثال ذلك أن الفرد في المدينة ينتمي في نفس الوقت إلى جماعات قد تكون مختلفة الأهداف بينما لا يتيسر له ذلك في المجتمع الريفي ، كما أنه يستطيع أن يغير مكان إقامته من منطقة إلى أخرى، وبالتالي يغير مجال علاقاته ويعدل فيها كيف شاء، بينما لا يجد الرجل الريفي مثل هذة الفرص ، ويظل طوال حياته يدور خلال الإطار الضيق الذي يتحدد مقدما بعائلته أولا وبمجتمع قريته ثانيا .

٩ ـ التكيف السريع للتغير شرط أساسي للمعيشة الحضرية الناجحة . ذلك أن عوامل التغير الاجتماعي تبدو شديدة الوضوح في المجتمع الحضري أكثر منها في أي نوع آخر من المجتمعات ، كما أن آثارها تظهر بسرعة وتفرض على سكان المدينة أن يتوافقوا معها ، وعلى الأقل من الناحية النفسية ، ولذلك فان المترددين أو الجامدين سرعان ما يتخلفون وليس أمامهم إلا أحد أمرين، إما الإنزواء أو المرض النفسي .

١٠ ـ دينامية الحياة الحضرية : من الواضح أن المجتمع الريفى يحافظ على قيمه وتقاليده ويقاوم بقدر الإمكان كل تغير فيها ، ولهذا لا تظهر الطبقات فيه ظهورا واضحا كما هو الحال فى المدينة ، ولكن طبقات المدينة طبقات مفتوحة، بمعنى أن الدخول والخروج منها غير محدد باجراءات أو متأثر بنتائج معينة ، ولهذ فان الحياة الحضرية تتميز بالتنقل الاجتماعى الواضح ، الأمر الذى يجعل علاقات الناس فيه تتميز بالمرونة وبالقابلية للتغير والتكيف للمواقف المختلفة التى قد تكون نتيجة لتغير المراكز والأدوار التى يقوم بها كل منهم .

من هذا نتبين أن دراسة الحياة الحضرية أو الحضرية كطريقة للحياة إنما تعتمد فى المحل الأول على المقارنة بحياة أخرى وبطريقة أخرى فى الحياة هى الحياة الريفية والطريقة الريفية فى الحياة . ومن أجل هذا فان علم الاجتماع الحضرى يكون شديد الصلة بعلم الاجتماع الريفى من هذه الزاوية ويظهر هذا فى كل المؤلفات التى تعالج المجتمع الحضرى .

الدراسة العلمية للمجتمع الحضرى:

يعالج علم الإجتماع الحضرى وطأة حياة المدينة على الأفعال الاجتماعية، والعلاقات الاجتماعية والنظم الاجتماعية إلى جانب أنماط المدنيات التى تمخضت عنه وبنيت على الصور الحضرية للحياة ، ولسوف نرى فيما بعد أنه بدون هذه الوطأة كان من المحتمل أن يظل العالم فى المستوى البدائي . ومن هذه الزاوية يكون علم الاجتماع الحضرى عبارة عن دراسة خاصة لتأثير البيئة على الإنسان ويجب أن نوضح منذ البداية أنه فى معالجتنا لأثر البيئة لا نتحيز للحتمية الاجتماعية أو النزعة البيئوية التى تزعم أن الظواهر

الاجتماعية نتاج لقوى ليس للانسان سيطرة عليها . ومرد ذلك يرجع إلى اعتقادنا بأن الاختلافات والتمايزات الكثيرة بين أنواع الحياة الحضرية فى الزمان والمكان دليل قاطع على أن أنماط المدن تعتمد على حتميات متعددة . فالإنسان لا يصنع نفسه فحسب بل أنه أيضا يصنع المدن (١) .

ومن ناحية أخرى ليس هناك دليل على أن الطبيعة الإنسانية قد تغيرت، كما أن القول بأن إنسانا جديدا قد ظهر عندما أنشئت المدن قول يفتقر إلى الدليل العلمى . فالإنسان زود بمجموعة معينة من السمات ولا توجد بيئة تستطيع أن تضيف إلى الإنسان خصائص اخرى . او تستطيع ان تمهد لاختفاء سمات موجودة فعلا .

ولكن السمات الإنسانية على الرغم من انها تبقى كما هى، إلا انها تظهر قدرا كبيرا من التوافق والتكيف لمواقف مختلفة . وهذا هو الذى يجعل السمات تبدو مختلفة حين يظهر جزء منها على السطح . وكل ما تستطيع البيئة ان تفعله ان تنمى بعض السمات الموجودة فعلا إلى الدرجة التى تظهر فيها كل إمكانياتها، بينما تبقى بعض السمات الأخرى فى حالة كمون . والبيئة من ناحية أخرى تحكم الافعال الإنسانية تحت ظروف معينة، بطريقة تهيىء فيها أسهل انواع الاشباع الذى يكون مستحيلا او شديد الصعوبة فى أحوال اخرى .

من هذا نتبين أن المدينة مثل أى بيئة أخرى تعتبر عاملا شارطا أكثر

١- راجع كتاب Bergel, Urban Sociology

من كونها عاملا محتما، فالمكان يبدو أثره الواضح فى مناطق كثيرة ليس منها بينها الحياة الإنسانية ، وقبل ان يهتم علماء الاجتماع بموضوع « الايكولوجيا » كان علماء النبات يهتمون بدراسة أثر البيئة الطبيعية على حياة النباتات ، وقد استعار علماء الاجتماع الإصطلاح من علماء النبات ، واستخدمه لأول مرة « بارك » الذى كان أول من تحدث فى موضوع الايكولوجيا الإنسانية. ويجب هنا أن نحذر المقارنة المتطابقة بين الايكولوجيا الإنسانية وإيكولوجيا النبات ، ذلك لأن الاختلافات الأساسية بين الميدانين تغطى المتشابهات السطحية بينهما . فالإنسان يعيش على التربة . أما النبات فانه يعيش فى التربة ، وهذا وحده يجعل من المقارنة أمراً مستحيلا ، لأن الحركة والتنقل من أهم مظاهر الإنسان الملحوظة . فالنبات ليس اختيار له بالنسبة للبيئة. اما الانسان فانه لا يغير المكان يعيش فيه وفق مشيئته فحسب ، بل إنه يستطيع ان يغير ويعدل من المكان الذى يعيش فيه فعلا .

ولذلك نقول إن البيئة الانسانية عمل من أعمال الانسان، أو بمعنى آخر يكون مدخل الايكولوجيا النباتية للموضوع بيولوجيا ، أما مدخل الايكولوجيا الانسانية ، فهو بالضرورة سوسيولوجيا . وهناك اختلاف بين العلماء حول موضوع الايكولوجيا الانسانية ، « فهولى » مثلا يعتقد ان الايكولوجيا الانسانية كعلم ، تعالج موضوع نمو المجتمع المحلى وتنظيمه ، بينما يرى جيست وهالبرت، أنها دراسة التوزيع المكانى للأشخاص والنظم فى المدينة والعمليات المتضمنة فى تكوين أنماط التوزيع . ويكفى هنا أن نشير إلى اننا سنفهم الايكولوجيا على أنها نظرية العلاقات المتبادلة بين مكان الاقامة والانسان .

تعريف المدينة :

عندما نحاول تعريف المدينه فاننا نواجه صعوبة متعارف عليها بين علماء الاجتماع ، وليست هذه الصعوبات خاصة باصطلاح المدينة وحده لأن ،هناك عدداً قليلا جداً من المصطلحات السوسيولوجية تحظى باتفاق خبراء التعاريف. ومن الملاحظ أن الكثيرين يدركون ماذا نعنى بكلمة المدينة ، ولكن أحداً لم يقدم تعريفا مرضيا .

والمدينة من الناحية السوسيولوجية الفنية البحته عبارة عن «فكرة مجردة»، ولكن العناصر التى تتكون منها ، مثل الاقامة والبناءات الداخلية ، ووسائل المواصلات إلى الخ ... عبارة عن موجودات مشخصة لها طبـــائع مختلفة. ولذلك فان ما يجعل المدينة شيئا محدداً هو ذلك التكامل الوظيفى لعناصرهـا المختلفة على هيئة وحدة كلية . ومع ذلك لايكون للمدينة وظيفة واحدة ، بل أن البحث قد أثبت ان لها عدة وظائف ،وليس معنى هذا أن كل وظائف المدينة توجد فى كل المدن بلا استثناء .

ولنوضح فكرة اختـــلاف الوظائف فى المدينـــة ، نقـــول ، إن الوظائف الأساسية تختلف باختلاف الزمان والمكـــان . ومثال ذلك ان وظائف مدينة سنة ٥٠٠ تختلف عن وظائفها نفسها سنة ١٩٦٠ على الرغم من احتفاظها بالمكان الذى تقوم عليه وبنفس البناءات الداخلية التى كانت تحتوى عليها . ولذلك يكون من الصعب أن نجد العامل الذى يميز جميـــع المدن ويجعـــل منها تجمعا إنسانيا قائما بذاته خلال تاريخها الطويل الذى يمتـــد الى ستة آلاف عام . وربما كان من المناسب أن ننظر إلى تعـــريف المدينة من الناحية السلبية ، على الرغم من أنه يمثل جانبا ضعيفا فى الدراسة ، إلا أنه يمكن أن يقـــوم بديلا

ممتازا يمكن الاعتماد عليه ، ولتوضيح هـذا الموقف سنحـاول ان نلخص فى اختصار بعض المحـاولات التى بذلت للوصـــول إلى تعريف مرض فى هذا السبيل .

١ـ عرفت المدينة أحيانا فى ضوء اصطلاحات قانونية ، ذلك أن مكانا ما قد يطلق عليه اسم مدينة عن طريق إعلان او وثيقـة رسمـية تصدر عن سلطة عليا . ومع أن هذا التعريف واضح جدا إلا انه غير مرض ، لأن المكان لا يكون مدينة بمجرد الاعلان ،لأن هذا لا ينطبق على كثير من المدن الموجودة فى كثير من بلاد العالم التى نشأت وتطورت دون اعـلان رسمى او دون صدور وثيقة بذلك من الجهات المختصة .

وتعرف المدينة احيانا بطرق إحصائية، وذلك مثل ما هو متبع فى الولايات المتحدة الأمريكية، حين يعتبرون كل مــكان به ٢٥٠٠ نسمة فأكثر مدينة ، وربما كان هذا التحديد العددى ملائما للأغراض الإحصائية، إلا انه غير مفيد تماما من الناحية السوسيولوجية ، ومع ذلك فليس هناك اتفاق على هذا العدد فى كثير من بلاد العالم . فمصر مثلا تعتـبر ان اقل عدد ينبغى ان يكون موجودا فى المكان الذى يعتبر مدينة هو ١١ الف نسمة، ويترتب على ذلك أن التعريفات التى تبنى على اساس النظر إلى كـثافة السكان ينبغى ان تكون مرفوضة ، لأن كـثيرا من القرى ربما يكون لها نفس كـثافة المدن بل تزيد عنها فى كثير من الأحيان .

وقد حاول البعض ان يعرف المدينة على انها المكان الذى اصبح من الكبر بحيث لم يعد الناس يعرفون بعضهم بعضا، ولكننا لا نعتقد فى صحة هذا التعريف لأن كثيرا من المدن الصغيرة يعرف سكانها بعضهم بعضا .

نخلص من ذلك إلى أن التعريفات التي تحاول ان تضع مقياسا واحدا لتحديد المدينة أو لتعريفها لم تقابل بنجـــاح ، الأمر الذى دعى كل من «سوروكن وزمرمان ومونيه وسمبارت» إلى القول بأن التعريف الصحيح للمدينة لابد أن يأخذ فى الإعتبار تعدد العوامل وارتباطها . وليس معنى هذا أن اتجاههم فى التعريف مقبول دون مناقشة . ومثال ذلك أن مونيـه يعرف المدينة بأنها تجمع كامل أساسه الجغرافى محدد بحجم سكانه ، أو أن المكان الذى تشغله ضيق نسبيا إذا قورن بعدد السكان الذين يشغلونه . ويعود مونيه بهذا التعريف إلى التعريف الذى سبق رفضه، والذى يجعل من كثافة السكان عنصرا أساسيا فى تمييز المدينة عن غيرها من التجمعـات الإنسانية . وأساس الخطأ فى هذا التعريف أنه يعجز عن إبراز درجة الكثافة ،التي عندهـا يتحول المكان من محل للاقامة الريفية إلى محل للاقامة الحضرية ، ويعتبر سوروكن وزمرمان من أكثر من حاولوا تعريف المدينة وضوحا،لأنهم جمعوا ثمانيـــة خصائص يختلف بها العالم الحضرى عن العالم الريفى وهى :

١ ـ المهنة ٢ ـ البيئة ٣ ـ حجم المجتمع المحلى ٤ ـ كثافة السكان ٥ ـ تجانس أو لا تجانس السكان ٦ ـ التمايز والتشريح الإجتماعيان ٧ ـ التنقل والحركة ٨ ـ نسق التفاعل « عدد وأنماط الإتصالات ».

وربما كان التمايز والتشريح الإجتماعيان أبرز مايميز الطابع الحضرى، نظرا لما تتصف به المدينة من اختلافات شديدة من حيث المهـــن والمراكز الاجتماعية والإقتصادية ، الأمر الذى يجعلنـــا نقول إن المدينـة هى أى مـــكان يعمل أغلب سكانه فى مهن غير الزراعـة وما يتصل بهـــا من شئون .

وعندما ينظر كثير من العلماء الآن إلى الحضرية على أنها طريقة فى الحياة، تواجههم صعوبة تحديد ما يكون هذا النوع من المعيشة ، وفى هذا الصدد يحدد «ورث» عددا من الخصائص التى تميز المدينة مثل « اللاتجانس واعتماد السكان الكبير بعضهم على الآخر ، والطابع الجزئى للعلاقات الإجتماعية، والإتجاه إلى إستخدام العقل والتبرير المنطقى عند السكان » ولعل إعتماد السكان فى المدينة بعضهم على الآخر هو أهم طابع يميز المدينة الحديثة إلى جانب عدم إحساس السكان الشديد باعتمادهم على الطبيعة،والذى جعل علماء الإجتماع الحضرى يلتفتون إلى هذا الموضوع هو محاولتهم التفرقة بين طابع الحياة الريفية وطابع الحياة الحضرية باعتبارهما يمثلان نظريتين مختلفتين للحياة . فالريفى يعيش فى بيئة طبيعية يخضع لتقلباتها المختلفة ويكون معها علاقات دائمة،وتقوم حياته الإجتماعية على أساس الإنتماء إلى وحدات صغيرة تعطيه كثيرا من مقومات حياته ، كما أن الطبيعة من ناحية أخرى تخرج الريفيين إخراجا واحدا ،ولذلك فهم يتشابهون فى كثير من خصائصهم النفسية والإجتماعية ،ومن أجل هذا يكون التجانس والإعتماد على الطبيعة من أهم مميزاتهم ، ويكون طابع حياتهم هو الطابع القروى . أما الحضرى فانه يعيش وسط بيئة صنعها الانسان،وبالتالى يقل جدا إحساسه بالطبيعة،وفى مجال علاقاته الإجتماعية ينتمى إلى أكثر من وحدة،ولا يشعر بالإنتماء الشديد أو الولاء لأى منها ، ولذلك فسكان الحضر غير متجانسين يعتمدون على الانسان أكثر من إعتمادهم على الطبيعة ، الأمر الذى يجعلهم غير متشابهين وفى حاجة دائمة إلى عمل بعضهم الآخر،دون أن تكون هناك صلة مباشرة بينهم كأفراد . ولذلك فطابع الحياة عندهم يختلف من حيث الأساس عن الطابع الريفى .

المقارنة بين الحياتين الريفية والحضرية :

من المسائل الهامة فى علم الإجتماع عامة الإختلافات التى تظهر عن طريق الدراسة بين الحياة الإجتماعية فى القرية والمدينة . والواقع أن الإختلاف يرجع أساسا إلى إختلاف البيئة الإجتماعية فى كل منها . وقد أدى ذلك إلى سهولة الفصل بين نموذجين كبيرين من التنظيم الإجتماعى . فالمدينة بيئة خلقها المجتمع خلقا ولأجل ذلك تغيرت معالم البيئة الطبيعية التى تقـــوم عليها ، وهنا يظهر أول إختلاف أساسى بين المدينة والقرية خصوصا إذا وضعنا أمام أعيننا الإتجاهات الإجتماعية والظروف التى تساعد على قيام حياة إجتماعية من نوع معين .

١ - وتتبع هذه الاختلافات يجعلنا نبحث فى مسألة من المسائل التى شغلت علماء الاجتماع زمنا طويلا ولا زالت تشغلهم حتى اليوم . وهى أثر البيئة على الانسان أو بمعنى آخر مدى ما للبيئة من آثار على التنظيم الاجتماعى فى منطقة معينـــة ، وما من شك أن البيئة مهما تقدمت وســـائل الانسان العلمية لاخضاعها ، لا تزال تؤثر فى حياة الناس بوجه عام وإن لم تؤثر بطريقة مباشرة ، فانها تؤثر بطرق غير مباشرة حيث ينتقل التأثير من طريق الانتشار من منطقة لأخرى .

ويمكن القول إنه عند المقارنة بين الحياة الحضرية والحياة الريفية ، نجـد أن دور البيئة فى التأثير على سكان القرى أكثر من تأثيرها على سكان المدينة ، ومـع ذلك فالمسألة ليست نهائية بل مسألة درجة على كل حال ، لأنه لو تتبعنا المدن فى مراحل نموها ، لوجدنا إختلافا فى مدى التأثر النسبى للبيئة فى كل مرحلة من هذه المراحل ، وكقاعدة يمكن القول أن تأثير البيئة فى مراحل نمـــو المدينـة الأولى أكثر من تأثيرها فى المراحل المتأخـــرة .

وينبغى أن نتنبه إلى خطأ يقع فيه الكثيرون عند المقارنة . فهم يقارنون بين أشياء ليس بينها عوامل مشتركة،ولهذا تكون المقارنة خاطئةمن أساسها ، ولهذا يجب أن نسير فى حذر عند مقارنة المدينة بالقرية ، لأن نتائج المقارنة لا تنطبق فى كل الأحوال على جميع المدن والقرى بغض النظر عن الزمان والمكان . ذلك لأن لكل حالة تاريخا ويجب أن نتثبت أولا وقبل كل شىء من العوامل التاريخية التى تسببت فى الأوضاع الراهنة حتى يمكن أن تسير المقارنة على ضوء الحقائق دون غيرها ،ومثال ذلك أن هنالك مدنا تطورت عن قرى، وهنالك مدنا أخرى نشأت بطريقة إرادية لأغراض معينة . ولسوف نجد حين الدراسة اختلافا من حيث الخصائص بين كلا النوعين وذلك لوجود الرواسب التاريخية التى ربما يكون لها بعض الأثر حتى الآن .

٢ ـ ولهذا فان عملية مقارنة الحياة الحضرية بالحياة الريفية . تواجه صعوبات كثيرة . وعلى ذلك ينبغى أن نأخذ أقوال المنتمين إلى المدرسة الأقاليمية Regional school بحذر شديد . فالمدينة والقرية ظلتا لمدة قرون الشكلين الأساسيين الذين يتركز فيهما نشاط الإنسان . وليست هنالك خطوط واضحة بين الإثنين بحيث يمكن أن نعين فى دقة أين تنتهى القرية وأين تبدأ المدينة ، فقد كانت الحياة الحضرية والحياة الريفية مسألة جغرافية .

ولو جعلنا عدد السكان مقياسا للفصل بين المدينة والقرية لواجهتنا صعوبات عديدة نظرا لاختلاف التقدير فى الدول المختلفة من ناحية،وللفوارق العظيمة التى قد نجدها بين المدن ذاتها،خصوصا إذا كنا نبحث مدينة

تعدادها ١٠٠٠٠ نسمة ومدينة أخرى يصل تعدادها إلى عدة ملايين نسمة. ولهذا فخير طريقة المقارنة أن نعين حدا أعلى للقرية وحدا أعلى للمدينة من حيث عدد السكان على أن تتدرج درجة التحضر بين الحدين.

نمو المدينة :

لقد كانت الهجرة من الريف عاملا من أهم العوامل فى نمو المدن. وقد لوحظ ذلك فى كل المدنيات الكبرى عبر التاريخ. وفى الحقيقة أن كلمة التحضر تعنى التمدن، ففى المدنيات الأولى كمدنية مصر والرومان واليونان كان ازدهار المدن علامة القوة، وكان تدهورها يدل على الضعف والإنحلال. والذى يعنينا الآن هو البحث عن الأسباب التى تؤدى إلى نمو المدينة.

١ — تنمو المدن حين تستطيع جماعة فى مجتمع ما أو المجتمع كله — وضع اليد على مصادر الثروة أكثر مما هو ضرورى لحفظ الحياة. ففى المدنيات القديمة كانت هذه المصادر تكتسب عن طريق سيطرة الإنسان على أخيه الإنسان، ولهذا فان نمو المدينة كان يقوم أساسا على الرق والعمل الإجبارى (السخرة) وجباية الضرائب عن طريق الطبقة الحاكمة أو المنتصرة. ومع ذلك فانه فى الأزمان الحديثة ظلت سيطرة الإنسان عاملا أساسيا من عوامل نمو المدينة ولكنها الآن سيطرة من نوع آخر.. سيطرة الإنسان على الطبيعة. وقد امتدت هذه السيطرة خصوصا فى المجتمعات الغربية خلال القرنين الماضيين حتى أصبحت المدن فيها تزداد حجما يوما بعد يوم، الأمر الذى أدى إلى سيادة الخصائص الحضرية فى النهاية فى هذه المجتمعات.

وقد كان لاستخدام الآلات الحديثة فى الزراعة آثار بعيدة المدى على نمو المدينة ، فقد استطاع الإنسان أن يستخدم أقل مجهود يدوى ممكن فى إنتاج الحاصلات المختلفة، مما أدى إلى وجود اعداد ضخمة من العمال الزراعيين بلا عمل، وهؤلاء تحولوا بالضرورة إلى المدينة . وكان تحولهم من ناحية اخرى مسألة حيوية بالنسبة للصناعة المتزايدة التى اتخذت المدن مراكز اساسية لها . ولهذا كلما استخدمت الآلات الحديثة فى الزراعة فى بلد ما كلما زادت نسبة التحضر وكلما زاد نمو المدن زيادة ملحوظة .

٢ - ولم تكن الثورة الزراعية وحدها هى العامل الأساسى فى نمو المدينة بل هى فى الحقيقة لاحقة للثورة الصناعية . فمنذ ان اكتشف البخار فى البلاد الغربية واستخدمت قوته فى الصناعة والمدن تزداد نموا يوما بعد يوم . ولما اخذت حركة التصنيع تنتشر فى اوربا صاحبها بالضرورة نموا فى حجم المدن ، والتصنيع يتضمن زيادة ملحوظة فى النشاط التجارى بوجه عام وهذا بدوره يؤدى إلى الإسراع فى النمو والتطور ، وثمة وسائل مكملة للثورتين الصناعية والزراعية تظهر آثارها فى نمو المدن بوجه عام، وهى تقدم طرق المواصلات وازدياد الضغط على المدن الساحلية التى تستخدم كموانى او كمراكز للمواصلات للداخل او الخارج على حد سواء .

٣ - وقد ادى هذا التقدم الآنف الذكر فى هذه الميادين إلى زيادة عامة فى عدد السكان وإلى ارتفاع مستويات المعيشة، ولذلك اصبحت المدينة منطقة جذب إقتصادية، الأمر الذى ساعد بدوره على نمو المدينة . وقد اقتضت ضرورات الحياه في المدينة زيادة في الكماليات لم يقتصر إستعمالها على

سكان المدن بل انتشرت فى كل مكان . ولهذا يشتد الطلب على منتجات المدينة سواء من الضروريات أو الكماليات، بعكس الحال بالنسبة للطلب على منتجات المجتمعات الريفية. وهذا بدوره يؤدى إلى الإقلال من شأن منتجات القرية فى صالح منتجات المدينة، وينعكس ذلك فى نهاية الأمر وفى الأمد البعيد على تطور المدينة . ولهذا يقال أن نسبة سكان الريف إلى الحضر ليست مسألة اختيار، وإنما هى فى واقع الأمر مسألة تحتمها الظروف الإقتصادية . فالهجرة - إذا غفلنا الجوانب السياسية أو العنصرية - تتجه دائما حيث تكون الظروف الإقتصادية حسنة وحيث تكون الفرصة ملائمة للكسب ورفع مستوى المعيشة بوجه عام . ولهذا ينبغى ألا تكون المدينة والقرية من هذه الزاوية موضع مقارنة، لأن المسألة فى النهاية مسألة ظروف تمليها الضرورة الإقتصادية .

الفوارق الاساسية بين الحضر والريف :

الباحث فى الولايات المتحدة الأمريكية قد يميل إلى القول بأن خصائص الحياة الريفية فى سبيلها إلى الزوال، أو أنها لا تكون جزءا مهما فى المجتمع الأمريكى، وذلك لغلبه الخصائص الحضرية على السكان . ولكن هذا القول إذا انطبق على المجتمعات التى بلغت شأوا عظيما من التقدم خصوصا فى ميادين الصناعة فانه لا ينطبق على أجزاء كبيرة من العالم خصوصا فى آسيا وأفريقيا ،حيث لا تزال الزراعة هى المهنة الرئيسية للسكان الذين يعيشون فى مجموعات تسكن القرى ، وتكون المجتمعات الريفية . ولهذا كان البحث عن خصائص هذه المجتمعات من الأهمية بمكان لا فى علم الاجتماع الريفى فحسب بل فى علم الاجتماع الحضرى بنفس الدرجة أيضا . ذلك لأن المقارنة بين نوعى الحياة الحضرية والريفية يكشف عن مدى التغير والتطور، ومدى

بعد هذين النوعين من الحياة أحدهما عن الاخر، وما يكمن وراء هذا الإختلاف من ظروف اجتماعية واقتصادية وثقافية وجغرافية تصلح أساسا مناسبا لإختيار أثر هذه العوامل فى النظم الاجتماعية بوجه عام .

١ - وأهم ظاهرة تدركها فور دراستنا لهذه الخصائص ، العزلة النسبية لحياة الريف وهى عزلة لا تتصل بالفرد وإنما تنصب اساسا على الجماعة إلى حد كبير وعلى الأخص عزلة العائلة . ولهذا فالعائلة فى القرية عليها أن تشبع إلى درجة ما الحاجات الإقتصادية والاجتماعية لأعضائها وتكون داخل القرية وحدة مستقلة وتصبح روابطها أشد ماتكون كلما زادت درجة الإشباع ووصلت إلى حد الإكتفاء الذاتى ومفهوم العائلة الذى نستخدمه هنا أوسع مما هو مألوف فى علم الاجتماع، ذلك لأننا نقصد بها العائلة الكبيرة التى تشكل داخل القرية وحدة مستقلة هذه العائلة تنقسم إلى أسر كبيرة تسمى الأسر الأبوية، أى التى يعيش فى داخلها عدة اجيال يخضعون لرياسة اكبر افرادها سنا سواء كان ذكرا ام انثى . وتتميز هذه الأسر بالعمل الجماعى والإنتاج الجمعى . ومن اهم الخصائص التى تميز الفرد انه قد يعيش حياته كلها ولا يتصل بأفراد القرية إلا قليلا وفى المناسبات العامة . ويقوم كبار السن عنه بجميع المعاملات ويدخلون فى مختلف العلاقات مع الغير ، كذلك تكون للعادات والتقاليد سيطرة كبرى على تصرفات الأفراد وسلوكهم العام والخاص على حد سواء .

وعلى هذا الأساس يكون الفرد اشبه بجزء متكامل من اداة كبيرة تؤدى عملها ككل . وقد ادى هذا الوضع بالاضافة إلى اهمية روابط الدم والقرابة إلى سيادة القانون العرفى وظهور المسؤولية الجمعية فالجريمة مثلا لا يحاسب مرتكبها وإنما تحاسب العائلة او الجماعة التى ينتمى إليها الفرد ولذلك قد

ينصب القصاص أو الأخذ بالثأر على أى فرد دون مرتكب الخطأ نفسه الذى يظل مدى حياته بمنأى عن العقاب .

كذلك نجد أن العلاقات السائدة فى القرية هى من طبقة العلاقات المباشرة، فالتعاون أو الصراع يحدث بين أطراف متفاعلة يعرفون بعضهم بعضا، ولا تكون هناك حاجة إلى واسطة بين الطرفين فى أى ناحية من نواحى التعامل . ولهذا يقال إن الخاصة التى تميز جماعة القرية أنها جماعة أولية .

٢ - وليس هناك فى المجتمع الريفى مجال للتخصص، فمهنة الزراعة مثلا هى السائدة، وهى تشكل جميع نواحى النشاط فى القرية . فعلى كل فرد فيها ان يتقن جميع العمليات الزراعية فى جميع مراحلها . وقيمة العمل الزراعى هى القيمة العليا، بحيث أن اى مهنة أخرى ينظر إليها على انها أقل درجة . وتؤثر هذه النظرة فى علاقات الجماعات المختلفة داخل القرية ، وقد تؤدى فى النهاية إلى وجود طبقات على أساس نوع العمل . وعادة يرفض الفلاح مثلا ان يزوج ابنته لرجل لا يشتغل بالزراعة، لأنه يعتبر مثل هذا الزواج زواجا غير متكافىء .

٣ - العمل الزراعى بطبيعته غير متخصص، ولهذا فان الفلاح عكس ساكن المدينة عليه ان يجيد اشياء كثيرة . عليه أن يعمل فى كل نواحى الإنتاج الزراعى وعليه ايضا ان يجيد بعض الأشياء المكملة للعمل الزراعى كقطع الأخشاب او إصلاح الجسور وأدوات الزراعة وما إلى ذلك . ومع هذا يقوم الفلاح بعمله فى هذه النواحى بصورة مضطردة تشبه الروتين ولا يجد غرابة فى اى امر من الأمور التى تلقى على كاهله .

وقد ترتب على ذلك ان كان دوره فى الحياة الاجتماعية ثابتـا، وكـذلك الأمر بالنسبة لأفكاره وآماله . فطموحه يتصل بالزراعة وآلامه ايضا متصلة بها كذلك .وقد ادى عدم التخصص إلى وجود نظام معين لتقسيم العمل، فالرجال مثلا يقومون جميعا بنفس العمل مهما كان عددهم فى الأسرة الواحدة وكذلك الأمر بالنسبة للنساء .

وإذا كان هناك نظام حقيقى لتقسيم العمل فانه يقوم على اساس الجنس والسن. فالأطفال من السابعة حتى العاشرة ومن العاشرة حتى الخامسة عشر لهم اعمال يؤدونها وادوار محددة فى العمل الزراعى يقومون بهـا .وكـذلك النساء ، فبجانب الأعمال المنزلية،لهن دور معين فى العمل الزراعى ايضا، ويظهر عمل المرأة فى الزراعة بوجه خاص حين يستقل الرجـل المـتزوج عن اسرته الأبوية ويتخـــذ لنفسه مسكنا مستقلا ويختص بقطعة معينــة من الأرض يقوم على رعايتها . عند ذلك تقوم المرأة ببعض الأعمال التى يقـوم بهــا الرجال عادة .

٤ — بساطة الحياة من المسائل الهامة التى يلحظهـا البـاحث فى الريف ، وتظهر فى بعد الفلاح عن مظاهر التعقيد الموجودة فى المدينة . وهذا يرجع إلى بساطة الأعمال التى يقوم بها ،والتى اتخذت شكل الروتين على مر السنين ، إلى جانب بساطة الأهداف التى يسعى إلى تحقيقها. فالفـلاح ليس كساكن المدينة يشعر شعورا مؤرقا بالمنافسة،لأن المنافسة عنده تأخذ طابعا مختلفا جدا قـــد ينحصر فى إدخار مزيد من المال او محاولة التفوق على الجار بزيادة فى المحصول . أما رغبته فى الظهور او التميز على اقرانه من النـاحية الاجتماعية فهذه امور لا يعيرها اهتماما كبيرا،ولا تـــكون جزءا من سيكولوجيته او

حوافزة على العمل بطريقة او بغيرها . ومن مظاهر بساطة الحياة فى الريف أن الفلاح لا يعلق اهمية بالغة على الكماليات التى تصبح فى المدينة فى مرتبة الضروريات : فطلبه للكماليات نادر جـــدا، ويستطيع فى ظروف كثيرة أن يستغنى عنهـــا . ولا نصبح هذه الـــكماليات من المسائل التى تشغل الفلاح إلا إذا ازداد اثر المدنيـة زيادة كبيرة.ودفعتـــه إليهـــا عوامل التقليد والمفخرة .

أما فى المدينة فان الباحث يجد اختلافا بينا فى الظاهرة . فبدل العزلة يجد التجمع فى جماعات ومنظمات مختلفة تقوم مقـام الجوار فى القرية أو روابط العائلة الكبيرة ، وسيادة أنواع «الجماعات الثانوية Secondary groups » وإتصالات على مدى ونطاق واسع مع الأفراد ومع المواد الثقافية ، أكثر من الانصال بالطبيعة،وتمايز فى الطبقات الاقتصـادية، وتخصص فى النشاط الاقتصادى ، وعمل محدد ومركز واضح فى نفس الوقت، وذلك بالإضافة إلى الفرص التى لا حد لها لجمع الثروة أو الصعود من طبقة الى طبقة أعلى .

اثر التخصص على البناء الاجتماعى :

اتضح الآن أمامنا الفرق بين التنظيم الاجتماعى الريفى من ناحيـــة والحضرى من ناحية أخرى .ونستخلص من ذلك أن أهم فارق هو الذى يتصل بطبيعة البناء الاجتماعى ، وعلى الأخص فيما يتصل بأنواع النشاط الذى يميز كل طائفة من سـكان المديـنة . وهـذا يؤدى بدوره إلى إثارة مسألة التخصص الذى يعتبر من أهم مميزات المدينة الحديثة .

١ ـ حجم السوق يعتبر عاملا من أهم العوامل التى يترتب عليه وجود

أنواع متعددة من النشاط الصناعى أو التجارى . ولهذا طالما كان حجـم سوق القرية صغيراً ، فان القروى يعمل كل شىء فلا نجد فى القرية مظاهر التخصص المعروفة ، أما فى المدينة فنظراً لكبر حجم السوق فيها ، فان فيهـا طوائف مختلفة من العاملين : كالعمال غير المهرة، المتخصصين فى المهن والحرف المختلفة والفنيين والموظفين وأصحاب المهن الحرة ورجال الإدارة والسياسيين والاقتصاديين والفنانين وغيرهم . وتبعا لوجود هؤلاء وتنوع مشاربهم نجد أيضاً أنواعا متشابكة متخصصة من الأعمال أيضا . والعمل فى المدينة يستوعب جميع الأنواع ، حتى أن العامل غير المتخصص يجد له تخصصـا . ولما كانت الأعمال التى تتطلب مهارة عالية فى المدينة قليلة نسبيا ، فان الطلب يزداد على العامل نصف الماهر . وتبعا لذلك فالعمال شبه الماهرين يزداد طلبهم باتساع نطاق الصناعة وتنوع أغراضها وازدياد العمليات المتصـلة بها ، خصـوصا ما تعلق منها بالادارة أو التخليص أو الاستـيراد أو التصـــدير والنقل وغير ذلك .

هذا التمايز الاقتصادى يؤدى بدوره إلى وجود جماعات اجتماعية مختلفة بنوعيها الرأسى الذى يتصل بأنواع المهن وأقسامها المختلفة ، والأفقى الذى يتصل بالمركز الاجتماعى والوضع الطبقى ، ولكن هـذه الأقسام على تعددها وتنوعها لا ينبغى أن تختلط فى الاذهان بالاقسام المتحجرة التى لا تتغير إلا نادرا والمميزة للحياة فى المجتمعات الريفية ، ذلك لأن المنافسة هى الخاصة الأساسية للمدينة الحديثة . وهذه المنافسة تؤدى بدورها الى خلق نوع من المرونة بين مختلف اقسام الحياة الاجتماعية ، الأمر الذى يجعل الصعـود أو الهبوط من طبقة او طائفة لأخرى أمرا ميسوراً . ولذلك فالتنقل الاجتماعى Social Mobility من أهم مميزات البناء الاجتماعى الحضرى .

والمنافسة من ناحية أخرى مصاحبة للتخصص، وذلك تبعا لاتساع نطاق الفرص المتاحة أمام الجميع للترقى او الانتقـــال من وظيفة لأخرى . وتلعب الإمكانيات الفردية دورا كبيرا فى مستقبل الفرد ، بعكس الحال فى المجتمع الريفى الذى يتحدد فيه مستقبله بولادته، ولذلك كانت علاقة الفرد بالمنظمات الصناعية والتجارية علاقة غير شخصية ، والعامل الأساسى فيها مبلغ الحاجة اليه، ومدى ما يمكن الاستفادة منه . وهكذا لا تدخل القرابة أو الدين أو العادات والتقاليد طرفا ثالثا فى تحديد نوع العلاقات فى المدينة أو اتجاهاتها المختلفة . فالمدينـــة لا تحمى الكسول المتراخى اعتمادا على نسب أو قرابة من أى نوع . فصعود السلم أو هبوطه امر موكول للفـرد نفسه ، ولا تتدخل فى هـذه الحركة عوامل خارجـــة عن نطاق العملية الاجتماعية المباشرة التى يكون الفرد طرفا فيها .

٢ ـ ولما كان التخصص والمنافسة من العوامل المميزة لحياة المدينة فان عامل التصميم والتخطيط يعتـبر نتيجة طبيعية لها . وكلما زادت الحركة الاجتماعية وكثرت النقلة من هذا المكان إلى ذاك ، كلما زادت نسبة القلق خصوصا فيما يتصل بالمستقبل , فليس هناك فرد فى المدينة يستطيع أن يتأكد أن طريقه فى الحياة، خصوصا فى عمله، مضمون تماما لأنه يخضع لذبذبات كثيرة بعكس الحال فى القرية . فالقروى يعلم لحاضره ومستقبله أنه على الأقل سيظل فلاحا زارعا للأرض مهما تغيرت الأحوال ، ويستطيع أن يبنى حياته على هذا الأساس . ويظهر القلق من المستقبل على الأخص فى الدول الرأسمالية التى تقوم على أساس المشروعات الخاصة فى نشاطها الاقتصادى. فقد يلتحق الفرد بعمل فى مؤسسة لاتستمر طويلا فقد تفلس بعد مرور فترة وجيزة من الزمن .. وهكذا .

٣ – ولا يكون التخصص فى المدينة قاصرا على نوع العمل ، بل يمتد أيضا إلى مناطق العمل نفسها فكل منطقة فى المدينة لها خصائصها الثقافية والاجتماعية المميزة تبعا لنوع النشاط الغالب عليها . وكلما زاد حجم المدينة كلما صار التخصص من حيث المناطق أكثر وضوحا وظهورا . وهذا يجعل المدينة كما يقول علماء الايكولوجيا Ecologists « نموذجا معقدا من المناطق المتخصصة داخل بناء ايكولوجى أكثر عموما فى المجتمع الحضرى » ويتغير البناء على هذا النحو من مدينة لأخرى بحسب اختلاف الحجم والموقع الجغرافى والنمو التاريخى والوظائف الرئيسية التى تقوم بها . ولكن الغالب فى المدن جميعا،أن تكون هناك مساحة معينة تتركز فيها مظاهر النشاط التجارى،ومساحات أخرى ينزل فيها افراد الطبقة المتوسطة والعمال وهكذا. وطبيعى ان تختلف طبيعة الحياة الاجتماعية فى هذه المناطق،وعلى الأخص بالنسبة لتنوع مستويات المعيشة . الأمر الذى يخلق تمايزا فى المراكز الاجتماعية لساكنى كل من هذه المناطق . وهذه خاصة اخرى من الخواص التى تميز البناء الاجتماعى للمجتمع الحضرى .

٤ - وثمة ناحية هامة من نواحى البناء الإجتماعى الحضرى تأثرت إلى حد كبير بالتصنيع والتخصص وغلبة الطابع التجارى – وهى العلاقة بين الجنسين . ومن المسائل المسلم بها الآن ، أن المدن اصبحت مكانا ملائما للنساء بوجه عام فقدوجدت امامهن فرص كثيرةخصوصا لغير المتزوجات، لأن يمارسن انواعا متعددة من النشاط ، وأن يكن لهن استقلال اقتصادى ومركز إجتماعى متميز عن مركز الرجل ، وليس هذا غريبا،فهناك نسبة كبيرة تتزايد فى المدن من الرجال والنساء غير المتزوجين ، وهذا يتضح من انواع النشاط المختلفة التى نلاحظها فى اغلب المدن والتى تتجه إلى خدمة غير

المتزوجين،بحيث يستطيع الرجل أو المرأة ان يجـد المأوى والمأكل فى سهولة ويسر من غير حاجة الى الوجود فى منزل خاص . وقد أدى مثل هذا الوضع إلى نتائج بعيده المدى على سيكولوجية سكان المدينة بوجـهعام ، وما يظهر عليهممن مظاهر القلق والإحساس بالفقدان نظرا لانعدام جـو الود والمحبة والعطف،الذى توفره الجماعات الأولية كالأسرة مثلا .

وقد لوحظ مدى تأثير البيئة الحضرية على الحياة الاجتماعية والإتجاهات الخاصة بالنساء إلى درجة معينة . فقد كان تغير وظيفة العائلة التى تسببتفيها المدينة من الأهمية بمكان بالنسبة للنساء خصوصا فى دورها كأم وكزوجة أو كمنتجة أى مكتسبةللثروة ولذلك فان واجباتها اصبحت محدودةوتحررت إلى حد كبير من روابط المنزل ، ولكن إلى اى حد يمكن ان يتطور مركز المرأة،وإلى اى درجة ستذهب اليها فى استقلالها ؟ هل ستكون النتائج النهائية فى صالح المرأة وبالتالى فى صالح الحياة العائلية ؟

وفى هذا المقام نلحظ اختلافا كبيرا بين المدن فى المدنيات القديمة والمدن فى ايامنا هـذه ، لأنه من الخطأ ان نقول إن طبيعة الحياة فى المدينة عامة هى التى تؤدى إلى ذلك بالنسبة لمركز المرأة . لأن التطور الذى حـدث كان فى فى المدينة التىتأثرت بالتصنيع . ففى المدن القديمة فى الشرق أو الغربلم تكن للنساء الحـرية التى نشاهدهـــا اليـــوم اللهم إلا حفنــة منهن ينتمين الى الطبقة العليا .

وبناء على المادة التى تحت أيدينا اليوم،فاننا نستطيع ان نتنبـأ أن التغير فى حياة النساء الاجتماعية مندفع بخطوات سريعة، وسـوف يؤدى فى المدى الطويل إلى تغيرات عامة فى البناء الاجتماعى بأسره . ذلك لأن فكرة سيادة

الرجل وتبعية المرأة أخذت فى الانكماش إن لم تكن قد زالت فى بعض المدن، واصبحت للمرأة الحقوق الاقتصادية والمدنية المساوية للرجل تماما . ولا نعنى بها الحقوق المنطوقة المدونة بل الحقوق كما تمارس فعلا وفى واقع الامر. اما كيف سيكون البناء الاجتماعى فى مجتمع تختفى فيه رواسب الماضى بالنسبة للنساء، ويصبحن على تواز تام مع الرجال فى الرغبات والميول والسلوك العملى. فذالكم امر يصعب التنبؤ به وقد لا يتم فى جيلنا الحاضر .

النسق الطبقى الحضرى : ١)

يمكن تعريف الطبقات بأنها جماعات ذات وحدات عائلية لها ترتيب خاص فى المجتمع، وتتميز بمراكز محددة تعكس اللا مساواة الاجتماعية ، او بمعنى آخر يمكن القول بان الطبقات صور من التشريح الاجتماعى الراسى أو الافقى للمجتمع . ومن ناحية اخرى تشير الى جماعات اكثر من اشارتها إلى أفراد لأن العائلة باسرها تنتمى إلى نفس الطبقة .

والاطفال كقاعدة يرقون مركزهم الطبقى عن طريق والديهم ، وفى المجتمع الذى يتميز بالحركة الاجتماعية الحرة يمكن الانتقال من طبقة اخرى، ومع إمكان هذا فى حالات التنقل الاجتماعى فى المجتمع ذى الانساق الدينامية إلا ان هذه التغيرات فى المراكز الطبقية لا تحدث بالكثرة التى يتخيلها البعض.

والحديث عن الطبقات فى المجتمع يقودنا الى مناقشات متعددة تمتد فتشمل الجوانب السياسية والاقتصادية والخلافات الايديولوجية فى التاريخ الحديث، ولكن بالرغم من الموقف المحدد من الناحية النظرية البحتة إزاء

---

١ — أعتمدنا فى هذا الموضوع على ما أقتبسناه من الفصل الذى كتبه « برجل » عن النسق الطبقى فى المجتمع الحضرى فى كتابه « علم الاجتماع الحضرى » .

موضوع الطبقات ومن نت طريقة ما لا نستطيع أن نجد مجتمعا بدون نوع من أنواع التشريح الإجتماعى،ولا أن نجد مجتمعا لا تترتب فيه طبقات الناس على أساس من مواضعهم أو من نفوذهم أو امتيازاتهم التى تظهر فى دوائر قد تضيق أو تتسع . كذلك فاننا إذا نظرنا إلى الموضوع من الناحية التاريخية فاننا نتأكد من انه توجد اختلافات كثيرة وأنساق متعددة لموضوع التشريح الاجتماعى .

وهناك ناحيتان للبناء الطبقى يجب أن نميزا بينهما تمييزا واضحا :

الأولى ـ وجود النسق الطبقى،وفى هذا الصدد نلاحظ أن أولئك الذين يريدون القضاء تماما على الطبقات يعترفون بطريقة ضمنية لا بوجود الطبقات ذاتها بل أيضا بوضعهم الطبقى نفسه .

والثانية ـ ضرورة معرفة المواضع الطبقية على أساس النظر إلى السكان ككل ، لأنه يحدث فى بعض الأحيان أن ينتمى أحد الناس إلى طبقة معينة، ويصنف من الناحية الاجتماعية على هذا الأساس ، بينما قد يعتبر بعض الناس الآخرين أنفسهم منتمين إلى طبقات ذات مراكز معينة،ولكن المجتمع لا يقرهم على ذلك .

والطبقات إذن جماعات تتميز بالمستوى الإجتماعى غير المتساوى أو غير المتجانس،ولعل أكثر النواحى أهمية فى ظاهرة الطبقة ما يترتب من نتائج على اختلاف المراكز ، والمركز فى معظم الحالات موروث أى أن الفرد يحصل عليه بالتبعية التى تترتب على التوجيه الأول الذى يأخذه عن عائلته،وفى الحياة الاجتماعية الدينامية يأخذ الناس مراكزا بطريقة أخرى

عن طريق انتمائهم إلى عائلات غير عائلاتهم الأصلية عن طريق الزواج،ومع ذلك قد يتغير المركز إلى أسوأ او إلى احسن وغالبا ما يكون فقدان المركز ناجما عن سلوك غير سليم لا يتفق مع الأوضاع الطبقية،كما ان صعود السلم الطبقى وتغير المركز بالتالى يمكن ان يتم عن طريق اعمال محددة.وفى المجتمع الحديث تسنح كثير من الفرص لمثل هـذا التغير عن طريق التعليم او عن طريق التجارة . وإذا حاولنا ان نعقد مقارنة بين القرية والمدينة فى هذا الصدد نجد ان نسبة الفرص المتاحة امام الأفراد لصعود السلم الاجتماعى فى المدينة اكثر منها فى القرية .

والمركز الإجتماعى الذى يترتب على الإنتماء إلى طبقة معينة يلحق به بعض التحديدات التى تتعلق بالموضع والنفوذ ، وإذا حاولنا ان ندرس موضوع الطبقات فى المدينة،واثر الطبقات بصفة عامة على البناء الاجتماعى فيها فاننا نصل إلى هذه النقاط الهامة :

١ - كلما زادت المدينة حجما كلما اتسعت الفرصة امام الأفراد لتغيير الطبقة،بل ان سرعة التغير فى هذه الحالة تزداد ، ويزعم بعض الباحثين ان اثر التغيرات التكنولوجية فى المدينة الكبيرة يكون اوضح منه فى المدينة الصغيرة،الأمر الذى يترتب عليه زيادة طردية فى عمليات التنقل الاجتماعى ، وفى نفس الوقت يؤدى إلى خلق نوع من المرونة فى النسق الطبقى ، ومن ناحية أخرى يؤدى الى تداخل الفواصل الطبقية مما يتعذر معه فى بعض الاحيان أن نحدد المراكز الاجتماعية للافراد وما يتبعها من مواضع ونفوذ. كما أن درجة التضامن الطبقى تقل،وتكون الفرصة مهيأة أمام الانقسامات الطبقية،فتتفرع الطبقة الواحدة الى عدة طبقات أصغر ، ومعنى هذا أنه كلما

انتقلنا من المدينة الكبيرة الى المدينة الصغيرة فالقرية نجد تحديدا أكبر للاوضاع الطبقية .

٢ – فى المدينة الكبيرة التى تنقسم الى جماعات متمايزة نجد اختلافات كثيرة فى الانماط الثقافية ، ويميل بعض العلماء الى القول بان تمايز الجماعات فى المدينة يؤدى إلى تحديد الأوضاع الطبقية ، وفى هذه الحالة يمكن نتيجة لتشابه المراكز الإجتماعية والمستويات الاقتصادية والثقافية العامة أن نجد تمايزا واضحا فى إتجاهاتهم الثقافية العامة ، الامر الذى يؤدى الى ظهور أنماط اجتماعية واضحة .

٣ – التماسك الطبقى فى المجتمع الحضرى ليس له صفة الدوام ، أى أن الطبقة لا تنعزل انعزالا كليا عن الطبقات الإخرى أو عن مجتمع المدينة باسره ، وهذا راجع الى تداخل العمليات المختلفة فى الحياة الحضرية من ناحية،والى شدة التنقل الاجتماعى من أخرى ، ولذلك يلاحظ دائما فى المجتمع الحضرى ان الناس يغيرون وبسرعة اماكن سكنهم واصدقائهم واعمالهم بنفس السهولة التى يغيرون بها ملابسهم فى بعض الاحيان ، وهناك حالات لاتردد كثيرا فى المدن عامة، وهى ان بعض المدن قد تكون ذات بناء اجتماعى متميز نظرا لاختلاف السكان من الناحية العنصريه او الدينيه او نظرا لاختلاف اللون،الامر الذى يخلق نوعا من التفاعل الاجتماعى الخاص الذى يؤدى الى قسمه المدينه الى طوائف قد لا تتعاون بعضها مع الاخر ، وتكون من نتيجته انشاء مجتمعات محلية لها طابع الانعزال داخل المدينة الواحدة.

من اجل هذا لا نستطيع ان نتحدث عن الطبقات او عن النسق الطبقى باعتباره امرا ضروريا او طبيعيا،لأن معنى هذا ان نعترف ان كل شخص

يحصل المركز والموضع الذى يستحقه ، ومن ناحية اخرى لا نستطيع ان نتحدث عن النسق الطبقى باعتباره إطاراحديديا يمتص نشاط الأفراد داخله ولا يسمح لهم بالتطلع خارجه .

ونلاحظ ان الباحثين فى موضوع النسق الطبقى يغالون فى أهمية المركز ، ونقطة الضعف فى هذا ان الذين يحصلون على مراكز عالية وبالتالى يصبحون موضع التقدير الإجتماعى قد لا تكون لديهم القدرات او الامكانيات الكافية التى قد ترفعهم إلى اعلى من هذه المراكز، أو حتى المحافظة على مراكزهم الحالية. كما أن المجتمع الذى يتميز بالمنافسة يهىء الفرصة لزحزحة هؤلاء وإحلال آخرين محلهم . وإذن فالمركز الإجتماعى ليس وحده نتيجة أولى للنسق الطبقى، أو هو علامة رئيسية لوجود الطبقة او ظهورها متميزة فى البناء الاجتماعى ، وهنا لابد أن نتحدث عن المقاييس التى لابد من وجودها ليمكن على اساسها تعيين الطبقة تعيناواضحاً . ومن استقراء الأبحاث المختلفة التى اجريت حول هذا الموضوع نستطيع ان نقدم ثلاث مقاييس إذا توافرت فى جماعة معينة امكن ان نطلق عليها إسم الطبقة وهى :

١ ـ المركز الإقتصادى : ومعناه ان دخول الأفراد فى اعمال معينة يقومون بها تحدد مستويات إقتصادية تتشابه بالنسبة لمجموعة من الأفراد وتختلف بالنسبة لمجموعة غيرهم، ولذلك كان المركز الإقتصادى وما يترتب عليه من مستوى خاص للمعيشة عاملا اول فى تحديد اول درجات التشابه فى الإنتماء الطبقى .

٢ ـ المركز الاجتماعى : الذى يحدد أبعاد الناس فى المجتمع وطريقتهم فى الحياة، ويقوم على المركز الأول بالإضافة إلى عوامل اخرى مثل

التعليم والعائلة والمكان الذى نشأ فيه الفرد ، وبهذا يكون المركز الاجتماعى درجة ثانية فى تحديد التشابه والإختلاف بين السكان الذين يعيشون فى مكان واحد او ينتمون إلى مجتمع بعينه .

٣ ـ الشعور الطبقى : لا يكفى وجود المركزين الإقتصادى والاجتماعى لوجود الطبقة وجودا متميزا فى الحيـــاة الاجتماعية، بل يجب ان يترتب على التشابه نوع من الشعور بالإنتماء والإحساس بالأهداف المشتركة وبالمشاكل والآمال . اى ان الشعور الطبقى هو الإطار الذى يجمع الأفراد على مستوى الإنتماء الحقيقى الذى يمكن ان يؤدى إلى الوعى الطبقى .

مستقبل الحياة الحضرية (١)

ظل الإنسان لقـرون طويلة يعيش فى المدينـة دون ان يفكر كثيرا فى المستقبل ، وإذا حدث ان فكر فى التغيير ، فقد كان فـكره محصورا فى النمو والتقدم الفنى والمزيد من الجمال، او بمعنى آخر لم تكن عند الإنسان فى هذا الوقت الرغبة ولا التصور ان هناك افضل من طريقة الحيـاة الحضرية . ولكن القرن الحـــالى واجـه البشر بحيرة إزاء حياته فى المدينة . فقد بدأ الإنسان يفكر فى الفرص المتاحة له فى الحياة والتى من اجلها بدأ يدبر الخطط التى تؤدى إلى إحداث تغيرات جذرية فى الظروف الطبيعية وفى البناء الاجتماعى لطريقة الإقامة الحضرية .

---

١ ـ أنظر كل من اندرسون : « المجتمع المحلى الحضرى » ، « برجل : علم الاجتماع الحضرى »

لقد تشائم الكثيرون فى مجرى التاريخ من مستقبل الحياة الحضرية لما لها من آثار سيئة على حياة البشر وما تؤدى إليه من تدمير للقيم الانسانية وإهدار لمبادىء الحياة الكريمة وانحطاط للنفس الانسانية ، فشبنجلر أكبر مفكر يتهم الحياة الحضرية ، يرى أن المدينة ذاتها عبارة عن شر يدمر كل شيء،وفى النهاية تغرق المدينهموتافى آثامها، ويقول ان مولد المدينة يحمل فى نفس الوقت علامة موتها ، ولعل تشاؤم شبنجلر جاءه مباشرة من هيجل وماركس،حينما زعما ان طبقة البورجوازية تحفر بنفسها قبورها ويحاول كثير من المفكرين ان يردوا على هذا التشاؤم بقولهم، انهم لم يعثروا على على مدينة كانت فريسة للتدمير الذاتى ، كما ان المدن فى العصر الحديث مستمرة فى النمو حجما وعددا . ويمثل لويس ممفرد هذا الإتجاه التشاؤمى فى علم الإجتماع الحضرى على الرغم من ان آراءه اقل خيالية، وهجومه على الحياة الحضرية اكثر إعتدالا وتشخيصاته ليس لها الطابع المميت . وينصب نقده على ضخامة قوة بعض انماط المدن وبعض مراحلها بالذات التى يسميها المتروبوليس والميجابوليس والنكروبوليس ، فهذه المراحل من نمو المدينة كما يقول « ممفرد » تدمر المدينة وتسبب الحروب وتدمر العلوم والفنون .

لكننا لانستطيع ان نسلم معه او مع غيره بهذه الإتهامات دون دليل قاطع ذلك ان المدينة او الحضرية كطريقة فى الحياة لا يمكن ان تكون مسئولة عن مثل هذه الكوارث لافتقارها إلى الدليل العلمى . حقيقة انالمدينة قد تسببت فى ظهور انواع جديدة من الجرائم ، وزيادة فى إنحراف الأحداث،وزيادة كبيرة فى تصدع الأسر وإحتمالات كثيرة للمرض النفسى والإنهيار العصبي،وقيام فرص كثيرة لظهور التفكك والقلق والإضطراب

فى المجال الفردى والجمعى، إلاأن جذور هذه المشاكل جميعا كانت موجودة قبلا فى الحياة الريفية، وتضخمت او ظهرت واضحة فى المدينة تبعا لزيادة حجمها وازدحام السكان فيها . وعلى العكس مما يقوله المتشائمون فان الحضرية كطريقة فى الحياة تنمو باستمرار وتفرض نفسها على كل طريقة اخرى فى المجتمع .

نحن نعيش الآن مرحلة إنتقال وفى عصر يتميز بالدينامية الشديدة يتغير فيه كل شيء،والمدينة من هذه الزاويه تمر ايضا بهذه الفترة ،وقد تنبه العلماء إلى ضرورة توجيه القوى المفيدة لتحيق مصالح الجماعة،ولذلك اصبح التخطيط عنصرا اساسيا الآن فى بناء مستقبل المدن، والقائمون على تخطيط المدن يفكرون فى افضل الأهداف التى يحاولون بخططهم ان يصلو إليها ، ولذلك فان تحليل الأهداف العليا للتخطيط يعطينا عمقا فى توجيه المجتمع المعاصر، كما أن إختيار هذه الأهداف العليا يمكن ان يوضح المتضمنات السوسيولوجية لإتجاهات الحضرية .

والمسألة الأساسية هنا الا تنظر إلى نمو المدينة على اسس مادية بحته لأنه ربما نفلح فى ترتيب كل شيء فى الحياة الحضرية من الناحية المادية ،ومع ذلك تظل الحياة الحضريه مثقلة بالهموم ومكانا قاتما للفرد .ومن أجل هذا تبرز اهمية الناحية الثانية فى التخطيط الحضرى، الذى لابد ان يواجه مسائل العلاقات والقيم التى يجب ان تهدف إلى مزيد من العلاقات المباشرة بين الناس، وإعادة بناء القيم على اساس يقلل فرص الإنحراف ويضمن إيجاد مستوى موحد تقريبا فى النظرة إلى الحياة .

فالمدينة ليست مجرد ابنية او شوارع اوميادين او معدات للحياة اليومية

توفر الوقت والمجهود، بل انها نوع متميز من الحياة جديد على البشرية يجب ان تهيء له الإساس المعنوى وما يتضمنه من تنظيم إجتماعى لابد ان يصل إلى مرتبة التضامن والتماسك الذى كان للمجتمع القديم. ولعل زيادة مشاكل المجتمع الحضرى ترجع فى المحل الأول لا إلى نقص الجانب المادى فى الحياة بقدر ما ترجع إلى سوء التنظيم الإجتماعى وما ترتب عليه من تفكك، جعل هـــذه المشاكل تبرز للمفكرين جميعا وتدعوهم إلى هذا التشاؤم الذى أشرنا اليـــه من قبل .

الفصل الثامن

أسس التمايز والترتيب الطبقى فى المجتمع

من أكثر الموضوعات إثارة للجدل بين المفكرين والعلماء ، الموضوع الذى نعالجه فى هذا الفصل ، نظرا لارتباطه ببعض الجوانب السياسية واتصاله الوثيق فى بعض الأحيان بالمسائل الإيديولوجية . إن الاختلافات بين الناس كانت ولا تزال موضع النظر والبحث منذ آلاف السنين .

وقد انحصر النقاش فى عدد من المسائل،من أهمها الدخل والمهنة والمستوى الثقافى ومستوى المعيشة وغيرها . ويلاحظ أن علماء الإجتماع اهتموا بالإختلافات فى هذه المسائل والتى تظهر بوضوح بين أقسام المجتمع المختلفة . وربما كان هناك فرق أساسى فى معالجة هذه الاختلافات فى الماضى وفى وقتنا الحاضر . ويظهر هذا الفرق فى أن القدماء ردوا كل تمايز يظهر بين الأفراد فى المجتمع إلى أسباب وراثية فى غالب الأمر ، ومن ثم شغلوا أنفسهم بالبحث، عما إذا كان الذين يشغلون مراكز ممتازة فى المجتمع فضلاء فى نفس الوقت . ولكن المتعارف عليه الآن أن ينشغل العلماء بدراسة أسباب عدم التساوى بين الناس ، ويكون التركيز على العوامل الملموسة فحسب ، أما المسائل التى يمكن أن تتصل بمواهب الناس وفضائلهم ، فلا تكون محل الإهتمام . ومن المناسب هنا أن نعرض فى إيجاز لبعض الدراسات والأفكار القديمة وتطورها

حتى وقتنا الحاضر، لإلقاء مزيد من الضوء على الموقف المعاصر في علم الإجتماع فيما يتصل بموضوع التمايز والترتيب الطبقي :(١)

١ ـ أفلاطون : حاول أفلاطون وهو يكتب عن الدولة (المدينة) المثالية ، أن يحكم على الناس على أساس ما يتمتعون به من قدرات موروثة. فلاحظ أن الناس في المجتمع يتبادلون الخدمات ، لأن العمل بطبيعته ينقسم بينهم أقساما عديدة ، فيقوم البعض بأعمال معينة يؤدونها على أحسن وجه ، ولكن آخرين قد لا يتمكنون من إنجاز نفس هذه الأعمال لأسباب تتعلق بقدراتهم الموروثة . أي أن كل إنسان مهيء بالوراثة ليقوم بعمل معين يتناسب مع استعداده . ويؤهله في نهاية الأمر إلى شغل مرتبة معينة في المجتمع الذي ينتمي إليه. وقد كان أفلاطون يعتقد أن المجتمع والفرد يمكن أن يفيدا كثيرا ، إذا اقتصر كل إنسان على عمل ما هو معد وصالح له فقط . ولكن هذا المطلب المثالي لا يمكن أن يتحقق في الواقع . وقد اعتقد أفلاطون أيضا أن نظام التربية في الدولة المثالية يمكن أن يستخرج أحسن ما في الإنسان ويسبر غور طاقته الحقيقية التي ترتبط بقدراته الموروثة. وعلى ذلك ينقسم السكان إلى أقسام متعددة ، القسم الذي يتكون من العمال ، والقسم الذي يتكون من الذين يقومون بأعمال إدارية وتنفيذية ، والقسم

---

(١) من الكتب التي خصصت بأكملها لدراسة موضوع الترتيب الطبقي في المجتمع ، الكتاب الذي ألفه « اجبون ارنست برجل » عام ١٩٦٢ ، حاول فيه ان يعرض لكل الافكار والنظريات المتعلقة بالطبقات والطوائف والتنقل الاجتماعي وعلاقة هذا كله بالأنساق الاجتماعية المختلفة . ويلاحظ أن يميل الى الى وجهة النظر الامريكية التقليدية في معالجة هذا الموضوع الهام .

الذى يتكون من الذين يقومون بأعمال ذات طبيعة عسكرية ، وأخيرا القسم الذى يتكون من الحكام . ويدافع أفلاطون عن هـذه القسمة ، بقوله ، إن المجتمع المثالى يجب أن يقسم العمل على النحـو السابق ، الذى يحقق مصالح الفرد والجماعة العليا ، كما أن الفرد يمكن ان يصل فى ظل هـذا النظام إلى السعادة .

٢ ـ مكيافيللى : لقد وضع ميكافيللى هدفا وحاول أن يستقصى العوامل التى يمكن أن تحققه أو تعوقه . وقد كان هدفه الأكبر ان يصل إلى وحدة إيطاليا السياسية فى الوقت الذى هددها الإنحلال السياسى ، وجعـل مجرد وجودها موضع خطر دائم . ومن أجل هذا أعاد تحليـل التاريخ بصورة مبسطة ليتمكن هو وغيره من مواجهـة المشكلة الأساسية . فعنـدما كانت إيطاليا تعمها الفوضى . وبدون زعيم ، لم يشغل ميـكافيللى نفسه بالبحث فى الطبقات المختلفة فى المجتمع . ذلك لأن ازمة إيطاليا فى عصره جعلته يحـاول إدراك المجتمع من وجهة نظر الحاكم والمحكومين أو الأمير والشعب . وقد تصور ان مستقبل هذه البلاد يتوقف على حكمة وشجاعة ومـكر رجـل واحد قادر على قيادة الأمة . ويقـول مكيافيللى إنه من الصعب ، فى الوقت الذى يقف فيه الإنسان فى موقف عدائى من اخيـه الإنسان ، ان نفـكر فى العلاقة بين الناس الذين ينتمون إلى مراتب مختلفة فى المجتمع . وإذن يكـون الموضوع الأساسى للنظر ، هو البحث عن الرجل القـوى الذى يستطيـع ان يشق للشعب طريقا للخلاص من هذه الأزمات والنكبات التى يتعرض لهـا المجتمع . وعلى ذلك يكون مكيافيللى قد تصور المجتمع منقسما الى «طبقتين» الحكام والمحكومين .

٣ ـ ويميل عدد من الباحثين فى الطبقات إلى القول بأن الدراسة الحديثة للترتيب الطبقى تمتد جذورها إلى القرن الثامن عشر . فى هذا الوقت كانت دراسة الطبقات الإجتماعية تعتبر جزءا من التاريخ الطبيعى لبنى الإنسان . وفى عام ١٧٩٣ نشر جون ميلار John millar الذى كان أستاذا للقانون فى جامعة جلاسجو كتابا عنوانه « اصل التميز فى المراتب » او « بحث فى الظروف التى تؤدى إلى ظهور النفوذ والسلطة عند الأعضاء المختلفين فى المجتمع » وقد كان ميلار كغيره من معاصريه متجها إلى دراسة صفات وعادات الأمم ، من اجل فهم تقدم الجنس الإنسانى من حالة البربرية إلى الوضع الحالى الذى يتميز بوجود الأمم المتمدنة . ولذلك كانت دراسة المراتب او الطبقات المختلفة فى المجتمع ، جزءا من التاريخ الطبيعى للجنس البشرى ، وهذا يعود إلى ان الإنسان يعيش دائما فى جماعات .

ويقول ميلار أيضا ، إن دراسة الطبقات الإجتماعية فى المجتمع يجب ان تبدأ بدراسة البيئة الخارجية، ثم دراسة إقتصاد البلاد ونوع العمل الذى يقوم به الناس، والمجتمعات المحلية التى يعيشون فيها، والعلاقات الاجتماعية التى يشاركون فيها ، ومثل هذه الدراسات ضرورية لأن هذه الموضوعات الجزئية لابد ان لها تأثيرا كبيرا على عادات الناس واستعداداتهم وطرق تفكيرهم .

وعلى الرغم من أن دراسة الطبقات فى ايام ميلار لم تسر فى الطريق الذى رسمه، إلا ان دراسة الطبقات الإجتماعية الحديثة تتجه إلى السير فى هذا المدخل الذى اشار إلى ضرورته ميلار لدراسة الترتيب الطبقى فى المجتمع .

٤ - إن هذا المدخل لدراسة الطبقات الاجتماعية ، ليس إلا طريقـــا واحدا من الطرق التى أثر بها تفكير القرن الثامن عشر ، ذلك أنه من المهم أن ندرك أن الحوادث الكبرى التى حدثت فى هذا القرن تركت آثاراً بالغـــة الأهمية على هذه الدراسة ، ومن أخصها الثورة الفرنسية والأمريكية وقيـام الصناعة الحديثة . ويمكن ان نشير فى هذا المقام إلى تيارين متميزين من الفكر برزا كرد فعل لهذه الأحداث (١)

ا - لقد تصور « المحافظون » المجتمع على أن الافراد فيه يولدون فى طبقـة معينة تحـدد حقوقهم وواجباتهم . ولكنهم بدلا من أن يتصوروا أن هذه الحقوق والواجبات تفرض على الافراد عن طريق التقاليد الخلقيـة ، زعموا أنها تفرض فى ظل التطورات الصناعية الجديدة عن طريق الجزاءات القانونية . ونتيجة لذلك تكون العلاقه بين السيد والخادم مثلا ، علاقة تعاقدية ينظمها القانون ، كما أن أساس التعامل بينهـم يكون عن طريق المدفوعات النقدية التي تستبعد كل المعانى الخلقية لهـذه العلاقة . وإذن تكون الطبقات فى المجتمع الصناعى عبارة عن تجمعـات من الناس لهم مواضع متشابهة فى المجتمع ويجمعهم رابط واحد ، هو المصلحـة الاقتصـــادية . وقد حاول المفكرون المحافظون فى القرن التاسع عشر أن يعيدوا تأكيد الروابط الخلقية التى تربط الأفراد بالمجتمع بعيدا عن العلاقات التعـاقدية وعن مظاهر التبادل النقدى .

ب - ولكن « الاحرار » استجابوا للتصنيع بطريقة عكسية . إن

---

(١) راجع كتاب بندكس وليبست عن « الطبقة والمركز والقوة » الطبعة الخامسة (١٩٦١)

تجربة الصناعة عندهم تعتبر أزمة للمجتمع الانسانى ولتاريخه، ومع ذلك لم ينظروا إليها نظرة يأس، بل على العكس أكدوا أن الفرصة أصبحت متاحة للتقدم. وهم وإن كانوا يتفقون مع المحافظين فى التحدى الأخلاقى الذى ترتب على التصنيع. إلا إنهم تصوروا أن الصناعة أضافت حملا ثقيلا على كاهل العمال. وأهم ما استأثر باهتمام الأحرار فى هذه الفترة ذلك الصراع الذى يتزايد فى الشدة، بين العمال وأصحاب رأس المال، والذى يزداد عنفا كلما زاد التوسع فى استخدام الآلات والعناية بانتاجية العامل. وقد كان الاعتقاد السائد أن الغنى يزداد ثراء والفقير يزداد فقرا، كما أن الرأى كان منصرفا إلى أن الزيادات الحتمية فى الثراء وفى الفقر، ستؤدى إلى اتجاهات غير اخلاقية عند الفقير والغنى على السواء. وتفسير ذلك أن الغنى يزداد طمعا فى مزيد من الثروات، ويصاحب هذا الطمع عدم تقدير للقيم الثقافية والانسانية، كما أن الفقير يزداد ازدراء لحياته وعبودية للآلة. ولعل هذا التدهور الخلقى وهذا البؤس هو الذى حرك الأحرار لتعجل اليوم الذى يتم فيه القضاء على هذا التدهور ويعاد فيه تنظيم المجتمع.

وواضح أن المحافظين الأحرار اختلفوا فى تصور أزمة المدنية الصناعية. فالمشكلة الخلقية عند المحافظين هى فى ضعف الروابط بين الفرد والجماعة التى ينتمى اليها. ولذلك تعنى الفردية عندهم، تدهور المستويات الخلقية التى يستطيع الفرد عن طريقها توجيه سلوكه. اما بالنسبة للأحرار، فالمشكلة الخلقية. هى فى القهر وفى سحق فرص الفرد للنمو والتقدم. ومن الطبيعى أن يتصور كل من الفريقين اصلاح المجتمع من الزاوية التى يعتقد أنها مصدر الشر الذى تمخض عند التصنيع. ولذلك يكون أصلاح المجتمع عند المحافظين، يتركز حول إعادة تكامل الفرد والجماعة، أما الاحرار فان إصلاح المجتمع عندهم لن يتم إلا إذا خلقت ظروف اجتماعية جديدة تعيد للانسان كرامته

المسـلوبة وتشبع حاجته فى التعبير عن ذاته بحرية دون أن يتعرض للقهر والاستغلال .

٥ – هذا ويبدو من النظرة الأولى أن الدراسات السوسيولوجية المعاصرة للترتيب الطبقى ، لا تتصل بأحد الاتجاهين السابقين : المحافظ والحر ، ولكن الحقيقة أن هذه الدراسة لا تذهب بعيدا ، بل إنها تدور حول الاجابة على الاسئلة التى كانت محور الاتجاه الحر والإتجاه المحافظ. ومن الواضح أن محافظى القرن التاسع عشر كان لديهم رغبة فى الإبقاء على الأوضاع الراهنة، أما الاحرار فقد كانوا يأملون فى الاصلاح الاجتماعى واعادة تنظيم المجتمع . ومع أن هناك اعترافا يكاد أن يكون عاما ، بأن الدراسات السوسيولوجية قد اسقطت عند دراسة الترتيب الطبقى ، المسائل السياسية المتعلقة به ، إلا أنه من الواضح أن تقسيم نواحى الاهتمام عند البحث إلى مسائل تتعلق بالاستقرار ، ومسائل تتعلق بالحركة والديناميات لا زال أهم ما يميز دراسة هذا الموضوع فى علم الاجتماع المعاصر . ونحن نعتقد ، أنه بالرغم من زعم كثير من الباحثين فى علم الاجتماع ، انهم يدرسون الموضوع دراسة محايدة ، فان تحيزهم (السياسى) يظهر فى اختيارهم لهذه الناحية أو تلك عند دراسة موضوعات الترتيب الطبقى . ومثال ذلك أن الباحث الذى يفضل دراسة العناصر الدائمة أو الثابتة فى الطبقة دون غيرها ، يحدد نفسه دون أن يدرى فى نطاق خاص متصل بالاتجاه المحافظ ، كما أن الباحث الذى يفضل دراسة النواحى المتغيرة فى المجتمع فانه يجارى الاتجاه الحر دون أن يدرى أيضا . ونحن نشك فى أن الباحثين حين يعلنون فى براءة ، أنهم محايدون عند دراسة موضوعات الترتيب الطبقى ، أنهم محايدون فعلا أو انهم ينتمون الى اتجاه دون آخر من غير دراية حقيقية .

وبناء على ذلك نستطيع أن نميز الاتجاهين الرئيسين فى دراسة الترتيب الطبقى وما يترتب على كل منهما من نتائج متصلة بطبيعة الدراسة وإتجاهاتها والموضوعات الأساسية التى يفضل كل من أنصار هذين الإتجاهين التركيز عليها .

ا ـ إتجاه التسلسل والتمايز الدائم : ومحصلة هذا الاتجاه تظهر عند أولئك الباحثين الذين يفضلون دراسة الطريقة التى يضع على أساسها الفرد نفسه فى سلسلة المراكز فى المجتمع الذى ينتمى اليه ، وكذلك الطريقة التى يحافظ بها عن طريق أفعاله ، على وضعه فى هذه السلسلة ، ويظهر اهتمام هؤلاء بالنواحى الدائمة والثابتة فى المجتمع ، فى تركيز أبحاثهم على نظام مراتب الأفراد ، الذى يعتبر من غير شك جانبا هاما فى مسألة الترتيب الطبقى . وعلى ذلك يرتب الأفراد على أساس عدد من مقاييس الامتياز والنفوذ التى يستخدمونها مع غيرهم لتمكنهم من الحكم على الطريقة التى يجب إتباعها عندما يتصلون أحدهم بالآخر . ونتيجة مثل هذه الدراسة وغيرها تعتبر محاولة لتحليل الأسلوب الذى يحاول على أساسه الترتيب الطبقى الحاضر أن يحافظ على جوهره [١] .

ب ـ الإتجاه الجمعى المتغير : ويهدف إلى دراسة السلوك الجمعى فى تأثره بالتنظيم الاقتصادى للمجتمع ، ومن أجل ذلك يرتب الباحثون الأفراد طبقاً لعدد من المقاييس الخارجية ، مثل المهنة والدخل ونمط الاستهلاك والملكية

---

(١) هذا هو الاتجاه الشائع فى علم الاجتماع الامريكى . ويحاول بارسونز ومدرسته فى هذه الايام تدعيمه بتحاليل جديد ومنطق مختلف عما درج عليه أغلب الكتاب المعاصرين .

وغير ذلك . وتعتبر التغيرات التى تحدث فى الاتجاهات المهنية وفى توزيع الدخل جانبا متكاملا من أبحاث هؤلاء . ولعل هذا هو الذى جعل بعض الكتاب يقولون إن هذه الأبحاث المتعلقة بالسلوك الجمعى تركز على المسائل المتعلقة بالتغير الاجتماعى فى المحل الأول ، لأن أصحابها يقررون ، أن سلوك الجماعة يكون استجابة مباشرة للبيئة المتغيرة . ولهذا كانت كثير من كتابات كارل ماركس ، دراسة للجماعات بهدف تحليل عمليات التغير الاجتماعى . ومع أن هناك عدة إختلافات بين الدراسات التى تدرس نظام المراتب فى ضوء اعتبارات اقتصادية ، وبين النظرية الماركسية التى تنسب تغيرات البناء الاجتماعى إلى تغيرات سابقة فى الظروف المادية للمجتمع ، إلا أنهما يشتركان فى الاعتقاد بأن سلوك الجماعات يعتمد على التغيرات التى تحدث فى التنظيم الاقتصادى والتوجيه السياسى . ومن هذه الزاوية ،يعكس الإتجاه الجمعى المتغير والإتجاه الماركسى الاهتمام المتزايد بالنواحى المتغيرة للمجتمع .

اساس التمايز فى المجتمع

١ ـ تختلف مراكز الأفراد ومراتبهم فى أغلب المجتمعات والجماعات ، وتعكس هذه الإختلافات قيم المجتمع بطريقة يمكن تمييزها وإبرازها للدراسة المقارنة . وقد تقوم اختلافات المركز على أساس السن أو الجنس أو الثروة أو المؤهلات الشخصية . وفى بعض المجتمعات هناك تدرج فى المراتب،بحيث لا نستطيع أن نحدد مراتب معينة تختلف اختلافا أساسيا عن مراتب أخرى فى نفس المجتمع ، بينما نجد الإنقسام الطبقى فى مجتمعات أخرى واضحا مثل الطوائف فى الهند أو الإقطاعيات فى مجتمع القرون الوسطى .

٢ - وأول ما يجب أن نلاحظه هو أن الأفراد والجماعات قد تختلف بعضها عن الآخر فى صفات معينة، كالجنس أو المهنة. الأمر الذى يسمح بتصنيف الناس على هذا الأساس، أو يكون الاختلاف بينهم من طبيعة يمكن قياسها مثل اختلافات الدخل أو إختلافات العمر. كما أننا نلاحظ أن الأفراد أو الجماعات غير المتجانسة من حيث الجنس أو المهنة أو الصفات الأخرى يقومون بوظائف مختلفة عندما يتفاعلون، مثل الحصول على الطعام أو حمل الأثقال أو القتال، وعندما تثبت هذه الوظائف المختلفة عن طريق الثقافة فى نموذج يحدد الموقف الاجتماعى لشخص معين يشغل هذا الموضع، فاننا نسمى هذه الوظائف «الأدوار الإجتماعية». ولما كان المجتمع عبارة عن تنظيم من عدة جماعات تقوم بأنواع مختلفة من النشاط، فاننا نتوقع نتيجة لهذا أن توجد أدوار اجتماعية كثيرة. فالفرد يقوم بأدوار متعددة بتعدد انتماءاته الإجتماعية. ولذلك نلاحظ أنه فى المجتمع البسيط المتجانس ثقافيا والمستقر نسبيا تكون أدوار الناس قليلة. الأمر الذى يترتب عليه ألا نجد تصادما أو نزاعا بين أدوار الناس، وكل النزاع الذى يحدث يكون نزاعا من النوع الذى خبرته الجماعة لمدة طويلة ووجدت له الحلول السلمية. ولكننا نجد الأمر على عكس ذلك فى المجتمعات التى تتغير بسرعة، حين تتعدد الجماعات المختلفة المقاصد التى ينتمى إليها الفرد ولهذا نقول إنه كلما تعقد المجتمع كلما تعقدت الأدوار الاجتماعية وأصبحت الفرصة سانحة للنزاع بينها.

٣ - كل المجتمعات تمايز بين أعضائها على أساس الأدوار، كما أن كل المجتمعات تقيم هذه الأدوار بطريقة متمايزة. ولذلك تعتبر بعض الأدوار أكثر أهمية وأكثر قيمة من أدوار أخرى. وبالتالى يقدر المجتمع أولئك

الذين يشغلون أدوارا مهمة من وجهة نظره . وهذا التقدير الاجتماعي المختلف للأدوار الاجتماعية التي يقوم بها الأفراد هو الذي أدى الى ظهور فكرة المركز ، ولذلك ينظر إلى المركز من وجهة نظر علم الاجتماع على أنه المرتبة التي تقرنها الجماعة بدور معين أو بمجموعة من الأدوار ، ولذلك تسمى العملية التي عن طريقها ترتب الجماعات أو الأفراد في سلسلة متدرجة من المراكز « الترتيب الطبقي Stratification » ونحن نستخدم هذه الكلمة في علم الإجتماع لما بين التدرج الاجتماعي وبين ترتيب الصخور القديمة في طبقات داخل القشرة الأرضية من وجه شبه بطريقةما، ولكن التدرج الاجتماعي أقل دواما واستمراراً في الزمن من الطبقات الجيولوجية ، وإذن يوجد الترتيب الطبقي إذا وجدت الجماعات في مواضع مرتبطة بمراتب معينة ولها درجة معينة من الدوام .

٤ ــ ويكاد علماء الإجتماع يجمعون على أن كل المجتمعات الإنسانية المعاصرة والتاريخية تنطوي على نوع معين من الترتيب الطبقي على أساس اختلاف أدوار الناس ومراكزهم في الحياة الاجتماعية . وقد أدى تقسيم العمل في المجتمعات الحديثة إلى أنواع لا حصر لها من الأعمال التي تختلف بعضها عن الآخر وما يؤدي إليه هذا الاختلاف من اختلاف الذين يقومون بها . ولهذا فان الحديث عن المساواه المطلقة بين أعضاء المجتمع الواحد في وجود هذا التقسيم المعقد للعمل ، وفي وجود المراكز والأدوار غير المتساوية أمر غير منطقي وغير واقعي أيضاً . ولكن الترتيب االطبقي قد يتأثر ببعض الإيدولوجيات التي قد تقرب الأبعاد الاجتماعية بين الناس أو قد تزيدها إتساعا.

٥ ــ وعند دراسة الترتيب الطبقي للمجتمع لا يجد الباحث في المجتمع مفرا

من التعرض لموضوع الطبقات الاجتماعية التى تعتبر جوهر الترتيب الطبقى فى كل مجتمع . وفى هذا الصدد لا نجد موضوعا اختلف عليه علماء الاجتماع مثل موضوع الطبقة الاجتماعية من حيث طبيعتها وحدودها ومقاييسها .

المركز الاجتماعى

١ ـ المركز هو الوضع الاجتماعى الذى يعين لصاحبه بغض النظر عن صفاته الشخصية وخدماته الإجتماعية ، درجة من الاحترام والنفوذ والتأثير . وعلى الرغم من أن هنالك إرتباطا تاريخيا وثيقا بين الطبقة الاجتماعية وبين نوع المهنه ، فانهما لا يمتزجان ، لأن الفواصل الطبقية لا تقوم أساسا على الوظيفة ، ولكنها تقوم على المركز Status

٢ ـ وتختلف الدعائم التى يستند عليها المركز باختلاف المجتمعات وباختلاف الفترات التاريخية فى هذه المجتمعات نفسها . ففى المجتمعات البدائية حيث لا يوجد تمايز طبقى بالمعنى المعروف يقوم المركز على أساس الإمكانيات الفردية . لكن المركز يمكن أن يقوم على اختلافات فى المولد أو الثروة أو المهنة أو السلطة السياسية أو الجنس أو الامتياز العقلى كما فى الصين القديمة . وغالبا ما يتحدد المركز باجتماع أكثر من خاصية من الخواص السابقة . وكلما أصبح لعامل من العوامل السابقة مركز الصدارة بحيث يلتف حوله باقى العوامل ، ويصبح هذا العامل أمراً متعارفا عليه فى التراث الإجتماعى كلما مهد السبيل إلى قيام طبقة إجتماعية مستندة إليه . وذلك مثل طبقات السن والثروة .

الترتيب الطبقى

١ ـ لماذا نصنف الناس ونحب دائما أن ننظر إليهم لا كأفراد ، ولكن

كطبقات ؟ الواقع أن مثل هذا النوع من السلوك يؤدى إلى إهـدار حقوق بعض الأفراد على الرغم من أن الإجابة على السؤال السابق قدتكون بطريقة أخرى عندما يذهب البعض إلى القول بأنه يجب أن نتصرف حيال كل الأفراد طبقا لما هم عليه فى واقع الأمر ، لا طبقا لانتماءاتهم الطبقية . ويتأيد هذا الإدعاء على أساس الاختلافات الكبيرة التى نلاحظها فى ذكاء الأفراد وتربيتهم وشخصياتهم ومهاراتهم وطوابعهم العامة والخصائص الأخرى التى تزيد من ضرورة معاملة الناس على أساس مؤهلاتهم الشخصية بغض النظر عن الطبقة التى ينتمون إليها . وعلى الرغم من وجاهة هذا الزعم ونبل أهدافه إلا أنه يتغافل عدة اعتبارات هامة تؤدى إلى عدم وجود مثل هـذا السلوك فى واقع الأمر ، ذلك أن مطالب المدنية الحديثة التى تقتضى القرارات السريعة والإستجابات اليومية بالإضافة إلى القدرات الإنسانية المحـددة تجعل الناس يتصرفون بعضهم ازاء البعض الآخر كطبقات أكثر من أفراد سواء أرادوا ذلك أو لم يريدوا .

٢ ـ ومن السهل فى الأسرة أو فى الجماعات الصغيرة أن يتصرف الأعضاء بعضهم مع الآخر على أساس كونهم أشخاص ، ولكن إذا اضطرت الأسرة أو الجماعة أن تتعامل مع غرباء غير معروفى الخصائص فان أعضاءها لايملكون إلاأن ينظروا إليهم نظرة طبقية، ومعنى هذا أنه نتيجة لاتساع حجم المجتمع وتمايز الناس الشديد وسيادة العلاقات غير المباشرة وانقسام الناس إلى جماعات مهنية وتوزعهم فى أقسام المجتمع المختلفة ؛ تصبح النظرة الطبقية محـددة لطابع العلاقات الإجتماعية ومسيرة للاستجابات السريعـة التى تؤدى إلى إعطاء تبرير سريع للسلوك الاجتماعى وتحديد واضح للمواقف الاجتماعيـة . ويزعم لويد وورنر أن تقسيم العمل حين يزداد إلى جانب تعدد واختـلاف الوجـدات

الاجتماعية تصبح الحاجة إلى التآزر والتماسك شديدة جدا ، وإذا وصل المجتمع إلى هذه الدرجة وأمكن الوصول إلى هذا التكامل تكون الفرصة كبيرة أمام المجتمعات الكبرى أن تعيش وأن تنمو ، ولن يتحقق التكامل والتآزر الابناء على تحديد مراتب الناس وتعيين مواضعهم فى النسق الإجتماعى على أساس تدرج معين للوظائف والمراكز وأنواع السلوك المتوقعة والمقررة لكل درجة على حدة .

٣ ـ وهنا نلاحظ أن الترتيب الطبقى للمجتمع يترتب عليه نتائج كثيرة منها : أنه إذا كان المجتمع محددا للطبقات بطريقة حاسمة فإن فرص الحياة المتنوعة لا تكون سانحة أمام الكثرة من الناس ، بل يحدث فى أغلب الأحيان أن يظل الفرد محصورا داخل نطاق طبقته إلا فى أحوال استثنائية نادرة . ولكن المجتمع الذى يذوب الفوارق بين الطبقات بمعنى ألا يغلقها على أعضائها بأن تكون مفتوحة للدخول فيها أو الخروج منها فان أكثر من فرصة تسنح لجميع الأفراد أن يغيروا من مواضعهم ومن مرتباتهم ومن أنماط سلوكهم بحسب مؤهلاتهم الشخصية . والفرق بين الطبقة المغلقة والطبقة المفتوحة هو الذى جعل كثيرا من العلماء يصنفون الترتيب الطبقى فى المجتمع أصنافا كثيرة ربما خرجت عن الغرض الأساسى من دراسة هذا الموضوع فى علم الاجتماع على وجه العموم ، كما أن إمكان وجود الطبقات المفتوحة أدى إلى وجود فكرة التنقل الاجتماعى التى تميز المجتمعات الحضرية والصناعية الآن .

٤ ـ وليس هناك شك أن انتماء الفرد لطبقة معينة يطبعه بطابع خاص ويحدد أسلوبه فى الحياة ونظرته إليها ، حتى أن بعض أفراد طبقة معينة

قد يعرفون بملابسهم أو بلهجاتهم أو بما يفضلونه أو يكرهونه وخاصة فى المسائل المتعلقة بالذوق العام .

وكذلك يؤثر الإنتماء الطبقى على المرتبة الإجتماعية التى تؤثر بدورها على ما يمكن أن يحصل عليه الفرد من نفوذ أو من قوة فى الوسط الاجتماعى الذى يعيش فيه .

٥ - ومهما كان الرأى فى موضوع الطبقات ، فاننا يجب أن ننبه إلى أن كثيرا من المادة الموجودة حولها يرتبط ارتباطا وثيقا بالنواحى الايديولوجية فى المجتمعات المختلفة . فالباحث الأمريكى فى موضوع الطبقات يرفض قبل كل شىء التفسير الماركسى للطبقة ويحاول أن يبرز معالم المجتمع الأمريكى من حيث بنائه الاجتماعى ، فى تحديد معانى الطبقة المختلفة وفى النظر إليها وفى إدراك علاقة الطبقات بعضها بالآخر . كما قد يميل بعض الباحثين الآخرين إلى إبراز التجربة التاريخية لترتيب الناس فى المجتمعات المختلفة، وخاصة فى المجتمعات القديمة التى مرت على عدة تطورات هامة وعلى الأخص من ناحية الصراع الذى كان بين طوائف المجتمع المختلفة حول النفوذ أو القوة أو حول الإستمتاع بالثروة أو طريقة توزيع الدخل . ولهذا كانت أبحاث الطبقة فى أوروبا أكثر اهتماما بتاريخ الصراع الطبقى من الأبحاث التى نجدها عند العلماء الأمريكيين .

وليس هناك شك فى أن افكار سان سيمون وسيسموندى وكارل ماركس عن الطبقات قد فتحت مجالا جديدا فى العلوم الاجتماعية ووضعت نظريات محددة حول مفهوم الطبقة ووظائفها فى المجتمع .

الطبقات الاجتماعية :

إن دراسة ترتيب الناس فى المجتمع ، وفحص الأسس التى يقوم عليها عدم التساوى بينهم فى المراكز والأدوار وفى فرص الحياة ، تشكل الإهتمام الأول لمن يبحثون موضوع الترتيب الطبقى فى المجتمع وإننا لا نشك فى أن مسألة الطبقات هى نقطة الإنطلاق فى الدراسة والتحليل ، ولعل علم الإجتماع الأمريكى يميل إلى اصطلاح « الترتيب الطبقى Social Stratification » أكثر من ميله إلى إبراز اصطلاح « الطبقة Class » لأسباب ايديولوجية أو سياسية ، نظرا للارتباط الوثيق بين الماركسية وتحليل الأساس الطبقى للمجتمعات الرأسمالية .

وكما سبق أن ذكرنا ، يحاول أكثر الباحثين دراسة التفاعل وما يترتب عليه من مراكز أو مراتب مختلفة فى المجتمع ، وذلك لوضع الناس فى سلسلة متدرجة تنظم على أساس اختلاف هذه المراكز وما يصاحبها من أدوار فى الحياة الاجتماعية . وهم بذلك يطمسون فكرة الإنقسام الطبقى الواضح فى المجتمع ويقللون من حدة الشعور لهذا الإنقسام تمشيا مع ايديولوجية المجتمع، التى تقوم فى أساسها على اعتبار اقسامه ذات طبيعة مرنة تسمح دون عائق بالتنقل الاجتماعى . وبهذا يتصورون القضاء على الأفكار المتعلقة بالتصادم الفعلى الذى يحدث بين المصالح المتعارضة لفئات المجتمع التى تتفاوت فى الدخل تفاوتا كبيراً . كما أنهم يحاولون تبرير اتجاههم هذا عن طريق عدد من الأفكار التى يؤكدونها دائما مثل ، دوام صورة البناء الاجتماعى ، والثبات النسبى للأنساق الاجتماعية ، وعند دراسة مسائل التغير الاجتماعى يرجعون عوامله إلى كل شىء تقريبا ما عدا العوامل الإقتصادية أو التكنولوجية ،

وإذا تعرضوا لها ، يقللون دورها أو يربطونها بعدد لا حصر له من العوامل الأخرى ، التي قد تكون ذات طبيعة معتمدة أو مصاحبة ..

إن الحقائق المتعلقة بالتغير الإجتماعي والثقافي ، ينبغي أن تكون واضحة أمام كل باحث في الترتيب الطبقي في المجتمع ، لأن الطبقات الإجتماعية ، تتغير كأي قسم من أقسام المجتمع الأخرى ، وكأي ظاهرة من ظواهره ، استجابة لمؤثرات خارجية وداخلية معا ، ولا يقتصر التغير في الطبقة على الشكل فحسب ، بل إن التغير يمتد إلى المضمون أيضا ، إن القضاء على الصراع الطبقي في المجتمع كما يرى الماركسيون ، لا يتم إلا بتغيير جذري يتناول الأساس الإقتصادي الذي يقوم عليه البناء الإجتماعي ، كما أن تذويب الفوارق بين الطبقات ، لن يتم إلا إذا بلغ التغيير الإجتماعي والإقتصادي في المجتمع أهدافه الكبرى .

ومن أجل هذا نقول ، إن البحث في تذويب الفوارق الطبقية في مجتمعنا ، لابد أن يتم في ضوء الحقائق المضبوطة عن تغير المجتمع ، ذلك لأن تذويب الفوارق مسألة تغير اجتماعي وثقافي في المحل الأول . إننا في المجتمع الإشتراكي نحطم الأسس التي كان يعتمد عليها التقسيم الطبقي ، الذي كان يخلق طبقات متصارعة ، تستغل أحدها الأخرى ، ومن أهم هذه الأسس ، إحتكار الأرض ورأس المال والتحكم في المصالح الإقتصادية ، وما يترتب عليها من بناء اجتماعي يحمل طابع هذا التمايز الطبقي الواضح . إن نجاح مجتمعنا في كسر حدة الإنقسام الطبقي تم عن طريق تدمير مقوماته .

ولهذا نقول إن الفوارق الحقيقية قد ذابت فعلا ، ويبقى أن نعثر على

الأسلوب الذى يمكننا من رسم خطط التعاون والتنافس فى سبيل المصلحة المشتركة ، وهو فى رأينا يقوم على التغيير المخطط الذى يستهدف مصالح الجماعة العليا ، كما يقوم أيضا على اقتلاع جذور الرواسب القديمة التى لاتزال تؤثر فى طبيعة النظرة إلى الحياة ، وانتزاع الثياب المضالة الذى يتخفى وراءها من لا زال متصلا فكريا بمجتمع تركه التاريخ وراءه فى تقدمه الحتمى .

ومن أجل توضيح الموقف السابق ، سوف نعرض فيما يلى لعدد من تعريفات الطبقة الاجتماعية والمقومات التى تستند اليها :

١ - يقول أرنولد جرين Arnold Green ، إن التفاعل الإجتماعى محكوم إلى درجة كبيرة بالترتيب الطبقى . ذلك لأن المراتب التى يحتلها الناس على أساس مراكزهم،فى ضوء مكان الإقامة والمهنة والجنس والدين والثروة وأسلوب الحياة ، تشير وتحدد فى نفس الوقت نفوذهم وقوتهم النسبية . ويلاحظ جرين أن مقومات الترتيب الطبقى هذه تعين الناس على توقع السلوك فى مواقف متعددة . ولكنه يرى أن فكرة الطبقة الإجتماعية لا تسمح لنا باقامة تصنيف طبيعى كما يفعل البيولوجى فى المملكة الحيوانية، ويعترف بأن علم الإجتماع الأمريكى لم يفلح حتى الآن فى تعريف الطبقة الإجتماعية تعريفا مرضيا ، وهو لذلك يقول ، إن البعض يحاول أن يؤكد وجود بناء طبقى قومى ، بينما يؤكد آخرون وجود بناء طبقى محلى ، أى أن مقاييس الطبقات تتغير من منطقة إلى أخرى فى المجتمع الواحد . ويرى عدد آخر من الباحثين أن هناك مقاييسا موضوعية كالثروة والمهنة يمكن أن نحدد عن طريقها الطبقات الإجتماعية .

ولا زال هناك من يعتقد أن الحكم على الطبقات لابد أن يكون من طريق ذاتي يتمركز حول مدى القبول الإجتماعي ومظاهر النفوذ ، التي تحدد المراتب الطبقية (١) .

ويحدد جرين موقفه من موضوع دراسة الطبقات الاجتماعيـــة ، فيزعم أن الطبقة لا توجد في المجتمع الواحد وجودا يتخلل جميع أطرافه ومناطقه المتعددة ، بل إن الطبقة تكون دائما ذات وجود محلي . ومعنى هذا أننا نجد بناء طبقيا مختلفا في كل منطقة محلية في المجتمع الواحد .

ويستند جرين إلى ظروف المجتمع الأمريكي . ويحـاول أن يعمم نظريته ، مدللا على ذلك بالظروف المشابهة للمجتمعات الأخرى . كما أنه يجمع بين المقاييس الموضوعية كالثروة والمهنة ، والمقاييس الذاتيـة كالقبول الإجتماعي والسمعة الاجتماعية ، في تحديد المقومات التي يستند إليهـا البناء الطبقي (٢) . وهو بذلك ينظر إلى الطبقة نظرة فردية ويضيق نطاقهـــا فيحصرها في منطقة محلية ، حتى لا يعترف بأن الظروف المتشابهة التي تميز عددا من الجماعات بغض النظر عن مكان إقامتهم ، يمكن أن تجمع بينهم وتمهـــد الطريق أمامهم للشعور بوحدة المصالح ، وبالتالي تكون الطبقـة الإجتماعية حقيقة مجتمعية وليست حقيقة محلية .

٢ ـ ولا يختلف جونسون Johnson ، كثيرا عن جرين في الخطوط الأساسية ، لأنه يركز على المراتب الاجتماعية التي تتصل بخصائص الأفراد

---

1 — Green, A.; Sociology, New york, 1960, PP. 173–174
2 — Ibid., PP, 179–181

ومظاهرهم السلوكية . ويقول ، إن اصطلاح « الطبقة الاجتماعية » يعنى « شريحة داخلية الزواج ، تتكون من عائلات متساوية النفوذ تقريبا ، مؤهلين للتفاعل الاجتماعى ، كل مع الأخرى ، ويكون ذلك دليلا على المساواة » . والشريحة كمصطلح تشير إلى أن الطبقة الاجتماعية جماعة أو أكثر ، يمكن ترتيبها فى نسق متكامل نسبيا من مراتب النفوذ .

٩ ويدلل جونسون على سلامة هذا التعريف كما يلى :

ا — الأسرة أساس الطبقة ووحدتها ، ومعنى ذلك أن الاختلافات بين أعضاء الأسرة ترجع إلى الجنس والسن ، ولكن هذه الإختلافات تهمل عند الترتيب الطبقى ، لأن هؤلاء الأعضاء ينظر إليهم على أنهم متساوون طبقيا .

ب — الطبقات يتم الزواج فى كل منها داخليا ، ذلك لأن الرجال يميلون إلى الزواج من نساء غير مختلفين كثيرا عنهم فى الأصل الأسرى أو التربية .

جـ — التفاعل المستمر بين أعضاء عدة جماعات دليل على انتمائهم إلى طبقة واحدة . ومن علامات المساواة الطبقية أن تتزاور الأسر وتتبادل المودة والتعاون ، أو أن يشترك اعضاؤها فى ناد واحد أو جمعية واحدة .

د — عندما يتشابه اعضاء الجماعات المتعددة فى اسلوب الحياة ، يكون هذا دليلا على انتمائهم إلى طبقة واحدة ، وأسلوب الحياة له مظاهر كثيرة ، مثل طريقة التزين والنظافة والإشارات وطريقة الكلام وشكل الملابس

ونموذج مكان الإقامة وموقعه فى المجتمع المحلى .. وهكذا [1] وواضح أن جونسون يضيق نطاق الطبقة ويحصرها فى مجتمع محلى واحد ، ويؤكد أهمية التفاعل الاجتماعى فى تحديد مقومات الطبقة . وهو وإن كان يعرض فى أثناء مناقشته للطبقات الاجتماعية ، للمهنة والثروة والأسس الاقتصادية الأخرى ، إلا انه يغلب عليها القيم المتضمنة فى اتجاهات التفاعل الفردى والأسرى .

٣ - ويعرض جورج لندبرج Lundberg لطبيعة الطبقات الاجتماعية بقوله ، إن أساس العضوية فى جماعة . هو القيام بسلوك معين متوقع من هذه الجماعة ويسمى نمط السلوك المتوقع بالإضافة الى وظيفة معينة « الدور » ، ويطلق على مبلغ الأهمية المرتبطة بهذا الدور إسم « المركز » . ولهذا يمكن مقارنة مراكز الأدوار من حيث علوها أو توسطها أو قلة أهميتها . ويلاحظ أن كلا من الفرد والجماعة لها مراكزا كما أن لهما أدوارا . ولذلك نسمى مثل هذه الجماعة طبقة اجتماعية ، والترتيب الطبقى هو صلة هذه الجماعات (الطبقات الاجتماعية) كل بالآخر . وعلى هذا نجد أن كل مجتمع معقد مرتب ترتيبا طبقيا ، وتتميز مثل هذه المجتمعات باللامساواة التى تترتب على الاختلافات القائمة بين الناس . ويلاحظ أيضا أن الناس يقيمون هذه الاختلافات فى ضوء اصطلاحات ما هو أعلى ، وما هو أدنى .

ويقول لندبرج أيضا ، أنه عند مقارنة عدد من المجتمعات المختلفة ، نلحظ أن أنساق الترتيب الطبقى تختلف من ناحيتين : الأولى من ناحية

---

1 - Johnson, H.; Sociology , london , 1961 , PP. 468-510.

وضوح الطبقات الاجتماعية وتميزها والثانية من ناحية مقدار التنقل الذى يحدث بين هذه الطبقات . وعلى ذلك تكون « الطائفة » نوعا من الترتيب الطبقى يتميز بعدم المرونة فيما يتصل بالناحيتين السابقتين . وإذن تعرف الطائفة على أنها طبقة اجتماعية غير مرنة يولد فيها الفرد ولا يستطيع أن يخرج عليها إلا بصعوبة شديدة . ويعتبر نظام الطوائف فى الهند من خير الأمثلة على ذلك(١)

٤ - ويضع وليام اجبرن يده على الصعوبات الكامنة فى تعريف الطبقة، ويعرض للاتجاهات المختلفة فى هذا الصدد . ولكنه يقول إن الباحث يستطيع أن يستخدم الطبقة والمركز ، كل مكان الآخر كأنهما يعنيان نفس الشيء ، وهو من أجل هذا ناقش الترتيب الطبقى فى فصل مستقل سماه « المركز والدور » كدليل على اقتناعه بهذه الفكرة . وإذن فالطبقة لها ناحيتان ، ناحية ذاتية وهى الشعور الطبقى ، وناحية موضوعية هى الدخل والمهنة ، ولكنه فى نهاية الأمر يجد أن تعريف كارل ماركس للطبقة من أحسن التعاريف وأكثرها دقة وتحديدا ، لأنه يقيم الطبقة على أساس مقاييس موضوعية اقتصادية كالثروة والمهنة والدخل (٢) ولعل أجبرن يختلف فى معالجته لمسألة الطبقات الاجتماعية والترتيب الطبقى عن أغلب علماء الاجتماع الامريكيين . فعلى الرغم من اهتمامه بالمسائل التى تمثل وجهة النظر الأمريكية ، إلا أنه يميل فى النهاية الى معالجة الطبقة من وجهة نظر جمعية، ويعالجها على أنها ظاهرة مجتمعية، ويحاول أن يكشف عن أثر التغيرات الاجتماعية والثقافية فى تغير البناء الطبقى وما يترتب عليه من تغيرات واسعة

1- Lundberg & Others , Sociology , New York , 1958 pp. 476-477

2 - Ogburn & Nimkoff, Sociology, London, 1960, pp 1 150.

النطاق فى الحياة الاجتماعية . ومن يقف على نظرية أجبرن العامة فى علم الاجتماع يكتشف فوراً اعتقاده التام بأن تغير المجتمع يرجع فى المحل الأول الى التغيرات التى تحدث أولا فى الأساس المادى له كالتكنولوجيا والصناعة بوجه عام .

نظرية كارل ماركس

تمثل نظرية ماركس فى الطبقات الاجتماعية نقطة هامة من مجموع دراساته ، وكان لها تأثير كبير على التفكير الاجتماعى الحديث . ومن يفحص أعمال كارل ماركس لا يجد جزءا فيها خصص لموضوع الطبقات . ولكن مناقشته جاءت فى عدة فقرات متفرقة . ولهذا فان من يحاول التعرف على هذا الموضوع عليه أن يجمع كل ما كتبه ماركس عن الطبقات فى أعماله المتعددة ، ويجتهد فى أن يربط الآراء المتعددة فى إطار نظرى متكامل .

ويقسم ماركس التاريخ إلى مراحل متعددة مثل ، المدنية القديمة والأقطاع والرأسمالية . وتتميز كل من هذه المراحل بنوع خاص من الإنتاج ، يترتب عليه بناء طبقى يتكون من الطبقة الحاكمة والطبقة المستغلة والمسلوبة الحقوق . ويحدد الصراع الذى يقوم بين هاتين الطبقتين طبيعة العلاقات الاجتماعية بين الناس . ويلاحظ أن الطبقة الحاكمة تهيمن على الحياة العقلية والخلقية للاخرين من خلال سيطرتها على كل وسائل الانتاج . ولهذا يقول كارل ماركس ، إن القانون والحكومة ، والفن والأدب والعلم والفلسفة ، تكون جميعا فى خدمة مصالح هذه الطبقة الحاكمة .

ويستطرد ماركس قائلا ، إنه فى وقت معين تكون كل طبقة ذات طبيعة ثورية ، ولهذا تكون الطبقات « تقدمية » بمعنين : عندما تتطابق مصالح

الطبقة الإقتصادية بالتقدم الفنى ، وبالتالى بتزايد الرفاهيــة الإنسانية وإتساع نطاقها . ولذلك تتجه جهود هذه الطبقة أو تلك نحو متابعة المصالح المرغوبة ، ومن ثم تميل ناحية الأفكار والنظم المتحررة ، بقدر ما تعارض كل ما من شأنه تعطيل التقدم الفنى ، وتعويق طريق الرفاهية . ولكن عندما تصعــد الطبقة لتحتل مراكز السلطة والحكم مثل الرأسماليـــة ، فانها حينئذ تلعب دوراً مختلفا . ذلك لأنها تدرك أن مساندتها للتقدم الفنى رعاية لمصالحها الإقتصادية ، سوف يشكل خطرا عليها ، لأن مزيداً من التغير فى هـــذه الناحية سيعرض سيادتها الإقتصادية للخطر ، وإذن فلابد أن تقف لتعارض ما ساندته من قبل . ومعنى هذا أن صعود مثل هذه الطبقة إلى مراكز الحكم يحولها من بطلة فى التقدم ، إلى بطلة فى التعويق ، . ولهذا تقاوم باصرار كل المحاولات التى تبذل لتغيير التنظيم الاقتصادى والإجتماعى فى المجتمع . ويترتب على هذا الإصرار فى المعارضة أن تتجمع المصــاعب والتوترات والمشاكل ، ويصبح لا مناص من التغيير الثورى للمجتمع لإنهاء الصراع الذى وصل إلى نقطة الانفجار .

ولعل النقطة الهامة التى أثارت عــددا من الإعتراضات على نظرية كارل ماركس ، هى موضوع الصراع الطبقى والتغير التاريخى ، الذى يصفه النقاد وخصوصا فى الغرب ، بأنه محاولة تعسفية لتفسير مجرى الحوادث الإنسانية . وجوهر الإعتراض على نظرية ماركس ، أن التصور المادى للتاريخ أستخدم بطريقة توحى أن العوامل الفنية والاقتصادية ، هى وحدها التى لها وجود حقيقى فى النطاق الاجتماعى والسياسى والعقلى بأكمله ، ويبدو أن فردريك انجلز ، زميل كارل ماركس ، لم يكن على وفاق تام معه إزاء هذا النوع من التفسير ، ويظهــر ذلك فى خطــابين أرسلهما أنجلــز إلى ماركس عام ١٨٩٠ .

ويبدو أن ماركس وأنجلز - مع هذا - قد ذهبا إلى أقصى طـــرف فى تفسيرهما للتاريخ إستجابة لمطالب النضال السياسى والإجتماعى فى عصرهما ويقول بعض المعلقين على نظرية ماركس، أنه لولا هذا التطرف، لما كان من الممكن أن تصادف نظريته القبول والنجاح الذى لاقته، ولا تزال تلاقيه حتى الآن .

ويعرف كارل ماركس الطبقة الاجتماعية بأنها «تجمع من أشخاص يقومون بنفس الوظيفة فى نظام الإنتاج». ولذلك كان الأحرار والعبيد، أو السادة والرقيق أو الخدم وغيرهم على هذا النحـــو من الثنائية، هم أسماء الطبقات الاجتماعية فى مختلف فترات التاريخ . وتتميز هذه الطبقات أحدها عن الاخر، بمركز كل منها المختلف فى الإقتصاد .وأساس الوجود الطبقى عند ماركس، هو الوظيفة التى يقوم بها الأعضاء فى عملية الانتاج . ولذلك تساءل الكثيرون عن السبب الذى من أجله جعل ماركس تنظيم الإنتاج المحدد الأساسى للطبقة الإجتماعية، وقد أجاب ماركس على هذا التساؤل فى كتاباته المبكرة فى الفلسفة، وعلى الأخص فى نظريته عن تقسيم العمل .(١)

إن العمل عند كارل ماركس هو السبيل الوحيد الذى يحقق الإنسان به ذاته، فالإنسان لا يستطيع أن يعيش دون أن يعمل، ولذلك كانت الطريقة التى يعمل بها الإنسان فى المجتمع هى السبيل الوحيد لفهم الطبيعة الإنسانية . وقد شرح ماركس بإسهاب نواحى الانتاج المختلفة التى تفسر حركة التاريخ . ويقول فى هذا المقام، إن جهود الإنسان لضمان لقمة العيش

---

1 — **Bendix & Lipset; Class Status and Power : A Reader in Social Stratification; 1961, pp. 26 – 35**

هي الأساس الأول لتحليل تغير المجتمع ، مع ملاحظة أن التحسن المستمر في أدوات الإنتاج عبر التاريخ كان مرتبطا بتزايد حاجات الإنسان . هذا ويكشف التاريخ عن الفترات التي زاد فيها الصراع بين الطبقات حول توزيع نتاج العمل . والصراع عند ماركس أول علامات التناقض الطبقي في المجتمع ، الذي يزداد عن طريق إتصال العاملين في الطبقة الواحدة بطريقة سهلة ، الأمر الذي يزيد او يقوى من شعورهم الطبقي . ويصل هذا الشعور إلى نقطة معينة يتجمع عندها التوتر ، الذي يتخذ طريقه إلى التنظيم فالثورة .

نظرية سوروكن (١)

ناقش سوروكن موضوع الطبقات الاجتماعية في عدد كبير من كتبه ولكنه في كتابه (المجتمع والثقافة الشخصية) الذي اصدره عام ١٩٤٧ ، حاول أن يربط مسألة الترتيب الطبقي بأنواع التجمعات الانسانية الأخرى التي تشكل مجموع السكان . ويجب أن نشير هنا إلى أن سوروكن من أكثر المعارضين لنظرية كارل ماركس ، ذلك لأنه يعتقد اعتقادا جازما بأن المؤثرات الاساسية في العالم الثقافي الاجتماعي لا ترجع إلى عوامل إقتصادية او مادية ، وإنما ترجع إلى مجموعة من العوامل يكون العامل الإقتصادي واحدا منها فحسب . وهو مع ذلك لايخفى اهتمامه بالمسائل المتعلقة بالجوانب الإيديولوجية والقيم والمعنويات الأخرى في بناء المجتمع وتغيره ومن الصعب أن نضع سوروكن ضمن الاتجاه الامريكي في هذا المجال ، لأنه لم يهتم ، إتفاقا مع هذا الإتجاه بالمسائل المتصلة بمراكز الناس ومراتبهم في المجتمع

(١) عرض سوروكن نظريته في الطبقات في كتبه المتعددة وعلى الاخص في الـ Society ، Culture and Personality وفي Social & Cultural Mobility ، كما عددها أكثر في مجلة علم الاجتماع القانوني والسياسي (١٩٤٧) ص ٢١–٢٨

إهتماما يجعله ينساق إلى ترتيبهم فى نطاقات محلية لتجنب الإعتراف بوجود الطبقة فى المجتمع وجودا عاما .

ويعتقد سوروكن أن الطبقة الاجتماعية ، تتكون من جماعات متعددة الروابط ، ويقول إن الطبقة الاجتماعية ليست إلا نوعا من الجماعات ، سواء أطلقنا عليها هذا الإسم أو أى إسم آخر . كما يقول إن الطبقة الاجتماعية حقيقة موجـودة ، ولا ينبغى ان نناقش أهميتها أو واقعيتها لأن ذلك أمر مسلم به . وقد حدد سوروكن خصائص الطبقة بقوله : إنها من الناحية القانونية ، مفتوحة لمن يدخل فيها أو يخرج منها ، ولكنها من الناحية الواقعية شبه مغلقة ، وهى طبيعية ومتماسكة ، وعدائية للجماعات أخـــرى(طبقات إجتماعية) لها نفس الطبيعة العامة . ويرى ايضا ان الطبقة الاجتماعية يمكن النظر اليها ، على انها جماعة منظمة نسبيا ، ولكنها فى الواقع ضعيفـة التنظيم ، كما أنها تعى وحدتها ووجودها فى بعض الأحيان ، وفى احيان اخرى قد لا تصل الى هذه المرتبة من الوعى والشعور بالوجود . وهى فضلا عن ذلك تعتبر من الخصائص المميزة لأوربا فى القـرنين الثامن عشر والتاسع عشر والقرن الحالى أيضا . ويضيف سوروكن إلى خصائص الطبقة خاصية هامة ، وهى أنها جماعة متعددة الروابط ، أى انها ترتبط عن طريق رابطين هامين هما الرابط المهنى ، والرابط الاقتصـادى ، وهى من حيث الترتيب الطبقى تتميز بمجموعة من الحقوق والواجبات تختلف عن حقوق وواجبات الطبقات الأخرى التى لها نفس الطبيعة العامة .

ويزيد سوروكن تعريفـــه المفصل للطبقة الإجتماعيـة شرحا على النحو الآتى :

١ ـ تختلف الطبقة عن الطائفة المغلقة على اساس طبيعتها المفتوحة قانونا وشبه المفتوحة فى الواقع . كما أنها تختلف عن الانظمة الأخرى أو الولايات من حيث العدد ونوع الروابط المعقدة التى ترتبط بها . ومن هذه الزاوية تختلف الطبقة أيضا عن الأسرة والقبيلة والأمة ، وغير ذلك من أنواع الجماعات المتعددة الروابط .

٢ ـ تتماسك الطبقة عن طريق مجموع القيم والمعاني والمعايير التى تكمن وراء مركزها القانوني والإقتصادى والمهنى . وينبعث عن هذا النوع من التماسك نوع من العداء ينصب على الطبقات الاجتماعية الأخرى المختلفة عنها .

٣ ـ إن امتزاج الروابط التى تربط الطبقة يعتبر امرا طبيعيا ، ولذلك يصاحب الفقر المهن اليدوية، كما ينعكس هذا ايضا على العاملين فيها من حيث حقوقهم وامتيازاتهم ، والعكس فى هذه الحالة صحيح، بمعنى ان الثروة تصاحب المهن التى تتميز بالأعمال المبدعة الخلاقة ذات الطابع العقلى، ويترتب على ذلك ايضا ان يكون للعاملين فى مثل هذه المهن مراكز ممتازة من الناحية الواقعية والقانونية .

إن الافراد الذين يتشابهون فى مهنهم ووضعهم الاقتصادى ومركزهم القانونى فى مجموعة سكانية واحدة ، ولكنهم غير منتظمين أو شبه منتظمين، يعتبرون من الناحية الفنية جمعا إسميا ولا يكونون طبقة اجتماعية . ومعنى ذلك أن سوروكن يعتقد ان التنظيم او شبه التنظيم هو الذى يكون الطبقة الاجتماعية الواعية، لأن التنظيم إذا حدث يمهد الطريق لما يسمى بانبثاق الشعور الطبقى بين افراد الجماعة ، كما يؤدى فى نفس الوقت إلى ظهور معان وقيم ومعايير تسير جنبا الى جنب مع نمو الطبقة ذاتها ، وتبدو هنا

معارضة سوروكن للنظرية الماركسية فى قوله ، إن الوعى الطبقى لا ينبثق نتيجة لنظرية هذا أو ذاك ، لأن مجرد النظرية لا يعتبر دليلا على الوجود الطبيعى للطبقة . وواضح من هذه العبارة أن سوروكن يريد أن يقول ، إن الشعور الطبقى ينبثق تلقائيا داخل الجماعة نتيجة لعمليات تنظيمية جماعية ، ولكنه ينسى أن النظرية إذا عبرت عن الواقع او ترجمت عن الذبذبات البعيدة فى البناء الاجتماعى ، فانها تعتبر من اعمال الخلق غير المنفصل عن الواقع كثيرا ، ولا يكون إنبثاق الشعور الطبقى نتيجة لنظرية ما إلا مسألة زمن فقط ، وقد يكون زمنا قصيرا فى بعض الحالات . ومثال ذلك أن عددا من المفكرين قبل كارل ماركس أحسوا بالتناقض الذى يزداد ظهورا على مر الأيام بين الرأسمالية الصاعدة وبين جماهير العمال الكادحة ، وكان حل هذا التناقض فى رأيهم عبارة عن نظرية جديدة فى تذويب الفوارق بين الطبقات وإخضاع رأس المال لمطالب التغير الاجتماعى والاقتصاى الذى لا مناص منه . وقد أدركنا فى مجتمعنا الاشتراكى المعاصر ، ان تحرير المواطن وكفالة الضمانات الحقيقية لحياته ، وحريته فى التعبير والحركة ، لن يتم إلا بالقضاء على المصادر المباشرة وغير المباشرة التى تدمر فاعليته أو تخدعه عن إدراك مصالحه الحقيقية ، ومن ثم كان لابد من ترويض رأس المال على نحو معين أو القضاء على احتكاره وسوء استغلاله . وليس من شك أن مثل هذا النوع من التفكير يعبر عن نظرية ويترجم فى نفس الوقت عن مطالب جوهريه ، ويهدف الى تحقيق مصالح حيوية لمختلف الجماعات التى يتكون منها المجتمع .

٥ ـ ان اختلاف الطبقات الاجتماعية عن غيرها من أنواع الجماعات فى المجتمع يبدو فى الروابط الملتئمة التى تربط كل منهـا ، وأخصها الروابط المهنية والاقتصادية ، إلى جانب روابط الانتماء الى نفس الشريحه فى المجتمع .

٦ ـ إن أرتباط الروابط الإقتصادية والمهنية معا يعمل على إحداث تأثيرات بالغة القوة على العقل والجسم، الأمر الذى يظهر فى طريقة السلوك وفى النظرة إلى الحياة عند الفرد . كما أن تأثيرها المشترك يزداد قوة عن طريق المركز المتشابه للأفراد داخل إطار الترتيب الطبقى للمجتمع . ويعتقد سوروكن أن هذا التأثير وذلك التشابه هما اللذان يؤديان فى واقع الأمر إلى ظهور ما يسمى بالشعور الطبقى .

ويعتقد سوروكن أن تعريفه هذا يغطى فكرة الطبقة الإجتماعية من جميع جوانبها، ولا تظهر فيه النقائص التى تظهر فى التعريفات الأخرى التى تبرز جانبا واحدا وتهمل الجوانب الأخرى ، ذلك لأنه أبرز الجانب المهنى والإقتصادى وأكد على أهمية الروابط المتعددة الأخرى التى تسهم فى الوجود الطبقى، وما يترتب عليها من ظهور الشعور الطبقى الذى يعتبر العلامة المميزة للطبقة الإجتماعية .

نظرية لويد وورنر W. Lloyd Warner

من أشهر النظريات الأمريكية فى الترتيب الطبقى ، تلك النظرية التى تمخضت عن دراسة لويد وورنر ومعاونيه للطبقات الإجتماعية فى أحد المدن الأمريكية الصغيرة التى أطلق عليها إسم « Yankee City » وقد استخدم وورنر فى هذه الدراسة « المدخل الأنثروبولوجى » الذى درس على أساسه عددا من القبائل فى استراليا . ويتلخص هذا المدخل الأنثروبولوجى فى المحاولة التى يبذلها الباحث لربط البناء الإجتماعى والثقافى لمجتمع بأكمله .

ولقد كانت أولى دراسات وورنر للمجتمعات المحلية الحديثة بالإشتراك مع إلتن مايو Elton Mayo ومعاونيه ، وخاصة فى الأبحاث التى أجريت على على المصانع والتى كان الهدف منها تمشيا مع الطريقة الأنثروبولوجية ،تحديد معالم التنظيم الإجتماعى لمجتمع محلى بأسره ، من أجل إدراج المصنع فى المضمون الكلى للنسق الاجتماعى (١) .

١ - ويحلل وورنر التنظيم الاجتماعى للمجتمع المحلى على أساس إبراز مكوناته من التجمعات الفرعية التى يسمى كل منها بنـاءاً اجتماعيا . والمجتمع المحلى فى رأيه يتكون من عـدد من البناءات الإجتماعية هى : الأسرة والنظم الإقتصادية والمنظمات الإختيارية ، والطبقات والطوائف ، والمدرسة ومكان العبادة ، والتنظيم السياسى وتجمعات السن والجنس . كما يرى أن كل مجتمـع يعطى أولوية واهتماما خاصا ببناء واحد يعطى صيغة عامة لباقى المجتمع، ويربط فى تكامل كل البناءات الأخرى لتكوين الوحدة الاجتماعية .

ويلاحظ أن وورنر ولنط Lunt بدءا ابحاثهما وهما يعتقدان ان الطبقة تحددها العوامل الإقتصادية إلى درجة كبيرة . وقـد ايدت مادة الاستبار التى جمعت اولا هذه النظرة ، ولكنهما اكتشفا عنـدما تقدم الاستبـار وتطوره، ان « المخبرين Informants » ، وإن كانوا ينظرون إلى النفوذ

---

١ - أعتمدنا فى عرض نظرية وورنر على ما كتبه سوروكن فى « المجتمـع والثقـافة والشخصية » ، وبرجل فى « الترتيب الطبقى » ، وعلى ما كتبه ر . ر . كورنباوسر فى « الطبقة والمركز والقوة » وعلى قراءات أخرى مختلفه .

والمهنة على أن لهما اهمية عظمى فى ترتيب النـــاس فى مراتب علوية او سفلية ، إلا انها ليستا العاملين الوحيدين التى يمكن استخدامهما فى الترتيب ولاتضمن وحدها للفرد مركزا إجتماعيا معينا . ومن اجل هـــذا اسقطوا « الفرض الاقتصادى البسيط » من حسابهم .

٢ — وإذن فوورنر تحول من إبراز العوامل الإقتصادية والمهنية ، إلى تصور آخر للطبقة يعتبر فى نظره بديلا عن نظرية كارل ماركس . وجوهر هذا التصور يقوم على إبراز جميع العوامل التى يستخدمهـا افـراد المجتمع ليرتب كل منهم الآخر فى نظام تسلسلى شامل . ولذلك تـكون الطبقة عبارة عن إثنين او اكثر من الناس يعتقد انهم فى مراتب علوية او سفليـة ، ويرتبهم على هذا النحو اعضاء المجتمع الآخرون .

ويعتقد وورنر أن سلم المراتب المتساوية يخترق المجتمع من اوله إلى آخره ، أى انه لا يقتصر على منطقة محلية واحدة ، ولذلك يكون التسلسل الطبقى مؤديا الى ترتيب اعضـاء المجتمع فى سلسلة راسية من السلالم الأفقية . ومثال ذلك ان الأطفال يولدون فى نفس الطبقة التى ينتمى إليها الوالدان ، ولكن تنقل Mobility عبر التسلسل الطبقى صعودا او هبوطا امر ممكن . والمجتمع الطبقى يوزع الحقوق والإمتيـــازات والواجبـات بطريقة غير متساوية بين درجاته العلوية والسفلية .

ويترتب على ذلك ثلاث معالم هامة فى نظرية وورنر :

ا — المدخل الذاتى الضرورى لدراسة الطبقة . فعلى الرغم من ان وورنر يحاول أن يمزج وان يعكس ارتباط العوامل الموضوعية والذاتية فى الترتيب

الطبقى ، إلا ان تعريفه للطبقة يؤكد العوامل الذاتية التى تتصل بالمراتب والدرجات التى يعطيها اعضاء المجتمع كل للاخر .

ومن الواضح ان المراتب او المعدلات ذاتية لأنها تقوم على القيم والإتجاهات والمعتقدات التى تحدد المراكز التى توصف بأنها مراكز ممتازة فى المجتمع . اما إذا استخدم الباحثون المقاييس الموضوعية لتحديد الطبقة ، فان كل الأشخاص الذين يشغلون نفس المركز فى عينة مختارة،سوف يضعهم هؤلاء الباحثون فى نفس المرتبة بغض النظر عن الطريقة التى ينظر بهااعضاء المجتمع لها . وليس المركز الموضوعى مقيسا بالمهنة او الدخل،هو الذى يرتب الشخص فى طبقة معينة فى راى وورنر ، بل إنه ذلك المركز الذى يقيمه أعضاء المجتمع الآخرون هو الذى يضع الشخص فى مرتبة معينة داخل طبقة محددة .

ب - ينصب اهتمام وورنر الأول على البعد الإمتيازى (مقام الشخصى) فى الترتيب الطبقى . ونلاحظ هنا ان الدراسات حول طبيعة الطبقة قدسارت فى طريقين ، الأول ، إهتم بالطرق التى يمارسها الأشخاص الذين يشغلون مراكز اجتماعية إقتصادية معينة . لتأكيد قوتهم فى النطاق السياسى والإقتصادى اتفاقا مع مصالحهم . والثانى ، اهتم بالطرق التى تنظم نسق مراتب النفوذ . ومن الواضح ان وورنر فى دراساته سار فى الخط الثانى .

حـ - إن طريقة وورنر فى تعريف الطبقة وطابع الإجراءالذى استخدمه للوصول إلى هذا التصور للطبقة هو الذى قاده إلى القول :إن الطبقات التى يصفها موجودات تجريبية قائمة فعلا . ومن ناحية اخرى يعتقد وورنر ان

السبب فى قيام الطبقة كحقيقة واقعية ، هو أنه يصف الطبقات على اساس الطريقة التى يفكر بها الناس انفسهم فى الطبقة . ومن اجل هذا استطاع ان يكتشف ست طبقات اجتماعية متمايزة .

٣ ـ ومن أجل الوصول إلى نظرية فى الطبقات،درس وورنر ومعاونوه البناء الاجتماعى لثلاث مجتمعات محلية هى Yankee City وهى مدينة فى نيوانجلند يبلغ سكانها ١٧٫٠٠٠ نسمة تقريبا ، المدينة القديمة Old City وهى تقع فى جنوب الولايات المتحدة الأمريكية ، يبلغ عددسكانها ١٠٫٠٠٠ نسمة تقريبا ،وجونزفيل Jonesville فى الغرب الأوسط ، ويبلغ عدد سكانها ٦٫٠٠٠ ، (وتسمى هذه المدن فى الواقع المتاون Elmtown ، وبريرى سيتى Prairie City ، وهومتاون Hometown) . وقد كان فى نية وورنر فى بداية الأمر دراسة منطقة حول شيكاجو يقع فيها مصنع « وسترن الكترك Western Electric » ولكنه تحول إلى دراسة مجتمع محلى له تنظيم اجتماعى نمى خلال فترة طويلة من الزمان تحت تأثير جماعة ذات نفوذ وفى ظل تقاليد متماسكة .

وعلى هذا الأساس اختار وورنر المدن السابقة . ولكنه اختار Yankee City بالذات لأنها مجتمع عالى التكامل اى ان الصراع داخله فى حده الأدنى ، كما ان تنظيمه الاجتماعى ينطوى على علاقات اجتماعية تحدد مكان الشخص بدقة . والمكان (المرتبة) معروف فضلا عن ذلك لكل اعضاء المجتمع . وقد زعم وورنر ان هذه المدن تمثل كل المجتمع الأمريكى .

ولم يظهر فى دراسة Yankee City او Old City الطريقة التى

استخدمها وورنر ومعاونوه بالضبط ، ولكن دراسة جونزفيل استخدمت فيها طريقتان هما :

ا ـ طريقة المشاركة المقيمة (E.P) وتقوم هذه الطريقة على افتراض ان انواع مشاركات الفرد فى الجماعات الرسمية وغير الرسمية او وجوه النشاط المتعددة معروفة ومقيمة فى نفس الوقت من الناس الذين يعرفونه . كما ان هذه الوجوه المتعددة من النشاط والجماعات تخضع هى نفسها لمراتب محددة . ويقول وورنر ، إن اعضاء المجتمع المحلى يعون بطريقة ظاهرة او باطنة اسس الترتيب ، كما انهم يترجمون تقييماتهم لمثل هذه المشاركة الاجتماعية إلى نوع من الترتيب الطبقى الاجتماعى بصورة تمكنهم من التعبير عنها للباحثين .

ب ـ طريقة « قائمة خصائص المركز I. S. C » وتشتمل على عدد من الوسائل الفنية تستخدم فى استبار المادة التى تجمع عن طريق المخبرين الذين يزودون الباحث بتقييمات لمشاركات الأفراد الآخرين عن طريق قوائم فرعية للمهنة ومصدر الدخل ونموذج المنزل ومنطقة الإقامة .

٤ ـ وقد انتهى وورنر من دراسة للطبقات إلى تقسيمها على النحو الآتي :

ا ـ الطبقة « عالية العليا » وتتكون من ارستقراطيين بالمولد والثروة ، وهم فى الغالب ابناء الأسر القديمة .

ب ـ الطبقة « سفلية العليا » وهى تشبه الطبقة السابقة إلا انها تختلف عنها فى ان اسرها ليست قديمة لا تستطيع ان تبحث ان اصولها بعيدا فى الماضى.

حـ - الطبقة « المتوسطة العليا » وتتكون من رجال الأعمال والمتخصصين فى أعمال معينة،ويقول وورنر إن هذه الطبقات الثلاث تشكل ما يصفه بأنه « المستوى الأعلى من الرجل العادى » .

د - الطبقة « المتوسطة السفلى » وتتكون من رجال الأعمال الصغار والكتبة وبعض العمال المهرة .

هـ- الطبقة « السفلى العليا » وتتكون من العمال المخلصين الأمناء ومن الفقراء الشرفاء .

و - الطبقة « سفلية السفلى » وتتكون من أولئك الذين يكونون فى مستوى أقل من الرجل العادى مثل العمال غير المهرة أو شبه المهرة،ويسكنون عادة المناطق المتخلفة .

ه - إن النقد الذى وجه إلى نظرية وورنر كثير ومتعدد الجوانب ويمكن تلخيصه فى النقاط الآتية :

ا -على الرغم من أن وورنر قد أدخل فى تعريف الطبقة عدة عوامل، وأدعى أن نظريته المترتبة على هذا التعريف ستكون بديلا لنظرية كارل ماركس ، إلا أن المتتبع لأعماله ونتائجها يلحظ من فوره أن مسألة «النفوذ» أو « المقام » كانت النقطة الجوهرية لكل استقصاءاته . ولذلك تكون دراسته ، دراسة لتلك المسألة وليست دراسة للطبقات الإجتماعية .

ب - أهمل وورنر المدخل التاريخى فأوقعه هذا فى أخطاء.وجعل نتائجه ناقصة إلى حد كبير ، كما أغفل قيما عديدة عند حصره للقيم المختلفة فى المجتمع

ويرجع ذلك إلى عدم إبرازه الحقائق المتعلقة بمسائل التغير الاجتماعى . وقد ترتب على ذلك أن وصفت ابحاث وورنر بالاستاتيكية، وبأنها تعبر عن مجتمع قديم .

حـ ـ نظرا لصغر حجم المدن التى درسها ، فقد فات وورنر ان يبرز مسائل التنقل الإجتماعى وما يتمخض عنه من تغيرات فى نظرة الناس وفى مراتبهم فى السلم الطبقى.

ء ـ إن اعتماد وورنر على استقصاء « رأى الناس » فى الناس كأساس فى الدراسة جعل بعض علماء الإجتماع والأنثروبولوجيا من أمثال سوروكن وميلز وهاندلين وروبرت ميرتون ،يعتقدون أن وورنر تخلى عن النظرية المتكاملة فى سبيل « اتجاهات » مشكوك فى صدقها .

هـ ـ كما أن وورنر تعرض لأقسى انواع النقد ، عندما زعم أن دراسة للطبقات الاجتماعية فى المدن الثلاث يمكن أن تمثل الطبقات فى المجتمع الأمريكى بأسره . فقد اتفق أغلب علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا على القول بأن وورنر لم يدرك الفوارق فى البناء والوظيفة والدينامية لمدينة صغيرة ومدينة كبيرة تصل حتى درجة المتروبوليس .

هذا وقد سبق أن ذكرنا ، أن طريقة وورنر إن صلحت لمدينة صغيرة لا يتجاوز عدد سكان كل منها عن ١٧٫٠٠٠ ، وإذا صلحت أيضا لدراسة « مدينة أمريكية » ،فمن المشكوك أن تكون هذه الطريقة صالحة للتطبيق فى مدينة كبرى وفى مجتمع مختلف عن المجتمع الأمريكى ، إلا إذا عدلت تعديلا جوهريا .

التنقل الاجتماعى Social Mobility

ذكرنا من قبل أن الترتيب الطبقى أمر موجود فى كل المجتمعات، ورأينا أن اصول الطبقات ترتد إلى بعض الإختلافات الملحوظة بين الناس، وإلى القيم المرتبطة بهذه الاختلافات، ولذلك كان أى تغيير فى ترتيب هذه القيم يؤدى إلى تغير فى ترتيب مراكز الطبقات المختلفة. ولكننا ذكرنا من قبل أيضا ان الطبقات تسمح فى نفس الوقت لكثير من الأفراد، إما بالدخول فيها او الخروج منها، الأمر الذى يترتب عليه حركة اجتماعية. يغير الناس على اساسها مراكزهم. ويطلق على هذه الحركة إسم « التنقل الاجتماعى ». والدورة الاجتماعية التى تترتب على مثل هذا التنقل توجد فى كل مجتمع، ولكن سرعتها تختلف باختلاف المدى، ففى المجتمعات البدائية. يتحرك الناس داخل مجتمع صغير ويتحركون داخل مجتمع كبير فى المجتمعات المتحضرة والتنقل إما أن يكون افقيا وهو انتقال الظاهرة الثقافية من الشخص او الجماعة إلى شخص او جماعة اخرى متشابهين او متطابقين، ورأسيا إذا مرت هذه الظاهرة الثقافية من اعلى إلى اسفل او من اسفل إلى اعلى، وقد يكون هناك تنقل توسطى إذا ظلت مراكز الناس ومواضعهم عند التنقل غير محددة. وبالنسبة للفرد يكون التنقل افقيا إذا انتقل من جماعة اجتماعية الى جماعة اخرى لها نفس المستوى، وراسيا إذا انتقل من جماعة ادنى إلى جماعة اعلى او العكس.

وعلى الرغم من أن كثيرا من الباحثين فى علم الإجتماع يتفقون فى المعانى المرتبطة بالتنقل الأفقى والراسى فى المجتمع، إلا انهم يختلفون فى فى سرعة الدورة الاجتماعية فى المجتمعات. فالتنقل ومداه يرتبطان بحجم الجماعة التى يشترك فيها الناس بحرية، والتنقل على هذا قد يتحدد رأسيا

عن طريق الحواجز الجغرافية أو صعوبة وسائل المواصلات ، وأفقيا عن طريق الطبقة او الطائفة او العنصر او الجنس او السن .

فالزواج مثلا يمكن أن يقارن فى مجتمعين إذا كان يتضمن تغيرا مشابها فى شدة العلاقات ، وبالتالى لا يقاس التنقل عن طريق البعد الجغرافى أو الرأسى ، وإنما عن طريق حجم الجماعة أفقيا والتى يشترك فيها الناس بحرية .

وإذا ضربنا مثالا لذلك بالتغير فى القرية وخاصة بمقارنتها فى فترة كانت مستقرة إلى حد ما مع فترة أخرى تتغير فيها بفعل عوامل متعددة من عوامل التغير الاجتماعى ، يمكننا أن نلاحظ أن التنقل الاجتماعى فى فترة الثبات النسبية كان له خاصيتين :

الأولى ـ أنه كان « محدودا Limited » وهذا راجع إلى « التدرج فى الصغر » . فالقرية كمجتمع كانت صغيرة ، ولهذا كان التنقل محدودا من حيث السرعة والمدى ، والعائلة كوحدة من وحدة أكبر هى البدنة ، كانت بالتالى أصغر . فهى من هذه الزاوية كانت الوحدة الصغرى للحياة الاجتماعية . وبالنظر إلى خصائصها العامة نلاحظ مباشرة أن التنقل الاجتماعى داخلها وفى إطار البدنة كان أكثر « تحديدا » .

والثانية ـ أنه كان أفقيا Horizontal لأن الزواج إذا لم يغير من الوضع الرأسى للفرد الذى ينتقل من عائلة لأخرى فانه يكون تنقلا أفقيا . هذا لأن مدى العلاقات وكثافتها كان محددا فى دائرة البدنة الواحدة ، وقام على أساس النسق القرابى والزواج الداخلى . كما أن العائلات المكونة للبدنة

الواحدة كانت متشابهة المركز الإقتصادى والإجتماعى . ولذلك كان انتقال المرأة من عائلة لأخرى هو انتقال أفقى لا رأسى . وأغلب الظن أن هذا النوع من التنقل كان مقصورا على الزواج أو الطلاق،وكان تنقلا لأشخاص وليس لجماعات .

أما فى الفترة المتغيرة فان التنقل الاجتماعى له عدة خصائص، فالأسرة أصبحت أساس البناء الاجتماعى . وزادت الصلات المتبادلة بين القرية والعالم الخارجى ، وزادت تبعا لذلك كثافة العلاقات ومداها فى الداخل والخارج معا ، ولهذا فالتنقل :

أولاً « غير محدود unlimited » لأن الحواجز القديمة للعائلة والبدنة ومجتمع القرية ككل لم تعد تمنع امتداد العلاقات فى أى اتجاه . ولذلك زادت سرعة التنقل ومداه .

ثانيا : أفقى لا يقتصر على الزواج ،بل يمتد إلى عدد من العلاقات المختلفة بين جميع الأفراد من الجنسين من مختلف فئات السن . ويتعدى الإنتقال على هذا النحو حدود النسق،ويصبح انتقالا فى دائرة مجتمع القرية

ثالثا ـ راسى وهو ما لم يكن موجودا من قبل

فالأفراد والأسر تنتقل الآن من حيث المركز الإقتصادى والإجتماعى نتيجة لتفتيت الملكية او انعدامها من طبقة اعلى إلى طبقة ادنى . كما ان اصحاب المهن الذين كانوا ينتقلون من الناحية الاجتماعية افقيا ، اصبحوا الآن ينتقلون راسيا ايضا على اساس ارتفاع مركزهم الاقتصادى والاجتماعى

ويغير بعض القرويين ايضا العمل الزراعى فيشتغلون بالتجـــارة او بالمهن والحرف،فينتقلون راسيا،طائفة إلى اخرى وهكذا كما ان هجرة القرويين والمتعلمين من القرية إلى المدينة تعتبر فى جوهرها تنقلا إجتماعيا راسيا .

رابعا ــ توسطى Intermidiary اى غير واضح . وذلك لأن بعـض الأفراد ينتقلون من مركز إلى آخر غير محدد ،كأن يعمل القروى بالتجارة والزراعة معا . او يسكن المدينة والقرية فى نفس الوقت .

اسباب التنقل الاجتماعى :

إن قيام الطبقات وتطورها يكشف عن حقيقة هامة ،وهى أن قيام طوائف فى المجتمع كنظام مغلق او كنسق مغلق امر مستحيل ذلك لأن الظروف التى تؤدى إلى قيام الطبقات سوف تميل إلى العمل دائمـا على قيـام ترتيب طبقى جديد،اما خلال الطوائف القائمة فعلا . او بين الطوائف ذاتها . وعلى ذلك فاننا نهتم بابراز الظروف الاجتماعيـة التى تؤدى إلى تسهيل او تعويق حركة الأفراد من طبقة إلى اخرى . ونستطيع ان نحـدد هـذه الظروف فيما يلى :

١ ــ التغير الاجتماعى :

يسهل التغير الاجتماعى الواسع النطاق حركة انتقـال الأفراد من ادنى السلم الاجتماعى إلى اعلاه او العكس ، ويعمل ايضا على فتـح الطبقـات وإزالة التحديدات الطبقية الضيقة كما ان الثورات الإقتصادية والاجتماعية والسياسية تؤدى إلى حركة تنقل اجتماعى واسع النطاق مثل، ما حدث

كثيرا فى بلاد العالم كروسيا والجمهورية العربية المتحدة ، ولهذا تعد الثورة الإجتماعية نوعا من التنقل الإجتماعى المتطرف . وكلما استمرت الثورة الاجتماعية كلما استمر التنقل الاجتماعى حتى تستقر الثورة فيستقر الترتيب الطبقى على نحو معين .

٢ - وسائل الإتصال .

كلما زادت وسائل الإتصال بين الناس وبين الجماعات كلما شجع هذا التنقل الاجتماعى والعكس كلما وضعت المعوقات والحدود أمام سهولة الإتصال، كلما عوق هذا من فرص التنقل الإجتماعى . ولذلك فان المجتمع الذى يتميز بكثرة وسائل الإتصال يتميز فى نفس الوقت بكثرة التنقل الإجتماعى، لأن الإتصال فى حد ذاته يحطم الحواجز التى تفصل الناس بعضهم عن الآخر .

٣ - تقسيم العمل :

يتأثر مدى التنقل الإجتماعى بين الطبقات المختلفة بدرجة تقسيم العمل . فاذا اتسع نطاق تقسيم العمل وتنوع التخصص إلى درجة معقدة، فان ذلك يخلق ظروفا تعوق الإنتقال السهل من طبقة إلى أخرى داخل المجتمع، وربما كان تقسيم العمل والتخصص أحد العوامل الهامة فى المجتمع الحديث التى تؤدى إلى خلق التمايزات بين الناس وتصنيفهم فى فئات طبقية .

والمسألة الأساسية فى الترتيب الطبقى للمجتمع تتوقف إلى حد كبير على طابع التنظيم الإجتماعى . فاذا كان هذا التنظيم يقوم على تعيين حدود

دقيقة بين الافراد على أساس أدوارهم ومراكزهم وما يرتبط بهـا من مراتب ظهرت الطبقات واضحة وارتفعت الحواجز بينها وتميز المجتمع فى نهاية الإمر بقلة التنقل الاجتماعى . أما إذا كان التنظيم الاجتماعى يقوم على تعيين حدود واسعة لهذه الأدوار والمراكز فان الطبقـات الاجتماعية تكون مرنة إلى حد كبير ويكون التنقل الاجتماعى بينها امرا ميسورا .

الفصل التاسع

النظم الاجتماعية

تعتبر دراسة النظم الإجتماعية من أهم الموضوعات التى يعنى بها علماء الإجتماع. ولا نكاد نعثر على كتاب فى علم الإجتماع ، إلا تعرض لها . ذلك أن النظم وهى أحد أنماط التنظيم الاجتماعى للمجتمع ، تعتبر الأنساق الكبرى المنظمة للتفاعل ، الذى هو قاعدة العلاقات الإجتماعية . ومع اتفاق العلماء على دراسة النظم الاجتماعية من حيث الموضوع ، إلا أنهم اختلفوا فى النظر إليها من حيث المنهج ، ومرد الخلاف إلى أن هناك اتجاهات متعددة تنظر إلى النظام الاجتماعى من حيث هو اصطلاح،أو من حيث هو محدد لوجوه محددة من النشاط الإنسانى نظرات متباينة . وقد أشرت إلى ذلك أشارات موجزة فى الفصل الرابع .

وفى الواقع ، أننا لا نجد فى المجتمع نظما لها هذا التحديد الذى نلحقه بكل منها ، وإنما نصطلح على تسمية أنواع التفاعل الموجهة لفرض معين من الأغراض،التى تواجه حاجات الإنسان الأساسية وما يتفرع عنها ، بأسماء محددة تكشف عن طبيعة النشاط الإجتماعى وحدوده ، ومعنى هذا أننا نصنف العلاقات الاجتماعية على مستوى معين من التجريد بقصد الدراسة وحسن الفهم ، لأننا لو فحصنا هذه النظم لوجدنا أنها متداخلة تداخلا شديدا ، ويؤثر أحدها فى الآخر تأثيرات متعددة . ولذلك كان على دارس النظم الاجتماعية أن يبرز على وجه الخصوص علاقاتها المتبادلة وخصائصها

العامة . فالأسرة مثلا كنظام . لا يمكن أن تدرس بمعزل عن النظم الأخرى التي تؤثر فيها ، وقد تحدد مستقبل نموها وتغيرها . فنحن عند دراسة بناء الأسرة ووظائفها ، لا يمكن ان نتغافل نظم الإقتصاد والسياسة والدين والتربية في المجتمع الذى توجد فيه . ذلك لأن هذه النظم تؤثر في الأسرة كنظام ، وإذن فادراك العلاقات المتبادلة لجميع النظم أمر جوهرى لفهم الحياة الإجتماعية .

وعندما ندرس النظم الإجتماعية ، نحاول ان نفهم أحد الميكانيزمات الأساسية التي عن طريقها ، يتوصل الإنسان إلى « التناسق » في السلوك الاجتماعى . وتبدو أهمية هذا التناسق في مجتمعات تتطور وتنمو وتتغير باستمرار ، فبدونه تصبح الحياة الاجتماعية نفسها مستحيلة . ونفهم التناسق هذا على أنه نوع من الإضطراد والوحدة الذى ينمو على مر الزمن ويميل في نفس الوقت إلى « الدوام ». والتناسق والإضطراد والدوام هم الذين يخلقون الأنساق او النظم الاجتماعية (١) .

ولولا هذه العناصر الأساسية لما استطاع علم الإجتماع أن يدخل ميدان العلم . وهنا نتذكر أن احد الحجج الهامة التي كان المتشككون في إمكان قيام علم لدراسة المجتمع يؤكدونها ، كانت تقوم على ان دراسة المجتمع دراسة علمية مسألة غير ممكنة طالما أن قانون المجتمعات الدائم هو « التغير »، ولكن التغيير - كما سنرى فيما بعد - لا يغير من البناء بقدر ما يغير من الوظيفة ، الأمر

1— Loomis, Ch. P.; Social Systems; Essays on Their Persistence and change, New York, 1960, PP. 3—5

الذى لا يخل بقاعدة الدوام والإضطراد والتناسق التى تقوم عليها الدراسة فى علم الإجتماع، شأنه فى ذلك شأن أى علم آخـــر يهتم بالإضطراد فى أى طبقة من الظواهر .

البناء والوظيفة Structure and Function

من يتصدى لدراسة النظم الاجتماعية ، لابد أن يهتم بهـا من حيث البنـاء والوظيفة . ومعنى هذا أن يهتم بما يلى :

١ ـ ترتيب الأجزاء وعلاقاتها أحدها بالآخر ، ذلك لأن الأجزاء هى التى عن طريقها يتم « السلوك النظامى » الذى يسير فى الحدود التى رسمها النظام ، ويتطابق مع القالب المعين .

٢ ـ العمليات الإضطرادية المرتبطة بهذه الترتيبات أو التنظيمـات ، مثل مدى إتصال أو إسهـام أجزاء المجتمـع فى الـكل ، وذلك اتفاقا مع الفـكرة القائلة ، بأن حسن فهم الجـزء لابد ان يـكون فى ضـوء الـكل ، وحسن فهم الكل لابد أن يـكون فى ضـوء الأجـزاء المكونة له .

لكن فكرة البناء والوظيفة أثارت جدلا كثيرا بين الباحثين . ذلك أن الفكرة ذاتها مستعارة من العلوم الأخرى وعلى الأخص العلوم البيولوجية فالجسم « كل » مكون من حيث « البناء » من « أجزاء » كل جزء يؤدى « وظيفة » لا يمكن فهمها إلا إذا أدركنا وظيفة الكل . وبالمثل يكون « النظام الاجتماعى « كلا» مكونا من أجزاء . كل جزء يؤدى وظيفة معينة يسهم بها فى الوظيفة الكلية للنظام . ولكن الأمر يختلف بغض النظر عن هذه

المماثلة ، فى الحياة الإجتماعية . فمع أنه من المفيد فى أغلب الأحيان أن نفصل بين البناء والوظيفة ، إلا أنه يلزم أن نشير هنا إلى انهما يمثلان وحدة من الأفكار المكمل بعضها للاخر (١) .

ولنعطى صورة واضحة للاختلاف المشار اليه بصدد فكرة البناء والوظيفة، نجد أن جونسون Johuson يرى أن البناء يتكون من العلاقات الثابتة نسبيا بين أجزائه ، لأن كلمة « جزء » تتضمن درجة معينة من الثبات ، « النسق الاجتماعى » يتكون من الأفعال المترابطة للناس . وبناء النسق (أو النظام) عبارة عن الانتظام والتكرار فى هذه الأفعال(٢ . إلا أن «اجبرن ونيمكوف» يريان أن مجموعة من الأشخاص تكون « بناء » وافعال هؤلاء الأشخاص تكون « الوظيفة »،ولما كانت الوحدة الأساسية للبناء الاجتماعى عند تأدية وظيفته هى« الفعل act » فاننا نهتم بتكرار هذا الفعل الذى يصبح قاعدة النظام فى السلوك الإجتماعى (٣) . وواضح هنا أن الاختلاف يرجع فى صميمه إلى أن جونسون يهتم بالعلاقات الثابتة بين الاجزاء ، بينما يهتم اجبرن ونيمكوف بالاجزاء نفسها ، ولكنهم يتفقون على أن الفعل المتكرر هو اساس البناء .

وقد حظيت فكرة البناء والوظيفة باهتمام الباحثين فى الانثروبولوجيا الاجتماعية،فراد كليف Radcliffe-Brown يقبل تعريف دور كايم لوظيفة النظام الإجتماعى على أنها الصلة التى تكون بينه وبين حاجات الكائن الاجتماعى، ولكنه يستبدل كلمة حاجات « بالظروف الضرورية للمعيشة » ويرى أن

1- Lundberg and Others, Sociology,NewYork- 1958, p. 526

2- Johuson : Sociology, London 1961, p.58

3- Ogburon & Nimkoff: Handbook of Sociology, London, 1960 pp. 339-347

تطبيق هذا التعريف مع تعديله على العلوم الاجتماعية ، يتضمن القول بأن هناك ظروفا ضرورية للوجود الإنسانى ، كما أن هناك مثلها الوجود الحيوانى ، ويستخدم فى تأييد هذه الفكرة المقارنة بين الحياة الإجتماعية والحياة العضوية (١) . فالكائن الحيوانى عبارة عن مجموع منظم من الخلايا والسوائل، ليس كمجرد تجمع ولكن ككل حى متكامل .

ونظام العلاقات التى ترتبط على أساسه هذه الوحدات هو ما يسمى « البناء العضوى » ولهذا يعرف البناء بأنه مجموعة من العلاقات بين وحدات كل لها كيان ، وخلال فترة من الزمن لا تبقى الخلايا كما كانت ، ولكن التنظيم البنائى يبقى متشابها . والعملية التى تعمل على « لاستمرار » البنائى للكائن الحى تسمى « الحياة » .

وإذن نستطيع ان نطبق هذا التحليل على الحياة الإجتماعية ، ذلك أننا إذا لاحظنا « مجتمعا صغيرا » نلحظ وجود بناء اجتماعى ، فالأفراد « الوحدات الأساسية » فيه يرتبطون عن طريق مجموعة معينة من العلاقات الاجتماعية ، و « استمرار » البناء الاجتماعى مثل البناء العضوى ، لا يتحطم بالتغييرات التى تحدث للوحدات ، لأن استمرار البناء يبقى عن طريق عملية الحياة ، والحياة الاجتماعية للمجتمع هنا تعرف على أنها « وظيفة » البناء الإجتماعى . وهكذا نتبين أن فكرة الوظيفة تتضمن فكرة البناء ، لأنهما مرتبطان ، وانما يتم فصلها لغرض التحليل العلمى . وهنا يقترب راد كليف براون من كثير ممن تعرضوا لفكرة البناء والوظيفة وخاصة فى تركيزه على أهمية « العلاقات

---

1 - Radcliffe-Brown, A R; Structure and Function in Primitive Society, London, 1956, pp. 178—181

المتكررة » بغض النظر عن الوحدات « الأفراد » الزائلين . ويظهر ذلك من قوله، بأن هناك اختلافا بين التمثيل العضوى والإجتماعى ، ويرجع ذلك إلى أنه من الممكن أن نلاحظ البناء العضوى فى صورة مجردة أى مستقلا عن تأديته لوظيفته . ولكن البناء الإجتماعى ككل لا يمكن ان يلاحظ إلا فى ضوء تأديته لوظائفه . ولهذا لا يمكن أن نقيم مورفولوجيا اجتماعية منفصلة عن الفسيولوجيا الإجتماعية . وبناء على ذلك تكون وظيفة « الوحدة الإجتماعية » هى ماتسهم به فى الحياة الكلية للمجتمع، التى هى فى الواقع وظيفة النظام الإجتماعى الكلى، والنظام الاجتماعى إذن له « وحدة وظيفية » عبارة عن الحالة التى تعمل فيها أجزاء النظام الاجتماعى جميعا معا ، بدرجة كافية من الإنسجام الداخلى(١) ويكاد راد كليف براون أن يقترب فى تحليله للبناء والوظيفة من المدرسة البنائية الوظيفية الحديثة ، وهذا مع العلم أنه يصنف ضمن المدرسة الوظيفية فى الانثروبولوجيا الاجتماعية وان استنكر ذلك باعتباره ينتمى إلى علم لا إلى مدرسة .

أما ايفانز بريتشارد Evans-Pritchard فانه يقترب من فكرة اجبرن ونيمكوف ويستخدم البناء الاجتماعى على انه الجماعات الإجتماعية الدائمة مثل الأمم والقبائل والعشائر التى تحتفظ باستمرارها وهويتها كجماعات بالرغم من التغيرات فى العضوية (عضوية هذه الجماعات): فالجماعة من حيث هى مجموعة من العلاقات، قائمة بينما يتغير أعضاؤها . واعتقد أن صفات الجماعة أو النظام المكونة لبنائه والتى يجمع كثير من الباحثين على أنها تتمثل فى التكرار والدوام البعيد عن الواقع الفردى . إنما استمدت من خصائص التلقائية والجبرية والعمومية والخارجية التى حددها دور كايم كخصائص فارقة للظاهرة الإجتماعية . والخلاف بين ايفانز بريتشارد وراد كليف براون يقع فى أن

1- Ibid., P. 181

الأول يستبعد العلاقات الفردية الموقوتة من البناء ويهتم بالعلاقات ذات الطابع الدائم ، بينما يدخل الثاني العلاقات التي تقوم بين شخص وآخر ضمن مكونات البناء ، كما أن التمايز بين الأفراد والطبقات على أساس دورهم الاجتماعي يدخل تحت البناء الاجتماعي (١) . ويمكن أن نرد هذا الاختلاف إلى تعارض نظريتيهما بالنسبة لمستوى التجريد الذي يجب أن يدرس على أساسه البناء الإجتماعي . ومن أجل هذا يميز راد كليف براون بين الصور البنائية التي لا تتغير إلا قليلا ، وبين البناء الاجتماعي الفعلي الذي يتغير باستمرار عن طريق المواليد والوفيات العلاقات المتغيرة بين أعضاء المجتمع الواحد

ولكن فورتس Fortes يرى أن هذا التمييز مشكوك في صحته ، لأن عامل الزمن في البناء الاجتماعي واحد من حيث الشكل في حدوثه او اتجاهه(٢) أو بمعنى آخر ، إذا كان عامل الزمن يعتبر في مرتبة العوامل الدائمة . فانه لا يمكن أن نضعه كفيصل في التمييز بين الصورة البنائية والبناء الإجتماعي. ولذلك كانت فكرة راد كليف براون إمعان لا مبرر له في التصنيف .

وخلاصة القول . أن الميل إلى الخلط بين وظيفة الشيء (نتائجه) وبين سبب هذا الشيء (الحوادث السابقة) التي يكون نتيجة لهـا أقوى في علم الإجتماع منه في أي علم آخر . ومثل هذا الخلط يؤدى — إذا لم نكن على حرص كاف — إلى الفكرة القائلة بأن كل « نمط نظامي » يوجد في وقت معين « يؤدى وظيفة » تخدم حاجة المجتمع الذي يوجد فيه . والخط المتضمن

1 - Ibid ,pp. 191 - 192

2 —Fortes.N; Time and Social Structure. in : Social Structure; Studies Presented to A. Radcliffe —Brown, ed, by Fortes, Oxford, 1499.pp 54—55 ||

فى هذا التفكير : أنه إذا كان لكل نمط نظامى سبب ، وكانت « أسباب » الأنماط النظامية هى الوظائف التى تقوم بها ، فانه يجب أن يقوم كل نمط نظامى موجود بوظيفة معينة . والخطأ المنطقى هنا أن كل « أمر اجتماعى » لا يؤدى وظيفة بالضرورة ، لأن مثل هذا الأمر قد يكون لا وظيفة له عند أقسام من السكان ، او قد يكون غير ذى موضوع على الإطلاق . ولعل هذه الصعاب هى التى قادت كل من تشابن Chapin وميرتن Merton إلى التمييز بين الوظائف الظاهرة والوظائف الكامنة . فالوظائف الظاهرة للنظم فى رأيهما هى النتائج المقصودة والمعترف بها للنمط السلوكى ، أما الوظائف الكامنة فهى النتائج غير المقصودة (١)

وواقع الأمر أن البناء والوظيفة كلمتان تعبران عن وجهين لشىء واحد. فالبناء يستخدم لوصف « الثابت نسبيا » فى النظام ، أما الوجه الدينامى فهو الذى يسمى « الوظيفة » وبعبارة أخرى : البناء هو الوظيفة الثابتة ، والوظيفة عبارة عن سلسلة من البناءات المتغيرة بسرعة . وعند تعريفنا للنظام الاجتماعى يجب أن نؤكد علاقة الأجزاء بعضها بالآخر ، وأن النظام فى التفاعل أو وحدته يمكن الأجزاء أن تعمل ككل بالنظر إلى العالم حولها ، ومعنى هذا أننا حين ندرس النظم ، فان هذا يعنى أننا ندرس انماط السلوك الإجتماعى ، وحين ندرس البناء والوظيفة احدهما بمعزل عن الآخر فليس هذا إلا لأغراض تحليلية . وربما كان ظهور اصطلاح مثل « البنائى الوظيفى Structural Functional » فى علم الإجتماع انما قصد به تأكيد هذه الحقيقة ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلابد أن يكون واضحا أن أى دراسة علمية هى دراسية بنائية وظيفية بالضرورة

---

1 - Lundberg, and Others, Sociology. New York, 1958 p.528

الجانب الوظيفي في النظم :

للنظم وجوه متعددة ، وهي لذلك يمكن أن تناقش من وجهات نظر متعددة . فبعض هذه النظم أصبح موضوع دراسة واسعة ومركزة ، الأمر الذي تبدو معه على انها علوم منفصلة . ومثال ذلك أن النظم الإقتصادية اصبحت اليوم موضوع علم الإقتصاد ، والنظم السياسية موضوع علم السياسة وهناك نظم اخرى تنال الآن اهتماما كبيرا وتجرى بصددها دراسات مستفيضة مثل الأسرة والدين ، ولكنها لا يزال الان من فروع علم الإجتماع والأنثروبولوجيا .

ويجب أن نشير هنا أنه عند دراسة النظم الاجتماعية الكبرى - الإقتصادية والسياسية والأسرية والدينية - فإننا نهتم بجوانبها السوسيولوجية ، ولا نهتم بجوانبها الخلقية أو القانونية والاصلاحية. وتشمل الجوانب السوسيولوجية المسائل التي تكون موضوعا للبحث العلمي . وخاصة عندما تستخدم لأغراض المقارنة ، وبيان مدى تحقيقها للاشباع أو الأهداف التي قامت هذه النظم من أجلها ، كما أن علم الاجتماع لا يهتم في الحقيقة بنظم خاصه في مجتمع معين، بل يهتم بالجوانب العامة نسبيا في النظم الاجتماعية اينما وجدت .

ومن أجل النهوض بمثل هذه الدراسة ، نجد أنه من المناسب أن نهتم بالوظائف التي يحققها أى نظام في اغلب المجتمعات أو كلها ، ولهذا يدرس علماء الاجتماع بطريقة موضوعية ، الدرجة التي يصل إليها النظام في تحقيق وظيفته المعروفة طبقا لنسق القيم الموجود في كل ثقافة . أوطبقا لأى مقياس نريد ان نطبقه . ومثال ذلك ، ان ندرس الدرجة التي وصلت إليها الأسرة في تحقيق وظائف الانجاب والتنشئه الاجتماعية للأطفال ، وهذا إلى جانب الوظائف الأخرى التي نتوقع ان تحققها في مجتمع معين بغرض مقارنتها بصور اخرى للاسرة في ثقافات اخرى .

---

1 — Ibid. p. 530

وبعض هذه المقاييس قد تكون موضوعية وواحدة لكل مجتمع،ومثال ذلك إذا كان تزويد المجتمع بالسكان وظيفة من وظائف الأسرة ، تكون « نسبة مواليد كافية للحيلولة دون انهيار فى عدد السكان » مقياسا يمكن تطبيقه فى كل المجتمعات . وإذا أخذنا « السعادة الشخصية أو الاشباع » كمقياس آخر ، فان الدرجة التى تشبع بها الأسرة هذه الحاجة او تقوم بها بهذه الوظيفة فى مجتمع معين ، يجب أن تحدد بدراسة اتجاهات الناس فى هذه الثقافة بالنسبة لنمطهم فى الأسرة . وقد نهتم من ناحية أخرى بالتساؤل عما إذا كانت وحدانية الزواج فى مجتمع تؤدى إلى اشباع أكثر من تعدد الزوجات فى مجتمع آخر . ولغرض التحليل العلمى نأخذ هذا المقياس دون محاولة تقييمه ، كذلك يمكننا أن ندرس النظم الاقتصادية والسياسية والدينية بهذه الطريقة .

وفى ضوء الاصطلاحات المختلفة للأنساق القيميه ، يمكن أن يكون نموذج من نظام معين أحسن او أردأ من نموذج آخر . ولهذا قد نقول إن واحدانية الزواج أحسن من التعدد والعكس بالعكس . وبنفس الطريقة يمكن أن نقول إن نموذجا من النسق الإقتصادى أو الدينى أو السياسى أحسن من نموذج آخر .

ويجب أن نشير هنا إلى أن هذه المقاييس نفسها تعتبر موضوعات للدراسة العلمية . أى اننا نستطيع ان ندرس، كيف تظهر وتنمو أنساق خلقية وجمالية، وتؤثر بالتالى فى الحياة الاجتماعية للمجتمعات . ويمكن أن نتنبأ تبعا لذلك بالأنساق القيمية التى يحتمل أن توجد وان تنمو فى مجتمع معين على أساس ما نعلمه عن ترابط النظم الخلقية بغيرها من النظم .

ويمكن بناء على ذلك ان نرتب عدة نتائج نلخصها فيما يلى :

١ - عند مناقشة العلاقات النظامية ، تكون اللغة لغة البناء ، ومثال ذلك، حين نفكر فى العلاقة بين الأسرة والدين ، فان ما يأتي فى الذهن اولا ، ان الأسرة عبارة عن جماعة مكونة من الزوج والزوجة والأطفال ، يذهبون جميعا إلى بيت الله ، وهو مكان يجتمع الناس فيه للعبادة . فالأسرة وبيت الله عبارة عن بنائين ، ولكن العلاقة الهامة بين بيت الله والأسرة بالرغم من ذلك، ليست علاقة بنائية ، ولكن العلاقة علاقة بين نشاطين يقوم البناءان بهما ، وهما ما نسميها بالوظائف .

٢ - الإرتباط المتبادل بين النظم يمكن ان ندركه إدراكا واضحا عن طريق الوظيفة اكثر من البناء ، وذلك لأن الإرتباط بين الأجزاء المختلفة للثقافة هو فى الواقع إرتباط وظيفى .

٣ - نفس النظم قد يكون لكل منها انماط مختلفة من العلاقات بالنظر إلى ظروف مختلفة . وهذا يبدو بوضوح عندما ننظر فى تطورات المجتمعات .

٤ - الوظيفة تتغير اكثر من البناء ، فالتعديل الذى يحدث فى وظيفة اى نظام ، بينما يكون بناؤه ثابتا نسبيا، يعتبر وجها من الوجوه الهامة للتطور الثقافى ، فالبناء لا يتغير غالبا كما تتغير الوظيفة . وهذا يشير إلى الصعوبة التى تكمن فى صعوبة خلق بناء اجتماعى جديد . كما ان تغيرات البناء تكون اقل حدوثا ، لأن هناك حاجة قليلة لهذا التغيير ، طالما ان البناء نفسه قد يخدم اغراضا متعددة ، ولكن دوام البناء فى الوقت الذى تتغير فيه الوظائف، يؤدى إلى توجيه الباحثين توجيها خاطئا ، لأنهم يرون البناءات الدائمة مباشرة اكثر من رؤيتهم للوظائف ، وبغض النظر عن التغيرات التى تحدث للبناء او الوظيفة ، فان دوام النظم الاجتماعية الكبرى فى كل الثقافات وفى

كل الأزمنة حقيقة يجب ان نبرزها .

٥ ـ النظم الاجتماعية الكبرى ـ الأسريه والإقتصادية والسياسية والدينية ـ تدوم لأنها فى الواقع تؤدى وظائف كثيرة .

ومن اجل حسن دراسة النظم الاجتماعية وإبراز جوانبها الهامة وخصوصا الجوانب البنائية والوظيفية، إقترح جورج لندبرج Lundberg ان تكون الدراسة طبقا للجدول الآتى :

1— Lundberg; Op. Cit. P. 525

الجوانب الوظيفية والبنائية للنظم الاجتماعية الكبرى

الوظيفة	النظام	الأدوار الرئيسية	السمات الفيزيائية	السمات الرمزية
إنجاب الأطفال وتربيتهم	الأسرى	الأب ـ الأم ـ الطفل	المنزل ـ الأثاث	الخاتم ـ حفل الزواج الإرادة والرغبة
تقديم الغذاء والمسكن والملبس	الاقتصادى	صاحب العمل ـ الموظف أو العامل ـ المستهلك المنتج	المصنع ـ المكتب ـ المخزن	الثقة ـ الشعار ـ العلامة التجارية
تنفيذ القوانين ـ القواعد والمستويات الموحدة	السياسى	الحاكم ـ المحكوم	الأعمال الشعبية ـ الابنية العامة	العلم ـ القواعد الدستورية الترخيص
تنمية الإتجاهات التعاونية والإعتقاد والأمل والإحسان	الدينى	رجل الدين ـ التابع أو المؤمن	الجامع ـ الكنيسة	الهلال ـ القرآن ـ الكعبة الصليب ـ الانجيل

العلاقات المتبادلة بين النظم :

لا بد ان تكيف النظم نفسها تبعا لوجود النظام الآخـــرى . وتترابط النظم بعضها مع البعض الآخر فى هـــذا النمط المعقد الذى يكون الحياة الاجتماعية ككل فى اى مجتمع . وهنا نلاحظ الاختـلاف الواضح بـين الثقافات المختلفـة فيما يتصل بالدرجة التى تنفصل على أساسهـا النظم بعضها عن الآخر . ويمكن أن ندرك أنه فى المجتمعات البدائية أو غير المتطورة، توجد نظم متميزة ومتخصصة للاقتصاد والدين والأسرة ، والترفيـــه على عكس ما هو موجود فى المجتمعات الحديثة . ومن أجل هذا نلاحظ أن العادة قد جرت فى بعض هذه المجتمعات البدائية بدلا من وضع مخصبات فى الأرض لتحسين الإنتاج ، القيام بعمل حفلات سحرية أو دينية ، والهدف من ورائها الوصول إلى نفس النتيجة ، وقد تتداخل كل المراحل فى العملية الإقتصادية مع وجوه النشاط الترفيهية والفنية والدينية ، ولهـذا يكـون الدين والفن والترفيه تحت هذه الظروف ، أجزاء من النظام الاقتصـــادى نفسه ، وعندما يرسم الرجل البدائى على الحائط رسما يصور صيدالجاموس، فانه يفعل ذلك لإعتقاده الجازم ان هذا النشاط الرمزى من جانبه ، مرتبط إرتباطا مباشرا بنجاحه فى الامساك بالجاموس ى الصيـد الحقيقى فى اليوم التالى . وفى المجتمع الحديث الذى تنتشر فيه الصناعة ، تكون الفنون وعمليات الصيد عبارة عن وجوه النشاط الترفيهى . كما أنه فى بعض المجتمعات تقـوم الأسرة بعدة وظائف إقتصادية وتربوية . بينما تصبح هذه الوظائف فى المجتمع الحديث من اختصاص نظم اخرى .

وخلاصة القول ، ان النظم التى نجدها فى مجتمع معين ، والوظائف المرتبطة بكل منها ، مسائل تخضع لإختلافات متعددة فى المجتمعات المختلفة تبعا للمكان

والزمان والظروف . والتغير فى الوظائف وفى العلاقات المتبادلة للنظم الاجتماعية ، يعتبر أحد المسائل الهامة التى يعالجها علم الإجتماع . ويقول تشابن Chapin ، إننا نعيش الآن فى عصر يتكون من توازن معقد دقيق لعلاقات إجتماعية متعاونة ومتساندة . (١)

انتقال الوظائف من نظام لآخر :

لعل إنتقال الوظائف من نظام لآخر يعتبر أحد الخصائص المذهلة للعصر الذى نعيش فيه . فقد فقدت الأسرة مثلا بعض وظائفها فى الإنتاج والترفيه والأمن الخارجى . وانتقلت هذه الوظائف المفقودة من الأسرة إلى الحكومة والصناعة . ويظهر الإنتقال الوظائفى بوضوح فى الوظائف المتغيرة للقرية وللمدينة ، كما ان الدولة تنتقل إليها بعض الوظائف النظامية التى تفقدها النظم الأخرى نتيجة لزيادة عمليات التغير وتعدد عوامله .

ويجب أن نلاحظ هنا ، أن الثقافة مرتبة مثل إرتباط اجـزاء الساعة وليس كمثل قبضة مملوءة بالقمح . والنظم الاجتماعية التى هى اجزاء عامة من الثقافة لا يمكن ان تفهم تماما ، إذا نظرنا إلى كل منها منفصلا عن الآخر ، وعلاقاتها المتبادلة تؤدى إلى قيام نمط ثقافى يتغير فى مناطق كثيرة وفى أزمان مختلفة .

ومن أجل هذا فان تاريخ نظام مثل هذه الأسرة . لا يكشف عن نفس مسار التغير عند كل الناس . ولكن نظرا للتأثيرات الخاصة لعوامل الثقافة المادية وحجم السكان ، فان الاضطراد يظهر فى بعض النظم اينما وجدت فى أى

---

1 -Ibid , P. 523

درجة من درجات الإجتماع الانسانى . والنظم الإجتماعية الكبرى مثل الأسرة والسياسة (الحكومة) التى وجدت تقريبا فى كل مكان ، ليس لكل منها وظيفة واحدة ، بل لها عدة وظائف . وعندما يتغير النمط الثقافى ، قد تنتقل وظيفته من نظام لآخر . ومثال ذلك ان رعاية كبار السن قد إنتقلت جزئيا من الأسرة إلى الحكومة او التنظيمات الإجتماعية ذات الغرض المحدد ، كما ان وظائف جديدة لم تكن موجودة من قبل قد اضيفت إلى النظم .

وهكذا قد تملك الدولة وسائل الانتاج او قد تنظم إستخدام الطاقة النووية ، ونتيجة لهذه الانتقالات والإضافات يتسع نطاق الدولة باستمرار . وفى المجتمع الاشتراكى تدور المناقشة حول الوظائف التى يجب ان تنقل الى الحكومة .

الفصل العاشر

الأســـرة

دراسة الأسرة فى علم الإجتماع من اكثر الموضوعات التى نالت اهتمام اغلب الباحثين فيه : وقد عبر كثيرون عن المكان الهـــام الذى تشغله الأسرة فى المجتمع بطرق متعددة ، حتى أن احد تعريفات علم الإجتماع فى وقت ما كانت تجعل الأسرة الموضوع الرئيسى لهذا العلم . وليس هنـاك موضوع اتفق عليه علماء الإجتماع مثلما اتفقوا حول المسائل التى يجب معالجتها عند دراسة التنظيم الأسرى، كما أن الابحاث عن الأسرة القديمة وعن التنظيم الأسرى فى المجتمعات البدائية كثيرة إلى الحد الذى مكن علم الإجتماع من أن يطور الدراسة العلمية لهذا الجانب الهام من موضوعاته المتعددة ، ومن أجل هذا نجد من المناسب أن نوجز فى مطلع هذا الفصل لتاريخ الدراسات الأسرية،حتى نتمكن من اعطاء صورة متكاملة لاتجاهات البحث فى أهم وحدة اجتماعية فى المجتمع(١).

الدراسات الأسرية:

على الرغم من كثرة الدراسات التى اجريت حـــول موضوع الاسرة، فليس لدينـا فى الوقت الحاضر تاريخ شامـل للمحاولات التى بذلت على مر

---

(١) يرجع فى سبيل مزيد من التفاصيل الى « برجس: الاسرة » ، والى «سوروكن: المجتمع والثقافة والشخصية » كما أن الدراسات التى جمعها كل من « بل وفوجل » عن الاسرة (١٩٦٢) مفيدة جدا فى الاحاطه بالأبحاث المتنوعـــة التى عالجت كل المسائل المتعلقة ببناء الاسرة ووظائفها.

التاريخ لفهم هذا النظام الإنساني ، وكل الذى نستطيع ان نفعله هنا ان نعرض المسألة فى خطوطها العريضة :

١ - يتبين الباحث من استقراء تاريخ علم الإجتماع الاسرى (وهو فرع من علم الإجتماع يقتصر على دراسة مسائل الأسرة) أن هناك عدة نماذج من الدراسة تأثرت بمناهج العلم من ناحية وبالإيديولوجيات السياسية والدينية من ناحية اخرى .

٢ - عندما كان علم الإجتماع الأسرى فى اول مراحله فى اواخر القرن التاسع عشر، كانت الأفكار التطورية المتأثرة بالداروينية الإجتماعية تسيطر على كل نواحى الإهتمام بموضوع الأسرة ، ولذلك كانت اهم موضوعات البحث تدور حول الإجابة عن عدد من الاسئلة مثل : هل المجتمعات الإنسانية من حيث الأصل تأخذ بنظام الوحدانية فى الزواج أو بالنظام المختلط ؟أو، هل الأسر من حيث النسب أبوية أم أموية ؟ ومن الطبيعى أن الإجابة على هذه الأسئلة التى تتعلق بأصل الأسرة الإنسانية ونموها كانت تتطلب استخدام الوثائق التاريخية والفولكلور والأساطير. اما إذا اتجه الباحث إلى دراسة الأسر دراسة مباشرة فان مادته كان يستمدها من الحقائق المعروفة عن أكثر المجتمعات بدائية . وقد كان يظن فى هذا الوقت أن الأنساق الأسرية للمجتمعات البدائية المعاصرة مشابهة للصور الأولية للأسرة ، ولذلك فان دراسة هذه الأسر يمكن أن تلقى ضوءا على أصل الأسرة الإنسانية ونموها .

٣ - إن نتيجة هذه الإستقصاءات لم تكن متسقة أو شاملة،ونشير هنا إلى أن مورجان وانجلز حاولا أن يدللا على وجود أمثلة من الزواج المختلط (الشيوعية الجنسية) والزواج الجماعي فى المجتمعات البدائية ، وهذا فى الوقت

الذى حاول فيه وستر مارك ان يقدم الادلة التى تثبت ان الأسر البدائية كانت أسرا (وحدانية) ومخلصة فى نفس الوقت .

٤ - جمع هنرى مين عددا كبيرا من الأدلة التى تثبت أن النظام الأبوى كان موجودا فى الصور الأولية للأسرة ، ولكن باخوفين قدم ادلة اخرى تثبت ان الأموية كانت سابقة فى وجودها فى المجتمع الإنسانى على الابوية

ونظرا لأن الأدلة التى قدمها هؤلاء لم تكن قاطعة او واضحة فقدظلت موضوعات الخلاف بينهم قائمة . ولكن هذه الدراسات لم تذهب عبثا لأن المعلومات التاريخية والإثنولوجيةالتى جمعت،جعلت الإهتمام يتركز حول الاسرة، الأمرالذى ترتب عليه فيما بعد ان اصبحت موضوعا هاما للبحث العلمى،ظل يتطورحتى اصبح الاتفاق على عدد من المفاهيم المتعلقة ببناء الأسرة ووظائفها نقطة التقاء هامة بين علماء الإجتماع اليوم .

٥ - وقد تحول الإهتمام فى اواخر القرن التاسع عشر إلى دراسةمشاكل الأسرة المعاصرة وقت ذاك،نتيجة للتغيرات الإجتماعية السريعة وما ترتب عليها من تصدعات فى عدد كبير من الأسر،ووقوع نسبة منها على خط الفقر . ومن ابرز الاستجابات التى ظهرت فى هذا القرن الأبحاث التى اجراها سدنى وبياتريس وب وراونترى التى دارت حول الحياة والعمل فى مدن اوربا وامريكا . ويلاحظ ان بعض الدراسات المماثلة لمشاكل الأسرة اهملت عمدا دراسة الظروف الإقتصادية والتفتت إلى مسائل مثل المكان والطابع العنصرى .

٦ - ويعتبر لبلاى من أبرز العلماء الإجتماعيين الذين اهتموا بموضوع

الأسرة، وخصوصا الجانب الإقتصادى منها، ويبدو هذا من منهجه فى الدراسة الذى جعل مستوى المعيشة ، المقياس الموضوعى، الذى عن طريقه يمكن كشف بناء الأسرة ووظائفها .(١)

٧ ـ وقد تحول الاهتمام فى مطالع القرن العشرين إلى استقصاء مشاكل أخرى غير مستوى المعيشة أو الفقر، نظرا لازدياد حالات الطلاق والإنفصال. كما اجريت عدة دراسات على نسب المواليد واشتغال المرأة وظهور النزعة الفردية وما ترتب على ذلك من آثار على وجود الأسرة كنظام فى المجتمع . ويلاحظ أن اكثر هذه المسائل كانت تدرس عن طريق استخدام الاحصاء الذى يستخدم الأرقام المسجلة عن الطلاق والجريمة والإجهاض وحجم الأسرة ونسب المواليد والوفيات .

٨ ـ ومن الجدير بالذكر هنا أن عددا من الباحثين ادرك منذ أوائل هذا القرن عدم جدوى استخدام الإحصاء وحده فى دراسة الأسرة، وتتلخص دعواهم فى أن الأسرة تميل بسرعة إلى التفكك ، وأن اسرة جديدة فى سبيلها إلى الظهور، ولهذا يجب أن يكون تحليل مسائل الأسرة مرتكزا على نوع خاص من التفكير يتصور الأسرة جزءا متكاملا من مجتمع يتغير بسرعة .

٩ ـ وعندما بدأت دراسة الأسرة تتقدم بدأ الباحثون يدخلون فى الدراسة عوامل اخرى لم تكن من قبل موضع الاهتمام ، ومن اهم العوامل التى استحوزت على اهتمامهم « عامل التوافق » الذى اعتبر اساسا هاما فى ثبات الأسرة وفى تكامل اعضائها ، كما اصبح من المألوف مناقشة مشاكل التوافق الشخصي والجنس وأثره فى حياة الأسرة .

---

(١) راجع ما كتبناه عن لبلاى ومدرسته فى الفصل الثانى من هذا الكتاب .

١٠ — وتعتبر دراسة برجس نقطة تحول فى اتجاه البحث الأسرى . ويبدو هذا التحول من تعريفه للأسرة بأنها وحدة من شخصيات متفاعلة . وجوهر هذا التحول يظهر فى التقليل من أهمية الأسرة كبناء إجتماعى، والتركيز بالتالى على اتجاهات الأعضاء . وقد ظل هذا الإتجاه الجديد يتلقى مصادر جديدة من التأييد والتثبيت عن طريق الدراسات التى تجرى فى علم النفس والتحليل النفسى .

١١ — وقد بدأ الباحثون فى الأسرة منذ الحرب العالمية الثانية نتيجة للظروف الإجتماعية والإقتصادية التى ترتبت على هذه الحرب ، يهتمون بالدراسات المقارنة ، ويحاولون أن يكشفوا عن انماط الأسرة المتعددة، ويبينون كيف يتميز كل نمط منها بطابع خاص فى العلاقات وفى رعاية الأطفال وفى تربيتهم .

١٢ — ومن ابرز الاتجاهات الحديثة الآن ذلك الاتجاه الذى يهتم بدراسة كل التفاصيل التى تكشف عن الحياة اليومية للأسرة فى محاولة لفهم علاقة الأسرة كنسق اجتماعى بالانساق الأخرى فى المجتمع من الناحيتين البنائية والوظيفية ، كما أن الإهتمام بالفرد فى الأسرة أصبح من العلامات المميزة لهذا الإتجاه عند عدد كبير من الذين يفضلونه كمدخل أساسى لفهم الأسرة الحديثة .

وهكذا نتبين أن دراسة الأسرة مرت على عدة تطورات كانت تعكس ظروف العصر وطابع الحياة الإجتماعية والإقتصادية ، ولذلك عندما ادرك الباحثون ان الأسرة اخذت تواجه عددا من المشاكل نتيجة لانتشار التصنيع وما صاحبه فى أول الأمر من بؤس وفقر وهجرة ، حولوا إهتمامهم إلى دراسة العوامل التى تؤدي إلى تصدع الأسرة . وما قد يترتب عليه من طلاق

وانفصال وانحراف للأحداث . وتحول اتجاه الباحثين مرة اخرى عندما تزايد اشتغال المرأة وما ترتب عليه من تغيرات هامة فى وظائف الأسرة وفى ظهور الفردية، وذلك نظرا لتغير عمليات التنشئة الاجتماعية وعلاقة الأسرة بالجماعات الأخرى فى المجتمع . كما أن الاهتمام الحديث بالفرد عند دراسة الأسرة يصور النظرة الخاصة لطبيعة العلاقات الأسرية فى بعض المجتمعات التى بلغت فيها الفردية مبلغا واضحا . ونحن حين نتعرض لمجتمعنا لبحث الأسرة فيه ، نجد أنها اخذت تتغير تقريبا فى الاتجاه الذى سارت فيه الأسرة فى بعض المجتمعات التى تسبقنا فى مراحل النمو الاقتصادى والصناعى . ولهذا نجد من المناسب ان نؤكد على اهمية دراسة الانماط الأسرية فى مختلف اجزاء مجتمعنا فى الوقت الحاضر لما لمثل هذه الدراسة من أهمية فى الدراسة المقارنة على مستوى عالمى ، أو على مستوى التغيير فى مجتمعنا نفسه فى السنين القادمة .

تعريف الاسرة :

ظهرت خلال السنوات الماضية عدة تعريفات للأسرة تتجه جميعا إلى إبراز الارتباط الدائم بين الرجل والمرأة وما يترتب على ذلك من انجاب ورعاية للأطفال والقيام ببعض الوظائف التى لم تسقط عن الأسرة فى تطورها من صورة إلى اخرى بتغير المجتمع والثقافة .

١ — ويرى اجبرن ونيمكوف ، أن الأسرة عبارة عن « منظمة » دائمة نسبيا تتكون من زوج وزوجة مع اطفال أو بدونهم ، أو تتكون من رجل أو امرأة على انفراد مع ضرورة وجود اطفال فى هذه الحالة .

ويلاحظ أن الوظائف الجنسية والأبوية من الأمور التى تميز الأسرة

لأنهما المبرر الأول لهذا النظام ، كما انها من مميزات الأسرة فى كل الثقافات، ويلاحظ أن الزوجين وذريتهما هم القوة البشرية الأولية التى تكـون بناءه الخاص (١) .

ولا تقتصر الأسرة بالضرورة ، مع ذلك ، على هؤلاء الأفراد أو تلك الوظائف . فقد تكون اكبر من ذلك كـثيرا فتشمل الأجـداد والأقارب والأصهار والأحفـاد ، الذين يكون وحدة تسمى فى بعض الأحيان « العائلة » أو « الدوار » أو الأسرة الممتدة أو المركـبة . ولا يثبت بناء الأسرة على وضع معـين ، لأنه يتغير بتغير الثقافة ، وبالتالى تكون وظائف الأسرة مرنة إلى حد كبير ، فقد تقوم بعدد كبير من الوظائف ، وقد لاتقوم إلا بوظائف قليلة جدا . فالى جانب الوظائف التى سبق الإشارة إليها ، قـد تقوم الأسرة بالخدمات الإقتصادية لأعضائها،وقد تعلمهم وتعطيهم التوجيه الدينى وتهيء لهم وسائل الترفيه وتدافع عنهم ضد اى خطر من اى نوع ، كما انها قد توفر الحنان والمودة والاشباع الجنسى . وفى ضوء هذه الاعتبارات يقرر اجبرن ونيمكوف انه من الممكن ان نفسر الأسرة فى ضوء البنـــاء والوظائف المتغيرة .

٢ ـ ويعرف كل من « بل N. W .Bell »و« فوجل E. F . Vogel» الأسرة ، بأنها وحدة بنائية تتكون من رجل وامرأة ، يرتبطان بطريقة منظمة إجتماعيا مع أطفالها . ونظرا لأن بعض الأطفال فى الأسرة يصبحون أعضاء فيها عن طريق التبنى ، فلا يلزم إذن أن يكون الأطفال مرتبطين بيولوجيا

---

1 – Ogburn & Nimkott; Sociology, N.Y. 1960,p 441

بها . وتسمى هذه الوحدة عادة « الأسرة » [1]

٣ - ويعرف بيسانز الأسرة ، أنها إمرأة وطفلهـا ورجل يرعاها ، والرجل غالبا ما يكون والد الطفل ، ولكن في بعض المجتمعات قد يكون أخ الزوجة . ومن أجل هذا كان التعريف الشامل للأسرة يجب أن أن ينظر إليها باعتبارها ، الجماعة الإجتماعية النظامية المسؤولة عن تكاثر السكان . وينظر كل مجتمع إلى الزواج على أنه الطريق القانونى السليم لإنشاء الأسرة ، وهو إذن الإتحاد الجنسى الرسمى الدائم لرجل أو أكثر مع إمرأة أو أكثر ، ويقوم هذا الإتحاد على مجموعة من الحقوق والواجبات . [2]

٤ - أما لندبرج ، فيرى أن الأسرة هى النظام الإنسانى الأولى ، ومن أهم وظائفها إنجاب الأطفال للمحافظة على النوع الإنسانى ، كما أن النظم الأخرى تمتد أصولها فى الحياة الأسرية . أى أن أنماط السلوك الإجتماعى الإقتصادى والضبط الإجتماعى والتربية والترفيه والدين ، نمت فى أول الأمر داخل الأسرة .

ولهذا كانت الاسرة المبكرة فى تاريخ الإنسان مجتمعا صغيرا كاملا ولم تكن نظاما له وظائف متخصصة كما هو الحال فى المجتمعات الحديثة المعقدة . ويكمن تغير الأسرة فى تحولها من مجتمع صغير مكتف بذاته إلى وحـدة

---

1 — Bell, N. W. & Vogel, E. F. (eds.) A Modern Intro duction To The Family, New York; 1962, P I

2 — Biesanz & Biesanz; Modern Society; F, Y; 1954, P. 203

وظيفية متخصصة داخل مجتمع يزداد نموا باستمرار (١) .

ه ـ وينظر ماكيفر وبيج إلى الأسره على أنها جماعة ، فيقولان ، إنها جماعة دائمة مرتبطة عن طريق علاقات جنسية بصورة تمكن من إنجاب الأطفال ورعايتهم . وقد تكون فى الأسرة علاقات أخرى ، ولكنها تقوم على معيشة الزوجين معا ، الذين يكونان مع أطفالهما وحدة متميزة . وتعرف هذه الوحدة بمجموعة معينة من الخصائص مشتركة فى المجتمع الإنسانى بأسره هى :-

ا ـ علاقة زواجية (جنسية)

ب ـ صورة من صور الزواج أو أى ترتيب نظامى تقوم على أساسه هذه الرابطة الزواجية وتستمر خلال الزمن .

حـ ـ نظام للتسمية يتضمن فى نفس الوقت طريقة لتحديد سلسلة النسب.

د ـ بعض المؤونة الإقتصادية يشترك فيها أعضاء الجماعة ، ولكنها ترتبط على الأخص بالحاجات الإقتصادية المتعلقة بحمل الأطفال ورعايتهم.

ه ـ مسكن مشترك ، قد تختص به الأسرة وحدها أو قد تشاركها فيه أسر أخرى .

وهكذا نرى أن هناك شبه اتفاق بين التعاريف السابقة فى الأسس التى يقوم عليها تعريف الأسرة ، ولو عرضنا لعدد آخر من التعاريف ، لما وجدنا

1 — Ludberg & Others, Sociology, N. Y., 1958, P. 204

اختلافا حقيقيا . وكل ما نشير اليه هنا ، أن بعض العلماء ينظرون إلى الأسرة على أنها جماعة ، والبعض الآخر ينظر إليها على أنها نظام . والواقع أن الفرق بين الجماعة والنظام ليس كبيرا ، لأن كليهما نوع من التنظيم الإجتماعى يفترقان أو يقتربان على أساس درجة التجريد التى ندرس على أساسها كل منهما .

والأسرة من غير شك جماعة باعتراف كل العلماء تقريبا ، ولكن عموميتها فى المجتمع الإنسانى من ناحية ، وأهميتها القصوى لاستمرار الجنس البشرى وقيامها على أسس تكاد أن تكون ثابتة من ناحية أخرى ، هى التى تجعل كثيرا من علماء الإجتماع يفضلون دراستها على أنها نظام اجتماعى ، وعدم إدراجها ضمن الجماعات الأخرى فى المجتمع .

وخلاصة القول أن الأسرة التى تقابل كلمة Family باللغة الإنجليزية ، تعنى من الناحية السوسيولوجية ، معيشة رجل وامرأة أو أكثر معا ، على أساس الدخول فى علاقات جنسية يقرها المجتمع . وما يترتب على ذلك من حقوق وواجبات ، كرعاية الأطفال وتربيتهم . أولئك الذين يأتون نتيجة لهذه العلاقات . أو أنها « جماعة » تقوم على العلاقة الجنسية بشرط ان تكون محدودة ودائمة بصورة تكفى لإعالة الأطفال وتربيتهم ، كما يقول ماكيفر وبيج .

ونظرا للاشكال التاريخية العديدة والمعاصرة للأسرة ، يضاف إلى كلمة Family صفة تحدد شكلها . ولهذا كان هناك الأسرة الممتدة Extended Family . وهى الجماعة التى تتكون من عدد من الأسر المرتبطة ، سواء كان النسب فيها إلى الرجل او المرأة ، ويقيمون فى مسكن واحد . وهى

لا تختلف كثيرا عن الأسرة المركبة Composite Family او الأسرة المتصلة Joint Family

ويرجع الفضل للانثروبولوجيين والاثنوجرافيين فى اكتشاف هذه الأشكال المختلفة للأسرة، سواء من حيث الشكل او الإقامة او النسب، وذلك نظرا لاختلاف المجتمعات البدائية فى نظم القرابة وتداخل العلاقات المترتبة على ذلك ، الأمر الذى جعلهم يجمعون هذه الإختلافات بنسبتها إلى شكل اعم وهو « البدنه Lineage » او « العشيرة Clan »

ونظرا لأن اللغة العربية اغنى من اللغات الأجنبية الأخرى فى اصطلاحات القرابة، فسوف نصطلح على إطلاق كلمة الأسرة Family على الجماعة المكونة من الزوج والزوجة واولادها غير المتزوجين الذين يقيمون فى مسكن واحد . كما نصطلح على إطلاق كلمة « العائلة Extended Family » على الجماعة التى تقيم فى مسكن واحد، وتتكون من الزوج والزوجة واولادهما الذكور والأناث غير المتزوجين والأولاد المتزوجين وابنائهم ، وغيرهم من الأقارب ، كالعم او العمة والإبنة الأرمل ، الذين يقيمون فى نفس المسكن ، ويعيشون حياة اجتماعية واقتصادية واحدة تحت إشراف رئيس العائلة .

ونلاحظ ان العائلة توجد فى القرية فى مجتمعنا اكثر من وجودها فى المدينة ، التى تتميز بوجود الأسرة بالمعنى السابق . ومع ذلك تكون العائلة والأسرة فى القرية ممثلة لعلاقات القرابة من الدرجة الأولى . ولكن فى كل قرية يرتبط عدد من العائلات أو الأسر برباط آخر يعتبر علاقة قرابة من الدرجة الثانية ، وهو انتماؤهم إلى اصل (جد اكبر) واحد، فيكونون

في هذه الحالة ما يسمى « البدنة Lineage » . والبدنة فى مجتمعنا القروى ، هى الجماعة القرابية الكبرى ، التى تنتمى لها العائلات والأسر المشتركة فى الأصل الواحد والإسم الواحد . والقرية بدورها تنقسم إلى بدنات من هذه الزاوية (١) .

مظاهر البناء الاسرى :

تبدو الأسرة عند النظرة الأولى أنها نظام إجتماعى متغير ، ولكنها مع ذلك تتميز ببعض الخصائص العامة التى نلاحظها عند مقارنة هذا النظام فى عدد من المجتمعات القديمة والحديثة . ويرى عدد من علماء الاجتماع أن ما هو عام فى الأسرة الإنسانية ينبثق من حقيقتين : أولاهما أن بقاء الانسان ليس مسألة فردية وإنما هو فى الحقيقة أمر متصل بالجماعة أشد اتصال . ذلك أن العناية بالأطفال والمسائل المتعلقة بالعلاقات الجنسية التى تسبق مولدهم ، من الأمور التى تخضع للضبط العــام فى كل الأزمنة ، وفى كل الأمكنة . وثانيهما ان الإنسان نوع واحد ، ومن اجل هــذا فان تركيبه البيولوجى المتميز يفرض حدودا معينة على مدى التغير فى سلوكه .

ونظرا لأهمية هاتين الحقيقتين فاننا نعرض لهما بصورة اكثر تفصيلا فيما يلى :

١ ـ الضبط العام والزواج :

توافق كل المجتمعات على صور من العلاقات الجنسيــة ولا توافق على

---

(١) محمد عاطف غيث : القرية المتغيرة (القيطون ـ محافظة الدقهلية : دراسة فى علم الاجتماع القروى) ، دار المعارف ، الاسكندرية ١٩٦٢ ، ص ٧٧ ـ ٨٠

صور اخرى على الرغم من ان ما يكون محلا للموافقة وغير الموافقة يتغير من مجتمع لآخر . وقد لاحظ الباحثون بثبات ان مسئولية رعاية الاطفال تقع على عاتق الكبار، على الرغم من انهم قد لا يكونون الآباء البيولوجيين لمثل هؤلاء الأطفال. ويستنتج الباحثون من ذلك انالزواج والأسرة موجودان فى كل المجتمعات .

والزواج ارتباط جنسى رسمى دائم لعددمن الرجال وعدد من النساء مع ما يترتب على هذا الإرتباط من حقوق وواجبات . ولذلك تكون علاقة الزوج بالزوجة مسألة تخضع للضبط العام الذى يحدد مقدما نطاق الحق والواجب قبل الدخول فى علاقة من هذا النوع. ويختلف الزواج عن الأسرة لأن الزواج ينحل وينتهى ما رتب على أساسه من حقوق وواجبات عندموت احد الشريكين ، بعكس الأسرة التى لا تنحل لهذا السبب، وعلى الرغم من أن الطلاق قد ينهى رابطة الزواج إلا أنه لا يوقف الحقوق والواجبات التى كانت مترتبة على هذه العلاقة، كما أنه لا يؤدى إلى انتهاء الأسرة . ويحتفل بالزواج فى كل مكان وفى كل زمان بطرق يقرها المجتمع وترضخ فى نفس الوقت إلى الضبط العام ، وحفل الزواج فى حد ذاته عبارة عن إعلان بأن رجلا وامرأة قررا الدخول فى علاقة جنسية يقرها المجتمع، على أن يكون مفهوما انهما سوف يتحملان معا مسئولية هذه العلاقة لمدة تطول أو تقصر حسب الأحوال . وكل مجتمع له طريقته الخاصة فى اجراءات الزواج وفى اتمامه ، فقد تطول فى مجتمع بينما تقصر فى مجتمع آخر، أو قد تكون المدة فى حد ذاتها متوقفة على ظروف فردية بحتة . وهناك اختلاف هام بين الزواج والأسرة، ذلك أن الزواج يتضمن علاقة بين شخصين أو اكثر ، ولكن هذه العلاقة تكون دائما منظمة على اساس أن احد اطرافها يتكون من شخص

واحد فقط ، اما الأسرة فانها تتكون من اكثر من شخصين يرتبطون بعلاقات تدوم فى الزمان وتتخطى حدود الموت ، وتستمر فى الوجود معتمدة على بقية مكوناتها .

٢ - الاساس البيولوجى .

يقرر علماء الإجتماع ان القواعد النظامية التى تحكم مطارحة الغرام والزواج والأسرة قواعد ثقافية واضحة، ولهذا فانها تختلف من مجتمع لآخر، ولا يعقل أن يكون لها اصل فى بيولوجية الإنسان . وهناك فى نفس الوقت وجوه شبه اساسية داخل هذه القواعد ، كما ان الاختلافات بينها محدودة بالضرورة ، ويقال إن التشابه داخل القواعد والحدود التى تفرض على مدى التغير ترجع فى المحل الأول إلى بعض الحقائق العامة المتعلقة بالبيولوجيا الإنسانية .

ا - يلاحظ الباحثون عدم وجود « فصل » محدد لاتصال الرجل بالمرأة عند اى جنس من اجناس الإنسان . فالذكر منذ مرحلة النضج حتى الشيخوخة يكون مدفوعا للبحث عن الإشباع الجنسى بغض النظر عن أى فصل من فصول السنة أو عن اى دورة من دورات الزمان :اما استجابية المرأة فانها اكثر تغيرا لأنها محكومة بالدورة الشهرية، ولكنها على اى حال تستجيب للرجل بصورة اكثر ترددا إذا قورنت بالأنثى فى الأنواع الأخرى، او بمعنى آخر، تكون قادرة على الاستجابة فى كل الأوقات إلا فى الحالات التى يجب ان تمتنع فيها نظرا لظروفها الخاصة . وهكذا نتبين ان الإتصال الجنسى فى النوع الإنسانى دائم بصورة ليس لها نظير فى الأنواع الأخرى

ب - إن فسيولوجية المرأة تجعلها عاجزة فى فترات دورية، فهى تحتاج

خلال فترات الحمل والرضاعة إلى معونة الآخرين،او بمعنى آخر تحتاج المرأة إلى ترتيبات اجتماعية دائمة تضمن لهـا البقاء كما تضمن البقاء ايضا لأطفالها . ويلاحظ الباحثون ان الطفل اكثر اعتمادا على المرأة من الغير نظرا لطول فترة الطفولة عند الإنسان،التى تتطلب الارتباط الدائم للكبار من الناحية الإجتماعية والإقتصادية لصالح الطفل والمجتمع فى نفس الوقت،ويقرر العلماء ان الطفل يحتاج إلى ١٢ عاما من الرعاية والتمرين ليتمكن من اكتساب الوسائل الفنية والأدوات اللازمة لحسن توافقه مع المجتمع الذى يعيش فيه .

حـ ـ إن عملية الرجل وسيادته مسألة بيولوجية أساسية فى الأسرة الإنسانية، ذلك لأنه لا يحس بالنقص الفسيولوجى التى تحس به المرأة، كما انه فى العادة أقوى منهـا . ويقول ارنولد جرين إن الدور الذى تقوم به ام الزوجة (الحماه) والعجز الدورى الذى يظهر أثناء العادة الشهرية وفترات الحمل والولادة دفعت الرجل إلى ان يتحمل مسئولية الدفاع وتوفير الطعام والمسكن لمن يعتمدون عليه فى حياتهم . وعلى الرغم من ان هناك عدة إختلافات عن هذا النمط،إلا ان الرجل عادة يكون له اهمية إجتماعية تفوق اهمية المرأة . كما ان لواء السيادة فى الأسرة معقود للرجل ، ويدلل الباحثون على صدق هذا القول بأن اخ الزوجة فى المجتمعات التى يسودها النظام الأمى هو الذى يتولى جميع مسئوليات الأسرة .

وقد يذهب بعض الباحثين إلى القول بأن استقلال المرأة الإقتصادى فى المجتمع الحديث ادى إلى توازن القوى بين الجنسين فى الأسرة ، لكن اصطلاح توازن القوى يبدو ساذجا وبسيطا جدا،لأن الرجل ظل حتى مع تغير مركز المرأة الإقتصادى والإجتماعى صاحب السيادة فى الأسرة. وتؤيد الأبحاث التى اجريت فى موضوع الأسرة ان اختلاف الوظائف

الأجتماعية الرجل والمرأة سيظل عاملا مهما فى المجتمع الإنسانى وعنصرا اساسيا فى استمرار السيادة الاسمية للرجل على الآن فى الأسرة .

تنظيم الاسرة .

يقول وليم اجبرن إن الأسرة موجودة فى كل مجتمع مهما كانت ثقافته بسيطة ، و يتأيد هذا القول عن طريق الأبحاث التى اجزيت فى المجتمعات البدائية او المجتمعات التاريخية ، اما ماقد يثيره البعض عن شكل الأسرة قبل وجود الثقافة فأمر لانستطيع تصوره . ويرد آخرون على مثل هذا التساؤل باجراء مقارنة بين مجتمــــع الحيوان ومجتمع الإنسان ، ذلك ان الدراسات المتعددة على انواع الحيوان المختلفة اثبتت وجود نظـام للأسرة عند بعضها، فاذا كان الأمر كـذلك عند الحيوان،فمن الطبيعى ان يكون الإنسان وهو أعلى رتبة فى سلم التطور من الحيوان قد عرف الأسرة فى بداية الأمر .

ويلاحظ اجبرن أن تنظيم الأسرة قـــــد تعرض لتغيرات واسعة النطاق خلال التاريخ ، ويقول إن الصورة العادية للأسرة بين البدائيين تشبه اسرتنا اليوم لأنها تنتظم حول زوج وزوجة وأطفالها الأمر الذى جعل الأسرة عبارة عن وحدة مستقلة لهاوظائف تقوم بهـا بعيدة عن الوظائف التى تقوم بها أسر من نفس النوع . والتغير الأساسى فى تنظيم الأسرة يكـون إما باضافة اعضـاء آخرين لها او بزيادة الوظائف او تناقصها . وقـد عرفت المجتمعات على مر التاريخ أيضا ان الأسرة إما ان تقوم على زواج داخـلى أو على زواج خارجى . والأساس فى هذه الحالة يقوم على اعتبارات متعددة، منها النظرة الخاصة إلى الأقارب باعتبارهم من المحارم الذين لا يجوز الزواج منهم ، أو الرغبة فى توسيع نطاق العلاقات القرابية من الداخـل،محافظة على

الثروة أو العصبية، او الرغبة فى إنشاء علاقات مع الغير توسيعا لنطاق العلاقات الإجتماعية، أو طلبا لمراكز القوة التى قد تترتب على الزواج الخارجى.

وقد عرف المجتمع الإنسانى انواعا متعددة من الزواج منها:

١ - الزواج الوحدانى الذى يقوم على ارتباط رجل واحد بامرأة واحدة.

٢ - الزواج المتعدد وينقسم إلى قسمين: تعدد الزوجات وهو زواج رجل بأكثر من امرأة واحدة، الذى يعتبر من اهم صور الزواج الباقية حتى الآن، ويقول بعض الباحثين إن بقاء هذا النوع من الزواج يعتبر دليلا على انه كان ولا يزال نظاما طبيعيا. وتعدد الأزواج ومعناه زواج امرأة بأكثر من رجل واحد، ولكن هذا النوع من الزواج لم يكتب له الإنتشار لما ترتب عليه من صعوبات متعددة من اهمها، المشاكل التى ترتبت على نسبة الأطفال إلى رجل بعينه من ازواج المرأة.

٣ - الزواج الجماعى وهو الذى يتزوج فيه عدد من الرجال عددا من النساء دون تخصيص.

ويقرر ماكيفر وبيج ان هناك عددا من المظاهر المميزة للتنظيم الأسرى يجدر بنا هنا ان نشير إليها على النحو الآتي:

١ - العمومية: ومعناها ان الأسرة اكثر الصور الإجتماعية ترددا فى المجتمع الإنساني، كما انها توجد فى كل المراحل التى مر عليها هذا المجتمع.

٢ - الأساس العاطفى الذى يقوم على مجموعة من الحوافز المعقدة العميقة

التى تترجم عن الطبيعة العضوية للانسان .

٣ ـ التأثير العميق الذى يظهر فى ما للأسرة من اثر واضح باعتبارها البيئة الإجتماعية الأولى التى تطبـــع الطفل بطابع خاص يظل ملازما له طوال حياته .

٤ ـ الحجم المحدد ، لأن الأسرة باعتبارها جماعة لا تنمو إلى ما لا نهاية بل إنها تتوقف عن النمو عند حد معين .

٥ ـ الوضع الفريد فى البناء الإجتماعى الذى يظهر من انهـا نواة كل التنظيمات الاجتماعية الأخرى.

٦ ـ مسئولية الأعضاء التى يتحملونها بصورة قد لا تتكرر كثيرا عند اعضاء اى جماعة أخرى فى المجتمع ، ذلك ان العضو فى الأسرة لا يستطيع أن يتهرب من واجباته إزاءها، بينما يستطيع ذلك بصورة ما إذا كان منتميا لأى جماعة اخرى فى المجتمع

٧ ـ يشدد المجتمـع حراسته على الأسرة عن طريق القواعد القـانونية والمحرمات الإجتماعية ، ولذلك فانها تحظى بأكثر اهتمام ادوات الضبط الإجتماعى ، ويعتبر هذا ابلـغ دليـل على اهميتها القصوى بالنسبة لمجتمعات الانسان .

٨ ـ الأسرة دائمة ومؤقتة فى نفس الوقت ،فهى دائمة من حيث كونهـا نظاما موجودا فى مجتمع الانسان فى كل زمان ومكان ، وهى مؤقتة لأنهـا لا تبقى إذا كنا نشير إلى اسرة بعينها ، بل إنها تبلغ درجة معينة من النمو فى الزمن تنحل فيها أو تنتهى لتقوم محلها اسرة أخرى وهكذا

وظائف الاسره .

هناك شبه إجماع بين علماء الاجتماع على ان الأسرة تقوم بعـــدد من الوظائف هى الانجاب وإعطاء مركز للفرد وغير ذلك من الوظائف الأخرى التى نشير إليها فيما يلى :

(١)- تنظيم السلوك الجنسى والانجاب:

ويلاحظ هنا ان التزاوج ظاهرة فسيولوجية تخضع لمجموعة من الضوابط الثقافية ، تجعل العلاقات الجنسية اجبارية لبعض الأشخاص، ومسموحا بها للبعض الآخر، وممنوعة للباقين . ولايجب أن تخلط التزاوج بالزواج، لأن التزاوج قد يحدث بالطبع خارج الزواج، وقد يحدث الزواج دون تزاوج، لأن الزواج يتكون من القواعد والتعليمات التى تحدد حقوق الزوج والزوجة وواجباتهما وإمتيازاتهما كل إزاء الآخر وإزاء أقاربهم وإزاء المجتمع ككل ، ولهذا يعتبر الزواج إتفاقا تعاقديا يعطى العلاقات الاجتماعية التى تكون الأسرة طابعا رسميا وثابتا . وعلى الرغم من أن هناك عددا من المجتمعات تسمح بالخبرة الجنسية قبل الزواج إلا أن مجتمعات اخرى تضع عقبات متعددة إزاء هـذا النوع من العلاقات الجنسية قبل الزواج . ومعنى هـذا أن المسموحات الجنسية تختلف إختلافا كبيرا جدا من ثقافة إلى اخرى ، بل قد يختلف المجتمـع الواحد فى اقسامه المختلفة إزاء النظر إلى هذه الخبرات الجنسية التى تمارس خارج نظام الزواج . وقد دلت الأبحاث المتعددة على انه بالرغم من تجهم المجتمع للسلوك الجنسى على هذا النحو، إلا ان هذا لم يمنعه ولم يقضى عليه فى الواقع . ويظهر إهتمام المجتمعات بالمسائل المتعلقة بالعلاقات الجنسية فى كثرة القواعـــد الاجتماعية والقانونية التى تتصل بشئون الجنس والزواج .

٢ - العناية بالأطفال وتربيتهم :

من أهم وظائف الأسرة إنجاب الأطفال والإشراف على رعايتهم وتربيتهم، ولذلك تكون الأسرة مسئولة مسؤولية أولى عن عمليات التنشئة الإجتماعية التى يتعلم الطفل من خلالها خبرات الثقافة وقواعدها فى صورة تؤهله فيما بعد لمزيد من الاكتساب، وتمكنه من المشاركة التفاعلية مع غيره من أعضاء المجتمع .

٣- التعاون وتقسيم العمل :

يكون الرجل والمرأة فريقا متعاونا على الأقل من الناحية الاقتصادية. أو ينقسم العمل داخل الأسرة بين الرجل والمرأة فى فى المسائل المتعلقة براحة الطفل وطمأنينته النفسية، وتربيته وتوجيهه، وتختلف المجتمعات فى مبلغ مشاركة الرجل والمرأة فى النهوض بهذه المستويات ، ويلاحظ أن الإشراف على المنزل ورعايته من الأعمال الهامة التى تتحمل المرأة مسئوليتها.

٤- الإشباع :

تعتبر الأسرة الجماعة الأولية الهامة التى توفر للطفل أكبر قدر من الحنان والعطف، ولذلك يتوقف قدر كبير من التكامل الإنفعالى والعاطفى عند أعضاء الأسرة على مبلغ ما يتوفر لهم من إشباع لرغباتهم المتعددة ،ويلاحظ أن هذا الإشباع لا يقتصر على الأطفال فقط، ذلك أن الكبار يجدون مسرة كبيرة فى مداعبة الأطفال وفى اللعب معهم .

مشاكل الأسرة :

هناك قول شائع أن الأسرة فى هذه الأيام تتعرض لأزمات وتصدعات

متعددة نتيجة التغيرات الاجتماعية والثقافية التى يعتبرها البعض شديدة الوطأة على نظام الأسرة الحديث. ويحمل القول معان متعددة منها ، أن المجتمعات القديمة لم تخبر أسرها الأزمات أو التصدعات ، أو ان الحياة الحديثة فى المجتمعات الحضرية لا تعمل على تكامل الأسرة وتماسكها ،أو ان عوامل التكنولوجيا الحديثة قـد قللت من أهمية البيت وصرفت الرجال والنساء معا عن الإهتمام به . ولكن الأبحاث المتعـددة عن الاسرة فى المجتمعات البدائية والقديمة ، أثبتت أن الاسرة شأنها شأن أى نظام إجتماعى آخـر واجهت الازمات والتصدعات وعرفت الطلاق الذى يعتبر أكبر ضربة توجه الى هذا النظـام ومع ذلك يلاحظ إزدياد نسب الطلاق فى مجتمعات اليوم بصورة لم تكن مألوفة فى اى وقت مضى حتى فى تلك المجتمعات التى تحرم الطلاق دينيا ، وقد أجمع الباحثون على ان من أهم أسباب الطلاق ما يلى :

١ ـ عدم التوافق الجنسى بين الزوجين يؤدى إلى ازدياد درجة الخلافات ووصولها إلى نقطة يصعب معهـا التوفيق، ويصبح لا مناص من حل رابطة الزواج .

٢ ـ الحب الرومانتيكى الذى يسبق الزواج،والذى يشترط الوقوع فيه عدد كبير من الشباب كشرط جوهرى للزواج . ومن المعروف أن كثيرا من المحبين لا يخططون لمستقبل علاقتهم تخطيطا واقعيا، وعندما يصطدمون بضرورات الحياة ومشقاتها يصعب عليهم التكيف ويدركون أنهم قد خططوا لمستقبلهم على أساس غير سليم .

٣ ـ اختلاف المستوى الإقتصادى والإجتماعى والثقافى قد يكون عاملا هاما فى المدى القصير أو الطويل فى حل رابطة الزوجية ، لأن الأسرة وهى

جماعة تقوم على التعاون المتبادل،لا تستمر طويلا فى البقاء مع وجود فوارق يحسها الزوجين باستمرار .

٤ ـ وهناك أسباب أقل أهمية مثل الخيانة الزوجية وانخفاض المستوى الإقتصادى والمرض والعقم وغـــير ذلك من الأسبـاب التى لا تعجل بقرار الطلاق فى بعض الحالات .

ويجب أن نلاحظ هنا أن المجتمعات المختلفة لا تتماثل فيها أسباب الطلاق، بل إن المجتمع الواحد قد تظهر فيه اختلافات فى هـــذا المجال بين أقسامه المختلفة،وعلى كل حال فاننا نستطيـع أن نقول إن العوامل السابقة تعتبر من قبيل العوامل الدائمة ، أما غلبة عامل على آخر فأمر متصل بعوامل اجتماعية وثقافية خاصة .

وإذا كان الطلاق هو التصرف القـانونى الذى يعبر عن انتهـاء رابطة الزواج،فان هناك أنواعا متعددة من السلوك تشير إلى توقف هـــذه الرابطة مثل الهجر والإنفصال التى يحتمل أن تعـود بعدها رابطة الزواج مرة أخرى إذا استطاع الزوجان خلال ابتعادهما احدهما عن الآخر أن يقدرا مسئوليتهما الإجتماعية إزاء الأسرة .

ويلاحظ ان نسب الطلاق تزداد عند الأسر قليلة الأطفـال بينما تقل فى الأسر الكثيرة الأطفال،ولذلك تميل المرأة فى بعض المجتمعات إلى إنجاب الأطفال بسرعة وبكثرة لصرف الرجل نهائيا عن التفكير فى الطلاق . كما أن الزوجة قد تسىء تدبير امور المنزل فى بعض الأحيـان لتستنزف ميزانيـة زوجها حتى لا يحقق فائضا من المال يستخدمه فى قضاء وقت الفراغ بعيـدا عنها او يمكنه من الزواج بأخرى .

إن تصدع الأسرة يعتبر فى نظر كثير من الباحثين سببا هاما فى انحراف الأحداث وفى السلوك الإجرامى عامة. وفى عدد من مشاكل سوء التكيف والتوافق والمرض النفسى الذى يتعرض له الأفراد فى حياتهم او فى تفاعلهم مع اعضاء المجتمع الآخرين .

التوافق الزواجى :

يقول جورج لندبرج إننا نستطيع ان نصل إلى عدد من التعميات نتيجة للدراسات التى اجريت عن الطلاق والسعادة الزوجية والتبرم بالحياة الزوجية التى تحدد اتجاهات التوافق وعوامله فى الزواج والأسرة وهى كما يلى :

١ ـ الطفل الذى ينشأ فى بيت سعيد وفى جو عائلى مريح ينجح فى حياته الزوجية ويكون سعيدا بها ، او بمعنى آخر الآباء السعداء يخرجون أطفالا يكونون سعداء عندما يتزوجون .

٢ ـ عندما تتم العلاقة الجنسية مصحوبة بالاشباع والحب تكون اساسا هاماً فى الصلات القوية التى تربط الزوجين وتؤدى ،إلى علاقة دائمة وثابتة .

٣ ـ ليست هناك علاقة وثيقة بين وجود الأطفال أو عدم وجودهم أو عددهم وبين السعادة الزوجية .

٤ ـ يرتبط التوافق الزواجى بسمات الشخصية مثل الإستعداد للتخلى عن موقف التحدى فى المناقشة أو الصبر عند الاستثارة او القدرة على تجنب قهر الاخرين وإذلالهم .

٥ - ترتبط القدرة على الأخذ والعطاء فى المسائل العاطفية بالسعادة الزوجية .

٦ - كلما كان الإنسان سعيدا فى زواجه كلما كان أكثر حبا للناس، ذلك أن أولئك الذين يستمتعون بصحبة الغير هم أكثر الناس فرصة فى النجاح فى الحياة الزوجية .

٧ - يرتبط النجاح فى الزواج بمدى تقدير الفرد لمسائل الدين والقيم الرفيعة. ذلك أنه كلما كان الإنسان شديد الحرص على أداء الواجب مؤمنا بالقيم الإنسانية كلما كانت الفرصة أمامه كبيرة لأن يسعد فى حياته الزوجية. والزواج الناجح هو الذى يجمع الزوجين عن طريق الحب والصداقة ،لأن ارتباط هاتين العاطفتين يؤدى إلى حسن التفاهم والتقاء الإهتمامات وتبادل الإحترام والمساواة فى تقرير أمور الأسرة ،الأمر الذى يؤدى إلى نجاح الزواج .

٨ - تقدير الزوجة لجهود زوجها فى توفير الإستقرار والأمن الإقتصادى للأسرة إلى جانب تقدير الزوج لعمل الزوجة للمنزل يرتبط إرتباطا قويا بالسعادة الزوجية .

٩ - لا يرتبط نجاح المرأة فى عملها إذا كانت عاملة أو موظفة بالسعادة أو الشقاء فى الزواج .

١ - تستطيع المطلقات أن تتوافق عند الزواج الثانى ،وتدل البيانات

التي جمعها الباحثون أنهن يستطعن أن يكن سعداء كما لو كن متزوجات لأول مرة .

ويعدد كرك باتريك Kirkpatrick العوامل المتعددة التي ترتبط بالتوافق الزواجي قبل الزواج وبعده على النحو الآتي :

١ - عوامل ماقبل الزواج :

ا ـ سعادة زواج الوالدين .

ب ـ طول مدة التعرف والمودة والخطبة .

ج ـ المعلومات الجنسية الصحيحة في الطفولة .

د ـ السعادة الشخصية أثناء الطفولة .

هـ ـ موافقة الوالدين والآخرين على الزواج .

و ـ التوافق أثناء فترة الخطوبة والرغبة الطبيعية في الزواج .

ز ـ التشابه الديني والعنصري .

ح ـ المركز الاجتماعي والتربوي العالي .

ط ـ السن الذي يصل فيه الفرد إلى مرتبة النضج .

ى ـ الإنسجام العاطفي مع الوالدين أثناء الطفولة .

٢ ـ عوامل ما بعد الزواج

ا ـ المقدرة على إتمام العملية الجنسية بصورة مرضية

ب - الثقة بالعواطف التى تظهر بعد الزواج والرضا عنها .

حـ - العلاقة المتوازنة بين الزوجين بدلا من السيطرة من جانب واحد مع تقدير لدور الزوج .

د - الصحة العقلية والفزيائية .

هـ - الصحبة المنسجمة التى تقوم على المصالح المشتركة والمرتبطة فى نفس الوقت باتجاهات مناسبة نحو الزواج وشريك الحياة .

تغير العائله فى المجتمع العربى ونتائجه

من المألوف فى دراسات الأسرة أن يتخذ الباحث طريقين : الأول ، عرض الحقائق المقارنة عن الأسرة باعتبارها نظاما إجتماعيا موجودا فى كل مجتمع بغض النظر عن الزمان والمكان . وهـذا ما فعلناه فى الصفحات السابقة ، والثـانى ، عرض الحقائق المتعلقة بالأسرة فى المجتمع الذى ينتمى إليه الباحث لتكون أقرب وأشد إتصالا بالقارىء. ومن هذه الزاوية لانكاد نجد مؤلفا فى علم الاجتماع أو الأسرة ، إلا كانت موضوعات الأسرة ذات صلة وثيقة بطابعها فى مجتمع معين . ومن أجل هذا سوف أعرض فيما بعد لبعض الحقائق المتصلة بالأسرة فى مجتمعنا ، وفى القسم القروى منه خاصة ، لأننى أعتقد أن المعلومات السابقـة عن بناء الأسرة ووظائفهـا ومشا كلها يمكن أن تنطبق نسبيا عـلى الأسرة فى القسم الحضرى من مجتمعنا .

إن مجتمعنا القروى يتغير ، وتغيره اصبح حقيقة واضحة ومحلا للدراسة . ومن أكثر النظم فيه استجابة لعوامل التغير ، نظـام الأسرة . لأن تغيره يـكشف عن الاثار العميقة لمـا لحق طابـع المجتمـع القروى كله من تغير .

ويجب ان نلاحظ هنا ان دراسة المجتمع القروى عندنا لا يمكن ان تتم دفعة واحدة نظرا للصعوبات العديدة التى تواجه الباحث ، لاختلاف القرى من حيث الحجم والبعد عن المدينة وغير ذلك من العوامل التى تجعل من الضرورى تنميطها لإمكان دراستها علميا .

ولكن الحقائق التى سنشير إليها فيما بعد كانت نتيجة دراسة على نمط واحد، يمكن ان تحدد نسبيا الخطوط العامة التى يسير فيها تغير المجتمع القروى ونظام الأسرة خاصة (١)

* إن التغير فى (العائلة) أحد النتائج الهامة للتغير الاجتماعى فى المجتمع القروى . والذى ترتب عليه تغيرات مصاحبة تشمل الأسس التى تقوم عليها الحياة الإجتماعية ، حقيقة إن التغير الاجتماعى يغير من الحياة القروية ككل بما فيها الحياة العائلية ، إلا ان تغير العائلة فى مراحل التغير الأولى كان اوضح ونتائجه المصاحبة كانت اوسع . والان تزداد عوامل التغير ، وتزداد لذلك عمليات التغير فى كل ناحية .

لقد كانت زيادة السكان فى القرية وما تبعها من زيادة حجم العائلات المتعاقبة والتى تعيش على ارض تتناقص باستمرار . النذير الأول لازمة العائلة فيما بعد . وكان فى وجود العائلة القديمة على نحو ما معتمدة فى حياتها الاقتصادية على ارض تزدحم فيها الايدى العاملة ، إيذانا ببدء خلافات لا تنتهى ، تزداد ولا تختفى إلا لتعود اكثر شدة من قبل . ويشترك فى هذا الخلاف الرجال والنساء على السواء ، ويعملون بالتالى على تفكك العائلة ،

(١) محمد عاطف غيث (المرجع السابق) ص ١٥٩ ـ ١٧٤

لأن السلطة التى كانت تعيد التوازن ، فقدت مقومات الطاعة لها منذ ان فقدت القدرة على إمساك تضامن العائلة عن طريق وحـــدة الحياتين الإقتصادية والإجتماعية وعندما يبدأ الأفراد يناقشون حياتهم الإقتصادية ويعملون على تدبير أمورهم تهبط سلطة التضامن باستمرار . وقد كان تغير الأساس الإقتصادى للعائلة عاملا مهما فى خفض حجم العائلة فى اغلب المجتمعات الريفية لا فى مجتمعنا وحده ، بل فى كثير من انحاء العالم . فمارتن يانج M. Yang يلاحظ فى قرية Taitou فى مقاطعة Shantung بالصين ان الشبان لا يحملون الآن اى عاطفة وثيقة نحو العائلات ، واصبح الخلاف امرا عاديا يتعلق اغلبه بمسائل المسكن والعمل والغذاء (١) . إذن فقد كان لتغير حجم العائلات وانفصالها إلى اسر مستقلة وخصوصا من الناحيــة الإقتصادية ، آثار هامة على الحيــاة العائلية وخصائصها القديمة المتفقة مع تنظيمها المتميز ، بل على مجتمع القرية ككل وطبيعة الحياة الإجتماعية فيه ، وايضا على علاقات القرية بالقرى الأخرى وبمراكز الإدارة والسلطة فى المدينة وفى العاصمة .

وهنا ينبغى ان نسأل سؤالا هاما ، هـل القرية فى وجود العائلة كانت « كلا whole » ، وفقدت هذه الكلية فى وجود الاسرة ؟ والإجابة على هذا السؤال بالإيجاب يتفق مع الإتجاه العـــام لمدرسة شيكاغو التى كان ردفيلد Redfield من ابرز ممثليها والتى تنظر إلى القرى الآن وقبل ذلك على أنها مختلفة اساسا عن المجتمعات البدائية فى صفتين اساسيتين،وهى العزلة والكلية بينما تكون القرية شبه منعزلة وجزءا من كل . وعـــلى ذلك تختلف طرق الدراسة باختلاف النموذج على هذا النحو . وقد حاول كثير من الباحثين

---

(1) Martin C.Yang, A Chinese Village, London. 1947. p. 239

إثبات هذا الفرض . مثل هاتش Hatch ، وبر جرايسلوندا Per Graeslun فالقريتان محل دراستهما كانت كل منهما تفقد الكلية فى مجرى التاريخ حتى اصبحت منذ مدة وإلى الآن جزءا من كل (١) . والواقع أن خاصية الكلية ترتبط ارتباطا وثيقا بالإكتفاء الذاتى . فاذا كانت قريتا هاتش وجرايسلوند على هذا النحو فى الماضى وأخذتا تفقدان هذه الخاصية ، فانى لا اعرف على وجه التحديد أن القرى فى مجتمعنا كانت كل منها كلا كذلك فيما مضى . ذلك لأن الاكتفاء الذاتى مسألة نسبية ، وارتباط القرية كما قال ردفيلد بأحد المدنيات القديمة لا يجعلها من جميع الوجوه « كل whole » اى مكتفية بذاتها كالمجتمع البدائى . والإكتفاء الذاتى لا يعنى إكتفاء من الناحية الإقتصادية بل هو ايضا من الناحية الإجتماعيـة . فاذا كان الإكتفاء الذاتى يؤدى إلى العزلة . فان القرى لم تكن كذلك فى اى مرحلة من مراحـل تاريخها - على ما اعلم . فالقروى كان يحس بالقرى المجاورة والمدينة ويحدد مركزه فى العالم على هذا الأساس (٢) . كما كان يحس بالحكومة لأنها تفرض عليه الضرائب ، وتنقله من قريته للعمـل فى « السخرة » او الالتحاق بالجيش ، ويتدخل رجالها عند الاشتباك وسقوط القتلى وهكذا .

إذن فالقرية يمكن ان تكون مكتفية بذاتها ومنعزلة نسبيا كما كانت من قبل ومع ذلك تكون جزءا من كل ، اى أن عزلتها واكتفائها بذاتها النسبين كانا اكثر اثرا فى حياتها الإجتماعية والإقتصادية من انتمائها إلى كل أكبر وهو

1— Redfield, The Little Community, Chicago 1956. PP-108—109

2 — Redfield & Alfonso Villa, Chan kom : A Maya village, Washington, 1960 P.I.

المجتمع الكبير . ولهذا كان التغير الاجتماعى فى حقيقة الأمر تغيرا فى العزلة والاكتفاء الذاتى . وكلما زاد التغير فى هاتين الناحيتين كلما ظهر أثر الكل فى حياة الجزء ... وهكذا , وبالتالى فان التغير فى علاقة الكل بالجزء يؤدى الى تغيرات هامة فى الجزء . ومن هذه الزاوية كان اهتمام الباحثين فى المجتمعات القروية الهندية منصبا على دراسة أثر المدينة والحكومة فى التغيرات الاجتماعية فى هذه المجتمعات (١) .

ولم تفقد القرية « الكلية النسبية » بتغير العائلة وتفككها إلى اسر مستقلة فقط ، بل تغيرت الكلية أيضا بالنسبة لوحداتها الرئيسية وهى البدنات ، لأن دائرة الاعتماد بالنسبة لها زادت كما زادت هذه الدائرة بالنسبة للقرية ككل. والاعتماد فى الحياتين الاجتماعية والاقتصادية كمقياس لتغير مدى العلاقات كثافة وعددا يشبه فى نواح كثيرة التغير من الكل الى الجزء فى حالة المجتمعات القروية . وعلاقة الاعتماد هذه يتخذها جودفرى ومونيكا ويلسون أساسا للمقارنة بين المجتمعات البدائية والمجتمعات المتحضرة. ولهذا كلما زاد الاعتماد — مع زيادة حجم المجتمع — كلما تغير المجتمع من البدائية الى الحضرية (٢) وهكذا .

ومعنى هذا أن علاقة الانتماء إلى الكل كانت ذات اتجاه معين فى الماضى، ويتغير هذا الان . ويمكن تطبيق هذا القول على العائلة القديمة وعلى الأسرة الان . كما يمكن تطبيقه أيضا على أى قرية فى الحالتين . فالقروى فى العائلة والبدنة كان يحس بعلاقة الإنتماء للنسق القرابى أكثر من إحساسه

---

1 - Mckim, Marriot, village India, chicago

2 - Godfrey & Monica, Wilson : Op. cit. pp. 25-30

بالانتماء للمجتمع القروى ، ولا يحس بالقرية إلا فى بعض المناسبات الخاصة. ومع هذا يكون احساس الإنتماء جمعيا لا فرديا ، وكذلك الأمر بالنسبة للقرية فقد كان إحساسها ككل بذاتيتها أو هويتها هو الإحساس الدائم ، اما إحساسها بالدولة او بالمجتمع الكبير فكان احساسا مؤقتا . ولهذا كانت القرية تنتمى للمكان الذى تعيش فيه إنتماء من الدرجة الأولى ، اما الأسرة اليوم فانها تنتمى - وعلى الأخص من وجهة نظر الفرد - إلى مجتمع القرية اكثر من الإنتماء إلى النسق القرابى القديم ، ومعنى هذا ان دائرة علاقات الفرد اصبحت تشمل من الناحية النظرية جميع افراد القـــرية ، وبالتالى فان القرية الان تنتمى إلى دائرة اكبر من حيث المكان ويزداد انتماؤها كلما صغرت الوحدة المكانية . ولهذا فان انتماءها للمركز اقوى من المحافظة ، واقوى اكثر بالنسبة للدوله ككل . وكقاعدة يمكن القول إنه كلما زادت عوامل التغير الاجتماعى وزادت آثارها كلما زاد إتصال الأجزاء شدة بالكل ، سواء كانت هذه الأجزاء فردا أو اسرة او قرية .

إن النتائج التى ترتبت على تغير العائلة فى الحياة الاجتماعيه فى مجتمع القرية تعتبر تغيرات مصاحبة عديدة لتغير العائلة، وتزداد ويتعين إتجاهها بمرور الزمن . ويمكن إبرازها على النحو التالى :

١ - زيادة التنقل الاجتماعى :

اصبحت الأسرة اساس البناء الاجتماعى وزادت الصلات المتبادلة بين القرى والعالم الخارجى ، وزادت تبعا لذلك كثافة العلاقات ومداها فى الداخل والخارج معا . لهذا فالتنقل الان الخصائص الاتية :

أولا : «غير محدود Unlimited » لأن الحواجز القديمة للعائلة والبدنة

ونجتمع القرية ككل لم تعد تمنع إمتداد العلاقات فى أى اتجاه ، ولذلك زادت سرعة التنقل ومداه .

ثانيا : أفقى لا يقتصر فقط على الزواج ، بل يمتد إلى عدد من العلاقات المختلفة لجميع الأفراد من الجنسين من مختلف فئات السن . وتعدى الإنتقال على هذا النحو حدود النسق القرابى وأصبح انتقالا فى دائرة مجتمع القرية .

ثالثا : رأسى وهو مالم يكن موجودا من قبل . فالأفراد والأسر تنتقل الان من حيث المركز الاقتصادى والإجتماعى نتيجة لتفتيت الملكية أو إنعدامها من طبقة اعلى إلى طبقة أدنى . كما ان بعض أصحاب المهن الذين كانوا ينتقلون من الناحية الإجتماعية افقيا . اصبحوا الان ينتقلون رأسيا ايضا على اساس إرتفاع مركزهم الاقتصادى والإجتماعى . ويغير بعض القرويين العمل الزراعى فيشتغلون بالتجارة او بالمهن والحرف ، فينتقلون رأسيا من طائفة الى اخرى وهكذا . كما ان هجرة القرويين والمتعلمين من القرية إلى المدينة تمثل فى جوهرها تنقلا اجتماعيا رأسيا .

رابعا : توسطى Intermediary أى غير واضح . وذلك لأن بعض الأفراد ينتقلون من مركز الى آخر غير محدد ، كأن يعمل القروى بالتجارة والزراعة معا . او يسكن المدينة والقرية فى نفس الوقت .

٢ - اللاتثبتية Uncertainty

كانت علاقة القروى بالأرض والعائلة والزمن علاقة ثابتة منتظمة، وتدور حياته فى دورات يمكن التنبؤ بها فى دقة وتحديد كبيرين ، ولهذا كان من

السهل تعيين الأبعاد الايكولوجية والبنائية (١) للفرد والعائلة . فدورة عام واحد كانت تعنى أنواعا مختلفة من العمل والمحاصيل وفترات محددة من الفراغ ، كما كانت تعنى إحتفالا بمناسبات وقياما بشعائر مختلفة ، وتوالى السنين لا يحمل معنى التغير ، وإنما يحمل معنى التردد أو المطابقة . ولهذا كانت دورة حياة الأفراد من الجنسين تكادأن تكون متشابهة ،ونظرا لعدم اختلال هذا النظام ، فقد كان الفرد متثبتا من كل شيء يتعلق بحياته الاجتماعية والإقتصادية – حتى الموت فأجل « مكتوب » وكان الذى يقوى هذا التثبت وجود الحياة العائليه بخصائصها التى اشرنا اليها . ولكن تغير العائلة تحت تأثير العوامل الاقتصادية واستمرار انخفاض مستوى المعيشة الى جانب التأثيرات المتتابعة من المدينة جعل هذا التثبيت يختل . ولهذا اختلت علاقة القروى بالأرض وبعلاقاته القرابية ،وأصبح الامتداد الزمنى لا يؤدى الى دورات متشابهة للحياة ، بل يؤدى الى تغيرات تحمل معها القلق وعدم الأمن . فكل ما كان ثابتا فى الماضى يراه الان متغيرا ولا يعلم اتجاهه أو مداه .

وتفصيل ذلك انه إذا اعتبرنا القرية مجتمعا « ثابتا » فيما مضى ، وقد كان كذلك لأن الأنساق الأساسية فى تكوينه كانت ثابتاايضا، جاز لنا القول إنه كان مجتمعا متوازنا ، ويهتز هذا التوازن عن طريق التغيرات الإجتماعية ، ونتيجة لهذا الإهتزاز فان الآباء لا يعرفون مستقبل ابنائهم من حيث المهنة ،بعكس الحال فى الحالة الأولى،والإتجاه الان إلى الإهتمام بتحسين مستوى المعيشة وبالأخلاق القروية اكثر من الأخلاق الجمعية . ومع انه فى

---

1 - E-E. Evans-Pritchard, The Nuer, Oxford, 1940, P.

الماضى لم يكن هناك مجال للتجريب ، فقد تمت المحاولات والأخطاء قبل ذلك حتى وصل الحال إلى وضعه الراهن واستقر على طرق معينة مفضلة، ويقال « اننا نفعل ذلك لأن الأمر كان كذلك دائما » [1] .

ومع ان التجريب الان ليس له دور كبير وغير ظاهر فى بعض الأحيان فليس هذا راجعا إلى السبب الأول ، بل ان القرويين يعرفون ان هناك طرقا افضل، ولكنهم لأسباب متعددة، واهمها عجزهم الإقتصادى لايقبلون على اى تغيير خصوصا فى النواحى المتعلقة بالثقافة المادية . وخلاصة القول إن القروى الان لا يعرف إذا كان سيظل بالقرية ام سيهاجر او هل سينجح فى الوفاء بحاجات اسرته ام سيتعرض للفشل ، هل سيكون دائما على علاقات طيبة مع الجميع ، او هل التغير عامة فى صالحه ام سيلاقى الصعاب .. وهكذا .

٣ ـ الإستقلال والتبعية : Autonomy & Sudordination

لم يكن الفرد فى العائلة مستقلا بل كان تابعا لها ، ولهذا لم تكن له تبعية اخرى حتى لسلطة القرية الكلية فنظام المسؤولية الجمعية كان يجعل الأفراد جميعا وحدة واحدة داخل العائلة او البدنة ، ولم يكن لأحد منهم إستقلال خاص من هذه الناحية ، وكذلك بالنسبة للعائلة فى حدود البدنة ، النسق القرابى الأكبر .

اما الآن وفى ضوء التغير الاجتماعى الذى حدث للعائلة والمجتمع القرية،

---

1 - W. Ogburn, M. Nimkoff: handbook of Sociology 1953, PP. 585-586

فقد اصبح الفرد او الأسرة التى ينتمى إليها مستقلة وتابعة فى نفس الوقت. لأنه نظرا لتعدد علاقات الأفراد وكثافتها فى نفس الوقت فى الداخل والخارج . فقد اصبحت ضيقة Norrow بمعنى انه لا يشترك فيها عدد كبير على نفس المستوى كما كان الحال ايام العائلة . ولهذا كلما ضاقت العلاقات بهذا المعنى كلما زاد استقلال الفرد او الأسرة . اما التبعية فقد كان الفرد تابعا لوحدة صغيرة ، اى ان علاقات التبعية كانت تدور فى دائرة محدودة وهى البدنة او العائلة ، ولكن الوضع الان ان دائرة التبعية اتسعت حتى شملت مجتمع القرية ، بل الدولة بأسرها ايضا ومثال ذلك ان التبعية من حيث السلطة هى تبعية للقرية وللمدينة ايضا . إذن كلما زادت علاقات الفرد من حيث الإتساع كلما اتسع نطاق تبعيته وهكذا .

٤ - فردية البعد البنائى : Individualism in Structural distance

الأبعاد البنائية (١) - او الإجتماعية - كانت ابعادا بين عائلات وبدنات وبين عائلات وبدنات اخرى . والبعد البنائي على هذا النحو كان يتضمن حجم البدنة ودورها فى سلطة مجتمع القرية ، وبالتالى مركزها الإجتماعى والإقتصادى ، إلى جانب درجة التضامن فيها . ولهذا لم يكن للفرد إستقلال بنائى خاص . فأعضاء البدنة جميعا متشابهين بعدا بنائيا ، ومتميزين على هذا الأساس عن اعضاء البدنات الأخرى .

---

(١) البعد البنائى - فكرة استخدامها ايفانز بريتشارد فى الفصل الخاص بالزمن والمكان فى كتابه عن النوير ليصور طبيعة العلاقات بين القرى والبدنات المكونة لشعب النوير .

والآن نظرا لتفكك العائلة واتساع نطاق العلاقات التى تربط الأسر والأفراد ، وتغير مضامين الأنساق القرابية ، وظهور المصلحة كمحدد لاتجاه هذه العلاقات ودرجة شدتها . فقد أصبح البعد الإجتماعى فرديا . وأهم ما يدخل الآن فى تحديد هذا البعد المركز الإقتصادى . كما أن المركز الإقتصادى لم يعد يتحدد أساساً بملكية مساحة معينة من الأرض ، بل بمقدار ما يكسبه الفرد من الزراعة أو من غيرها من الأعمال ،تجارة أو مهنا أو حرفا .

ومن هذه الزاوية ارتفع مركز أفراد كانوا يتبوؤن فيما مضى مرتبة أدنى،وهم على الأخص المشتغلون بالحرف والمهن المختلفة ، وضاقت الأبعاد التى تفصلهم عن القرويين المشتغلين بالزراعة . ومع هذا يدخل المركز الإجتماعى القديم فى تحديد البعد البنائى،ولكنه قد يتجاوز عنه فى العلاقات الاجتماعية كالزواج . وكقاعدة يمكن القول أنه كلما زاد التغير الإجتماعى كلما تحددت الأبعاد البنائية بين الأسر والأفراد على أساس إقتصادى ، وقل دور المركز الإجتماعى فى هذا التحديد .

ونظرا لاتساع مدى العلاقات التى تربط القرية الآن بغيرها من القرى المجاورة وبالمدن ، فان الأبعاد البنائية للأفراد تقاس أيضا على أساس إقتصادى . فالفرد يدخل فى علاقة إجتماعية مع فرد من قرية أخرى إذا كان فى نفس المستوى ، ولكن فى هذه الحالات يدخل فى الإعتبار المركز الإجتماعى للعائلة أو البدنة إذا كانت هذه علاقة زواج ، كما يدخل فيها بصفة عامة البعد البنائى للقريتين ، ويدخل فى هذا الإعتبار أيضا خصائص كل قرية على حده ، أو النموذج الذى اشتهرت به بين القرى

أو فى المنطقة المحلية . إذن فالقرية ينظر إليها من هذه الزاوية كما ينظر للفرد أو بطريقة مشابهة .

ومثال ذلك أن أفرادا من القرية يقبلون على الزواج من فتيات من قرية أخرى نظرا « لسمعتها » المسالمة ، ويعرضون عن الزواج بفتيات من قرية أخرى « لسمعتها » العدوانية . وكقاعدة كلما ازدادت صلات القرى بعضها بالبعض الآخر كلما تفككت فكرة النموذج فى تطبيقها على القرية ككل ، وكلما أصبح ممكنا الدخول فى علاقات متعددة على مستوى الأفراد والأسر .

٥ — الهجرة رأسيا وأفقيا Vertical & Horizontal

تزداد الهجرة بمرور الزمن . وقد بلغت أقصاها فى المجتمع القروى فى فترة الحرب العالمية الثانية والسنوات التى أعقبتها . وهى مستمرة حتى الآن . وهى إما رأسيه أو أفقية . فالهجرة الرأسية تتمثل فى القرويين الذين يتركون القرية إما بصفة دائمة ليعملوا فى غير العمل الزراعى فى جهات بعيدة ويعيشون مع جماعات تختلف عن عائلاتهم من حيث المركزين الإقتصادى والإجتماعى . فبعضهم يعمل فى تطهير الترع والمصارف . والآخرون يقيمون فى المدينة ويعملون فى المصانع أو فى مصالح الحكومة المختلفة . كما أنه يمكن اعتبار من يتعلمون من أبناء القرية ضمن هذه الفئة، لأنهم فى حقيقة الأمر يقيمون ويعملون فى المدينة ويغيرون من مركزهم الإجتماعى والإقتصادى ، وينضمون إلى جماعات تختلف من حيث القيم والمركز عن أسرهم .

أما الهجرة لأفقية فانها تتمثل فى القرويين الذين يهاجرون من القرية مؤقتا ليعملوا فى الزراعة خصوصا فى مواسم الحصاد أو الجنى يعودون إلى القرى ثانيا . وهؤلاء ينتقلون من جماعة إلى جماعة مماثلة تقريبا ، أو دائما حين ينتقل الفرد بمفرده أو مع أسرته ليقيم فى قرية أخرى بعيدة أوقريبة، يزرع الأرض عن طريق الإيجـار او الملكية . فلا يتغير دوره أو مركزه بذلك .

ومن حيث أثر المهاجرين على القرية ، نجد انها تتأثر أكثر بالمهاجرين رأسيا ، لأنهم إذا ظلوا على صلة بالقرية فانهم يعـاونون اسرهم الباقية ويجلبون معهم فى اثناء عودتهم طرقا جديدة وأفكارا جديدة ايضا [1] . وقد لاحظت ان غير المتعلمين منهم اكثر من المتعلمين أثرا فى هذه الناحية .

٦ - التفكك النسبى فى الفواصل :

كان من خصائص العائلة القديمة الفصل التام وتحديد العلاقات والعمل على اساس الجنس والسن . وكان هـذا الفصل احـد قيم التنشئة الإجتماعية ونماذج السلوك المرعية . وبناء على التغير فى العائلة وما تترتب عليه من إستقلال الأسر بالإضافة إلى النتائج السابقة ، يلاحظ ان مركز المرأة آخذ فى الإزدياد ، كما يزداد الان دورها فى الحياة الإجتماعية العامة ومشاركتها فى الحياة الإقتصادية .

---

1 - M. Yang, Op. cit, P. 230

وقد زاد عمل المرأة ومسؤوليتها فى الأسرة عنهما فى العائلة، ولذلك تسهم بنصيب اوفر فى العمليات الزراعية التى كانت وقفاً على الرجال . كما انها تقوم بدور هام فى المبادلات الإقتصادية . وفى السوق نجد الرجال والنساء معاً . وبالتالى يتغير النموذج أو طبيعة السلوك المتوقع من المراة . حقيقة إن الرجال لا زال لهم السيادة من الوجهة النظرية ، إلا ان تبعية المراة المطلقة له تصبح مثار جدل بين الزوجين . وفى كثير من الأسر تقوم المراة حين يموت الزوج بجميع مسؤولياته فيما عدا العمل الزراعى الذى يتطلب مجهودا بدنيا شاقا . وفى غير ذلك تبذر البذور وتسقى المزروعات وتجنى وتحصد . ومن المناظر المألوفة فى القرى ان يتحدث الرجال إلى النساء علنا او يسرن معهن في الطرقات سواء كانوا ينتمون إليهن عن طريق القرابة ام لا .

أما فواصل السن فقد تفككت هى الأخرى ، فلم يعد الشباب مثلا يلتزمون بدقة انماط معينة من السلوك امام الكبار ، كما انهم يجلسون معهم يتبادلون « المزاح » او الرأى ، وكقاعدة يمكن القول إن انواع السلوك المترتبة على فواصل السن كاحترام الصغير للكبير وطاعته وعدم تبادل المزاح معه ، تتغير الان إلى نوع من حرية السلوك فيه انحراف كبير عن التقاليد القديمة .

إذن يمكننا ان ندرك مما سبق ان الحياة القروية القديمة التى كانت تقوم على الحياة الجمعية فى العائلة وما لها من خصائص تتغير الان بفعل عوامل متعددة ، اهمها العوامل الإقتصادية وتأثيرات المدينة والقانون . وليست هذه الملاحظة خاصة بالقرية فى مجتمعنا ، بل اغلب الظن ان تغير

القرية ظاهرة عامة فى المجتمعات التى يعتمد جزء منها على الزراعة ، حتى ان ردفيلد Redfield تزعم فى شيكاجو حركة كبرى تهدف إلى دراسة الحياة الريفية فى مختلف اجزاء العالم قبلما تتغير معالمها[1] . فكما فعل الانثروبولوجيون من قبل فى المجتمعات البدائية قبل الغزو الأوروبى وابانه ، فلابد ان يحدث نفس الشيء فى المجتمعات القروية مع التعديلات الضرورية فى المنهج بسبب الإختلاف بين دراسة الكل المنعزل المكتف بذاته فى حالة المجتمع البدائي ، والجزء غير المنعزل غير المكتف بذاته نسبيا فى حالة القرية . وقد اجريت فعلا عدة دراسات هامة فى الهند والمكسيك وبعض دول الشرق الأقصى لمواجهة هذا المطلب العلمى الهام - حتى ان ردفيلد وغيره من زملائه وتلاميذه نتيجة لهذه الدراسات ، اخذوا يقارنون المجتمعات القروية التاريخية والمدروسة بالطريقة العلمية لاستخراج التعميمات التى تصور الجوانب المتشابهة فى الحياة الريفية عامة .

وقد وجدت فى أثناء البحث وبعده عدداً من وجوه الشبه بين القرية فى مجتمعنا القروى والقرى الأخرى التى درست فى بعض أجزاء العالم . فمثلا فى بحث العائلة القديمة والمتغيرة فى الهند وصل دوبيه Dube الى عدة نتائج هامة لا تختلف كثيراً عن النتائج التى وصلت اليها (٢) . فالعائلة القديمة فى

1 — R. Redfield, Peasant society and Culture, chicogo 1956 pp. 137—139

2 — S.C. Dube, Indian Village, London, 1956. pp. 222-229

قـرية شاميربت Shamirpet كانت متضامنة أو متماسكة ، ترتبـط بالأرض والمسكن ارتباطاً وثيقاً ، والعلاقات داخلها وخارجها محددة على أساس السن والجنس والنسق القرابي ، وهى اليوم تسجل تغيرات هامة ، فالقـروية خاصة نامية ، والهجـرات متعددة نتيجة لاختـلال الأوضاع الاقتصادية وتأثيرات المـدينة ، كما ان التقاليد القديمة المنظمة للعلاقات الاجـتماعية أخذت فى التداعى ، اى لم تصبح بعد محددة بأحكام لنماذج السلوك القروى والجمعى ... وهكـذا .

ومثل آخـر من الصين عنـدما يصور مارتن يانج M. yang مـدى اعتماد العائلة القديمة على الأرض فى حيـاتها الاجتماعية والاقتصادية ، ومدى ماتذهب اليه من تغير إذا تغيرت علاقتها بالأرض فيقول «إن الأرض أساس العائله الحقيقى ، وعندما نقول إن العـائلة تفككت فمعنى ذلك انهـا فقدت ارضها » (١).

ولا يعنى هذا ان وجوه التشابه فى الحيـاة الريفية تؤدى مثـلا الى تطابق التنظيم العائلى فى القديم وسيره فى اتجاه واحد اثناء التغير. فالتغير الاجتماعى مرتهن بعدة عوامل قد تكون متوازية الأهمية اوقد يفوق بعضها الآخر من هذه الناحية بحسب ظروف القرى محل الدراسة. ولهذا فان اتجاهات التغير او سرعته قد تختلف من قرية الى اخرى ، بل قد تختلف من قرية الى اخرى فى نفس المجتمع كما هو واضح من وصف حامد عمار لتغير العائلة فى قرية

---

2 - M. Yang. Op.cit, p. 46

سلوا (١) بمقارنته بالتغير فى النموذج الذى درس . ولعل الأختلاف كما اظن لا يرجع الى اختلافات اساسية وانمـــا يتعلق باختلافات بالمـدى لاختلاف الظروف نسبياً .

---

1 - Hamed Ammar, Growing up in an Egyptian Village, London, 1954, pp. 42-47

محتويات الكتاب

الفصل الثامن

أسس التمايز والترتيب الطبقى فى المجتمع

الفصل التاسع

النظم الاجتماعية

الفصل العاشر

****